

رواية

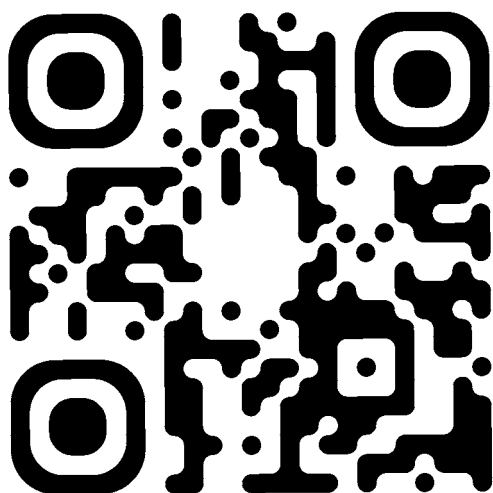
فيسواف ميشايفسكي

رسالة في تقشير الفاصولياء



ترجمة: هاتف جنابي مكتبة

لا توقف رحلة القراءة عند هذا
الكتاب سجل في مكتبة الآن
وانضم إلى أكبر موفر للجديد من الكتب



امسح الكود أو اضغط الصفحة اتبع الرابط

رسالة في

تقشير الفاصولياء



رواية

Author: **Wiesław Myśliwski**

اسم المؤلف: فيسواف ميشليفسكي

Title: **Traktat o łuskaniu fasoli**

عنوان الكتاب: رسالة في تقشير الفاصولياء

Translated by: **Hatif Janabi**

ترجمة: هاتف جنابي

P.C.: **Al-Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2024**

الطبعة الأولى: **2024**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © by Wiesław Myśliwski

"This translation is published by arrangement
with Społeczny Instytut Wydawniczy Znak Sp.
z o.o., Kraków, Poland."

هذا الكتاب نشر بدعم من برنامج الترجمة البولندي

This book has been published

with support of the © Poland Translation Program

BOOK INSTITUTE



© POLAND

INSTYTUT



KSIĄŻKI



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800

+ 964 (0) 790 1919 290

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjeh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276

+ 963 11 232 2275

+ 963 11 232 2289

ص.ب: 8272

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Behamoun - Schools Street

+ 961 175 2617

+ 961 706 15017

+ 961 175 2616

5 5 2025

مكتبة
t.me/soramnqraa

فيسواف ميشايفسكي

مكتبة

t.me/soramnqraa

رسالة في تقشير الفاصولياء

ترجمة: هاتف جنابي



مقدمة

مكتبة

t.me/soramnqraa

أكتب كيلا أحرم الناس من الأمل

فيسواف ميشليفسكي كاتب روائي ومسرحي بولندي متميز ومختلف تماماً عن بقية الكتاب، ذو نبذة خاصة، موهوب بامتياز. وهو غير معروف إطلاقاً للقارئ باللغة العربية. لكن قبل الولوج في عالمه الكتابي-الإبداعي أود أن أشير إلى أنه وآخرين كثيرين من بني جيله قد عاشوا بهذا القدر أو ذاك محطات مفصلية في تاريخ شعوبهم لا بد أنها قد تركت بصمتها على طرق وأساليب تفكيرهم وحياتهم اللاحقة سواء اعترفوا بذلك أو لم يعترفوا. على أنني أطمح في هذه المقدمة إلى انتهاز الفرصة لدحض الفكرة التقليدية التي ترى الإبداع مرتبطاً أكثر بالأفراد والشعوب تبعاً لأصولهم وانحدارهم الاجتماعي. من منطلق تصنيفهم إلى ثري وفقير، قروي ومدني، بدوي وجبلي ومتحضر، إلى شعب يستهلك وآخر ينتج، وكأن العملية الفكرية-الإبداعية حكر على طرف دون سواه. بما أن الكائن البشري لا يمكنه تغيير لحظة ولادته ولا موته فهذا لا يعني أنه لا يستطيع التأثير على ما هو بينهما. من يقف في الوسط حائراً دون المضي قدماً إلى حلقة وصل إنسانية مهمة للغاية تنتظر من يقوم بتشكيلها وتصويب مسارها وأعني تلك الفاصلة الزمنية القائمة بين الحياة والموت والقابلة للتغيير والتوجيه. أقول من يتوقف لن يكون قادراً على فعل شيء ذي قيمة، لا لنفسه ولا لقومه، ببساطة لن يترك أثراً. لقد أدرك على ما يبدو هذه المسألة ميشليفسكي مبكراً.

بين القرية والمدينة

لا مثلية في أن يكون المرء سليل البادية - الصحراء أو الريف، طالما أن الصحراء أعطتنا مقتحمين وأنبياء وشعراء وفضاء واسعاً للخيال، والريف فعل الشيء ذاته في تغذية بني البشر. الأمر الحيوي للغاية هو في ألا يخجل المرء من أصله وانحداره الاجتماعي، لأن إبداع الفرد مبني على مدى استعداده للتطور واجتهاده وقدرته للخروج من الهامش - البيئة المحدودة المغلقة ومن كونه لا يريد أن يبقى رقماً في محيطه. مسألة كهذه ينبغي أن تهتمنا لأنها تحثنا على العمل والاجتهاد والإنتاج المتميز. كل ما من شأنه تمجيد فكرة الاجتهاد وتوظيف الموهبة نجده شاخصاً لدى الكاتب الروائي والمسرحي (فيسواف ميشليفسكي) القروي الولادة والنشأة، البولندي الذي اجتاز بيئته الريفية الهامشية ليفرض اسمه في المدينة وفي عموم بلاده وليجتاز موانع الحدود اللغوية والتنافسية إلى العالمية وهو في نهاية الأربعين ومطلع الخمسين من عمره. هذا الكاتب يبدو في كتاباته سائراً على عكس ما تطرحه فكرة «عشية المسعى» وتسفيه الحياة. قال في أحد الحوارات الصحفية النادرة، لأنه يتهرّب منها معتذراً، «أكتب كيلاً أحرم الناس من الأمل»، لكنه كرر في أكثر من مناسبة: «ما أريد التعبير عنه تجدونه في كتبي، ولهذا فلا داعي لاستهلاك الوقت واجترار الأفكار في الحوارات»! أما النقاد والإعلاميون فوجدوا حلاً لهذا الرفض من خلال ترتيب لقاءات - أمسيات أدبية خاصة به، يحاورونه فيها وفي نهاية كل لقاء كان مضطراً للإجابة عن أسئلة الجمهور. بهذه الطريقة تكون أرشيف من اللقاءات العميقة الدسمة المسجلة تلفزيونياً، وعبر الراديو، واليوتيوب، والندوات الخاصة بالكاتب التي ساهمت في تسليط الأضواء عن كُتب على تجربة حية متنامية على صعيد التأليف ورؤية/ رؤيا المؤلف في اللغة والكتابة والثقافة والإنسان والمجتمع وطبعاً الحياة في الريف والهامش.

ديناميكية الحرمان

كانت فترة الثلاثينات من القرن العشرين في أوروبا مختبراً لطفولة قلقلة وعذابات لاحقة، خاصة أثناء الحرب العالمية الثانية، فمن نجا بأعجوبة تراه

صار أقوى من ذي قبل، لكن عدد الكتاب البولنديين الناجين من الموت كان محدوداً. لقد عبّر الشعراء قبل الروائيين عن تلك السنوات المأساوية، عن صدمة الإنسان جسدياً ونفسياً وثقافياً الذي قادته الأحداث إلى حدّ اهتزاز الإيمان وفقدان الأمل وسقوط الأخلاق واختلاط القيم.

من الضروري التذكير بأن تيار الواقعية الاشتراكية الذي برز لبضع سنوات في الأدب البولندي بعد الحرب العالمية الثانية قد نقل الواقع بشكل مشوه وآلي، ولم يُعَمَّر طويلاً، خاصة بعد موت ستالين في العام 1953، وتغير قيادة الحزب والدولة البولندية في 1956، ذلك التحول الذي أدى إلى انفتاح ثقافي قاد بدوره إلى ظهور تيارات أدبية متعددة ومن بينها تيار «الرواية الريفية» الذي برز بوضوح في ستينات القرن الماضي وعاش فترة ازدهاره في السبعينات وإليه عادة ما تنسب روايات ميشليفسكي بدءاً من أواخر الستينات وما يليها. كان النظام الجديد يحتاج إلى أيدي عاملة لتشغيل المعامل والمصانع ودوائر الدولة فتشجع الشباب على مغادرة الريف متوجهين إلى المدينة بحيث نشأت جراء ذلك حالة نزيف بشري وتغيير للعادات والقيم.

الريف أو المناطقية في الأدب

يختلف ميشليفسكي في رواياته منهجاً ولغة وأسلوباً وسرداً وفكراً عن بقية الكتاب، وحتى عن فواديسواف ريمونت (1867-1925) مؤلف رواية «الفلاحون» (1901-1908) - بأجزائها الأربعة التي نال عليها جائزة نوبل للأدب لسنة 1924، كان من بين منافسيه كل من الكاتب الألماني الشهير توماس مان (1875-1955)، وابن بلده الكاتب المهم أيضاً ستيفان جيرومسكي (1864-1925) الذي تم ترشيحه أربع مرات لنوبل. كان صاحب رواية «الفلاحون» ينحدر من عائلة قروية لأب موسر نوعاً ما، كان يعزف على الأرغن في الكنيسة وقد انتقل مبكراً إلى وارسو كما هو الحال مع ميشليفسكي، لكن ريمونت بدأ من ممارسة الشعر الذي هجره لشعوره بالعجز (عن مجازاة كبار الشعراء مثل سووفاتسكي) في حين أن الثاني لم يكتب الشعر قط في حين تتسم رواياته بشعريتها وجزالتها العالية. كان

ريمونت أحد كبار ممثلي الواقعية في الأدب المكتوب باللغة البولندية. كتابة ميشيليفسكي كما سنرى لاحقاً تختلف من حيث اللغة والسرد والفكرة عن رواية سلفه التي تدور معظم أحداثها في قرية (لييكا) متناولة حياة الفلاحين، علاقاتهم الرومانسية، الاقتصادية، عاداتهم وتقاليدهم وصراعاتهم مع الطبقة الاقطاعية. استفاد (ريمونت) في روايته المذكورة من اللهجة الدارجة القروية، ويمكن القول إنها ملحمة الفلاحين الجماعية وليس الفردية. دون شك يمكننا اعتبار ريمونت الجد الحقيقي لميشيليفسكي على صعيد تيار الرواية الريفية.

في الخامس والعشرين من مارس/ آذار عام 1932 ولد فيسواف ميشيليفسكي في قرية (دفيكوزي) قريباً من مدينة (ساندوميز) الجميلة الواقعة شمال شرق مدينة كراكوف، على ضفتي نهر الفيستولا، وعلى سبع مرتفات لذلك كانت تُنعت أحياناً بـ «روما الصغيرة». ودفيكوزي تعني العزتين بعد حذف حرف من كلمة اثنين وربطها بالعنزة في حالة التثنية، هذا ما نراه وقد يكون لها معنى آخر نجهله الآن! قبل ولادته بأقل من ثلاثة أشهر ولد الكاتب والمفكر الإيطالي المعروف أومبرتو إكو (1932-2016). وفي الشهر ذاته ولد الكاتب البولندي المعروف ريشارد كابوشتشينسكي (1932-2007)، وإذا كانت رواية «اسم الورد» (1980) قد جلبت الشهرة لمؤلفها، و«الإمبراطور» (1978) وضعت كابوشتشينسكي في قائمة المرشحين لجائزة نوبل، فإن رواية «حجر على حجر» (1984) قد فتحت بوابات النقد والإعلام أمام مؤلفها وجعلته موضوعاً حيواً للدارسين والصحفيين والقراء والمترجمين. بعد صدور روايته المهمة «الأفق» (1996)، و«رسالة في تقشير الفاصوليا» (2006) أصبح صاحبنا في طليعة روائيي بلاده ومصدراً مثيراً للناشرين، الإعلاميين، القراء، والمترجمين.

لكن ما العلاقة بينه وبين أومبرتو إكو؟ كلاهما مقل ولكل منهما سبع روايات (على الأقل) لحد كتابة هذه السطور بالنسبة لكاتبنا). الأول حاول استحضار عالم يتعرض للزوال مولياً للغة الرواية أهمية استثنائية وإعمال الفكر (التفلسف بالمعنى الإيجابي)، والثاني كذلك. كان إكو متخصصاً بالعصور الوسطى، وميشيليفسكي بعلم النفس واللغة والأدب البولندي

وبعالم هو شاهد على تلاشيهِ. وبالنسبة لبنية الرواية فالأثنان يميلان إلى «العمل المفتوح من حيث النهاية»، الذي ينمو ويتطور أثناء الكتابة بدون وصاية مسبقة عليه من قبل المؤلف، وكلاهما كتب الرواية بشكل متأخر وكأنها تعبير عن النضج ببعديه الفكري والنفسي. ومثلما حوّل كابوشتشينسكي التقرير الصحفي إلى عمل روائي فني بفضل سخونة الحدث ولغة الناس العادية بغض النظر عن مصدره ومكان حدوثه، فإن ميشليفسكي نقل الكلام الريفى اليومي الذي يتعرض للمحو إلى الأدب بحيث أصبحت اللغة هي التي تفجر وتخلق عالَمه الروائي وليس الفكرة أو الخطة (الخطط) المعدة مسبقاً. ولهذا فهذا الروائي يكتب كأنه شاعر حقيقي يحتاج إلى الجملة الأولى المؤثرة، البيت الأول أو فلنقل، إلى القدحة الأولى التي تشعل النار بعدها يحافظ على ديمومتها، وأبطاله يروون - يسردون قصتهم (قصصهم) حولها بطريقة استرجاعية، توليدية لكنها تحفر لجذورها عميقاً في الآتي.

أنا لا أثق في نفسي

فمن هو ميشليفسكي القائل: «أنا لا أثق بنفسي»، وما هي طبيعة عمله الروائي الذي اجترحه بحيث حظي بهذا الاهتمام وخرج من قمم القرية إلى الفضاء الكوني؟

ولد فيسواف ميشليفسكي، الروائي، المؤلف المسرحي والمحرر الأدبي، في قرية (دفيكوزي)، كان أبوه (يوليان) المولود في ناحية (تشميلوف) القريبة من تلك القرية، ضابطاً في الجيش البولندي، اشترك سنة 1920 في الحرب البولندية - البلشفية، وبعد انتهاء خدمته عمل موظفاً. توفي حينما كان عمر ابنه ثلاث عشرة سنة. قال فيسواف: «لا أتذكر أبي جيداً ولذلك من الصعب عليّ القول إنه ترك أثراً في داخلي، أكثر من حالة الفقدان». أما أمّه (ماريّا) فتعلّمت في (الجامعة الشعبية) وهي وحدة تأهيلية مستقلة مرتبطة بالوسط الريفي، خارج النظام التعليمي الشائع. بعد الحرب العالمية الثانية دخل المدرسة المتوسطة والإعدادية في مدينة (ساندوميز) المجاورة لبلدته، وبعد الانتهاء منها في العام 1951، دخل في قسم اللغة والأدب البولندي

في الجامعة الكاثوليكية بمدينة بلين. اعترف بأن اهتمامه كان ينحصر في الرياضيات والفيزياء، ولا علاقة له بالأدب! قال: «أردت دراسة هندسة السفن المرغوبة آنذاك في مدينة غدانسك ولكنهم لم يقبلوني». و«كان عليّ أن أعمل لمساعدة أمي الفقيرة بدلاً من الدراسة فجاءت فكرة دراستي أعلاه بفضل خطيبي (زوجته فيما بعد) التي شجعتني للالتحاق بها، ولهذا وجدت نفسي بمحض الصدفة ولمدة ثلاث سنوات لم أكن أعرف ماذا أفعل في هذا القسم، كنتُ أقرأ كل شيء في مكتبة القسم باستثناء ما يتعلق بالدروس. كنتُ مقفلَ الذهن. وفي السنة الأخيرة طلبت مني الأستاذة أن أكتب رسالة الماجستير عن علم النفس في رواية ما بين الحربين العالميتين فأعجبني هذا الموضوع جداً رغم أنه للدكتوراه وليس للماجستير بحكم سعتة!» (أمسية مسجلة مع فيسواف ميشليفسكي، الجامعة الكاثوليكية في بلين، 21 تشرين الثاني، نوفمبر 2019). في سنوات 1955-1976 عمل مساعد محرر ثم مدير تحرير لقسم الأدب المعاصر في جمعية النشر الشعبية الحكومية في وارسو، وفي السنوات 1975-1999 كان رئيساً لتحرير مجلة «مقاطعات» الفصلية، وعضواً في اتحاد الأدباء البولنديين في الفترة بين 1971-1983. ولقد منحته المجلة فرصة وتجربة في التحرير ومادة مهمة.

لو استعرضنا حياة هذا الرجل حتى العام 1967 للاحظنا أنه لم يوجد ما يوحي بأن اسمه سيكون مقترناً بولادة كاتب له شأن في مسيرة الأدب في بلاده. والدليل على ذلك أن متبوعي سيرته لم يجدوا أكثر من مادة - قراءة نشرها ميشليفسكي سنة 1955 لكتاب «الليل شاهدي» (الطبعة البولندية 1954)، الأصل الفرنسي (الليل نوري) لمؤلفه البلجيكي الطبيب النفسي الأستاذ بعلم الإجرام والروائي إيثن دي غريف (1898-1961)، واعتبرت هذه المادة أول نص ينشر لميشليفسكي، لكنها مجرد قراءة نقدية لعمل قريب من اهتماماته في مجال علم النفس والأدب. الدليل الآخر جاء باعتراف الكاتب نفسه الذي ساقه فيما بعد وتمثل في ردة فعل الناقد البولندي الكبير - هنريك بَرَزَا - المعروف بتخصصه في مجال «الأدب الريفي» أو «القروي» وهو صديق ميشليفسكي المقرب، عندما أخبره الكاتب: هي ذي رواية «الستان العاري»! فكانت ردة فعل بَرَزَا: يا مريم العذراء! متفاجئاً

من أن يكون صديقه قادراً على كتابة الرواية! (انظر، لقاء مع ميشيليفسكي، أبوستروف صالون أمبيك، أيار/ مايو 2016). بيد أن استغراب مؤلف لأكثر من (200) كتاب نقدي ليس مبرراً حتى النهاية، لأنه هو ذاته الذي لم يكتب الشعر مبكراً قد مارسه في أواخر حياته. هذا من جانب ومن ناحية أخرى، فإن ميشيليفسكي يعتبر نفسه كاتباً مقلداً وهذه هي الحقيقة، لأنه، بالمعدل، ينشر رواية كل ثماني سنوات أو أكثر، والدليل على ذلك هو عدد الروايات التي ألفها حتى إنه يكتب بقلم الرصاص ولا يستعمل الإنترنت! لكن هذا الكاتب الذي كان مديراً لتحرير قسم الأدب المعاصر في دار حكومية، كان قارئاً نهماً ومثقفاً عميقاً للغاية ومقلداً في الكلام، وتوحي تقاطيع وجهه وملامحه بأنه شخص جدي يميل إلى التأمل كأنه يبحر في أعماق ذاته أو في عالم يزول أمام ناظره.

البستان العاري

هذا هو عنوان روايته الأولى المفاجئة الصادرة في وارسو عام 1967. ومثلما يوحي العنوان فإن أحداث الرواية تجري في الريف. يعود الشاب إلى قريته بعد فترة طويلة من الدراسة والعيش في المدينة. وفيها يحاول تذكر أماكن نشأته، وفي الوقت نفسه يحاول فهم العلاقة التي تربطه بوالده الکتوم، ويبدأ بكيفية التواصل معه ومع والدته والعالم المحيط وبذاته نفسها. يعتمد في كل ذلك على نفسه وقدراته الذاتية لحل هذا اللغز. طبيعة الأب الغامضة تجعله قليل الكشف عن دوافعه تجاه ابنه، وفي مواجهة هذا الوضع المعقد يلجأ البطل إلى مراقبة هذا السلوك الغريب موظفاً ذاكرته التي تبدو كأنها تلعب دور بطل آخر، ويبدو لنا أنه يبدأ بتلمس هذا الشرخ ما بين طبائع القرية وبساطتها وعزلتها وحياة المدينة وتشابكها. وعليه فاعتماد المؤلف على تجارب البطل الداخلية تجعل دور الحبكة محدوداً. علينا أن نتذكر مسألة مهمة في جميع أعمال ميشيليفسكي الروائية تتعلق بتوظيف المؤلف الملاحظات اليومية، المقاطع الملتقطة من الحياة العادية، وإيقاعات لغة الفلاحين وأحلامهم. إنه يلقي شخصياته في معمرة الحياة لكي تنصرف معبرة عن مكانها الداخلية وعلاقتها ببيئتها ولكي تشكل أثناء سيرورة العمل الأدبي، من دون تعسف

وتخطيط لتصرفاتها. اتبع المؤلف هذه التقنية أو الفكرة الذكية في كل أعماله، ولذلك نراها تتسم بطزاجة وحيوية بحيث يمكننا التحدث من دون مبالغة عن تعدد قراءتها حسب حساسية ووعي القارئ. كتب عنها الشاعر والناقد البولندي الطليعي يوليان بشيوش ما يلي: «إن عمل ميشليفسكي النثري شدني من الجمل الأولى إلى نصه الكثيف بالمعاني؛ لا يمكنك الابتعاد عنه. هذا لا يعني أن «البستان العاري» هي «رواية مثيرة أو رواية مغامرات»، على العكس من ذلك، ليس لمن يبحثون فقط عن حكاية شيقة (...) لقد أظهر ميشليفسكي في كتابه الأول مهارات روائية متعددة. لقد ظهرت موهبة جديدة» (انظر، أول مطبوع غير عادي، صحيفة حياة وارسو، 1968).

القصر

في العام 1970 صدرت للكاتب روايته الثانية بعنوان «القصر». بطل الرواية هو يعقوب - راع قروي لدى اندلاع الحرب العالمية الثانية يشهد أثناء اقتراب جبهة القتال من منطقته، هروب أصحاب القصر المحلي. اجتاز بدافع الفضول عتبة القصر وراح يتعمق في عالم الأرستقراطية فبدا له أن نصفه حقيقي والآخر خيالي. تجول في ممرات القصر الفارغة وجلس على مقاعد وثيرة بذراعين وتقمص دور الأرستقراطي. بدأت تتسرب إلى داخله ببطء رؤى الأسلاف والأفكار حول حياة أخرى مختلفة الأمر الذي أدى إلى تغيير وعيه لدرجة أن يصبح يعقوب سيد نفسه. إذاً، نحن أمام بطل يتلبس أقنعة - أدواراً عديدة مقتبسة من الواقع الجديد الذي يعيشه. يوظف الكاتب المونولوج الداخلي لسبر الوعي البشري من خلال يعقوب. ينكشف أمامنا عالم لا حدود اجتماعية له. في 1982 أصدرت دار النشر الحكومية في وارسو «القارئ» الروايتين في طبعة واحدة بـ 525 صفحة.

حجر على حجر

كان على قارئه الانتظار أربع عشر سنة كي يرى روايته الثالثة الأهم حتى تلك اللحظة وأعني «حجر على حجر» (معهد النشر الحكومي، وارسو

(1984). تعتبر هذه الرواية واحدة من بين أهم روايات «التيار الريفي» في الرواية البولندية بعد الحرب العالمية الثانية وبعد رواية «الفلاحون» لريمونت. وصفها الباحث الأكاديمي البروفيسور داريوش كوليشا بما يلي: «حجر على حجر لفيسواف ميشليفسكي هي ملحمة الأدب البولندي الوحيدة المكتملة بعد الحرب العالمية الثانية» (انظر، داريوش كوليشا: أساطير الكلمة أساطير الجسد، بيدغوشتش 2007، ص 51-61). توصف هذه الرواية عادة بأنها «تتويج لما يُسمى بالاتجاه الريفي». تدور أحداثها من خلال الأخوين (شيمون) و(ميخاو) اللذين يمثلان نقطة ارتكاز الرواية حول الحياة البولندية في الريف ونظرة أهل الريف للعالم. الريف بتاريخه العاصف، وتقاليده المندحرة أمام تقدم المدينة والتكنولوجيا، إنه عالم يزداد تقهقراً بـ زوالاً. وشيمون أحد أربعة أبناء لعائلة قروية معدمة تتحول في هذه الرواية إلى انعكاس لمصائر وتجارب ومعاناة القرية البولندية وأهلها في النصف الأول من القرن العشرين عبر أكثر من أربعة أجيال. عاش شيمون [شمعون] البطل فترة الاحتلال النازي لبلاده، وحرب العصابات، وتحولات ما بعد نهاية الحرب. عمل في مجالات عدة من بينها أنه كان موظفاً، وشرطياً شعبياً، إضافة إلى عمله في الزراعة. وبفعل تلك التجارب أصبح حكيماً ومراقباً ناقب البصيرة وشاهداً على حياة وعالم يتغيران بمرور الوقت. إنه شاهد على كيفية انتقال الإنسان من الفقر إلى الغنى، ومن الغنى إلى القاع. فهل يا ترى هي صيحة ثم دعوة للاحتفاظ بما تبقى من هذا العالم الأصيل المنهزم أمام زحف التقدم التكنولوجي والإنترنت والتلفزيون الذي وصل إلى أبعد قرية؟ نعم، هذه حقيقة ولكن الحس الجمعي البولندي يرى أن قيمته في ثقافته وتقاليده التي تمثلها القرية أو الريف بشكل أكيد. كتب الناقد زيغمونت زونتك لدار نشر (زناك) عنها: «إن راوي حجر على حجر، حرفياً ومجازياً مقذوف (على الشاطئ بعد تحطم السفينة)، وقد نجا بأعجوبة من كارثة الحضارة بأكملها وربما هو الشخص الوحيد الذي ما زال بإمكانه إعداد وصيتها. لهذا فإنه يجب أن يحمل في داخله كل ثراء العالم القديم، وإعادة إنشاء تضاريسه، ومعداته المادية، وعالم القيم». كما كتب عنها صديقه الناقد هنريك برزا: ميشليفسكي من خلال ملء الفراغ لقرون

عديدة في الأدب البولندي، يأخذ على عاتقه العبء الكامل للالتزامات الفنية الملحمية الأبدية، وهو يشير بجدية كاملة إلى التقاليد، مخاطراً بالسمو الملحمي». يبقى البعد الرمزي الأهم الذي يقودنا من الجمل الأولى في روايته: «أن نبني قبراً. هكذا يقال فحسب. من لم يبن لا يعرف كم هي تكلفة قبر كهذا. ولو أنهم يقولون، إنه بيت لكنه للحياة الأخرى. الخلود أو اللاخلود، إلا أنه ينبغي على الإنسان أن يكون له ركن».

الأفق

بعد اثنتي عشرة سنة صدرت روايته الرابعة المهمة «الأفق» (1996). يقدم المؤلف العالم منظوراً إليه من خلال بطله الرئيس (بيوتر الصغير) كممثل رئيس للقرية البولندية والمدينة الصغيرة. تبدأ الرواية من وصف الصورة التي يوجد فيها البطل وهو طفل مع أبيه. تثير الصورة في ذاكرته ذكريات تشمل حتى الأشياء الصغيرة التي تثير فيه حكاية حبه الأول، ودهشته بالعالم وكيفية إدراكه بالتساوق مع نموه ونضجه الشخصي. كتب عنها الناقد البولندي المعروف البروفيسور يزي يازينسكي الكلمات التالية: «الأفق» من أهم الروايات البولندية. يُقدّم فيها الريف بعيني صبي مراهق، وشخصيات غامضة بدم كامل - عالم متعدد الأبعاد لا يمكن نسيانه. الأفق هي خاصة بالتأكيد وسيرة ذاتية إلى حد كبير (...) حبكتها وشخصياتها وأحداثها موجودة تماماً كالواقع المحيط بنا، وهي ليست شفافة وقابلة للتفسير حتى النهاية، وتتطلب اهتماماً وثيقاً وتفكيراً في معناها وعواقبها. إنها بالتأكيد ليست رواية مرتبة حسب سياق السبب والنتيجة. إن سرّ «وحدثها في التعددية» وهو بالأحرى ظاهرة الحياة - الولادة، والمرور من الطفولة إلى الشباب والمراهقة والشيخوخة فالموت» (يزي يازينسكي، من تقييم داخلي للطبعة السابعة للرواية، دار نشر «العلامة»، كراكوف 2007).

زوجتي لم ترد ذلك!

بعد زخم فني - أدبي وحضور متنامٍ لهذا الكاتب نلاحظ شغفاً وانتظاراً

من لدن القراء لأي إصدار جديد له. وبما أن القارئ اعتاد على فترة «العقد» حتى يظهر عمل جديد للكاتب، ولم يخب ظنه هذه المرة أيضاً عندما صدرت روايته الخامسة المهمة وربما الأهم «رسالة في تفسير الفاصولياء» (دار زناك للنشر، كراكوف 2006) التي اشترت دار المدى حقوقها العربية. بعدها صدرت للكاتب روايتان هما: «توزيع الورقة الأخيرة» (2013)، و«عين الإبرة» (2018). في مقابلة مسجلة مع الكاتب سنة 2016، قال بصريح العبارة: «لم أرغب في الكتابة، ولا بمواصلة الكتابة، حتى إن زوجتي لم تُرذ ذلك!» إضافة إلى مؤلفاته الروائية، لميشليفسكي أربع مسرحيات هي «اللص» (مجلة ديالوج، وارسو 1973)، «الحاجب» (مجلة ديالوج، 1978)، «الشجرة» (مجلة إبداع، وارسو 1988)، و«قدّاس للمضيضة» (دار موزا للنشر، 2000). وله أيضاً مقالات نقدية بعنوان «نهاية الثقافة الريفية» (بوخنيا 2003).

رسالة في تفسير الفاصولياء

«جاء السيد ليشتري الفاصولياء؟ إليّ أنا بالذات؟ يمكن للسيد شراء الفاصولياء من كل دكان. لكن، فليفضل السيد بالدخول. هل يخاف السيد من الكلاب؟ على السيد ألا يخاف منها. إنها تشتمّ السيد لا غير. يجب أن تشتمّ كل شخص يأتي للمرة الأولى». هكذا تبدأ الرواية لتتسارع أحداثها متطورة بشكل تلقائي وطبيعي. في (مكان صغير، قرية أو بلدة ما في بولندا) يعيش شخص لتكن صفته مضيفاً، يعمل بواباً/ حارساً في مجمع بيوت للسياحة الصيفية. في أواخر الصيف يحل عليه ضيف غامض يريد أن يشتري الفاصولياء لكن المضيف لديه فاصولياء غير مقشرة أو مصفاة. يجلس الشخصان لتفسير الفاصولياء معا ويبدأ بالتحدث. في هذا المونولوج المعنون إلى الضيف الغريب أثناء تفسير الفاصولياء وفي غضون يوم واحد يروي حياته العسيرة أثناء الحرب العالمية الثانية، مروراً بفترة شبابه وهواياته، وسنوات الدراسة ثم السفر بحثاً عن الكسب المادي في الغرب ثم عودته إلى وطنه. وبهذا يقدم فاتورة حساب لحياته بالكامل. إنها حكاية رجل عجوز يتذكر، بمسافة فلسفية، آمال وإخفاقات حياته. كتب عنها الناقد يانوش

كوفالتشيك في موقع الثقافة البولندية ما يلي: «رسالة في تقشير الفاصولياء عبارة عن تبادل ممتع للأفكار من قبل بطلين غير معروفين بالاسم. وبشكل أساسي هو مونولوج ميتافيزيقي لأحدهما، نادراً ما ينقطع بجملة أو أكثر من محاوره. قصة أليفة تُروى أثناء عمل بسيط لتقشير الفاصولياء. تتطور الأحداث بشكل غير ملحوظ إلى عمل ملحني قوي».

ضمن لقاءات بعنوان «نور الأدب» تُنظم عادة في الحمامات الملكية بوارسو، كان لقاء مع ميشيفسكي وقراءة مقتطفات من بعض رواياته، وفي مقدمة مقدم اللقاء ورد ما يلي: «إن قراءة روايات ميشيفسكي تجعلك تشكك في اعتقاد ما بعد الحداثة أن زمن «الروايات العظيمة» قد انتهى. يثبت النجاح الكبير الذي حققته كتبه مدى حاجتنا الشديدة إلى هذه الأنواع من القصص. علاوة على ذلك لا يقتصر هذا الطلب على الأجيال الأكبر سناً من القراء ذوي الأذواق الأدبية التي تشكلت في القرن الماضي حيث تجد هذه الأعمال متلقين أيضاً بين الشباب». (قصر في جزيرة، الحمامات الملكية، وارسو 23 تشرين الثاني / نوفمبر 2016).

يعتقد فيسواف ميشيفسكي أن الكلام أهم من الكتابة، ولهذا فهو يستقي منه أجواء رواياته ولغتها التي يعتقد أنها «تُشكل أفكارنا وليس العكس». وهو بهذه الممارسة يذكرنا بمقولة الفيلسوف النمساوي لودفيغ فيتغنشتاين: «حدود لغتي تعني حدود عالمي». يقول ميشيفسكي على الأدب «أن يكون غامضاً» بمعنى إمكانية قراءته وتأويله على عدة أوجه. أما الكاتب فدوره ينتهي بعد نشر عمله لأن «الكتاب هو كيف يتلقاه القارئ وليس ما يريده الكاتب». وفي حوار مفتوح معه أكد «أن لكل رواية من رواياتي نسختين!» وأني «لا أقرأ رواياتي بعد كتابتها، لأنني لو أعدت قراءتها لكان علي أن أقوم بتنقيحها. إنه لعذاب فيما لو قرأت ما كتبه». و«الكتاب مستقل وأي شرح له من قبل المؤلف قد يكون تأويلاً له». و«الفن مقبرة، وقلة فقط، تنجح في الانبعاث». و«الحب أهم من المكان». إن الريف البولندي اعتمد على الكلام - المشافهة لأنه كان أمياً، ولهذا فحينما شرع بكتابة الرواية أصبح الكلام أهم من أي شيء له، هذا الكلام هو اللغة وهذه أهم من أي شيء آخر في كتاباته. لغة رواياته تتسم بانسيابية وطاقة شعرية كبيرة. حينما

سأله في اللقاء نفسه، المحاور الشاعر والناقد يانوش دجيفوتسكي: من هم الكتاب الذين تحبهم أو لا تحبهم؟ «سأبدأ من القلة التي أحبها. أحب دوستوفسكي، خاصة روايته «الأبله»، وفرانز كافكا، خاصة قصته «بناء سور الصين»، ومارسيل بروست» (قارن، مهر جان الأدب العالمي، وارسو، أمبيك، مايو/ أيار 2016).

نال ميشليفسكي أكثر من ثلاثين جائزة معتبرة، من بينها جائزة «نيكه» — مرتين — وهي بمنزلة نوبل بولندية (1997 على رواية «الأفق»، وفي 2007 على روايته «رسالة في تفسير الفاصولياء»)، وجائزة مدينة غدينيا على روايته رسالة في تفسير الفاصولياء، (2007)، جائزة رئاسة الوزراء البولندية (1987)، جائزة ريمونت (1997). وسام إحياء بولندا (2012)، جائزة وزارة الثقافة (2014)، جائزة مدينة وارسو (2019) وجوائز عديدة أخرى، إضافة إلى شهادات الدكتوراه الفخرية. يرى بعض النقاد أن «ميشليفسكي أغلق تيار النشر البولندي الريفي». (انظر، داريوش كوكشا، خارج حدود الأدب). يقول ميشليفسكي: «أنا أكتب لأنني لا أعرف»!

إن الاهتمام بأعمال فيسواف ميشليفسكي ناجم أيضاً عن اهتمام البولنديين شعبياً ورسمياً بالبحث عن هويتهم وقوتهم الكامنة في ثقافتهم وخوفهم من زوال تقاليدهم الشعبية المتوارثة التي يمثلها الريف قطعاً والتي بزواله يمكن أن تترك التقاليد البولندية وثقافتها الشعبية على الهامش!

أودّ لفت انتباه القارئ الكريم إلى أن الكاتب يستخدم الجمل القصيرة، على الرغم من أنها تتناسل من رحم ما قبلها. قمنا بربط بعضها للحفاظ على انسيابية السرد والمعنى ولمراعاة طبيعة اللغة العربية. وضعنا بعض الهوامش في نهاية كل صفحة. النقطة الأهم هي أن لغة الخطاب اليومي والرسمي في اللغة البولندية لا يرفع «الحاجز» أو «الزّحمة»، مثلما يقال، في لغة التخاطب. ولهذا فكلمات من قبيل: السيد، السيدة، السادة، والسيدة الشابة، حاضرة بين عموم الناس، حينما يجري الحديث بين شخصين غريبين أو بين مواطن وموظف أو مسؤول وعموماً بين شخص لا تربطه معرفة قريبة أو صداقة مع محاوره. لهذا السبب ترد هذه الكلمات «الحواجز» كثيراً في الرواية، وهي تبدو عادية تماماً بالنسبة للغة البولندية. ومن أجل كسر الرتابة

والتكرار باللغة العربية عملنا على استخدام «السيد» و«السيدة» و«حضرتك» والضمير المخاطب بالتناوب بين الفينة والأخرى. فعلنا الشيء ذاته مع كلمة «الأوركسترا» التي ترد مراراً، باستخدام عبارة «الفرقة الموسيقية». وقد قمنا بذلك عن قصد. وضعنا معنى بعض الكلمات بين معقوفين، وعليه فكل ما ورد بين معقوفين هو من صنع المترجم. واجهتنا مشكلة تكرار كلمة الفعل الماضي «كان» البولندية الذي يبدو أمراً طبيعياً تماماً في السرد الروائي والحديث عن الماضي عموماً. حاولنا أن نخفف من وطأة تكرار الفعل «كان» بالعربية مستعاضين عنه باستخدام الفعل المطلوب مباشرة. جهدنا في الحفاظ على تدفق وانسيابية العملية السردية، ونقل الرواية بدون أدنى حذف، لكننا أضفنا في بعض الأحيان بعض المفردات ضمن المعنى والسياق وبعض حروف العطف، بغرض الربط بين الجمل والمعاني كما قمنا بربط بعض الجمل بما قبلها أو بما بعدها بوضع الفاصلة بدلاً من النقطة الواردة في الأصل. لم نغير الأسماء البولندية الواردة في الرواية ويبدو لنا أن المؤلف اختارها لأنها أسماء شائعة متوارثة ومتداولة في الريف كثيراً. كما أبقينا على اسمي الكلبين «ريكس»، و«وابس» نظراً لإيقاعهما الموسيقي في اللغة البولندية من جهة ولكونهما من أبطال الرواية، خاصة أن أحداثها تجري في الريف الذي لا يمكن لسكانه الاستغناء عن حضور الحيوانات والقطط إطلاقاً. وأيضاً لا اعتقدنا أن اختيار الكاتب لم يكن بريئاً! لأن لريكس مثلاً معاني كثيرة لعل من بينها أنه يعني «الملك» باللاتينية، وأنه نوع من الكلاب الملكية، ونمط ذو حرف ضيق في مجال الطباعة، لكن من معانيه المهمة هي: المؤدب، الكريم، الكفو والمتقلب المزاج. أما «وابس» فهو إضافة إلى إيقاعه الواضح ومعناه الذي يعني الإمساك والاستيلاء على شيء فجأة، فإن له معاني متعددة من بينها: رجل رث الثياب، رجل خشن ووغد، شرطي، وكيل شرطة التحقيق، والماسك. أما الشيء الأكثر أهمية في الرواية وفي كتابات ميشيليفسكي عموماً، فهو التنقل المفاجئ في السرد، من الماضي، الماضي المستمر، إلى الحاضر، والربط بين الزمنين، وتوظيف أسلوب «الاسترجاع» و«التداعي» واختلاط الماضي بالمستقبل، ولا نقول المضارع، لأنه غير حاضر لدى المؤلف فكرياً! كما أن حضور الأنا - الراوي

وكأنه يتحدث عن نفسه، وينقل ما قاله عنه الآخر بصيغة «قال لي: أنا كذا وكذا»، يمنح العملية السردية ديمومة الحضور، وهو أمر ليس هيناً في الترجمة. نرجو الانتباه إلى المعنى الأعمق غير الظاهري الكامن وراء الجمل القصيرة، في أحيان كثيرة. استغرق العمل في ترجمة هذه الرواية سنة ونصف السنة، مع بعض الاستراحات المفروضة! اعتمدنا في تحرير المقدمة على مقالة سابقة أوسع لنا عن المؤلف نشرت في مجلة الناشر الأسبوعي، مايو/ أيار سنة 2021. وعلى طبعة الرواية الصادرة من قبل زناك سنة 2010. شكراً لمعهد الكتاب البولندي ودار المدى للنشر على دعمهما في نشر هذه الرواية الاستثنائية التي تظهر لأول مرة باللغة العربية منقولة من لغتها البولندية. أنا على يقين من أن هذا العمل السردى المختلف سيؤثر إيجاباً على نظرة الكاتب في مجال تقنية وكتابة الرواية باللغة العربية.

المترجم

بريطانيا، تشرين الثاني/ نوفمبر 2023

جاء السيد ليشتري الفاصولياء؟ إليّ أنا بالذات؟ يمكن للسيد شراء الفاصولياء من كل دكان. لكن، فليتفضل السيد بالدخول. هل يخاف السيد من الكلاب؟ على السيد ألا يخاف منهما. إنهما يتشمان السيد لا غير. يجب أن يشمّا كل شخص يأتي للمرة الأولى. يا ليتني أعرف هذا. لم أقم بتعليمهما ذلك. هكذا هما يفعلان من تلقاء نفسيهما. الكلب مبهم كالإنسان. هل لدى السيد كلب؟ ينبغي أن يكون لدى السيد كلب. يمكن المرء أن يتعلم من الكلب كثيراً. حسناً، (ريكس) اجلس، (وابس)، اجلس. كفى.

بالمناسبة، كيف وصل السيد إلى هنا؟ ليس من السهولة الوصول إليّ. خاصة الآن بعد الموسم. الآن لا يوجد شخص يمكن أن تسأله عني. كما لاحظ السيد لا أحد في المنازل. رحلوا منذ زمن بعيد. لا يكاد أحد يعرف أنني أعيش هنا، والسيد جاء من أجل الفاصولياء. بلى، أزرع قليلاً من الفاصولياء، لكن بالقدر الذي يكفيني، فهل أنا بحاجة للكثير؟ كما هو الحال مع كل شيء. لكي أحوز على ما يخصني، من الجزر، الشمندر، البصل، الثوم والبقدونس. وسأقول للسيد، إنني لا أحب الفاصولياء. آكلها، نعم آكل، لأنني آكل كلّ شيء تقريباً. لكنني لا أحبها. أحياناً أعدّ لنفسي شوربة فاصولياء أو مرقّة فاصولياء، لكن من وقت إلى آخر. أما الكلاب فلا تأكل الفاصولياء. نعم قديماً، زُرّع هاهنا كثير من الفاصولياء. لا علم لي، هل يعرف السيد أن الفاصولياء كانت تنوب عن اللحم سابقاً. وفي هذا العمل، طالما أنهم عملوا هاهنا من الفجر حتى الليل، كان لا بد للإنسان أن يأكل قطعة اللحم هذه. ناهيك عن أن التجار غالباً ما أتوا إلى هنا من أجل الفاصولياء. ليس من أجل الفاصولياء فقط، لكنهم اشتروا الفاصولياء أكثر من سواها.

نعم في زمن الحرب، عندما كانت القرية هنا. كما يعرف السيد مات الناس من الجوع في المدن حينئذ. في كل يوم تقريباً جاءت العربات إلى المحطة من أجلهم. تقع المحطة على مسافة بضعة كيلومترات من هنا. وبعد ذلك تم نقلهم مع البضائع. طالما جاءوا في أواخر الخريف في وقت ما مثل الآن. على أي حال، جاء معظمهم في مثل هذا الوقت بعد أن تم جمع كل شيء من الحقول. لقد جمعوا الفاصولياء حتى آخر حبة أي تلك التي استطاع من لحق بتقشيرها حتى مجيئهم. في بعض الأحيان لم تجفّ الفاصولياء جيداً، وكانوا يقشرون الفاصولياء في كل مكان في البيوت من أجل أن يلحقوا. كل العوائل قشّرت، من الفجر حتى الليل. أحياناً خرجوا إلى الباحات عند منتصف الليل، وما زال، هنا وهناك، ضوء في النوافذ. خاصة عندما كانت الفاصولياء ناضجة. لأنه مع الفاصولياء كما هو الحال مع كل الأشياء، أحياناً يتحقق النجاح وأحياناً لا. يجب أن تكون السنة جيدة بالنسبة إلى الفاصولياء. الفاصولياء لا تحب الكثير من أشعة الشمس. كثير من الشمس يعني قلة المطر. والشمس ستحرقها. لكن كثرة المطر قبل انبثاقها سيعقنها. مهما كانت السنة جيدة، فكل ثاني سنبله هي فارغة أو أن حبوبها صدئة. ومن غير المعروف لماذا. هكذا هي الفاصولياء ولها أسرارها. ربما أتى السيد كتاجر آنذاك إلى هنا؟ لكن لو كان كذلك، لكنت تعرفت عليك. لقد تعرفتُ على جميع التجار الذين قدموا إلى هنا تقريباً. تم زرع الكثير من الفاصولياء عندنا، وهذا الأمر جلب تجاراً بعد تجار. ولدي ذاكرة بصرية منذ طفولتي. ومن المعلوم أن المرء يتذكر ما في الطفولة إلى الأبد. من دون شك كان على السيد أن يكون شاباً، ويرتدي ملابس مختلفة. قدم التجار حينئذ بملابس عادية، من كان لديه ومن لم يكن، ارتدى أسوأ الملابس الممكنة حتى لا يثير الشكوك. قاموا بتفتيشهم في القطارات وأخذوا منهم ما عثروا عليه لديهم. قالوا، إنهم تجار فقط. أما الآن فأرى أن لدى السيد معطفاً وقبعة ووشاحاً. كان لدي مثلها، قبعة ناعمة وكثيفة، ومعطف كهذا. ووشاح حريري أو كشميري. أحببتُ أن أكون متأنقاً.

لكن لماذا لا يخلع السيد معطفه؟ أوه، ليعلقه السيد على الباب. هناك شماعة ملابس. وليفضل السيد بالجلوس. على الكرسي أو المقعد مثلما

تحب حضرتك. سأنهي هذا اللوح، لم يتبق لدي سوى القليل. لولا هاتان اليدان لكنت قادراً على العمل أسرع. لا، إنه الروماتيزم. على أي حال، أنا الآن أفضل بكثير. يمكنني فعل أي شيء تقريباً. إلا أنني لا أستطيع العزف على الساكسفون. نعم، عزفت سابقاً. وهذا كل شيء. حتى هذه الألواح، كما يرى السيد، أعيد طلاءها. وهذا يتطلب تركيزاً في اليدين أيضاً. الحروف الأصغر هي الأسوأ. إذا انحرفت الفرشاة يجب غسلها من جديد بالبنزين ثم البدء من جديد.

لماذا خطر على بالي أن السيد كتاجر أتى إلى هنا من قبل. حسناً، لأن السيد من حيث لا أدري قد أتى إليّ دون غيري من أجل الفاصولياء. لا بد أنك كنت تعرف أن الفاصولياء مزروعة هنا وتعتقد أنها لا تزال تُزرع. يبدو للإنسان في بعض الأحيان أنه ما الذي يمكن أن يتغير في مثل هذه الأماكن، حيث كانت الفاصولياء تزرع منذ زمن بعيد. لكن كيف تمكن السيد من الاحتفاظ بالاعتقاد في وجود مثل هذه الأماكن الأبدية؟ لا أستطيع أن أفهم ذلك. ألم يعلم السيد بأن الأماكن تحب أن تخدعنا؟ كل شيء يخدعنا، هذا صحيح. لكن الأماكن أكثر. لولا هذه الألواح الصغيرة لما عرفت أن هذا المكان كان هنا.

عموماً، ألم يكن السيد هنا على الإطلاق؟ ولو كتاجر آنذاك؟ إذًا، أنا أسف لأنني اعتبرت السيد تاجراً. الظاهر أنني أعمل اليوم طويلاً على هذه الألواح الصغيرة. يا لها من ألواح [علامات]؟ الاسم، اللقب، من، إلى، يرحمه الله. كل سنة في مثل هذا الوقت أقوم بجمع الألواح من القبور لأعيد طلاءها. وهذا يأخذ مني وقتاً. الاسم الأول فقط، واللقب، كم عدد الحروف الموجودة، وكل حرف ينبغي عمله بعناية حتى لا يعتقد الميت أنه عندما كان، لنقل، في الجانب الآخر من النهر، أنني أعدت طلاءه لا على التعيين. لأنهم انقسموا هنا دائماً على من هم من هذه الجهة من النهر أو من تلك. عندما يفرق الناس شيء ما فإنهم يتفرقون دائماً. وليس فقط حسب النهر.

من أين يأتي الاعتقاد لدي بأن الموتى يفكرون؟ لأننا لا نعرف ما إذا كانوا لا يفكرون. وإلا فماذا نحن نعرف؟ أحياناً تؤلمني عيناوي ويدي تبدأ في الارتعاش ويجب أن أتوقف، بعد حرفين أو ثلاثة أحرف، خاصة تلك

الصغرى. أنت بحاجة إلى الصبر مع هذه الأحرف الميتة. بالكاد أفرغ من صبغ بعضها، وإذا بطلاء الحروف من السنة السابقة يبدأ بالتقشر. إنه يزول في الغابة أسرع. حيث الرطوبة أما الشمس فهي بقدر ما في مطالع الفجر، ولذلك يتحتم عليّ تكرار طلاؤها باستمرار. وإذا لم أعد طلاؤها من جديد فسيكون من غير المعروف حتى الآن من كان في هذا اللوح أو ذاك. اشتريت دهانات من مختلف الأنواع كهذه وأخرى أجنبية. كلها تسقط. هل يعرف السيد طلاء لا يسقط؟ السيد عنده حق. لا مصلحة لأحد في جعل أي شيء دائماً. خصوصاً الطلاء. لا زال المرء يطلي شيئاً ما لكي يصبغ شيئاً آخر.

لا أعلم ذلك. ربما هناك من أعاد طلاؤها من قبل، ولكن ليس لفترة طويلة بالتأكيد، لأنه كان من الصعب عليّ التعرف على من كان عليها. توقف على ما يبدو لاعتقاده أنه ما من أحد يضمن الخلود في هذا العالم. إضافة إلى التكاليف، وثمان الطلاء ذاته، والفرش، والعمل. من الجيد لأنني عرفت الجميع هنا تقريباً. ومع كل ذلك، كنت مضطراً لأدفن بعضهم في ذاكرتي. الأسوأ من كل ذلك كان بالنسبة للأطفال. كأني أعتمد بعضهم للتو بطريقة ما. هذا (زَنون كوزجاو). سأنتهي حالاً. هو أصغر واحد من عائلة كوزجاو. جيران. هنا، من هذه الجهة، لكن أكثر قرباً من الغابة. كانوا مُسيّجين من جهة الطريق فقط، لأن الغابة أحاطت بهم من ثلاث جهات، ولذلك فهم ليسوا بحاجة إلى أي سياج آخر. الغابة أفضل سياج. ما الذي يمكن أن يهددهم من جهة الغابة؟ من يمكنه المجيء من الغابة؟ حيوان على أكثر تقدير. لقد نصبوا الفخاخ والكمائن والمصائد في الممر. في بعض الأحيان، وقع دجاجهم وأوزهم وبطهم في المصيدة، لأنهم لم يرفعوها أثناء النهار. على أي حال، هم لم يتمكنوا من عد الدجاج والبط عند المساء. وكل مساء اتهموا الجيران. لم يسمحوا بدخول الجيران إلا من خلال بوابة صغيرة من جهة الطريق. كانت البوابة الصغيرة تقع في جناح البوابة الرئيسة وهذه لم تكن بوابة عادية. إنها أعلى بضعفين من السياج، وهناك سقف فوقها مغطى بلوح خشبي وثمة تمثالان يقعان على جانبيه. لا أتذكر الآن، هما أيّ القديسين يمثلان. أما السياج فمرتفع أيضاً. كان العم (يان) هو الأطول في القرية، لكنه، حتى لو وقف على رؤوس أصابعه ومدّ يده فلن يبلغ قمة السياج. كانت

الألواح مرصوفة بشدة بحيث لا توجد هناك أدنى فجوة. هناك مطرقة على البوابة، وكان عليك أن تطرقها حتى يخرج أحد ما من المنزل لفتح الباب. لو حاول السيد من جهة الغابة لهرعوا إليك بالأعمدة وهيجوا الكلب بها. ولكان عليك العودة إلى البوابة الصغيرة وطرق المطرقة.

أوه، ولما اشترى السيد الفاصولياء منهم، لأنهم جميعاً كانوا ينحتون. جدي نحت، كان عجوزاً طاعناً في السن، ولديه إعتام في عدسة العينين، لكن لو نظر السيد إليه وهو ينحت لما صدق أنه لا يرى. كيف فعل هو ذلك، لا أدري. ربما أمر يديه أن تريا؟ ثلاثة من الأحفاد نحتوا: (ستاخ)، (ميتك) و(زَنَك). عزاب رائعون، لكن لم يرهم أحد مع العذارى. لقد شوهدوا وهم ينحتون فقط. أحد الآباء لم يكن ينحت. لكنه قطع وملس لهم كتلاً خشبية لهذه المنحوتات. بالتأكيد كان بإمكانه أن ينحت، أوه، لم تكن لديه ثلاث أصابع في يده هذه، لقد قطعت في تلك الحرب. لكنه دبر حاله في القص والتقليم. يقال إن جدهم الأكبر كان ينحت وكذلك جد جدهم، ولا يعرف إلى أي مدى سيضطر المرء إلى الغور في أعماق عائلتهم وراء هؤلاء الأسلاف النحاتين، لأنهم حسب ما قالوا، كلهم كانوا ينحتون منذ القدم. حتى في يوم الأحد بعد القداس، بعد أن عادوا جميعاً من الكنيسة، شرعوا على الفور في نحت كل ما سمعوه في الإنجيل حتى لا ينسوا. عزموا على نحت كل ما في الإنجيل، لأنه كما قال الجد: العالم كما وصفه الله وليس كما يراه الإنسان.

تمت تغطية المنزل والساحة ومباني المزرعة جميعها بهذه المنحوتات ومضوا بها حتى الغابة. ثم أبعد وأبعد. وربما هم لهذا السبب لم يفصلوا أنفسهم عن الغابة. كان من غير الممكن أن تستدير السيارة في مجازهم، ولذلك توجب إرجاعها إلى الوراء. أبعدوا الأبقار إلى المرعى وكان عليهم مراقبة تلك المنحوتات كي لا تطرحها أرضاً. كانت القطط تتشمس على هذه المنحوتات. وإذا ما نبج الكلب فجأة هرعوا من المنزل، فربما دخل أحد الأشخاص من جهة الغابة، في حين كان الكلب ينبج على المنحوتات. لحسن الحظ، كان مربوطاً بحبل قصير. وإذا نثرت السيدة (كوجافا) الحبوب للطيور، أخذ الناس يتندرون عليها: هي تطعم هذه المنحوتات، لأنها تكبر باستمرار.

لم تكن هذه المنحوتات عادية كما يتخيل السيد. لا، أرى أن السيد مثل قطعة، لا توجد مقارنة، إنها كانت أكبر مني ومن السيد. على سبيل المثال، عندما شرعوا بنحت «العشاء الأخير» اقتطعوا مساحة في الغابة. المائدة نفسها كانت بحجم مجموعة من موائد، والمقاعد بحجم بضعة من مقاعدي هذه. مع ذلك جلس الرسل ملتزمين بعضهم ببعض لدرجة أنه لم يكن هناك مكان للمسيح. لقد جلس ملتفاً على نفسه بين أحد الرسل الذي وقف ممسكاً الكأس بيد ممدودة، والرسول الآخر الذي وضع رأسه على الطاولة ونام فعلاً، وكان أصغر من كليهما بكثير. ولو وقف الجميع هو وهم، لما بلغ مستوى الحزام. كان على رأسه تاج من الشوك وكان شيئاً ما يقلقه، وقد سند رأسه إلى يده. حتى إن أحد الرسل مَدَّ يده نحو التاج، من الجانب الآخر للمائدة، كما لو أراد أن ينزعه من رأسه، لأن الوقت مازال مبكراً، لكنه لم يفلح. كان هناك بضعة أباريق من النبيذ على الطاولة، وكل إبريق، لا أملك مثل هذا الإناء لكي أستطيع المقارنة. هذا الوعاء أو ذاك الدلو يمكن أن يكونا صغيرين جداً. أما الرغبة فلا أتذكر أنهم خبزوا مثله في أي مكان. وقد خبزوا حتى إلى عشرة كيلو غرامات. كان مازال عليهم أن يشيدوا سقفاً فوق العشاء الأخير، لكنهم لم يلحقوا. لن أخبر السيد بقيمة تلك المنحوتات. كنت أخاف منها حينئذ. لكن هل يمكن للخوف أن يكون معياراً للتماثيل؟ خاصة عندما يمتلك المرء العمر الذي كنت أنا فيه؟ عندما أرسلتني والدتي إليهم للاستفسار أو لاستعارة شيء ما، قلت لها: إنهم لا يملكون أي شيء أو لا أحد في الدار. سألتني: هل طرقت المطرقة؟ نعم، طرقتها ولم يخرج أحد. مع ذلك، ربما لم تصدقني، لأنها من وقت إلى آخر كانت تبعث إحدى أخواتي إلى هناك، (ياغودا) أو (لئونكا) بطريقة لا تجعلني أعلم بذلك.

لم يسمع أحد أنهم حاولوا أن يبيعوا أي منحوتة. لأنه لمن؟ هل يذهبون إلى البازار بمثل هذا التمثال، ماذا يقول السيد أيضاً؟ لقد جاءوا لشراء المواد الغذائية، قلت لك، الفاصولياء، الطحين، والجريش. فقط ذات مرة ذهب الجدد، نعم، هذا الضرير، ليطلب من الكاهن أن يسمحوا لهم بجلب تمثال أو اثنين للكنيسة. لكنه لم يوافق لأنهم لم يتخرجوا في أي مدرسة.

زارتني تماثيلهم في المنام أحياناً. قفرت في منتصف الليل صارخاً وغارقاً

في العرق. اعتقدت والدتي أن مرضاً ما قد ألمَّ بي. كان يجب عليّ أن أشرب نقيعاً عشبياً، وأكل العسل وقد خشيت من الاعتراف بأن التماثيل هي السبب. لا أعرف السبب. ربما لأنني خفْتُ من كوني خائفاً. علاوة على ذلك من التماثيل! كل خوف له عدة طوابق، كما يعلم السيد. ثمة خوف يحرمك من النوم، والثاني ينيمك. وثمة آخر... ليس هناك ما يمكن الحديث عنه على أي حال. لا توجد تماثيل ولا يوجد (كوزجاويون). على أي حال، أحببت العسل، حتى إن الأعشاب أزعجتني. لكن والدتي وقفت فوق رأسي، اشرب، اشرب، من أجل الصحة. هل يحب السيد الأعشاب؟ أنت مثلي. لكن السيد يحب العسل، أليس كذلك؟ سأقدم للسيد عبوة عسل كهدية. على الأقل لن يلوم السيد نفسه على مجيئه إليّ عبثاً. لدي عبوة غير مباعة. ربما رأى السيد بعض خلايا النحل، هناك عند حافة الغابة، إنها ملكي. من هذه الخلايا القليلة، إذا كانت السنة مناسبة للعسل، أجمع منها عسلاً وعسلاً. أنا نفسي لا أبالغ في أكله. لدي عسل من بضع سنوات، هذا الباذخ هو الأفضل. عادة ما أشكر بالعسل كل من يسدي لي خدمة بدون مال أحياناً. وإذا زارني أحد الأشخاص في مثل هذا الوقت، بعد الموسم، فلن يخرج مني بدون عبوة عسل. وإذا احتفل أحد ما بعيد الاسم في منزله فأنا أذهب إليه لأهنته وعلى الأقل أحمل معي مثل عبوة العسل هذه كهدية. وحيثما وجد الأطفال فأنا من دون مناسبة أتذكرهم. يجب أن يأكل الأطفال العسل.

مع ذلك فمن الأفضل شرب العسل. كيف؟ ملعقة صغيرة من العسل مع نصف كوب من الماء الدافئ صباحاً. ثم اتركها هكذا حتى صباح اليوم التالي. على السيد أن يعصر نصف أو ربع ليمونة، ويخلطها معها ثم يشربها قبل الفطور بنصف ساعة. وإذا كان بارداً أضف إليها جرعة ماء ساخن. هي الصحة بعينها. للقلب وللروماتيزم. العسل جيد لكل شيء. لن يصاب السيد بنزلات البرد. في شبابي، عندما كنت أعمل في مواقع البناء، عشنا عند أحد مربّي النحل وهو الذي علمني ذلك. لكن من أين كان لنا عقل لشرب العسل آنذاك. لم يكن لدينا وقت لذلك. وإذا توفر الوقت فكنا نشرب الفودكا. الفودكا كانت هي الأفضل لكل شيء في ذلك الوقت وليس العسل.

وماذا يفضل السيد، عسل الخلنج [عسل البرسيم] أم المن؟ العسل

الصنوبري، لا العسل النفضي [من ورق الأشجار]، إنه أسود وأفضل بكثير. سأعطي السيد عبوة من هذا وذاك. شخصياً أحب عسل الحنطة السوداء أكثر من سواه. زرع أحدهم هنا كثيراً من الحنطة السوداء فيما مضى. قبل ثلاثة أيام أعدت طلاء لوحه [شاهدته]. لقد قام بوضع خلايا النحل قبل أن تزهر الحنطة السوداء. كنت أذهب لمشاهدته وهو يجمع العسل من تلك الخلايا. كان يضع غطاء على رأسه وشبكة على وجهه وأنا كنت كما تراني حالياً. لن يصدقني السيد، لم تلسعني أي واحدة منها قط. حططن عليّ ولم يلسعني ولا مرة واحدة. وهو لم يتوقف عن الاندهاش قائلاً: أنت فتى غريب نوعاً ما. أنا مربّي نحل... اذهب وأحضّر لي قدرا. ثم سكب لي ذلك العسل مباشرة من الخلية.

أما الآن فمن يزرع الحنطة السوداء هنا وأين؟ لقد رأى السيد، البحيرة المجانية، وبجانبها بيوت وغابة. والغابة كانت آنذاك أيضاً. وهذا الشيء الوحيد الذي كان حينذاك، لا يزال حالياً. مع ذلك كان الجزء الأكبر من الغابة يقع على هذا الجانب. الآن اتسعت لتشمل الجهة الأخرى حيث كانت الحقول. إذا لم توقف الغابة فإنها سوف تدخل حتى إلى المزرعة. وحيث كانت المزرعة نمت أيضاً. على الجانب الآخر. أعني الجانب الآخر من (روتكا). روتكا؟

هو النهر الذي كان يتدفق هنا فيما مضى، لقد أخبرتُ السيد بأنه قسم القرية. كما لو أن البحيرة المجانية نشأت جراء عدم تدفقه. إنه مشتق من (روتا) وليس من (رودا). هل يعرف السيد معنى (روتا)؟ حضرتك لست استثناء. هنا في هذه المنازل لا يعرف السكان أي نوع من أنواع الأعشاب تقريباً. قد يعرفون النعناع والبابونج في أحسن الأحوال. هم لا يعرفون الأشجار، ولا يمكنهم أن يميزوا بين البلوط والزان. أما الأشجار من نوع شعاع البوق والجميز، فحدث ولا حرج. لا يستطيعون التفريق بين الشيلم والقمح، بين القمح والشعير. يسمّون كل شيء حبوباً. أتساءل عما إذا عرفوا الدخن. الدخن، كما أرى، يزرعه اليوم الناس قليلاً.

لقد تم استعمال نبتة السذاب ضد الأمراض، وحدها أو مع أعشاب أخرى. للعيون، الأعصاب، الجروح، الكدمات، وضد اللفحات. شربوا

نقيعها أو وضعوها على الجسم. كما رُفعتُ بها التعويذات. والأهم من ذلك نسجت العذارى منها الأكاليل. واجتذبن بها العزاب. نما كثير منها ها هنا وربما لهذا السبب سُمِّيَ [النهر] روتكا؟ ليس لدى السيد فكرة عن ماهية هذا النهر. إنه ليس بالنهر الكبير، شأنه شأن الأنهر في القرى. تدفق في وادٍ واسع وفي الوادي امتدت المروج وثمة حقول خلف الوادي. كان النهر أوسع في بعض الأماكن وأضيق في الأخرى. عندما لا تمطر لفترة طويلة، كان يمكن اجتيازه على الحصى في بعض الأماكن. عند الوقوف على ضفة الوادي ولدى ظهور الشمس بين الغيوم يتكون انطباع بأن (روتكا) يجري في الوادي بأكمله. في بعض الأحيان، هذا صحيح، أن النهر أصبح واسعاً كالوادي، أو أثناء ذوبان الثلوج أي عندما تهطل الأمطار كثيراً. حينئذ لا يصدق السيد أن هذا النهر هو روتكا نفسه، وأنه خطير إلى هذا الحد. لم يغمر الوادي فحسب، بل الحقول أيضاً. من كان يسكن في مستوى أدنى كان عليه الانتقال إلى أعلى. حينذاك هكذا ثار الناس لروتكا، بكوا عليها. وما إن انخفض الماء حتى عاد هادئاً وودوداً مرة أخرى. تدفق بدون عجالة. لو ألقيت العصا فيه وتبعته على طول الشاطئ، فمن الأسرع، السيد أو روتكا؟ حتى لو مشيت بخطى بطيئة لتغلبت عليه دائماً. التوى النهر، تعرج، وحيثما اصطدم بانحناءات، غطاه قصب الدّيرة، ونبات الديس، والزنبق، وزهرة الأهوار. لقد ازدهر، لا يمكن للسيد أن يتخيل ذلك. وليت السيد يستمع هكذا إلى شدة العنادل في مايو.

لم يكن النهر ضحلاً في كل مكان. حيثما كان ضحلاً فهو ضحل. كانت لديه أماكن عميقة. ثمة واحد كان الأكثر عمقاً. ذهبوا إلى هناك ليغرقوا أنفسهم. في أغلب الأحيان كانوا من الشباب، عندما لم يسمح لهم آبائهم بالزواج. غرق الكثير من أمثال هؤلاء. قيل: عادة ما غرقوا هناك، لأنه المكان الأكثر عمقاً دائماً. لقد غرقوا لأسباب مختلفة. لم يقتصر الأمر على الشباب فحسب. رغم أن الجميع لم يغرقوا، لأن بعضهم شنق نفسه. أما (روتكا) فتدقق كما كان سابقاً.

لن يصدق السيد، بدا لي أنه أكبر نهر في العالم. حتى إنني كنت مقتنعاً بأن جميع الأنهار تسمى (روتكا) وكلها من (روتكا) كما لو أنها جاءت من

أم واحدة. لقد بدأت في الذهاب إلى المدرسة بالفعل ومع ذلك لم أصدق أن هناك أنهاراً أكبر بكثير في العالم، ولكل منها اسم مختلف.

كان لدينا قارب. أحياناً سحبته إلى أكبر الأماكن اندفاعاً، ناداني الجميع، أمي نادتني، أبي ناداني، ولم أرّد. انطرحت على القاع وشعرت كما لو أنني لم أكن في أي مكان. ولو سألني السيد: هل كنت سعيداً على الإطلاق، لقلتُ حينئذ فقط. ألا يحب السيد أن يسألني؟ أفهم. أو أنني أخذت القارب نحو التيار، استلقيت فيه، أبحرتُ، وأبحرت و(روتكا) حملني. هل يعتقد السيد أن مثل هذه الأنهار تختفي؟ لا، لا أعلم. أحياناً ذهبت ووقفت بجانب البحيرة بحثاً عن المكان الذي يمكنني الآن أن أبحر فيه. وسأخبر السيد، لقد تمكنت ذات مرة من اكتشاف أحد شاطئيه. أي واحد منهما؟ يجب عليّ أن أعرف على أي منهما كنت واقفاً آنذاك.

لن أقول للسيد، من أين نبع وأين أنهى جريانه. لم يذهب المرء آنذاك بعيداً. كان هناك خوف من الابتعاد، تمتد الغابات هنا وتمتد. والآن أنا لا أذهب أيضاً، ما الداعي؟ في النهاية، سيدخل المرء من هذه الجهة أو تلك وسيكون كل شيء طوع يديه. التوت البري، الفراولة البرية، التوت الأسود، والفطر. لقد وصل السيد متأخراً. الآن يوجد فقط ثمر العنينة حادة الخباء. لكن كان على السيد الانتظار حتى ينحسر الصقيع، لأنها تنمو بكثرة في المستنقعات. المستنقعات ليست بعيدة من هنا. سأعطيك وعاء لجمعها. العنينة مع الفطيرة، ستعلق الأصابع بعدها. أيضاً مع الكمثرى، والفطيرة من لحم الأرنب.

أنا لا أجمع [الثمار]، ليس لدي وقت، ولا بد لي من المراقبة هنا. مثلما هو الحال الآن بعد الموسم، لا أحد هنا إلا أنا وكلابي. بين الحين والآخر يأتي شخص ما ليرى شكل كوخه. وللحقيقة أقول، لا داعي لذلك. يعلم الجميع أن كل شيء على ما يرام. ولا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك بما أنني أراقب. يمكنهم أن يتحققوا أحياناً. لكن ليس لدي الحق في منع أي شخص إذا أراد أن يرى ماذا وكيف. هذه منازلهم. لكن على الأرجح قبل الظهر فقط. فما من أحد يأتي في هذا الوقت الآن. في هذا الوقت يتوقف كل شيء هنا. ويحل الغسق مبكراً جداً. قبل شهر لم أشعل الأضواء في

هذا الوقت. رأيت الحروف جيداً حتى أصغرها. وصبغت بدون نظارات. أما الآن، فلقد رأى السيد، ثمة شفق، لكن، لا يوجد حتى تغضن واحد في البحيرة. يبدو كما لو أن الماء تخثر في أرض صلبة. مثلما هو الحال اليوم، في هكذا جو بلا رياح قد يعتقد المرء أنه من الممكن قطع النهر من تلك الضفة إلى هذه دون أن تتبلل رجلاه.

والسيد، هل توقف عند بيت السيد روبرت؟ لم تصل حضرتك في الليل وإلا لسمعتك. لم أنم طوال الليل، كان يجب أن أسمع. حتى أضعف الأصوات يمكن سماعها في الليل. غفوت للتو في الصباح. لقد بان الفجر، نظرت من النافذة لكن السيد لا يزال غير موجود. بعد ذلك غفوت، ولا أدري حتى متى. هل أوقف الضباب السيد في الطريق؟ لم يكن ضبابها هنا. صحيح، يحدث أن يكون هناك ضباب في الخريف، ويصعب اختراقه أحياناً. بعد أن يسافر السيد سيظهر هنا فجأة جدار أبيض.

كنت ما زلت أعيش في الخارج وذات مرة قررت المجيء إلى هنا في الخريف، في مثل هذا الوقت تقريباً. في الخريف عندما لا يكون أي شخص هنا. أقمتُ في بيت السيد روبرت أيضاً. أخبرني السيد (روبرت) أين أجد المفتاح. إنه تحت المَشْرِقة، على المسمار في العارضة الخشبية. السيد وجده هناك أيضاً؟ نعم، بالضبط. كنت هنا سابقاً لمرة واحدة فقط، في أحد أيام الأحد، في موسم الذروة. وصلنا آنذاك معاً أنا والسيد روبرت. في هذه المرة لم يستطع السيد روبرت. قال، عندما هاتفت: بطبيعة الحال يمكنني استخدام مقصورته لكن، للأسف لا يمكنه السفر. أخبرني، كيف وأين سأجد هذا الشيء أو ذاك، وطبعاً، أين يوجد المفتاح.

حلّ الغسق عندما عبرت الحدود لذلك كنت آمل أن أصل إلى هناك في الليل وربما سأخذ قسطاً قليلاً من النوم حتى يحل الصباح. طالما أنني سرّت على الطريق الرئيسي كان كل شيء على ما يرام، الليل مرصع بالنجوم، ثمة القمر، وكانت الرؤية جيدة جداً. رغم ذلك سلكت طريقاً جانبيّاً، واستدرتُ إلى طريق آخر مرة أخرى، ثم بدأ الضباب في الظهور. كان متناثراً في البداية هنا وهناك، وتداخلت هذه الخطوط فقط لتحجب الطريق من وقت إلى آخر. إلا أن المصابيح المضادة للضباب مازالت تعمل بشكل جيد. حتى

إنني سرْتُ بسرعة وإلى حد معقول في مثل هذا الوقت. ومع ذلك مع كل كيلومتر تكدّثت هذه الخطوط. وبعد مرور بعض الوقت، بدت كما لو أنها جدران من الضباب تبرز على الطريق. كانت الرؤية في المناطق التي تضيء فيها المصابيح فقط. مع ذلك بعد مغادرة تلك المنطقة وقعت في ضباب أكثر كثافة. وكل مرة في كثافة تليها كثافة. كان الضباب أمامي وفوقي، يحيط بي من الجانبين ومن الخلف. كما لو لم يكن هناك عالم، بله ضباب فحسب. حاولت أن أشعل الأضواء كذا وكذا، لكنها لم تساعدني في أي شيء. أعلم أن الأضواء الأمامية أقل عوناً. حين تكون الأضواء عالية السطوع يتكون لديك على الفور جدار أبيض أمام غطاء المحرك. فقط أضواء السيارة المنخفضة والمضادة للضباب. والأفضل عندما يسافر معك شخص آخر. إذ يقوم بفتح باب السيارة موارباً وينظر إلى مسلك الطريق أمام السيارة مباشرة ويوجه من يجلس خلف مقود السيارة. لكنني سقت السيارة وحيداً، علاوة على ذلك لم يكن أحد خلفي ولا أمامي. وإلا لتمكن السيد أيضاً من الاتفاق مع سائق ما ليوجه بعضكم بعضاً مرة أنت ومرة هو، هكذا بالتناوب. فالأضواء الخلفية الحمراء تبين الطريق أفضل في الضباب. لذلك كنت أفقد في بعض الأحيان يقيني فيما إذا كنت أسير مباشرة أم أنني سأنزل في خندق على الفور، أو أصطدم بإشارة طريق أو بشجرة. دعني أخبرك، بأنني لم أسر في مثل هذا الضباب من قبل. كنت أتوقف كل لحظة، وأنزل لأستشقق بعض الهواء النقي. قمت بعمل بعض الحركات، بعدها ركبت السيارة ثم واصلت المسير.

ثم رأيتُ فجأة على جانبي الطريق بصيص أضواء باهتة غريبة. ماذا يمكن أن تكون؟ في البداية مازالت شحيحة هنا وهناك. ومع ذلك لم يكن من الصعب عليّ ملاحظة أنهم يقفون في النوافذ، على الرغم من قلة النوافذ والبيوت، وثمة ملامح بالكاد كانت تبين في الضباب. خمنتُ أنني أجتاز منطقة ما، خاصة أن تلك الأضواء أخذت بالازدياد والتكثيف، وسرعان ما تشكلت على الجانب الأول والثاني من الطريق سلاسل مضيئة، بحيث دخلت في هذا السبيل. سرْتُ، هذه مبالغة، بالأحرى تدحرجتُ. وكان الضباب لا يزال أمامي كثيفاً.

فجأة لاح شخصان من بين الضباب أمام غطاء محرك السيارة. بالأحرى رجلان، خمنت ذلك. لم ألحق للضغط على بوق السيارة لكنني ضغطت بكامل قوتي على الفرامل. غمرني العرق، كان بإمكانني سماع دقات قلبي في جميع أنحاء السيارة تقريباً. صرت على يقين من أنهما سيرتميان على السيارة ويشرعان بالطرق على النوافذ، وسيخلعان الباب، وينعتاني بكل ما هو أسوأ. وسيكون لديهما الحق في ذلك، ثم ماذا لأنهما سارا في منتصف الطريق. لكن ليتخيل السيد، أنهما حتى لم يلحظا السيارة. ربما كانا يتشاجران، لأنه تناهت إلى سمعي أصواتهما المبحوحة العالية. إذ رفعا أيديهما وتدافعا. بدا لي أنني سأكون شاهداً على عراك في الضباب.

خفضتُ النافذة قليلاً، وقمت بتشغيل الراديو بأعلى صوته، خرجت موسيقى حادة هادرة، اعتقدتُ أنهما سيسمعانها ويفسحان الطريق لي. لم يسمعا. توقفا، وهما يترنحان في كل الاتجاهات وفي لحظة ما تلاصقا وتعانقا بود ثم قبّل بعضهما بعضاً. كانا في حالة سكر لدرجة أن أحدهما سند الآخر لدى انزلاقه. أخيراً، ضغطت على بوق السيارة مرة ومرتين، ومن المدهش أنهما تصافحا وسار أحدهما إلى جانب الطريق والثاني إلى الجانب الآخر.

وضعتُ بالفعل قدمي على دواسة الوقود عندما استدارا فجأة ومن جديد شرعا بالتحاضن. وهكذا وهما يمسكان أحدهما بالآخر متحاضنين، تمايلا مراراً، كما لو أنهما توصلا إلى نتيجة أنهما لن يفترقا، وسينهاران وينامان هنا على الطريق فقط. لحسن الحظ، وضعا يداً بيد وسارا في هذا الضباب على امتداد وسعة الطريق. تحركتُ ببطء خلفهما على أمل أن أتمكن من اجتيازهما عندما يسحب أحدهما الآخر إلى هذا الجانب من الطريق أو ذاك. لكن كلما سحب أحدهما الآخر جذبه الثاني باتجاهه. وهكذا سارا في شكل متعرج، وكانا يتوقفان كل لحظة، ويتصافحان، يهزّ أحدهما يد الآخر أو يجذبها. وكان عليّ أن أتوقف معهما أيضاً.

في لحظة ما لاحت خلال الضباب بوابة على الطريق. انكشفت فعلاً. هناك سلسلة من الأضواء الخافتة المشابهة لتلك التي في النوافذ ميزتها من أحد جانبي الطريق لكنها ارتفعت نحو الأعلى من جانبه الآخر، حيث انقطع

النصف المضيء من دائرة المصباح فوق منتصف الطريق. أما في النصف الثاني فربما احترقت اللمبات أو السلك الواصل. وفي ذلك النصف الثاني المضيء من دائرة المصباح، لاحت كلمة واحدة: مرحباً بكم. كان على الكتابة أن تكون أطول، لكنها انطفأت مع النصف الثاني. توقف الشخصان عند تلك البوابة. توقفاً عن التشبث بعضهما ببعض، عن التصافح والهز، لكنهما مداً يديهما بعضهما لبعض فقط، ولاحت لدي بارقة من الأمل في أنهما ربما سيفترقان أخيراً. على الرغم من ذلك، لم يتمكنوا من سحب يديهما كما لو أنهما غير واثقين، من وقوفهما على انفراد. لكنهما في النهاية، تحررا بطريقة ما، واختفى أحدهما على هذا الجانب من الطريق، والثاني على الجانب الآخر.

تنفست الصعداء. بيد أنني لم أتحرك مباشرة. خرجت من السيارة، توقفت لحظة لأهدأ قليلاً. ساعدني برد الضباب بشكل جيد. والآن تمكنت من الدخول إلى السيارة وتحركت ببطء. ربما قطعت بضع عشرات من الأمتار وإذا بهما هنا من جديد يخرجان من الضباب في منتصف الطريق. لم أكن أعرف ماذا سأفعل. توقفت. لابد أنهما لاحظا السيارة لأنهما استدارا باتجاهي وكل منهما يضع يده على ذراع الآخر ولو بصعوبة. خفضت النافذة وأخرجت رأسي منها.

مساء الخير أيها السيدان. ألا يستطيع السيدان؟...

بدأ في عمل بعض التعابير على وجهيهما كأنهما يطمئنانني إلى أنهما سيُخليان الطريق. وبالفعل، سارا بعد قليل في طريقهما وهما يتعثران. قررت الانتظار. التقطت حفلة موسيقية في الراديو، استمعت إليها ثم شرعت بالتحرك. انطلقت وروحي على كتفي، بنظر متوتر، غير متأكد من أنهما لن يظهر مرة أخرى من بين هذا الضباب في وسط الطريق. لن يصدق السيد أنني شعرت كما لو أصبحت متعلقاً بهما. حتى صرت أفقدتهما.

انطفأت اللمبات، عجلت قليلاً. أحسست بعد بضعة كيلومترات بالتعب الشديد لدرجة أنني عندما رأيت علامة مضيئة وفيها كلمة «نزل» قررت التوقف. كان النزل هادئاً وصاحبه مهذباً. نصحتني ألا أقود في مثل هذا

الضباب. في مثل هذا الضباب، في مثل هذا الضباب. إلى أين يريد السيد الذهاب؟ سوف ينام السيد ويستريح وسيكون الضباب قد تبدد. لدينا غرف رخيصة مريحة. سيتناول السيد شيئاً ساخناً، دعنا نسخنه حالاً؟ هل يشرب السيد البيرة؟ أوه، الآن كل الأنواع متوفرة حسب الطلب. حتى الأجنبية. أو ربما أنت تفضل شيئاً أقوى؟ سينظفون غرفتك حالاً. كان عندنا حركة في النزل اليوم.

وهذه الأضواء في النوافذ؟ وهذه البوابة؟ - سألتها بلا مبالاة.

هل هي بسبب الضباب؟

نظر إليّ بارتياح.

- والسيد من أين؟

أنا أعيش خارج الحدود.

وهذا للتو قائلاً:

صورة القديس مَرّت علينا من هنا.

سأقول للسيد، لم يغمض جفني طوال الليل. حتى إنني تساءلت مع نفسي: هل عليّ أن أواصل سيري أم أعود أدراجي. والسيد ربما نام جيداً؟ لأنه عندما استيقظت، وفي الحقيقة الكلاب أيقظتني، وتطلعت مرة، مرتين من النافذة لم يكن السيد موجوداً. كانت السيارة واقفة، ولهذا خمنت أن شخصاً ما قد وصل. من يا ترى يمكن أن يكون في هذا الوقت من الخريف؟ خاصة أن السيارة أجنبية، تعرفت عليها، وإلا فمن لديه مثلها هنا؟ ما هي علامتها التجارية؟ هذا ما اعتقدته. كانت لدي مثل هذه السيارة من قبل. كانت سريعة كالسهم. ولم يحدث قط أن أصابها أي عطل. تحركت بالفعل تحت الأضواء كما تحرك الآخرون للتو. لمست دواسرة البنزين وكادت السيارة تقفز. لا أحد تقريباً تجاوزني في الطريق. أحببت السياقة السريعة. السياقة السريعة، والحياة السريعة. بدا لي أن الحياة السريعة ستستمر لفترة أقصر. هل أخاف؟ من ماذا؟ على الأغلب. مرة أخرى ليس هناك ما يستحق لكي تُحترم الحياة. على الأقل بالنسبة لي. أوه، نعم، لقد دفع غرامات. حتى إنهم سحبوا مني إجازة السوق مرة واحدة. حوادث؟ وهل يمكن قيادة

السيارة بدون حوادث؟ لا يمكن العيش بدون حوادث. ذات مرة أصبت بكسر في رجلي، في هذا المكان. ومرة أخرى في عظم الترقوة، وفي المرة الثالثة أصيبت ثلاثة من أضلاعي، مع رجة دماغية. وفي أحدها اضطروا لقطع السيارة لإخراجي منها. وتخيل، أنا مازلت بخير. بعض الكدمات والخدوش وهذا كل شيء. صدفة سعيدة؟ ربما. ولو أنني لا أعرف ما هي الصدفة السعيدة. وعندما باغتني الرومانزم توقفت عن قيادة سيارتي وفيما بعد سقتُ ببطء أكثر.

ما هو رقم تسجيل سيارة السيد؟ لم أتعرف عليه بعد ولا بد لي أن أسجله. أسجل رقم كل سيارة تأتي إلى هنا. ليس الرقم فقط. بل الماركة أيضاً، الطراز واللون. لا أسجل من لديهم منازل هنا. هم مسجلون لدي منذ البداية. ما لم يغير أحدهم سيارته. وما عدا ذلك، نعم، جميعهم. خلال الموسم يأتي العديد من معارف أصحاب المنازل هنا. أحياناً أطلب منهم إبراز شهادة التسجيل وألقي نظرة على السيارة، وفيما إذا تعرضت إلى أي طعج أو خدش في مكان ما. ويحدث الشيء نفسه مع الأصدقاء. من تعرفه قد يظهر لك شخصاً لا تعرفه. ولا يمكن الاعتماد على الشهود إذا حدث شيء ما. عشرة شهود يمكن أن يصبحوا عشرة ألوان، وعشرة طرازات تصبح نفس العدد من الماركات، ناهيك عن أرقام السيارة. لا أصدق أي شهود. حتى إنني أسجل من أتى ومن غادر وفي أي ساعة. لدي دفتر ملاحظات منفصل خاص بالسيارات. وآخر للمنازل، من، متى، وما طول فترة إقامته، وعدد الأشخاص. ودفتر آخر خاص بالأشياء الأخرى. النظام يستوجب ألا يكون كل شيء في دفتر واحد.

في البداية، لم أدرك أن حضرتك توقف في منزل السيد (روبرت). إلا بعد أن أراح حضرتك ستارة النافذة. حينئذ فكرت، هل هذا السيد روبرت؟ كان من الصعب عليّ أن أصدق ذلك. لم يكن هنا منذ فترة طويلة، وأخيراً قد أتى، حسناً، حسناً. أعتقد أن فترة الظهيرة قد مرت عندما خرج السيد؟ وقف حضرتك على المَشْرِقة، ثم تطلعت حولك، وحينئذ أدركت أنك لم تكن السيد روبرت. وإن لم يحدث ذلك على الفور. السيد بنفس طوله أيضاً، ونحيف مثله. علاوة على أن القبعة حجبت وجهك. وحالما بدأ الكلبان

بخدش الباب كي أسمح لهما بالخروج، أوه، لقد عرفت بالفعل أن هذا ليس السيد روبرت. لكن لا يمكنني أن أتركهما يذهبان إلى شخص غريب وحدهما. قررت أن أنتظر حتى يأتي السيد إليّ، وستخبرني من أنت، لماذا جئت إلى هنا وإلى متى.

أكثر ما جعلني أتساءل هو كيف عرف السيد أين يوجد المفتاح؟ لا أحد يعرف ما عدانا أنا والسيد روبرت بأنه معلق تحت المشرقة، بمسمار على العارضة. حتى اعتقدت أنك على ما يبدو صديق جيد للسيد روبرت، والأكثر من هذا أنني لم أذهب مع الكلاب، لأسأل السيد وأؤكد كما أفعل مع كل شخص آخر هنا. أكيد سيأتي إليّ السيد كي يخبرني ما الذي يجري مع السيد روبرت، أين يسكن، وكيف يعيش. في يوم ما، حاولت معرفة المكان الذي انتقل إليه لكن حتى أقرب الجيران من نفس الطابق لم يعرفوا أين. لم يترك عنوانه لأي شخص. يرسل لي المال بانتظام. في مظروف، وليس بحوالة بريدية. ولم يضيف إليها قط حتى لو جملتين، كان يضع النقود في مظروف فارغ فقط. أما الختم البريدي فكان ضعيفاً بشكل سيئ لدرجة أنني لم أتمكن مطلقاً من قراءة مكان إرساله. لا بد من وجود صديق أو صديقة له في دائرة البريد. لا، هو، ومن بإمكانه فعل ذلك؟ ولماذا كان على شخص غريب إرسال المال لي؟ أنا لا أفهم أيّاً من هذا. كان بإمكانه أن يأتي ولو مرة واحدة فقط. ليرى، ماذا وكيف. أو أن يعطيني عنوانه على الأقل وسأكتب له، أن كل شيء على ما يرام. المنزل قائم. أنا أراقبه. حتى لا يكون قلقاً.

أنا أعنتي بالجميع، إذأ، وبه كذلك. وأحياناً ألقى نظرة خاطفة على الداخل وأنفقه. أقوم بتهويلته، أزيل الغبار، وإذا رأيت شيئاً عاطلاً أقوم بتصليحه. هذا لا يقع في نطاق التزاماتي لكنني أعنتي به طالما لدي المفاتيح. نعم، لدي مفاتيح جميع المنازل. بمجرد مغادرة أصحابها أتحقق منها منزلاً بعد منزل، من الأبواب والشبابيك وهل هي مغلقة، لأنه قد تحدث أشياء لا على البال ولا على خاطر. وأسجل ما تعطل لأصلحه فيما بعد خلال الخريف والشتاء. لا يوجد منزل خالٍ من العطل بعد الموسم. لا أطيق رؤية شيء إن كان مكسوراً. عادة ما يؤلمني ذلك. على أي حال، ليت الأمر ينحصر على مثل هذه الأشياء فقط. أحياناً أدخل إلى أحد المنازل فيتكون لدي انطباع كما

لو أن قاطنيه فروا في حالة من الذعر. لم تفصل الثلاثة عن الكهرباء، وجهاز التلفزيون شغال. الفرن يعمل، الماء غير مغلق، وأفرشة الأسرة متناثرة. ذات مرة بعد دخولي إلى أحد المنازل وجدت المكواة على البطانية على لوح الكي والبطانية تدخن بالفعل. بعد لحظة كان يمكن أن يطير المنزل بأكمله مع الدخان. وربما تطير المنازل المجاورة لأن الرياح بدأت بالهبوب للتو. وبسبب ذلك تراني أراقب حتى المكواة بعدما يغادرون.

هم قادرون في بعض الأحيان على أن يتركوا بقايا الأكل على الأطباق، والصحون غير مغسولة، والزجاجات وعلب البيرة وكؤوس الفودكا على الطاولة، ويتركوا السلالم ممتلئة بالقمامة، والمناديل الصحية بعد الحيض أو الواقي الذكري على الأرض. وأنا أقوم برفعها ورميها. إنه خطأي إلى حد ما لأنني عودتهم على الاعتناء بكل شيء. لم أستطع التصرف بخلاف ذلك. لا أقول، هناك منازل يسعدني الدخول إليها. حتى إنني أجلس فيها أحياناً وأستمع. إلى ماذا؟ يمكنك سماع الكثير، إذا أردت الاستماع.

أتجول حول جميع المنازل عادة، مرتين أثناء النهار ومرة واحدة على الأقل في الليل، من جهتي البحيرة هذه وتلك. في الصباح بمجرد أن تشرق الشمس أتتحقق من نوافذ وأبواب جميع المنازل وفيما إذا كان زجاج النوافذ مكسوراً والأبواب مخلوعة. أدخلها عندما يبدو لي أن هناك شيئاً ما ليس على ما يرام. على أي حال، سيشعر الكلبان بكل شيء أولاً. يطوفان حول كل منزل وبنباحهما القصير يعطيني إشارة على أن كل شيء بخير. ثم ينطلقان نحو المنزل التالي. وإذا لم يكن الوضع كما ينبغي فهما ينتظرانني وينبحان بقوة، أوه، ينبحان.

ومرة ثانية في المساء، ألقى نظرة على كل منزل وأشعل الأضواء. في الوسط والمشرقة [الطارمة]. أشعلها وأتركها هكذا. وبعدها أتقل إلى المنزل التالي. وهكذا منزلاً بعد منزل، أشعلها، أتركها، حتى آخر منزل. بعد كل منزل يصبح الجو مشرقاً وكل مرة أكثر إشراقاً. يتشكل إكليل مضيء حول البحيرة. حتى ينعكس التوهج كما لو أن كلاً من البحيرة أضواءت والسماء التي فوقها والغابة كذلك. أما الكلبان فلا يعرف السيد مدى سعادتهما بعد ذلك. لم أكن أتوقع أن الكلاب قادرة على أن تفرح هكذا. في الأيام العادية هما هادئان،

مركزان، ولا ينبحان بدون داع. هل عويا في أي وقت كالكلاب الأخرى. لا، حتى للقمر. وكذلك لا يعويان إذا مات شخص ما في أحد المنازل. ربما سيتخيلان شيئاً ما، بدون أن يحدث أي شيء. أوه، لن يصدق السيد ما يمكنهما تخيله. إذًا، فعندما تسطع كل هذه الأضواء بهذا الشكل، يتخيلان أن هذه جنتهما؟ بعد كل ذلك، لا يتعين على الكلاب أن تتخيل الجنة كحديقة مزهرة يوجد فيها كل شيء. يكفيها ألا يوجد فيها إنسان. وحضرتك تسأل؟ حسناً، يمكنهما اعتباري ذلك الشخص الذي يحرس هذه الجنة.

ثم نعود من آخر منزل لننظفها كلها واحداً تلو الآخر. ما الذي أدهش السيد؟ هذه الجنة الكلبية؟ دعني أقول للسيد، في رأيي، الإنسان أسوأ مخلوق بالنسبة للكلاب. لا أتحدث بلا سبب. وجدت ذلك الكلب (ريكس) في الغابة. كان مربوطاً بكابل فولاذي إلى الشجرة. ما كنت سألاحظه لو لا أنني بحثت عن الفراولة البرية تحت قدمي، وتناهى إلى سمعي فجأة شيء ما يئن كالطفل. لم يخطر على بالي قط أنه قد يكون كلباً. على سبيل المثال، لو كانت غزالة تحتضر في الفخ لعرف السيد فوراً أنها غزالة. لقد قابلت مثل هذه الغزلان التي تحتضر أكثر من مرة. لكنه، في هذه الحالة، كأنه طفل. توقفت، حبست أنفاسي. هل ضاع لشخص ما طفل في الغابة؟ يجب أن يكون صغيراً جداً لأن الطفل الصغير يعول هكذا. إلا أن هذا الصغير ما كان بإمكانه المجيء إلى الغابة وحيداً. لقد صمت. أتطلع حولي ولا أرى أي شيء في أي مكان. أخذت أبحث عن الفراولة البرية مرة أخرى. وبعد لحظة سمعت ذلك الأنين من جديد. ضعيفاً، لكنني أسمعه. لدي سمع جيد. علّمني أحد عمال المستودعات العزف على الساكسفون وكان يكرر دائماً، أنت مازلت لا تعرف الكثير لكن سمعك جيد. ما عليك سوى أن تعمل.

بدأت بالتساؤل، من يمكن أن يكون له في هذه المنازل هكذا طفل مولود حديثاً. لا شيء سيفاجئني بعد الآن، سأقول للسيد، حتى لو أحضر أحدهم طفلاً إلى الغابة. شرعتُ بتفتيش شجيرة تلو الأخرى والدوران حول الأشجار الأقرب. في هذه الأثناء لمحته راقداً أسفل شجرة الزان، آه، إنه (ريكس). لا بد أنه شمني وقد أن، بالرغم من أنه كان على وشك الموت. يجب أن يعلم السيد أن حاسة الشم تموت عند الكلب في النهاية. عندما

رآني حاول النهوض من نفاية النبات. لكنه لم يستطع. ومرة أخرى أخذ يئن مثل طفل. هل فيك بقية أم لا، بدأت أتعجب. لا، سأجلب المجرفة وأدفنك. قبر آخر في الغابة، لا يهم بعد الآن. سأعيد طلاء الألواح للجميع، ولوحك أيضاً. وحينئذ أطلقت عليه اسم ريكس. هنا يرقد ريكس. ليرقد كذلك بسلام. لن أنصب لك صليباً، رغم أن عذابك يستحق الصليب. وإذا به مرة ثانية يحاول النهوض شاقاً بمخالبه نفاية النبات التي أمامه. نظر إليّ، كما لو كان يتوسل إليّ ألا أتركه.

حسناً، أخذته من تحت بطنه وأوقفته على قوائمه. ظننت أنه سيقف، ربما سيأتي منه شيء ما. لم أصدق أنه سيقف. وماذا سيقول السيد، لقد وقف. جلد وعظم. كانت الديدان قد بدأت بنهشه فعلاً. كانت رقبته مغطاة بالحشرات والدماء بسبب الحبل الحديدي. الحشرات على عينيه. تسيل من بوزه رغوة دموية. ترنح وارتجف لكنه انتصب. قلت له: في هذه الحالة هيّا بنا، حاول أن تعيش. فككّ الحبل من رقبته وبدأت بإقناعه، قم بخطوة، وستذهب معي. الخطوة الأولى هي الأهم. فعل الخطوة لكنه سرعان ما انهيار. ماذا عليّ أن أفعل؟ حملته على ذراعي وهكذا سرت معه. غير أن يديّ أخذتا بالضعف. أيراه السيد، يا له من كلب كبير، رغم أنه كان نصف ما هو عليه الآن. ندمت لأنني لم آخذ سكيناً معي. كنت قطعت بعض العصي وعملت منها نقالة وسحبته بطريقة ما. من حسن الحظ، كنت أرتدي سترة [جاكيت]، خلعتها، ثم خلعت قميصي وربطته، ثبته بحبل، ووضعته عليه، جلست ثم حملته بطريقة ما على ظهري، وبصعوبة، لأنه بصعوبة، لكنني نهضت. وبهذه الطريقة جلبته.

بعد ذلك قمت بالاستفسار في المنازل عما إذا كان أحدهم فقد كلباً. لم يفقد أحد أي كلب. لقد أطعمته وعالجته، أوه، وأنت ترى أي كلب هو الآن. كنت أفكر فقط في ساكني أحد هذه المنازل ممن غادروا على عجل ولم يعودوا في الموسم التالي وقد باعوا منزلهم بعد ذلك. عندما أصبح المنزل لشخص آخر وبعد مرور بضع سنوات عندما كنا نذهب في جولة، كان (ريكس) يستلقي دائماً أمام المنزل في المشرقة، عند الباب. توجب عليّ أخذه من هناك لأن المالك الجديد لا يفهم سبب وجوده عند بابه.

وهذا (وابس) أنقذته من الغرق أيضاً. ذات مساء، في مثل هذا الوقت المتأخر من الخريف بعد الموسم، كنت أستمع إلى الموسيقى. عادة ما أطفئ الأنوار عندما أستمع إلى الموسيقى. فجأة سمعت كما لو أن أحد الأشخاص كان يقود سيارته على الشاطئ الآخر. كما يعلم السيد، يمكنني الاستماع إلى الموسيقى وسماع كل شيء أيضاً. خرجتُ إلى الفناء ولم أر أي ضوء. ظننت أنني سمعت بالخطأ. فجأة تناهت إلى سمعي طقطقة طفيفة، كما لو أن أحداً قد أغلق صندوق السيارة. من يكون في هذا الوقت؟ هكذا بهدوء ودون أضواء؟ إذا سأذهب لأرى. خطوات ببطء أيضاً حتى لا يسمعي قبل الأوان، فقد يتمكن من المغادرة. تعرفت عليه قبل الوصول إليه. نعم، إنه من تلك المنازل.

سألته: ماذا تفعل هنا؟

- إيه، لا شيء، حاول إيهامي. قدمت للتو لالتقاط شيء من منزلي، ولم أرغب في إيقاظ السيد. كانت الأضواء مطفأة، فصرت متأكداً من أن السيد نائم.

لم أكن نائماً. وقد سمعت صوت صرير في مكان ما. تطلعت حولي وإذا بي أرى كيساً في الظلام. ومن الواضح أن شيئاً ما فيه يتحرك. سألته: ما هذا الكيس؟

- قال: جمعت قليلاً من الأحجار. لدينا حديقة أمام الدار، وثمة أحواض من الزهور مؤطرة بالأحجار بشكل جميل جداً، وزوجتي رجنتني بالمناسبة كي...

قلت: أحجار تتحرك وتصيح؟ حقاً كانت هناك أحجار في الكيس أيضاً، أما أنها تتحرك وتصيح، فهذا ما لم يعرف كيف يشرحه لي. لقد انهار أخيراً:

- اغفر لي. هذا كلب صغير، جرو. جئت لأغرقه. اشتريته لحفيدي. بالتأكيد كان يريد كلباً صغيراً، أما الآن فهو لا يريده. ومنذ ذلك الوقت كلما جاء إلى هنا جلب معه شيئاً ما لهذه الكلاب، طعاماً جافاً، معلباً، لحماً بقرياً، ديكاً رومياً، أو سلمون. وليس فقط في موسم الذروة، ولكن أيضاً كان كثيراً ما يأتي في الشتاء ويجلب معه. أقول له: لا تجلب أي شيء، عندي هنا ما تأكله. إنه يفسد الكلاب عليّ فقط. وقال لي في وقت ما:

- أنت أنقذت روحي.

تعجبت من أنه أراد إغراق الكلب، ويتحدث عن الروح. خاصة أن الروح اليوم في رأيي هي سلعة مثل كل شيء. يمكنك شراؤها، وبيعها والتمن ليس باهظاً. وربما كان الأمر كذلك دائماً. قرأت في أحد الكتب، قال أحدهم قبل قرون: إن النفس البشرية هي كسرة رغيف. أعتقد السيد أن الخبز كان يمكن أن يكون باهظ الثمن؟ إذاً فلا عجب طالما أنه كذلك. وآسف أن أسأل، ربما يجب أن يعرف السيد السعر، كم هو اليوم ثمن الروح البشرية، آخذين بعين الاعتبار، على سبيل المثال، كلابي. أو هذه القبور في الغابة.

ألا يعرف السيد بوجود قبور في الغابة؟ كنت متأكداً من أن السيد ذهب لزيارة القبور. حتى إنني تساءلت من أين يعرف السيد هذه القبور. هل أخبرك السيد روبرت بذلك؟ طالما سمح للسيد بالبقاء في منزله، وقال أين يوجد المفتاح، وربما أين تقع القبور؟ لهذا لم أرد أن أقلق السيد. من غير السار دائماً أن تسأل أحداً ما عن هويته، ولماذا أتى، وإلى متى. ومع ذلك، يتعين عليّ في بعض الأحيان التأكد من بطاقة الهوية، لأنه لا يمكن الوثوق بكلام كل شخص. حتى إنني أطلب إبراز الإذن بالبقاء في منزل شخص آخر، خصوصاً إذا لم أر هذا الشخص هنا قط من قبل. لكن طالما أن السيد روبرت...

على الأقل ليقبل لي السيد كيف هي حالته الصحية. لا تعرف حضرتك السيد روبرت؟ إيه، لا يريد السيد الاعتراف بذلك. يجب أن يكون السيد روبرت هو الذي منعك. ظننت أنه أرسل السيد كي يحدثني عن أخباره، ربما هو مريض. ولم يكن بوسعه المجيء بنفسه. لذلك انتظرتك حتى تنام سيدي ثم تأتي إليّ. في حين ذهب السيد إلى الغابة. في البداية اعتقدت أن السيد ذهب لنزهة مشياً، للاسترخاء بعد عناء السفر، وتنفس هواء الغابة قليلاً، لكن السيد عاد أدراجه سريعاً. نظرت من النافذة إلى الفناء، خرجت مرة ومرتين، وقفت لكن السيد مع ذلك لم يعد ولم يعد. بدأ الغسق بالحلول، وقد حجب كلاً من البحيرة والغابة، وسيحل الظلام عما قريب، فكيف سيجد السيد طريق عودته؟ وهذا الأمر أقلقني. هذه هي المرة الأولى التي يكون فيها السيد هنا، لا يعرف السيد الغابة، وسوف تضيع. وسيكون عليّ الذهاب مع الكلاب للبحث عن السيد. وعلى كل احتمال أشعلت الضوء،

فربما سيقودك الضوء بطريقة ما. هل لاحظ السيد؟ بالضبط، نعم، ليس من الصعب أن تضيع هنا، خاصة في هذا الوقت من الخريف. في هذا الوقت ليس كل شيء هنا كما هو على حقيقته.

أنا نفسي كدت أفقد طريقي إلى هنا. نعم، الشيء الذي أوقفني في الطريق حيث هو هذا الضباب. حيث الصمم، الفراغ، وأنا ذهبت كذلك إلى الغابة لمعرفة أين هي هذه القبور. هذا ما جئت من أجله في ذلك الوقت. لم أعرف بالضبط أين تقع أكثر من كونها في الغابة. السيد روبرت وهو يحدثني عن تلك القبور أشار بيده فقط إلى الغابة، هناك. بيد أن الغابة شاسعة وما عليك سوى أن تبحث. لو أنها في مكان واحد، لكنها متناثرة هنا وهناك. مشيت طوال اليوم تقريباً، حتى إنني لا أتذكر كم عدت منها حيثئذ. ولم ألاحظ كيف بدأ الظلام يحل. خاصة وكما يعرف السيد أن الظلام لا يحل فوراً. يتراءى للمرء لفترة طويلة أنه يرى. وبما أنه يرى... عرفت الغابة وبطريقة ما عدت عبرها في الظلام. ليتخيل السيد لم أكن أعرف أين أنا حتى خرجت إلى البحيرة. في هذه الضفة أو تلك. تذكرت أن (روتكا) كان يجري من هذا الجانب والآن بدا لي بالعكس. لاحظت البيوت في الظلام لكنني لم أعرف أيّاً منها كان بيت السيد روبرت. وهكذا وقفت ووقفت ولم أتمكن من إيجاد نفسي تماماً. حتى فقدت يقيني في أنني أقف هنا، حيث كنت أقف.

فجأة، لمحت نوراً ما يلوح في البعيد. كان خافتاً وبالكاد مشتعلًا. اعتقدت أن شخصاً ما يسير هناك ويضيء الطريق بمصباح يدوي. لكن كيف أناديه، هل سيسمعني من هذه المسافة، طالما أنني نفسي لا أعرف أين أنا؟ فجأة صار الضوء أكثر سطوعاً واستقراراً ثم أصبح أكثر قرباً. كما لو وقفت على هذا الجانب من روتكا والضوء كان يلمع على الجانب الآخر. حينها، يعرف السيد، ظننت أنهم على ما يبدو يقشرون الفاصولياء عندنا. ليتخيل السيد، أنهم كانوا يقشرون بالفعل.

بدأ تقشير الفاصولياء عندنا من النور دائماً. غسلت الأم الصحون بعد الغداء، كنست ومن ذلك الوقت حتى الغسق همدت ومسبحتها في يدها بين السرير والخزانة. الجدة عادة ما أخذت قسطاً من القيلولة. والجد خرج إلى المزرعة للتحقق مما إذا كان كل شيء على ما هو عليه. انتظر الجميع هذا

الغسق حيث كان من المقرر أن تُقشّر الفاصولياء. كان والدي جالساً على المقعد بجوار النافذة نافثاً سجائره الواحدة تلو الأخرى محدقاً في النافذة كما لو كان يبحث عن شخص ما. الغسق حجب كل شيء أما هو فنظر ونظر إلى النافذة. بدا كأنه يحدق في هذا الغسق. لكن هل من المعلوم إلى أي شيء ينظر المرء؟ يُفترض أنه ينظر إلى هذا أو ذاك لكنه ربما ينظر إلى نفسه. أوه، للإنسان مناظر في داخله أيضاً. لكنه ربما ينظر في الغسق وكيف يتكثف الجو. ستقول: ما الذي يمكن أن يكون شيئاً في مثل هذا الغسق؟ حسناً، سأقول للسيد، عندما أشاهد كيف يحل الغسق أحياناً، أتساءل عما إذا كان هو نفس الغسق الذي نظر إليه والدي. فهل هذا قليل؟ أو كما لو أنه كرر من حين إلى آخر رؤيته:

- أوه، لقد أصبح النهار قصيراً. قصيراً جداً. ولم يعد يستوعب أي شخص. لم ينته بعد، وها هو الليل. ولم كل هذه الليالي؟ لأجل ماذا؟ - والتفت إلى والدتي قائلاً وهو يطفئ سيجارة أخرى: أشعلي الضوء.

قامت أمي من التسبيح. رفعت الفانوس من المسمار الموجود على الحائط. تحققت مما إذا كان النفط فيه كافياً لوقت التقشير. أحياناً كانت تسأل والدي:

مكتبة

t.me/soramnqraa

- هل أضيف إليه؟

ويجب والدي كالعادة:

- أضيفي. ولم يتردد مطلقاً في تذكيرها بتشذيب الفتيل لأنه ربما قد احترق. نظفت الزجاج لأنه كان مُسخماً منذ يوم أمس. لا داعي لذلك. لأن أمي كانت ستفعل ذلك على أي حال. شكل تحضير الفانوس نهاية اليوم بالنسبة لها. ربما هو نوع من الشكر لأنها عاشت يوماً آخر. لقد أولت كل رعايتها في التحضير أيضاً كما لو أن عيشها لليوم التالي يعتمد على هذه العناية. وعندما لمست الفتيل بالثقاب ارتجفت يدها وتجمد وجهها من التركيز. كانت قد وضعت الزجاج بالفعل على الفانوس ومازالت تنظر لترى ما إذا كانت النار في الفانوس قد اشتعلت. وعند ذلك أدارت الفتيل قليلاً وفي عينيها المضاءتين خلف النظارات السلوكية كان هناك من عدم التصديق في أن معجزة النور قد انبثقت من يدها.

لن يصدق السيد أنني كنت أتطلع إلى هذه اللحظة التي تشعل فيها والدتي الفانوس. بدأ الغسق يتدحرج بالكاد خارج النوافذ، رجوتها: - أضيئي، يا أمي، أضيئي. لا أستطيع أن أشرح ذلك لنفسي، لكنني أردت أن يضيء أول مصباح في القرية كلها في نافذتنا. أوقفها والذي بحجة أن الوقت لم يحن بعد لأننا مازلنا نرى. كان جدي وجدتي متناغمين في ذلك: بالإضافة إلى خسارة النفط. أما عمي فنهض لشرب الماء، مما يعني أنه ليس بحاجة إلى أي ضوء على الإطلاق. بينما ظهرت في عيني أمي من خلف النظارات السلكية ابتسامة لا هي بالتساهل ولا بالتفهم لإصراري على الإضاءة.

عندما بلغت أمي المسمار على الحائط من أجل الفانوس، انسللت من البيت إلى ضفة (روتكا) وانتظرت هناك حتى تنبثق في نافذتنا معجزة النور من يد أمي. بدا لي أول ضوء في نافذتنا بالقرية كلها كأنه الأول في العالم. دعني أخبرك، الضوء الأول مختلف تماماً عن ذلك الذي ينير هنا وهناك في كل النوافذ وفي شتى المنازل. سطوعه مختلف ولا يهم إن كان مصدره من النفط أو من الكهرباء. خافت كأني نور لفانوس نفطي وثمة انطباع بأنه لا ينير فحسب، بل إنه حيّ. لأنه حسب اعتقادي هناك أضواء حية وأخرى ميتة. منها ما يضيء فقط وأخرى تتذكر. منها ما يصدّ ومنها ما يدعو. ما ينظر ولا يعرف. ما لا يهمه لمن يضيء، وأخرى تعرف لمن. ومنها حتى لو أضاءت بوضوح أكبر لكنها عمياء. وأخرى بالكاد تشتعل لكنها ترى حتى نهاية حياتها. تخرق كل ظلام. وتستسلم لها أحلك ظلمة. لا حدود لها، لا وقت ولا مكان. إنها قادرة على استحضار أقدم ذاكرة ولو كانت مبددة أو حتى لو أن الإنسان محروم منها. لا أعرف هل يتفق السيد معي، الذاكرة في رأيي هي بمنزلة ضوء نجم منطفيئ قديماً قادم إلينا. وليكن من مجرد فانوس نفطي. سوى أنه ليس قادراً دائماً على الوصول إلينا أثناء حياتنا. يعتمد ذلك على المسافة التي يحلق منها وعلى حجم المسافة التي تفصلنا عنها. لأنها ليست بمسافات متساوية. وربما كل شيء هو ذاكرة. كل عالمنا منذ أن وجد. ونحن كلانا هنا أيضاً، وهذان الكلبان. ملك من؟ لا أعلم.

على أي حال، عندما رأيت هذا الضوء عرفت أين أتواجد بالفعل. خاصة عندما قشرنا الفاصولياء كانت أمي تدير ضوء الفانوس على طول الفتيل

تقريباً. وهي لم تتردد قط في سؤال والدي عما إذا كان عليها أن ترفع اللهب أعلى. ومع ذلك كانت تعرف أنه في كل الأحوال سيقول لها: - اجعليه أطول. سيكون كافياً بهذا القدر لنا، لكن بالنسبة لعينيك يجب أن يكون أطول. بعد ذلك قامت بفرش القماش على الأرض ووضعت مقعدة في منتصفه، ووضعت عليها الفانوس، بينما خرج أبي من أجل حزم الفاصولياء. لذلك عندما رأيت الضوء صار أكثر سطوعاً وظل ساكناً علمت أن والدتي قد وضعت الفانوس على المقعدة وأبي خرج من أجل حزم الفاصولياء. توقفت فقط للحظة أمام الباب لأنني لم أكن أعرف ماذا سأقول عندما أدخل. بعد كل هذه السنوات لم يعد أحد يتوقعك، ماذا سأقول ولماذا أتيت؟ ومع ذلك صارعت أفكارى: هل أدخل أم لا عندما أعبّر العتبة؟ وأصعب شيء هو اجتياز عتبة النفس، كما يعرف السيد. في النهاية، ارتأيت من الأفضل أن أدخل وأسأل عما إذا كان لديهم فاصولياء للبيع.

كانوا يتحلقون حول هذا المصباح الزيتي، الأب، الأم، الجد، الجدة، كلتا الأختين (ياغودا) و(لئونكا)، والعم (يان) الذي مازال على قيد الحياة. هو الوحيد الذي قام عندما دخلت وشرب الماء. شرب كثيراً من الماء قبل وفاته. أما هم فتجمدت سنابل الفاصولياء في أيديهم جميعاً. وقفت خارج دائرة ضوء الفانوس بجوار الباب مباشرة، وكانوا جالسين أسفل الشعلة بحيث تمكنت من رؤيتهم جيداً. ومع ذلك لم تظهر على وجوههم ابتسامة، ولا تعجب، أو حتى تقطيب. نظروا إليّ لكن كما لو كانت عيونهم ميتة، ولم يكن هناك أحد ليغلق جفونهم. وفقط هذه السنابل التي في أيديهم دلت على أنهم يقشرون الفاصولياء. حسناً، ولم يتعرفوا عليّ.

وهل يريد السيد كثيراً من هذه الفاصولياء؟ يمكن أن تتوفر لدي بقدر ما. إلا أنها غير مقشرة. لكن إذا ساعدني السيد سيكون بإمكاننا تقشيرها. ألم يقشر السيد قط؟ إنه ليس بهذه الصعوبة. سأريك. ستعرف بعد بضع سنابل. سأذهب لجلبها.

هل جاء حضرتك بمحض إرادته أم أن شخصاً ما قد أرسلك؟ لا، لا أعرف من يمكنه أن يكون. اعتقدت أنه السيد روبرت. مع ذلك، فالسيد ينفي معرفته بالسيد روبرت. أنا أتساءل فحسب: إذًا، كيف عرف السيد مكان مفتاح منزله؟ ليس هكذا. أوه، فليُنظر السيد هنا إلى يديّ. على السيد أن يمسك السنبلة باليد اليسرى، لكن ليس بشكل مسطح، نعم، هكذا، وبيمينك، بالإبهام والسبابة تقوم بالتقشير. بعدها تدخل إبهامك وتمضي به حتى النهاية. كما يرى السيد لقد قفزت الحبوب كلها. ليَجرب السيد. سأجد لك أجمل سنبلة حالاً. تفضل، هذه مستقيمة وكالفلفل يابسة. نعم، بالإبهام. والآن؟ كما يرى السيد هذا ليس صعباً. سيكون حالك أفضل مع التالية. وسيتحسن مع كل واحدة لاحقة. فقط حافظ على استقامة إبهامك مع توجيه ظفرك للأمام. الإبهام هو أهم إصبع عند التقشير. مثل المطرقة عند دق المسامير أو الكماشة عندما تريد حضرتك سحب المسمار. أحياناً كان جدي يكرر عندما قشرنا الفاصولياء أن على الإبهام أن يكون إصبعاً إلهية. إبهام اليد اليسرى فقط مهم بالنسبة للساكسفون أيضاً، إنه يخدم رفرفة جواب القرار.

بالطبع، ونحن الأطفال قشرنا كذلك. ومنذ سن مبكرة. مازلنا لا نعرف كيف نمسك الأواني من آذانها لكنهم دربونا على تقشير الفاصولياء. عادة ما وضعوا (ياغودا) بجوار الجدة، و(لثونكا) بجوار الوالدة، وأنا الأصغر سنّاً وضعوني في الوسط بين أمي وجدتي. لم نتمكن من تقشير السنبال الأكثر جفافاً. كانت أمي أو جدتي تقشر بأيدينا وبأصابعنا قشرة السنبلة، وتنزع بإبهاماتنا الحبوب منها. وبدا كأننا نحن وحدنا عملنا ذلك.

أعترف للسيد بأنني عندما كنت طفلاً كرهت تقشير الفاصولياء. ونفس الشيء بالنسبة للأختين، هما كرهتا أيضاً. لقد تجنبنا ذلك بأفضل ما نستطيع. الأختان أكثر، متذرعتين بوجود ألم في البطن والأخرى بسبب الصداع. أما أنا فانتابتني أفكار مختلفة. ذات مرة، أوه، جرحت هذا الإبهام بالزجاج. وعندما بدأنا بالذهاب إلى المدرسة، حسب الأقدمية، ياغودا، لثونكا وأنا، كان علينا كالعادة أن نعمل الواجب المدرسي لدروس يوم غد وقد أعطونا كثيراً. إذا قشرنا لن نعمل واجبنا المدرسي. وكان قلب الوالدة يضعف إزاء العلم على الفور. قالت: في هذه الحالة اذهبوا للتعلم، ستتدبر أمرنا بطريقة ما. كانت الجدة عندما يتعلق الأمر بالعلم تحيل الأمر إلى الله، وإذا لا يعطي الله فلن ينفع العلم. نهض العم (يان) كالعادة وشرب الماء، بحيث كان من الصعب استنتاج ما إذا كان مع العلم أو مع تقشير الفاصولياء. في حين رفع والدي تقشير الفاصولياء إلى مستوى العلم:

- أوه، يا له من علم. علم العلوم. ليست الحسابات أو اللغة البولندية ولا غير. هذا علم لكل العمر. أما الحسابات والبولندية فستتبخر من رؤوسهم. لن ينجذبوا إلى الحسابات ولا إلى البولندية عندما يصبحون وحدهم. لا للمحاسبة ولا للغة البولندية.

والجد عادة ما كان يعود إلى الحرب لأنه أحب الاستناد إليها. حدثنا ذات مرة، أنه قديماً، فيما مضى، حدثه جده: كانت الحرب قائمة وهم يقشرون الفاصولياء. فجأة، حصل دوي على الباب: -افتح!- نحن جنود. عيونهم محتقنة بالدم. الوجوه غاضبة. كانوا سيقطعونهم إرباً وكأن شيئاً لم يكن. لكنهم رأوا الجميع يقشرون الفاصولياء، فلذلك نزعوا بنادقهم وفكوا سيوفهم، وطلبوا المقعدات ثم جلسوا عليها وشرعوا بتقشير الفاصولياء معهم.

أما فيما يتعلق بالسيد روبرت فلا يمكنني القول إنني عرفته جيداً. لم تتمكن بطريقة أو بأخرى من أن تكون صريحين بعضنا مع بعض. على الرغم من معرفتنا عبر سنوات فإننا لم تنتقل إلى مخاطبة بعضنا بعضاً بلا رسميات. كان لديه محل هدايا في المدينة... لكن ما هي؟ لن أخبر السيد بذلك لأنني لم أكن في هذا المحل. الشيء الوحيد الذي يمكنني قوله هو أنه في رسائله لي كان يسخر من تلك الهدايا التذكارية. كتب أنه لن يشتري أبداً شيئاً من

هذا الذي يبيعه. وأنه إذا كان لهذه الهدايا التذكارية أن تشجع على التذكر فمن الأفضل عدم التذكر.

تعرفت عليه خارج الحدود. في إحدى الأمسيات، دخلت مجموعة ضيوف من النساء والرجال إلى المحل الذي عزفت فيه. كان اليوم هو الإثنين، وعادة لا تكون كل الطاولات مشغولة في يوم الإثنين. لكن في أيام الأسبوع الأخرى كان لابد من الحجز مسبقاً. أما بالنسبة إلى العزف فكنا مع ذلك نعزف كل مساء، حتى لو جلس على إحدى الطاولات شخص واحد.

شغلت المجموعة طاولتين بالقرب من منصة الأوركسترا. كان من الممكن ألا أنتبه إليهم لولا سماعي أنهم يتحدثون باللغة البولندية. تصرفوا بحرية كما لو أرادوا جلب الانتباه لهم. تقاذفوا الكلمات من طاولة إلى أخرى ومما فهمته هو أنهم كانوا ضمن رحلة بالحافلة. لقد فحصوا طويلاً قائمة الأكلات وتبادلوا أسعارها بصوت عال، متعجبين من الوجبات الأكثر تكلفة: انظروا كم سعرها! دعونا نحسبها بعملتنا. يا إلهي، عندنا لمدة شهر مقابل هذا المبلغ، ناهيك عن الأكل في المطاعم الشعبية الرخيصة. لكن سيكون لديك الكثير لقوله إن كنت في مثل هذه الأماكن في الخارج. وليس فقط عن القلاع والكاتدرائيات والمتاحف والمناظر. هيا، دعونا نطلب الأغلى. وإذا لم يعجبنا؟ سيكون، سيكون، بهذا السعر يجب أن يكون. وربما بعض الفودكا. لأجل ماذا؟ نحن لدينا منها. لكن على الأقل كأس واحدة كبداية. بعد كل شيء يجب أن يكون لدينا كؤوس. لدينا كؤوسنا الخاصة أيضاً. وإذا لاحظ ذلك شخص ما؟ كيف سيلاحظ؟ الفودكا شفافة في كل مكان.

نادوا النادل وطلب كل واحد منهم بدوره ما يريد من القائمة مشيراً إليه بإصبعه. طلبوا كل ما هو غالٍ، حتى انحنى النادل على النصف بسبب هذه الأسعار. كانت هناك بعض الضراوة في اقتحامهم لأغلى الأطباق وشيء ما من الاستسلام في الوقت نفسه. مع ذلك، لم تكن لدي رغبة في التقرب منهم. لقد تجنبت مثل هذه اللقاءات.

حصلت استراحة. انتهت الاستراحة وكنا على وشك البدء بالعزف وفي

هذه الأثناء ارتفع من إحدى الطاولات صوت واتضح فيما بعد أنه السيد روبرت. اقترب من الأوركسترا وبدأ يتحدث بخليط من الكلمات، لكن لم يفهمه أحد. ترددت، هل أكشف عن نفسي أم لا. أراد أن يطلب لحن التانغو وسأل كم سيكلف هذا الطلب. فهموا كلمة التانغو، أما كم سيكلف فلا. ومن دواعي سروري أو لا، قلت له سنعزف له لحن التانغو وهذا لن يكلف شيئاً.

- السيد يتحدث البولندية؟ وعلى الفور مديده لي. أنا روبرت.

كانت مَعبرة الساكسون في فمي فلذلك لم أرد عليه بالمثل. بدأنا بعزف التانغو. اقترب من الطاولة الأولى ثم الثانية وقال شيئاً ما وهو يشير إليّ. بدأت من كلتا الطاولتين تنظر إليّ وجوه مبتسمة. ثم دعا إحدى النساء إلى الرقص. لم يقدها إلى الوسط، لكنهما رقصا في أقرب مكان من الأوركسترا كأنه لم ير دني أن أغيب عن نظره. حضنها كما في رقصة التانغو مرسلًا لي من خلف رأسها الابتسامات مراراً وتكراراً كما لو كنا نعرف بعضنا بعضاً جيداً. كنت غاضباً على نفسي، لأنني عرفت أنه لن يتركني وشأني.

وهذا عين ما حدث. لقد أخذني إلى طاولته أثناء الاستراحة التالية، ولو للحظة، من أجل تبادل هذه الكلمات القليلة مع ابن بلدي. لم أستسلم لإغراء أي نخب من أجل هذا اللقاء السعيد. ومع ذلك عندما بدأوا في إغراقي بالأسئلة من كلتا الطاولتين، ندمت لأنني كشفت عن نفسي عندما طلب لحن التانغو. هل السيد هنا بشكل دائم؟ وهل السيد منذ زمن طويل؟ وما الذي حدا بك أن تأتي إلى هنا؟ وكيف استطاع السيد الدخول إلى هذه الأوركسترا؟ على الفور أم كان عليك غسل الصحون أولاً؟ وإلا لتوجب أن يكون لديك علاقات. الجميع هنا يبدؤون من غسل الصحون، وهذا في أحسن الأحوال. وسيكون من حسن حظ الشخص أن يصبح نادلاً فيما بعد. وهذا كثير! كثير جداً! آه، أنت تعيش هنا بثقة، تعيش. في مثل هذا المحل. هناك رقصات في كل مساء. وهم يدفعون عليها كما يدفعون مقابل العمل، وليس كما... حتى إن أحدهم سألني:

- ليقل السيد بصراحة، هل أنت سياسي؟ هل هرب السيد؟

قلت له: كلا.

- خلاص، أنا عرفت! خلاص لقد عرفت!

قالت إحدى النساء كما لو أنها اكتشفت أخيراً سبب وجودي هنا.

- لقد أتى السيد من أجل امرأة بالتأكيد. هيا؟ هيا؟ اندفع الجميع نحوي تقريباً، بانتظار ما سأقول.

استدارت نحوي من الطاولة الثانية امرأة أخرى لم تسألني عن أي شيء من قبل، متنهدة:

- آه، ما الذي لا يقدر عليه الحب.

- قال السيد روبرت ساخطاً: الحب، الحب، اللعنة على الحب.

من يستطيع تحمل الحب اليوم. السرير ولا شيء أكثر.

- واحتجت قائلة: لا تقل هكذا. الحب هو أهم شيء في الحياة.

لحسن الحظ، أعطوني إشارة من الأوركسترا بانتهاء الاستراحة. لم تنته القضية عند هذا الحد. يمكن القول، إنها بدأت للتو. بعد مرور عدة أسابيع واصلتني معaide من السيد روبرت على عنوان المحل، يشكرني فيها على الأمسية التي لا تنسى وأنه سعيد لتعرفه عليّ وأنه سيكتب لي رسالة قريباً. أحبته ببطاقة، دون أن أتوقع أي شيء، بأنها كانت أمسية لطيفة بالنسبة لي وأنا سعيد بالتعرف عليه أيضاً. لكن دعني أقول للسيد، لا يمكن أن تكون مهذباً جداً. أنت لا تعرف أبداً ما إذا كنت لا تضع فخاً لنفسك حتى بالمجاملة البسيطة. لكن يبدو أنه أصاب بهذه البطاقة شيئاً لم يلتئم في داخلي بعد. لم أحصل على أي بطاقة من أي شخص هناك قط.

بعد فترة واصلتني منه تلك الرسالة الموعودة. طويلة وحميمة. دعاني فيها للسفر إليه في العطلة. كتب لي أن لديه منزلاً صيفياً عند بحيرة ما. تحيط بها الغابات. عزلة تامة، صمت، هدوء، بعبارة واحدة، إنها روعة، هكذا وصفها. حتى لو كان صحيحاً أن امرأة ما قد هجرتني، تحدثنا عنها في حينها، فإنني هنا سأنساها. لأنك يمكن أن تنسى كل شيء هنا. يصبح الإنسان مرة أخرى جزءاً من الطبيعة، بدون التزامات، بلا ذاكرة. على أي حال، توجد وفرة من النساء هنا أيضاً، إذا أردت فسوف يختار لي واحدة مناسبة كي أتمكن من مواساة نفسي بعد تلك. والغزلان تأتي إلى هنا في يومي السبت والأحد. أو في العطل. حتى إن بعضها تقضي الموسم بكامله هنا، بحيث لا يتعين عليك

بذل مزيد من الجهد، لأنها تقع بين يديك طائعة. لن يصاب السيد بخيبة أمل، خاصة أنك من خارج الحدود.

وفي رسالته الثانية التي وصلت بعد تلك مباشرة، وكانت أطول، دعاني إلى المجيء على الأقل لجمع الفطر، ويتوقع وفرة منه. يوجد مكان لتجفيفه، عنده سخان تراكمي في المخزن. أكيد أنا أحب جمع الفطر، ومن لا يحب ذلك. هو يعشقه. عدا النساء، لا شيء يثيره أكثر من قطف الفطر. ببساطة ستغمره الغيرة إذا وجد أحد الأشخاص فطر البوليط المأكول وهو لم يجد شيئاً أو مجرد نوع عادي، وسيتمنى له في أعماقه أن يكون البوليط متوسساً. هل يمكنك أن تحس بالطبيعة أكثر عمقاً من ذلك؟ أوه، الإنسان، الإنسان، بمجرد التفكير يصيبك الذعر. لكن المرء يرتاح بشكل أفضل أثناء جمع الفطر. حينئذ لا يفكر في أي شيء، لا يتذكر أي شيء، لأنه يركز جميع حواسه على البحث عن الفطر فقط. يمكن القول إن العالم كله يصير بحجم هذا الفطر. وعليه إذا أردت الاسترخاء بالفعل، فمن الأفضل ألا يكون كثير من الفطر. فهو عندما يريد أن يرتاح يذهب إلى الغابة، حتى لو لم يكن الفطر موجوداً. يحمل سلة وسكيناً ويبحث.

كنت سأمنحه فرحة كبيرة لو كنا كلانا معاً. لقد أحببت السيد. شعرت في ذلك المساء للوهلة الأولى بإمكانية أن نصبح صديقين. أقيم الأشخاص الذين أعرف منذ البداية أنه لا يمكن تخمينهم بسهولة، إذا كان مثل ذلك ممكناً أساساً. أدعوك بحرارة. منزلي فيه كل وسائل الراحة. هناك ثلاثة وراديو وتلفزيون. يوجد حمام فيه دش وسخان، يكفي تشغيله وبعد لحظة سيتدفق الماء الدافئ. توجد غرفتان للنوم في الطابق العلوي، لن نزعج بعضنا بعضاً. إذا أردت المجيء مع شخص ما يمكنني أن أنام في الطابق السفلي على الأريكة. أو سأخذ إجازة في وقت مغاير ولا آتي إلا في يوم السبت أو الأحد. لدي قارب، يمكننا السباحة. وإذا أراد السيد قارب الكاياك فيمكننا استعارته من الجيران. حتى مع الجارة. هي ليست قبيحة ولديها رغبة في التجديف. جاري مدير وهو بعد نوبتين يجلس طوال اليوم في البيت لأن الشمس تضربه. ولا عجب في أنها تشعر بالملل. والنساء الأكثر رغبة يشعرن بالملل. يجب عليّ أن آتي. وحينئذ يكفي أن أكتب له متى.

كُتبت له جواب شكر على الدعوة، مع الإشارة إلى أنني لا أستطيع في الوقت الراهن. كما هو يعلم أنا أعزف في الأوركسترا، ولست معتمداً على نفسي. وفي مثل هذه الأماكن نادراً ما يكون لدى الفرق الموسيقية عطل طويلة. هذا يحصل فقط في حالة تجديد المبنى أو تغيير المعدات. وظننت أن هذا سيصرفه عن الموضوع.

لكنه بعد فترة أرسل لي رسالة أخرى. ونفس الشيء. أدعوك، فقط قل لي متى. أما أنا فأرسلت له بطاقة بريدية: شكرًا لك، أحبيك مع أجمل الأمنيات، لكن دعنا نؤجل ذلك حتى يكون لدي مزيد من الوقت. ومع ذلك لم يشعر بالتشيط. أرسل لي رسالة تلو الأخرى وكان يدعوني في كل واحدة منها دائماً.

في إحدى رسائله أعطاني رقم هاتفه وطلب مني إعطائه رقم هاتفي لأنه سيكون سعيداً بالاتصال بي أحياناً. لم يكن من الصواب أن أرفض، لكنني بينت له أنه سيكون من الصعب الحصول عليّ في البيت. لدي بروفات حتى الظهر وفي الأمسيات أنا أعزف، والحياة تتطلب وقتاً وجهداً، والسيد يعرف ذلك جيداً. لكنه اتصل بي، كما اتضح، في نفس اليوم الذي استلم رسالتي:

- أتصل وأتصل منذ الصباح. حقاً، إنه لمن الصعب العثور عليك. مع ذلك فالصوت يبقى صوتاً. أما الرسالة فهي خرساء على الرغم من كل شيء. لا يمكن مقارنتها بالصوت الحي. عندما أسمع السيد أحس كأننا التقينا مرة أخرى. هل اتخذ السيد قراره متى سيجيء؟

وهكذا استمر الحال لسنوات. قدر ما استطعت قمت بتأخير جوابي على رسائله وبطاقاته. وبعد ذلك اعتذرت له، متذرعاً بهذا السبب أو ذاك، وربما سيفهم السيد. لقد فهم، وكيف لا. بيد أنه دعاني بحماس أكبر في رسالته التالية. كتب لي في إحداها أنه قام بتغيير جهاز التلفزيون إلى تلفزيون ملون ومن أي ماركة هو وكم حجم شاشته. وذكر في رسالة أخرى أنه قام بتغيير شيء ما، وكان في كل رسالة ينتقي صوراً أقوى وأقوى لترغيبني. أما أنا فشعرت بعدم ثقة متزايد كل مرة. سأقول للسيد، إنني بدأت أخاف منه، شاكاً فيه، لكنني لم أعرف في أي شيء. كان يجبرني إلى شيء هو الوحيد الذي

كنت متأكداً منه. وربما تراءى لي ذلك فحسب، لأن عدم الثقة بالناس كان السور الدفاعي الذي أقمته لنفسى.

أصبح أكثر وداً مع كل رسالة، وشاعرياً تقريباً، ومنفتحاً جداً على العالم لدرجة أن ذلك أرعبنى. كتب لي في إحدى رسائله: لا يمكنك أن تتخيل كيف تصل رائحة الصمغ من الغابات إلى هنا، خاصة في الصباح. إن الاستنشاق وحده يدخل البهجة إلى النفس. حتى جراد البحر يوجد في البحيرة وهذا أفضل دليل على نقاوة الماء. والغزلان أصبحت أكثر ثقة بالناس لدرجة أنها تأتي للرعي بين المنازل. لدرجة أنها تسمح بمداعبتها. ذات مرة كتب لي أن البومة حطت على النافذة. وأنه فتح النافذة طوال الليل لأن الجو كان خانقاً. وحينما استيقظ ألقى أحد الطيور على إطار النافذة وتصور ذلك حلماً. نهض، أشعل المصباح اليدوي وصوبه نحو عينيها، ماستان، أقول للسيد، إنهما ماستان. وفي مرة أخرى، كان يستريح على الشرفة فاقترب منه سنجاب، وقف على قائمته الخلفيتين ونظر كل منهما إلى الآخر. لم يستطع أن يغفر لنفسه أنه لم يكن لديه فول سوداني. فقط ها هنا يتمكن من رؤية كيف يبدو شروق الشمس وغروبها. وهذا مختلف عما هو عندي في مدينتي الكبيرة. ربما لم يعد مثل هذا في أي مكان بعد الآن. لو لم يكن لديه منزل هنا لما عرف كيف يبدو شروق الشمس وغروبها وما الذي فقده الإنسان إلى الأبد. وإلا فماذا يمكن أن يراه في المدن؟ ماذا يرى من متجر الهدايا الخاص به؟

بطبيعة الحال، كان بإمكانى تخمين مكانه بسهولة من مجمل رسائله عبر سنوات، لكنه لم يخطر في بالي أنه هنا. لحسن الحظ، منذ فترة أخذ يكتب أقل فأقل، ورسائله صارت أقصر فأقصر ولم يدعوني بشراسة كالسابق، لذلك اعتقدت أن معرفتنا العرضية ستذبل قريباً. خاصة أنه لم يكن لدي سبب لأتساءل عما إذا كان موجوداً هنا. أوه، حدث ذلك وانقضى، كما يحدث في كثير من الأحيان. وإذا كان هناك لعبة من جانبه فربما أدرك أخيراً أنه لم يجد في شخصي شريكاً له.

كانت البطاقات وحدها تدور بيننا محملة بالتحيات والتمنيات. كتب في بعض الأحيان فقط، في مكان ما على الهامش، إذا كان بوسعه تصديق أنني

سأجيء إليه يوماً ما. أو أتمنى أن يأتي السيد في وقت ما. أو أرجو التفكير في أن الوقت ينفد والنوايا غير المنجزة في ازدياد. لكن ما أقلقني هو انقطاع المكالمات التلفونية أيضاً.

بدأت أتساءل عما إذا كان قد حدث له شيء ما. ربما يجدر بي ولو الاتصال به؟ مع ذلك لم تكن لدي الشجاعة. لذلك عندما رن هاتفي أخذت السماعه على أمل أن يكون هو. قبل ذلك لم أكن راغباً في الرد على رسائله، بطاقاته، وكان من الصعب عليّ الإقدام على ذلك، والآن عندما رن الهاتف أردت أن يكون هو. حاولت أن أشرح لنفسني بطرق مختلفة سبب صمته. على الرغم من أنني لم أكن أعرف شيئاً عنه تقريباً. على الرغم من استفاضة رسائله لم يكن هناك أي اعترافات، ماعداً أن لديه منزلاً صغيراً على البحيرة في الغابات، ومحلاً لبيع الهدايا في المدينة. كما لو أنه قد وضع لنفسه خدوداً صارمة على ما يمكن أن يكتبه لي. على أي حال، مثلي أنا. طيب، لكنني كنت بمنزلة الجانب المكروه في علاقتنا.

مرّ عام، وانقضى آخر. وإذا برسالة تصلني منه بشكل غير متوقع، رسالة ودية، طويلة مستفيضة وملئمة بالإغراءات نفسها كما في الأيام الخوالي. كتب: إنني لا أتصور كيف أن هذا العام هو عام الفطر. ثمة البوليط [الهز نوع]، البوليط المأكول، الكُويزي [القوَّع]، فطر الفراشات، وأبو القبة. لا أحد يجمعه هناك. وماذا يخاف الناس؟ بالنسبة لي، لا يهمني هل هي من القبور أم ليست من القبور. كلها فطر. من يتساءل ماذا هناك في داخل الأرض تحت التراب. من يفكر في ذلك، لا يتعين عليه أن يمشي ولا يقود سيارته ولا يبني المنازل ولا حتى أن يحرث الأرض ويزرعها، لأن العالم السابق موجود بأسره هناك. سيتعين علينا الطيران فوق الأرض أو حتى الخروج منها. لكن إلى أين؟

الكل يجمعون، يجففون، ينقعون ويقلون. وفي المساءات، يوجد الفطر هنا وهناك. نصف قنينة فودكا أو أصغر. ليس لدى السيد فكرة كيف هذا ممتع. هل أكل السيد الفطر المخلل؟ هو نادر. توجد هنا امرأة بارعة يمكنها أن تخلل وهي الوحيدة. فطر الهدبان هو الأفضل للتخليل. وإذا جاء السيد فسيكون ذلك في الوقت المناسب. من فضلك، أعلمني على الفور. ليأتي

السيد، على الأقل، من أجل هذا المخلل، أدعوك. تحدثت معها وستخلل إذا جاء السيد.

هناك حيث القبور، لقد صدمني ذلك. التقطت سماعة الهاتف بشكل لا إرادي للاتصال به، سأجيء. وفي نفس اللحظة وضعتها في مكانها. وهكذا منذ ذلك الحين كل يوم تقريباً، أرفعها وأغلقها، سيكون من الأفضل غداً. على الرغم من أنه في كل مرة كان ثمة شيء يقول لي: إذا لم تفعل الآن فلن يحدث ذلك أبداً. ثم أغلقها وقلت غداً. ذات مرة، أدت رقمه، انتظرت حتى الرنة الثانية وأغلقته السماعة. وفي إحدى المرات حتى سمعت صوته في السماعة: - هالو، هالو! يا للجنة، أحد الأشخاص لا يمكنه الاتصال مرة أخرى. اللعنة على هذه الهواتف!

جاهدت بصعوبة كي لا أقول له: هذا أنا يا سيد روبرت. وفي إحدى المرات حصلت على يوم إجازة، سكبت لنفسني كأساً من الكونياك وشربتها. ثم شربت الثانية والثالثة. سيد روبرت؟ هذا أنا. أنا قادم. لحظة صمت في سماعة الهاتف، اعتقدت أنه على ما يبدو متفاجئ، بعدها كما لو بتنهيدة: - وأخيراً. ماذا حدث لأن تتخذ حضرتك قراراً في النهاية؟

لقد شجعني مخلل الفطر، يا سيد روبرت. لم أتناول مخلل الفطر قط. - فقط عليك أن تعطيني إشارة مبكراً. هل هذه السيدة لديها ما يكفي من الوقت للتخليل؟ وقبل ذلك يجب عليها أن تجمععه. وحتى لا أعرف إن كان هناك الآن فطر الهدبان.

لا يهم. أنا مزحت. فقط كان عليّ أن أتخذ القرار في وقت ما وقد قررت. - أنا سعيد. هذا واضح. فعلاً، أنا أدعوك وأدعوك منذ سنوات. مع ذلك لم أشعر من خلال صوته أنه كان سعيداً، كيف لي أن أتوقع ذلك بعد كل رسائله، خاصة بعد رسالته الأخيرة. وصلت إلى منزله مساء السبت. وسبق أن قال لي عبر الهاتف: إنني لا أعرف مكانه، ولن أهتدي إليه بنفسني. وفي صباح يوم الأحد ذهبنا إلى البحيرة الكائنة ها هنا. - أوه، لدى السيد سيارة جميلة. لا بد أن تكون السيارة من هذا النوع

مكلفة. وأنا كما يرى السيد مع سيارة الفيات الصغيرة هذه. -وقفت هذه السيارة الصغيرة أمام منزله. - لقد غيرت صفائح السيارة المعدنية مؤخراً. لقد تأكلت تماماً. أما أنا فأعمل مثل الثور. أنا في المتجر طوال اليوم. حتى لا توجد لدي استراحة للغداء. لا يمكن للإنسان أن يدخر أي شيء هنا. حتى للهدايا التذكارية. -وعندما ركبنا سيارتي: - قال: أوه، ولدى السيد جهاز للموسيقى. لديك هذا، ولديك ذاك. لقد استغرقت سيارتي لدرجة أنها حررت سيلاً من التذمر داخله. في خضم كل ذلك نسي أن يخبرني كيف سأصل إلى البحيرة. لكنه فجأة أفاق مندهشاً فقط عندما ألفتنا نفسينا في الغابات، في الجزء الأخير من الطريق إلى البحيرة:

- كيف يعرف السيد الطريق؟

من رسائلك يا سيد روبرت. ومن الخريطة.

- ربما الخريطة عسكرية، لأن البحيرة غير موجودة في خريطة الطرق العادية. ولحسن الحظ، قد بان نوع من عدم التصديق في كلماته. - من رسائلتي؟ لا أتذكر أنني قد وصفت الطريق للسيد. يا سيد روبرت، سنوات عديدة، ورسائل كثيرة. من أين لك أن تتذكر أيها السيد؟ حاولت أن ألتقط شيئاً ما من كل رسالة. أفضل دليل على ذلك هو عندما قرأت رسائل السيد. خاصة أنه كانت لدي نية منذ فترة بعيدة للمجيء إلى هنا.

- هذا صحيح، لقد كتبت كل هذه الرسائل للسيد، نعم، كتبته. هداً روعه قليلاً. - أنت لم ترد على كل رسالة. لقد كتبت للسيد رسالتين، ثلاثاً، أما السيد فأقصى ما كتبه لي هو رسالة واحدة. وعادة ما كانت من بضع جمل. أو بطاقة فقط، شكراً، مع أطيب التحيات، أتمنى لك. لقد فكرت، في بعض الأحيان، أن السيد لا يريد تعارفنا هذا، وأنه يزعج السيد. ومع ذلك... بدا صوته متأثراً، ولهذا قاطعته بالكلمات التالية:

إن كتابة الرسائل عذاب بالنسبة لي، يا سيد روبرت. أفضل أن أتصل تلفونياً، أو حتى المجيء كما يرى السيد. ثم ضحكت.

- عذاب؟ تساءل. - لكنك كما لو تحدثت مع شخص ما، بحث له، إنما من خلال الورقة فحسب.

نعم، هذه الورقة.

- ما عسى الورقة؟

الرسالة الورقة. نترك آثاراً غير ضرورية فقط.

- حسناً، ومعي؟ لماذا إذاً، في هذه الحالة، لم يعطني حضرتك إشارة كي لا أكتب لك؟

يا سيد روبرت، أنت الوحيد الذي راسلني من هذا المكان.

- كيف ذلك؟

دعنا لا نتحدث عن هذا بعد الآن.

- يمكننا ألا نتحدث. ولم يعد يتفوه بأي كلمة حتى البحيرة.

مع ذلك، شعرت في صمته نمواً لعدم الثقة بي. لذلك عندما وصلنا إلى المكان قال لي فقط: ليوقف السيد سيارته هناك. وكان من المناسب أن يقول، حسناً، وكما ترى، ليلق السيد نظرة حوله. كما في رسائله لي، كما في رسائله هذه. لم أكن مضطراً إلى اختلاق أي شيء.

أخرج من صندوق السيارة ما أحضرناه وأوماً برأسه إلى أن منزله يقع هناك، ثم قال:

- هيا بنا.

كتب الكثير دائماً في رسائله حول هذا المنزل، لكنه لم يقترح عليّ حتى مشاهدته الآن.

- قال: لنجلس على المشرقة قليلاً. هل أفتح المظلة أم يفضل السيد هكذا؟ بعد ذلك رفع طاولة من الخيزران، مقعدين من الخوص، علبتين من البيرة وكأسين. - هل يرى السيد الكتابة؟ لقد اشتريتهما بعد تلك الأمسية للذكرى.

قلت: آه، نعم، بالفعل.

- سألني: ربما السيد جوعان؟ لنشرب الآن، وبعد ذلك سأحضر شيئاً للأكل.

يبدو أن شيئاً ما قد أزعجه، شربنا هذه البيرة، لكنه لم ينبس ببنت شفة تقريباً، تمتم بكلمة دون معنى من وقت إلى آخر. أما أنا فشعرت بالعجز التام إزاء ما

حدث أمامي هنا. ولم تكن لدي أي كلمة تستحق أن أقولها. لذلك جلسنا ونحن نشرب البيرة بينما كانت الشمس ترتفع وترتفع كما لو أنها بعد الدخول إلى قمة السماء، بدلاً من أن تميل نحو الغروب، كانت لديها نية أن ترتفع حتى تختفي في مكان ما هناك، في خرق للقانون الأبدي. حتى إن هذه الشمس تبدو كأنها تغيرت منذ تلك السنوات عندما غربت كل يوم خلف التلال. لا شيء هنا يشبه نفسه بعد الآن. تدفقت رائحة الصمغ [الراتنج] من الغابات، بيد أنني لم أثق بهذا الراتنج. وجدت رائحته خافتة، باهتة، كأنها مئة بعض الشيء. ومع ذلك، اعتادت أن تحفر في الأنف فيما مضى، وتعصر الدموع، خاصة أثناء جمع الصمغ من الأشجار البالية. سوى أن هذه الأشجار نمت في عيني فقط لأنني وأنا أنظر إليها كنت أنظر إلى نفسي. ومع ذلك فقد فشلت أيضاً في اصطیاد الكثير من الذاكرة. حتى من المكان الذي تدفق فيه نهر روتكا هنا. ربما لأن البحيرة استحوذت على كل شيء، على الأرض، السماء، الغابات والذاكرة. خاصة أن هذه البحيرة قد همهمت، ضجّت، حتى إنها ارتجفت من الصرخات، الدعوات، الصرير والضحكات كأنها تظهر لي قدرتها على تغيير العالم. بدا جرفاها كأنهما يمتدان في الغابات بعيداً. أو ربما فسحت الغابات لها المجال من تلقاء نفسها، خالقة حيزاً للأجساد المتدفئة التي مازالت تتسرب من المنازل، من السيارات القادمة، والخارجة من الماء. بينما تغطي الماء بمراكب، قوارب، مطارح منفوخة، ورؤوس بقبعات ملونة، كأنها ترحف بتؤدة على سطح الماء في كل الاتجاهات بلا هدف أو معنى. رؤوس كثيرة، اختفت كي تعود من جديد على بعد أمتار قليلة، تقافزت أعلى من سطح الماء، كما لو أنها حاولت التحرر من الحبس. ذكرتني بزنايق الماء السابقة، بالنيوفر في المنعطف الواسع لنهر روتكا عندما حان وقت إزهارها. شعرت في كل هذا مثل شوكة لا يمكنها إلا أن تسبب الألم، لأنني على ما يبدو لا أقوى على فعل شيء آخر، ولهذا قررت المغادرة قبل حلول مساء هذا اليوم. كنت على وشك أن أخبر السيد روبرت بذلك لولا أنه أول من كسر صمتنا بقوله:

- أعتقد أنني كتبت للسيد، في إحدى رسائلني، أنني سأبيع هذا المنزل.

(وصدقني، أنه لم يكتب لي حول ذلك قط. ولماذا دعاني حينئذ؟ هل من

أجل توديع المنزل؟)

- وأنتقل من هنا، من المدينة نهائياً. ما زلت لا أعرف متى. أنا في انتظار أن يأتي المشتري. يوجد واحد لكنه يريد بالتقسيط. وهل يعرف السيد ما هي الأقساط؟ سيدفع القسط الأول والثاني سيدفعه، لكنه سيراوغ مع البقية. هكذا هو الحال مع الأقساط، هناك قضايا أكثر إلحاحاً دائماً، أما الأقساط فيمكنها أن تنتظر.

- قلت له مماًزحاً: ربما سأشتريه أنا؟ وفي اللحظة نفسها ندمت على مزحتي. يبدو أن الكلمات تجاوزت إرادتي، أفكاري، نواياي وقررت وحدها. خاصة بعد أن كان لدي ما أقوله في تلك اللحظة: أنا آسف يا سيد روبرت، يجب أن أغادر هذا اليوم قبل المساء. أمامي طريق طويلة وفي الصباح ينبغي أن أكون هناك. إنها المسؤوليات، السيد يفهم.

- السيد؟ ضحكك، إلا أنني لم أشعر في ضحكته هذه بأنه سيفهم ما قلته على أنه مزحة. - السيد؟ كرر مع ظلال من السخرية في صوته: لقد أضحكني السيد. يسكن السيد في بلد آخر، على مسافة كم من الكيلومترات من هنا. سيملك السيد منزلاً صيفياً في هذا المكان. فهل سيأتي السيد حيثنذ ليوم أو يومين على الأغلب؟

أحياناً حتى ليوم واحد أو يومين، ومن المستحسن تغيير البلدان - واصلت، كما لو بالرغم من نفسي ومنه، كي لا يأخذ كلامي على أنه مزحة. - وهل سيأتي السيد؟ أرى ذلك بالفعل! الكثير من الرسائل والسنوات ولم أتمكن من إقناع السيد. والآن يقول لي السيد إنه سيأتي! أوه، أنا أرى ذلك. وكم من المرات؟

هذا سيعتمد.

- على ماذا؟

على الظروف.

- أي منها؟

الظروف مختلفة. الظروف غير متوقعة.

- لكن هذا المنزل لا يمكنه أن يقف وينتظر حتى تكون الظروف مناسبة للسيد. يحتاج إلى الاعتناء به. ناهيك عن كونه يحتاج إلى التصليح

باستمرار. وأن السرقة بدأت بالانتشار فعلاً. لا يمر أسبوع من دون أن يسرقوا. حاولنا أن نؤسس خدمة جماعية لكن أحدهم جاء والثاني قد نسي والثالث حدث له عارض. سيكون من الأفضل تكليف شخص ما للاعتناء به، لكن يجب أن يسكن هنا. وبعد تفكير قصير، بهدوء الآن، كما لو أنه أضاف: - ربما سيأتي السيد مرة واحدة كل سنة...

ربما مرتين، اختبرته أكثر، لأن إصراره بدا غير مفهوم بالنسبة لي. نظر إليّ بارتياح.

- ليكن كذلك. لكن ما الداعي؟ ما الداعي؟ انفجر بصوت غاضب.

قلت: من أجل نفس الشيء الذي يأتي الجميع من أجله. على الرغم من أنني لا أعرف ما إذا كنت لا أختبر نفسي. من أجل تنفس الهواء النقي. لأخذ قسط من الراحة والابتعاد عن كل شيء.

- ما هذه الأشياء التي يقولها السيد؟! وقد هزه الغضب. أين لديك الآن هواء نقي؟ لا هواء ولا ماء، لا شيء. من يشعر بماذا يتنفس؟ يتنفس لأن الجسم يأمر. وحتى لو كان ذلك نافعاً لأحد، فمن يمكنه التنفس في يومي السبت والأحد. أو حتى في شهر العطلة هذا أو أكثر. لا شيء يساعد المرء بعد الآن. يعتقد السيد أنهم يأتون إلى هنا للانقطاع وأخذ قسط من الراحة؟ - رفع كأس البيرة من فمه بشكل مفاجئ حتى تناثر بعض البيرة على قميصه. - ألا يرى السيد أن المكان أصبح هنا أكثر ضيقاً مما هو عليه في المجمعات السكنية؟ يوجد في العمارة السكنية عشرة طوابق على الأقل أو أكثر، وليس على المرء أن يعرف الجميع. صباح الخير، صباح الخير، هذا كل شيء. وليس مع كل شخص، ولست مضطراً لذلك مع من هو تحتي أو فوقتي. يحدث أن الإنسان لا يحتك بجاره لمدة أسبوع. وعندما يخرج حضرتك في أوقات مختلفة، وتعود في أوقات أخرى فأنت لا تقابله على الإطلاق حتى يخرجوه ميتاً. وفي هذه الحالة، تريد أو لا تريد لكنك مكره. بمجرد أن يصل السيد سيحيطون بك مثل النمل. يحكّون، يقرصون ويعضون. وبعد أسبوع من الإجازة لا تعرف هل هذا أنت، لست أنت. وإلا فليقل لي السيد، كم شخصاً يمكن أن يكون داخل الإنسان بحيث لا يزال يشعر بأنه هو؟ الإنسان،

أوه، مثل هذه الكأس لا يمكن أن تسكب فيها أكثر مما تتسع. لدي متجر في المدينة، لست من المدينة إلا أنني أعرف المدينة كلها تقريباً. من هنا. ولو كان الأمر يقتصر فقط على الاسم واللقب والمهنة والموقع والعنوان والتلفون، لتحملت. لدي درج مليء ببطاقات العمل الشخصية. وماذا؟ تستلقي ميتة. كم مرة قمت بإعادة كتابة دفتر ملاحظاتي، على الأقل، لتخفيفه من أولئك الذين ماتوا. ومع ذلك مازال أكثر سمكاً. ومع هذا يمكنني أن أتحمّل ذلك. لكن ليس هذا ما أعنيه. لكنني أشعر هنا كأنني في عش نمل لا غير، ومن يريد أن يكون نملة؟ لا يرحمون السيد ها هنا. إنهم يطرحون كل شيء حميمي من دواخلهم، كما لو أنهم يتغوطون. لا شيء أسوأ من أماكن يجب على الجميع أن يكونوا فيها معاً وفي الموسم [السياحي]. من مع من، من ضد من، من فوق من، من تحت من، من ومن أجل ماذا، ماذا يُخفي هذا أو ذاك، وماذا يترأى للمرء، وأشياء متنوعة، أشياء أخرى يمكن أن يسمعها السيد. هل يحب السيد المرض، تفضّل على الرحب والسعة. ذلك يتألم، وذلك فيه كذا، وهذا قطعوا منه كذا، وذلك كذا، وهذا لديه شيء آخر. ثمة من عنده انسداد، والآخر إسهال، تفضّل على الرحب والسعة. حتى هزة الجماع، تفضّل على الرحب والسعة. هذه تأتيها كل مرة، وتلك لم تبلغها قط حتى الآن. هن يجلسن، يستلقين ويتنهذن. والسيد يعرف، كيف سيبتشر ذلك عبر البحيرة. خاصة أن البيت بجوار البيت، وإذا أصبح الطقس حاراً مثل اليوم، ستكون جميع الأبواب والنوافذ مفتوحة، ومثلما يرى السيد، لا تسمع الأصوات من الجوار فحسب، بل من كل مكان. تسمعها [آتية] من الماء إلى الشاطئ ومن الشاطئ إلى الماء، ومن ذلك الشاطئ إلى هذا. لا يفلت الإنسان من سماع ذلك. لا مهرب من أن يرى. حتى لو كان لا يريد أن يسمع أو يرى. يدخل من تلقاء نفسه في أذنيه وعينه. ولا يأتي الإنسان إلى هنا كي يحبس نفسه في المنزل. أرق همسة تتضاعف هنا، وأصغر التفاصيل تتضخم. لا تريد ذلك، لكنك مجبر على رؤية كل البطون، كل السرات، المؤخرات، الدوالي على السيقان، والندبات بعد العمليات الجراحية. لم يعد هناك مكان للهروب إليه بالنظر أو السمع. حتى أفكارك تصبح سلة مهملات لأفكار الآخرين. والسيد بوده أن...

ما عرفته. كان شخصاً مختلفاً عن ذلك الذي تخيلته من رسائله. فهل حدث شيء ما بحيث تغير بهذا الشكل؟ بعد ذلك، لم أفهم، لماذا يشبط رغبتني بهذا المكان هكذا. لقد دعاني حتى إنه أغراني جداً عبر سنوات كي آتي إلى هنا، وعندما قدمت أخيراً... وكان عليه أن يخمن أنها مجرد مزحة بخصوص هذا المنزل. لكن ربما قبل ذلك، عندما كنا في الطريق ونحن قادمان إلى هنا، صار يشك أيضاً في أنني شخص مختلف عما كان يتخيله في رسائلني. وأن هذا المنزل فقط أكد له ذلك.

- والسيد بوده... كرر، كما لو لنفسه فقط. صدقني، عندما أعود إلى بيتي، يجب أن أعود على نفسي منذ البداية، أجمع نفسي في مكان ما من الطفولة، من الكلمات الأولى، الأفكار الأولى، الصرخة الأولى، لأشعر مرة أخرى بأنني أنا. يعيش المرء هنا كأنه على الشاشة. وماذا هل الإنسان بلا أسرار، ها؟ ليخبرني السيد. وكاد أن يغلي بغضب: - سأبيع هذا البيت إن شاء الرحيم! وسأرحل.

سكب ما تبقى في علبة البيرة إلى الكأس ونظر إلى البحيرة أمامه، مستغرقاً في الصمت مرة أخرى. كان من الأجدر أن أقول شيئاً، ربما حتى إنه توقع ذلك مني. مع ذلك، لم يخطر ببالي أي شيء ما عدا أنني مضطر إلى المغادرة قبل المساء. ومع ذلك افترضت أنها لم تكن لحظة مناسبة كي أقول له ذلك. لذلك سألته فقط بشكل عرضي:

أين هي القبور التي كتب لي السيد عنها حيث يوجد فطر كثير؟

- لماذا، هل يرغب السيد في الذهاب لجمع الفطر؟ هذا ليس الآن، ليس الآن. وقفز من الطاولة. سأحضر المزيد من البيرة. أو ربما أحضر شيئاً ما للأكل؟ ألم يجع السيد؟ إذاً، سأحضر الأكل لاحقاً. جلبت دجاجاً مشوياً ويكفي إعادة تسخينه فقط.

بعد لحظة عاد بعلب جديدة من البيرة وأثناء عودته توقف فجأة في منتصف الطريق:

- لينظر السيد إلى هناك. ربما هي واحدة جديدة. لم أرها هنا قط. يجب أن أعرف من تكون. تلك التي هناك. نعم، لينظر السيد. وضع علبتي

البيرة على الطاولة، فتحهما وسكب لي ولنفسه. - دعني أخبرك، إن هذا هو الشيء الوحيد الذي يستوقفني هنا. وبخلاف ذلك، لبعث المنزل منذ وقت طويل. احتسى قليلاً من البيرة وأجال بنظره حوله من جديد، كما لو بعينين مختلفتين، متلاًّتين، شبه مفترستين، وهو يلقي عليّ، بين الفينة والأخرى بشكل عابر فقط، بتعابير على وجهه، لا هي بابتسامة ولا بتقطيب ساخر. تلك لا شيء أيضاً. أوه، هناك، تلك التي تصعد على القارب. أعرفها. أوه، إنها تحب، تحب، وتعرف كيف! وسأريك إحدى الجارات، على بعد منزلين من هنا. أعتقد أنها لم تأت بعد.

دعني أخبر السيد، لقد استمعت إليه، لكنني لم أصدق أنه هو نفسه السيد روبرت. نفس السيد روبرت من كل تلك الرسائل والبطاقات والمكالمات الهاتفية. سألت نفسي: ما الذي فيه صحيح، آخذاً في عين الاعتبار، ما قاله الآن، وذلك الذي قد كتبه لي عبر سنوات عديدة. وربما لا هذا ولا ذاك؟ ومع ذلك، لم أظهر أي شيء مما هو في داخلي.

أو، أوه، تلك التي هناك، لينظر السيد إليها. إنها تسير بمحاذاة شاطئ البحيرة. حتى إنها تنظر إلى جهتنا. وهي ما تزال الوحيدة فقط مع كل هذه المنغصات. لأنه على ما يبدو كما لو أن السيد قد استخرجها من الطبيعة. وإخراجها من الطبيعة، أوه، ليس كإخراجها من الشارع أو المقهى. إيه، الطبيعة، الطبيعة. إنها تقوم حتى الأكثر التواء. علام هي تمشي هكذا بلا هدف؟ أوه، إنها تستلقي. سوف تتشمس. يمكنها الاستلقاء لساعات تحت أشعة الشمس. اسمرّ لونها مع بداية الصيف بالفعل. ولكن إذا كان عليّ أن أكون صريحاً أنا لا أحب المتشمسات إلى هذا الحد. رغم أن المتشمسات جداً أسهل بكثير. بعد كل شيء، لا يمكنهن التفريط بكل عذاب الاستلقاء تحت الشمس. ومن المعلوم، أنهن لا يتعذبن من أجل أزواجهنّ الخرفان. يجبروهن على خفض بطونهن في الزوارق وقوارب الكاياك. لأنه، ما طول الفترة المحتملة مع هكذا عريس؟ سنة، ستتان من الإخلاص وكفى. لحسن الحظ أن العالم تخلص من كل هذه الخرافات، والعادات والتعود. لا يستطيع الرجل تحمل علاقة أطول اليوم. كل واحد يركض وراء شيء ما، يريد التسلق نحو شيء ما، والعلاقة بشخص آخر مثل كرة مربوطة بالرجل.

لا تريد التحدث ولكنك مكره في هذه الحالة. لا يوجد ما تتحدث عنه لكن هنا يجب. يحدث أن تكون هناك زيجات تستمر حتى الموت. لكنها قليلة بالفعل. سيتم تنظيم جولات إلى هؤلاء قريباً كما للقلاع والكاتدرائيات والمتاحف. بصراحة، الزواج اليوم هو عبارة عن شركة ذات مسؤولية محدودة. تنهار وتؤسس أخرى. وتدور بطريقة ما كي تتواصل، أبعد، أبعد حتى النهاية. سأقول للسيد: حياتنا لا قيمة لها. كل أحلامنا هذه، آمالنا وطموحاتنا. فجأة، تألقت عيناه. أوه، لينظر السيد. لقد جاءت. نعم، هذه الحجرة. سيراه السيد عندما تلبس البيكيني. لا يريد البصر أن يحيد عنها. تشمس عارية الصدر في بعض الأحيان. أوه نعم، لقد جاءت إلى هنا. ولم لا تأتي. في هذا الصدد، لا توجد حدود، ولغات ولا كل هذه الترهات. يجب عليّ أن أدعوها في وقت ما على متن القارب. ربما ستتوفر الفرصة. نعم، نحن ننحني بعضنا لبعض. لكن ثمة شيء ما يعوقني، لا أستطيع التغلب على نفسي. كلما أصبحت أكثر قرباً خانتني شجاعتي. قد يكون من الأفضل في البداية أن أدعوها على العليق؟ قد يكون ناضجاً. سأذهب إلى الغابة في يوم الأحد القادم وسأرى. لكنها قد لا تريدها خوفاً من أن تشكّها. للأسف، لم يعد هناك فراولة برية. هذا هو الشيء الوحيد الذي يستوقفني. ليقل لي السيد، ما الذي يمتلكه الإنسان من الحياة حقاً؟ مقابل كل هذه الجهود، العمليات، الأرق، والمضايقات، ماذا لديه؟ ليصف السيد إليها بعض الأمراض وغيرها من المصائب، وماذا لديه بعد؟ سيجلس السيد هكذا طوال اليوم في متجري. مع الهدايا التذكارية. ها، ها، ها! تبّاً، سأبيع هذا المحل!

شرب بعض البيرة من الكأس. أخذت عيناه تتقدان للتو، وفجأة أصبحتا كأنهما منطففتان، متلاشيتان. وبعد لحظة صمت، قال بصوت منطفيء وباهت: - لو عرف السيد فقط بما جرى هنا سابقاً. ربما هناك ثمة من يعرف العيش في كل مكان.

قررت أخيراً أن أقول له: أنا أعرف يا سيد روبرت. اعتقدت أنه سيكون من غير اللائق فيما لو أخفيت ذلك عنه. خاصة، أنه أثناء مجيئنا إلى هنا، أخذ الشك يساوره في كيفية معرفتي بالطريق.

- من أين؟ لاح وميض رعب في تينك العينين. ليس بسبب رسائلي؟
لا، لم أكتب عن ذلك للسيد مطلقاً. مطلقاً.

إنني ولدت هنا.

- أين، هنا؟

هنا.

- كيف هنا؟ أين، هنا؟! لقد أدهشتني حدته التي حاول بها مخالفة
اعترافي. - ربما حدث هذا عندما لم يكن السيد هنا. لم ينج أحد هنا. لا أحد.
وكما يرى السيد أنا نجوت، إذا كان من الممكن قول ذلك. ومع ذلك،
إذا جاز التعبير، لست الوحيد، نحن نجونا، أنت أيضاً، وجميع الأشخاص
الموجودين هنا عند البحيرة. الجميع ممن هم على قيد الحياة.

- لكن لم يكن أحد هنا آنذاك. لا أحد - نفى ذلك تقريباً. يرى السيد
تلك المرتفعات. لقد سكنا هناك خلال الحرب. وذات يوم اندلع الخبر،
هم يحرقون القرى هنا. أمسكتني والدتي من يدي، كنت طفلاً، وهرعنا إلى
أعلى مرتفع. كان يسمى الكرمة. وقف هناك حشد من الناس بالفعل. لم أر
الكثير، باستثناء بحر من الدخان فوق الغابات. لكن الكبار رأوا كل شيء،
بيوتاً محترقة، حظائر، حيوانات مجنونة، أشخاصاً يطلقون النار عليهم.
حملتني أمي في لحظة ما على ذراعيها ولم يكن هناك شيء آخر سوى
الأدخنة. ركعت على ركبتيها وأمرتني بأن أجتو كذلك لأن الجميع جثوا،
وطلبت مني أن أبكي لأن الجميع كانوا يبكون. لكنني أردت أن أضحك.
كان لوالدتي رموش مسودة وبسبب الدموع بدأت تنهمر جداول منها على
وجهها. لم أستطع التحمل. أدار الناس وجوههم نحوي وقال أحدهم:
- إنه يضحك، والناس هناك يقتلون.

شعرت أمي بالخجل. لقد خلعتني من حضنها وسحبتني خلفها. - لا
تنظر إلى الخلف. ونزلنا من التل.

- وهناك توجد قبور مشيراً بيده إلى الغابة. وبعد لحظة قال: يجب
عليّ... ربما [أبيع] ذلك بالأقساط. خمسة، عشرة، لا يهمني كم سيكون
عدد الأقساط.

سأقول لحضرتك، حتى إنني تساءلت، عندما خرجت من منزل السيد روبرت، ربما تكون من طرف هذه الأقساط. وكان يتوجب على حضرتك تسديد القسط الأخير فقط. وإلا فكيف دخل السيد إلى منزله. كيف عرف السيد مكان المفتاح؟ أكيد، بعد أن استلم القسط الأخير باليد قال إنه على المشرقة.

هو حيّ، على قيد الحياة. لم لا يكون حيّاً، وإلا فمن كان يرسل لي النقود مقابل الحراسة. أوه، ذات مرة رفعتُ كمية المبلغ على كل منزل، فجاء المظروف التالي مع الزيادة بالفعل. على الرغم من أنه لم تكن لدي نية بزيادة المبلغ على السيد روبرت. لا أحد يسكن هنا، لا أحد من المعارف يأتي إلى هنا أبداً، إذًا، فما الداعي؟ بدأ السقف بالتسريب فقط في الخريف المنصرم. انهمر المطر بكثافة أكثر. بدأت الأوراق بالتساقط من الأشجار في نهاية الصيف بالفعل ومازال المطر ينهمر. وليس من بصيص شمس أثناء النهار. انهمر المطر في الليل والنهار. لا أتذكر خريفاً آخر مثله. ارتفع منسوب المياه في البحيرة حتى المنازل الأولى. لحسن الحظ أنها تنتصب على أعمدة خرسانية، مثلما رأيتم. أحب المطر، لكنه انهمر لفترة طويلة. بدأ السقف يسرب في غرفة نوم السيد روبرت في الأعلى. ظننتُ أن المطر سيتوقف وسأقوم بالتصليح حالاً. لكنه لم يتوقف هنا ولو للحظة. وتعين عليّ في المطر أن أقوم بوضع عازل جديد على أجزاء من السقف. وغيّرتُ في المشرقة مؤخراً لو حين قد فسد. قمت بتزييت جميع أقفال الأبواب والمفاصل في النوافذ، فحصت المقابس، المخارج الكهربائية والأسلاك. إنها تتعطل في مثل هذا المنزل غير المأهول أيضاً. لو كان لدي عنوانه لكتبت له. أفكر فيه كثيراً، أرجو أن تخبره بذلك. أعرف، أعرف لقد أخبرتني حضرتك بأنك لا تعرفه. لكن قد يحدث ذلك ذات يوم، من يدري.

أكثر ما يقلقني هو كيف يشعر بعد العملية. نعم، كان عليه أن يخضع لعملية جراحية. لا، لا، لا، لم يقل لي ذلك في وقتها. لكننا في المرة التالية عندما قدمت، وكيف كان الضباب، لقد أخبرت السيد. لم ألتق به، لكنني تحدثت معه عبر التلفون فقط. لكنه ما زال يسكن هناك حيث كان لكن، هل ما زال لديه المتجر، هذا ما لا يمكنني قوله للسيد.

بعدما غادر حاولت أن أعرف شيئاً ما من جيرانه. قالوا لي وقتئذ: إنه باع متجره أولاً والمنزل بعد ذلك. أما إلى أين انتقل فلا أحد يعرف. كل واحد قال، في الحقيقة كان يعرفه قليلاً. وبالأحرى من المتجر لا من الجيرة، وعموماً، فمن النادر أن يروه، إلا في بعض الأحيان فقط، أثناء خروجه أو دخوله، صباح الخير، صباح الخير، هذا كل شيء. لم يكن كثير الكلام.

وحتى هذا الذي اشتري المتجر منه لم يعرف عنه شيئاً. حتى إنه شعر بالإهانة عندما سألته عما إذا كان يعرف شيئاً.

- كيف لي أيها السيد أن أعرف؟ دفعت له وفقاً لتسعيرته. حتى إنني لم أتعامل معه. نقطة جيدة. ماذا يريد السيد مني؟ لا أحتفظ بالهدايا التذكارية. أوه، الخضروات، والفواكه. لقد انتقل، انتقل على ما يبدو.

ولا أحد يعرف على البحيرة أيضاً. والبعض لم يلاحظ أن المنزل غير مأهول منذ عدة مواسم. فتحوا أعينهم كما لو استغربوا متسائلين: لماذا لا يأتي. السيد روبرت، يقول السيد؟ لكن في أي موسم حدث ذلك؟ في أي موسم كان؟ بلى، أنا أتذكر فعلاً. ويقول السيد إنه انتقل من المدينة أيضاً؟ اتصلت به هاتفياً قبل مغادرته لأخبره برغبتي في المجيء. لكنه لم يظهر أي أثر للفرح.

- الآن، في الخريف؟ بدا لي صوته جافاً، بل كما لو كان متهيجاً. وهل هذا يعقد على السيد الأمر في شيء؟
- لا، لكن السيد فاجأني فقط. - كان ينبغي أن تأتي في الصيف. لم أستطع في الصيف يا سيد روبرت. وأردت أن أرى كيف يبدو الخريف هناك.

- الشتاء على وشك المجيء. سقطت الأوراق من الأشجار تقريباً. فقط ما عليك سوى النظر كيف يسقط الثلج. وما الذي يجذب السيد إلى هناك؟ ربما سيندم السيد على ذلك.

ظننت أن صحته قد لا تكون على ما يرام. لذلك سألته:

كيف هي صحة السيد؟

- أجبني باختصار: حسب العمر. أنا في طريقي إلى عملية جراحية.

هل هذا شيء جدي؟

- سنرى. حالياً أنا في انتظار توفر سرير في المستشفى. وعدوني به. قد يكون غداً أو بعد غد. سوف يبلغونني بذلك. حقيتي جاهزة مع الأشياء بالفعل. لا يمكنني الذهاب مع السيد. لم أبع منزلي بعد. يمكن للسيد أن ينزل فيه.

وأخبرني أين سأجد المفتاح. إنه تحت المشرقة، معلق على المسمار في اللوح الخشبي. وما عليّ سوى إعادته إلى مكانه قبل مغادرتي. وأين سأشغل الكهرباء إذا احتجت إلى الضوء والماء الدافئ. وطبعاً، إلى التدفئة لأن الطقس سيكون بارداً بالفعل. ثم أين توجد أغطية السرير، أين المناشف، أين هذا وأين ذاك.

سألته: وهل السيد يتوقع متى سيخرج من المستشفى؟

- كيف أعرف ذلك؟ قال بصرامة كما لو أراد قطع محادثتنا.

ربما سيكون بإمكانني زيارة السيد، إذا كان؟...

- وما الداعي؟ المستشفى ليست مكاناً للزيارة. وأنا لا أحب ذلك.

قد يكون بوسعي مساعدة السيد في شيء ما؟

- يساعدني السيد؟ لا قدر الله - بدا صوته مشوباً بالسخرية في السماعه حتى إنه صدمني بشكل غير لطيف.

- مع ذلك يحدوني الأمل بأن نلتقي مرة أخرى في وقت ما.

لقد التقينا.

وكانت تلك كلماته الأخيرة.

ألم نلتق من قبل؟ لكن أين ومتى؟ عندما أتمعن فيك يبدو وجه السيد مألوفاً لي. على أي حال، حالما دخل حضرتك بدوت مألوفاً بالنسبة لي. لكن قد يكون السيد شبيهاً بشخص كان عليّ أن أتعامل معه في وقت ما. لا أعرف، من يمكن هو أن يكون. لو ذكرت نفسي، لأمكنني تذكره، في أي مكان كان ومتى. هناك أشخاص متشابهون وأحياناً يمكنك أن تخلط بين شخص وآخر. خاصة إذا كنت مع شخص قريب ولم تره فيما بعد مرة أخرى، فأنت تريد أن تجده حتى لو كان في هيئة شخص آخر. على أي حال، إذا كان الشخص شبيهاً بشخص آخر فما هي أهمية ذلك. نحن على مر السنين نصبح قليلي الشبه بعضنا ببعض. حتى ذاكرتنا لا تريد دائماً أن تتذكر كيف كنا سابقاً. فكيف هو الحال مع الآخرين.

كثيراً ما أختبر ذلك بنفسي هنا. أعرف جميع المسجلين لديّ، في أي منزل يسكنون، ومتى يبدؤون بالقدوم في مطلع الموسم، يجب عليّ أن أتذكر بعضهم مرة أخرى، وهل هم نفس الأشخاص. أتساءل أحياناً هل يمكن أن يتغير وجه الإنسان كثيراً من موسم إلى آخر؟ في الحقيقة هناك وجوه كأنها تهرب من الذاكرة كلياً. يمكنك أن تنظر إلى مثل هذا الوجه كل يوم، ويكفي ألا تراه حتى الموسم التالي، ولا تعرف ما إذا كان غريباً فعلاً أو أنك قد رأيته من قبل. لكن هناك وجوه أيضاً حتى لو لمحتّها بشكل عابر فإنها تعلق بذاكرتك إلى الأبد.

أكثر من مرة مشيت في شارع مزدحم، غابة من الناس، حتى إنني احتككت دون انقطاع بالناس، وكان يمكنني عدم رؤية أي شيء، من بنايات، إعلانات،

معارض، سيارات، حتى وجوه الناس لاحت مثل ومضات قصيرة، لكن فجأة من بين تلك الومضات، ثمة أحد الوجوه، من غير المعلوم لماذا، اقتحم ذاكرتي واستقر فيها إلى الأبد. أوه، أحمل في داخلي عدداً لا حصر له من تلك الوجوه كما لو أنها ولدت في تلك الومضات القصيرة. لا أعرف لمن هي، لا أعرف أين، متى، لا أعرف عنها أي شيء. لكنها تعيش في داخلي. خواطرها، نظراتها، أحزانها، شحوبها، تعابيرها، ومرارتها تعيش في داخلي شاخصة كما في الصور الفوتوغرافية. سوى أنها ليست بصور عادية حيث يلتقط فيها أحد الأشخاص ويستوقف هكذا إلى الأبد. وغالباً ما لا يتعرف على نفسه بعد مرور سنوات. وحتى لو عرف أنه هو فلا يريد أن يصدق. في جميع تلك التي عملتها ذاكرتي، حتى في نظرة عابرة، في كل تلك الوجوه تكونت بمرور السنوات تجاعيد وحزوز وأخذت الجفون بالتدلي. وعلى سبيل المثال، ثمة من كانت لديه عينان واسعتان والآن لا يرى إلا من خلال شقين. ثمة من ابتسم كاشفاً عن صفيين من الأسنان البيضاء، ولم يبق لديه سوى فم مفتوح في هذه الابتسامة. أقول بصراحة: لا يجدر به أن يتسم بعد الآن. أو أن امرأة جميلة قد صدمتني إشراقة وجهها، والآن لا يرغب السيد في مقابلتها. عرفت بعض النساء الجميلات وسأقول للسيد، كلما ذكرتني ذاكرتي بصورهن تساءلت عما إذا لم يكن من الأجدر بالنساء الجميلات أن يمتن مبكراً.

ومن أنا، ما هو حقي عليهن، إن وقعن في ذاكرتي بالصدفة وأنهن معي كما لو كانت حياتي حياتهن أيضاً؟ أشعر كأن داخلي ممتلئ تماماً بهذه الوجوه كما لو أنها أختام. أحاول أن أنساها بلا جدوى. وأحياناً يخامرني انطباع أنها هي نفسها تطالبنني بالأنساها. أوه، ليس من السهل العيش مع الكثير من الوجوه في داخلك دون معرفة أي شيء عنها.

ومع ذلك، يحدث العكس. على سبيل المثال، سافرت مع شخص بالقطار، جلسنا بعضنا في مواجهة بعض، وكما هو الحال في القطار، تحدثنا قليلاً بدافع الضرورة، أتذكر اليوم، الشهر والوقت الذي غادر فيه القطار، ومتى كان من المفترض أن يصل، لقد نزل هذا الشخص من القطار وأنا واصلت سفري، إلا أنني فكرت فيه بعد ذلك رغم أنني لا أتذكر وجهه.

حتى نحن كان من الممكن أننا سافرنا معاً في نفس المقصورة، ومن الممكن أننا تحدثنا، وكان بوسعي التفكير في السيد فيما بعد، والآن لا أعرف أن أتذكر وجه السيد أكثر من كونه يبدو لي معروفاً. كان من الممكن أننا سافرنا بالطائرة وأبحرنا بالسفينة. والسيد لا يتذكرني، ها؟

لا، أنا لا ألوّمك. لم يكن السيد مجبراً على توجيه الانتباه لي. لأنه ما الداعي؟ لا توجد معاملة بالمثل في الذاكرة، ولهذا فلم يكن ثمة ما يجبر السيد. أنا من أجل التنظيم فقط، أحاول تذكر هذا وذاك، لترتيب كل ذلك بطريقة ما. ربما أستطيع اكتشاف نفسي كذلك لاحقاً. ليس ترتيب ما هو ممنوع فحسب، بل ما هو مسموح به أيضاً. أوه، ليس هذا فحسب. ربما ليس هذا على الإطلاق. لدي انطباع في بعض الأحيان بأن الأمر يبدو كأنه الجانب العكسي من الحياة، هناك حيث كل شيء له مكانه ووقته، وكل شيء لا يسير كما يشتهي المرء ولا شيء يمكنه أن يخرج عن المعيار المحدد من قبل النظام. لا أعرف ما إذا كان السيد سيتفق في الرأي معي، هذا النظام هو ما يحول حياتنا إلى مصير. ناهيك عن كوننا مجرد جسيمات في نظام العالم. لذلك فإن هذا العالم غير مفهوم لنا على قدر ما يليق بالجسيمات. بدون نظام لن يكون الإنسان قادراً على تحمل نفسه. حتى الله من دون نظام أكان يمكنه أن يكون إلهاً؟ لكن الإنسان فقط هو أغرب مخلوق في هذا العالم، من يعرف، ربما هو كائن أكثر غرابة من الله. ولا يريد أن يفهم أنه من الأفضل بالنسبة له أن يعرف مكانه، وقته وحدوده. بعد كل شيء، حقيقة أننا نولد ونموت هو بالفعل النظام الذي يأمرنا بالعيش.

سأقول للسيد، حتى هنا ما كنت سأوافق على المراقبة لو لم يلتزموا بأن الوضع لن يستمر هكذا كما يحلو للبعض إلى حد الآن. تتطلب حراسة المنازل التخلي عن شيء ما لأجل شيء آخر. قلت أوافق لكنني بحاجة إلى تطبيق النظام. لا يهم وجود الطبيعة هنا. منذ أن ترك الإنسان الطبيعة فإنه بالتالي وافق على نظام مختلف. لو واصل العيش في الطبيعة لراقبته الطبيعة. لكن طالما عليّ فعل ذلك...

بدأت من وضع المسارات، لأنهم ساروا وفق ما حملتهم أرجلهم. داسوا على العشب، ليس على الذي أمام المنازل فقط، لكنها أرض مداسة في كل

مكان يقع عليه نظر السيد. طلبت إحضار مجارف وحبلًا للقياس. أما الأوتاد فعملتها بنفسى. رسمت تلك المسارات، وعملت خارطة من هذه الجهة والجهة الأخرى للبحيرة. وماذا سيقول السيد، لقد أخذوا بالتمرد على امتداد تلك المسارات معتبرين أنني أحدّ من حريتهم. أغضبني ذلك وقلت: هل هم يريدونني أن أراقب أم لا؟ إذا أرادوا فعليّ الشروع بالعمل. أنا أحدّ من حريتهم، هل يمكنك أن تتخيل ذلك؟ وهم ألا يقيدون حريتي؟ كل معاملة بالمثل هي تقييد. ناهيك عن أنني لم أحضر إلى هنا بغرض رعاية بيوتهم. لدي ألواحى الخاصة بي، أوه، سيكون ذلك كافياً بالنسبة لى. ومن يدري إن لم يكن أكثر من اللازم. لأن هذا كثير دائماً بالنسبة للمرء. يمكننى العيش من أجل أن أكون مع هذه الكلاب. على أي حال، لست بعيداً. وأن أذهب إلى الغابة في لحظات فراغى، أقرأ وأستمع إلى الموسيقى. نعم، لقد جلبت بعض الكتب. ليست كثيرة، لكن كل واحد منها يمكننى قراءته من جديد، وقراءته إلى ما لا نهاية. دائماً أحببت القراءة كلما سمح لى الوقت بذلك. كلما كانت هناك مكتبة في مواقع البناء التي مازلت أعمل فيها استعرت منها الكتب. كان عليّ قراءة بضع صفحات قبل النوم على الأقل. توقف الأمر على مقدار تعب الإنسان. لكن حتى لو كنت منهكاً جداً لوجب عليّ فعل ذلك وإلا لما تمكنت من النوم. اضطررت إلى ذلك حتى في حالة السكر. لم أفهم لكننى قرأت. ليس من الضروري أن أفهم مباشرة. مهما طال عمر المرء فإنه لا يمكن فهم الحياة أيضاً. جلبت معى كثيراً من الأشياء، جهاز تلفزيون، راديو، جهاز تسجيل، جهاز فيديو، وكثيراً من التسجيلات. إنها هناك في غرفتى.

لست مجبراً على معرفة كل واحد هنا، من يكون ومن أي منزل. أنا مضطر على الرغم من أنني لست في حاجة إليهم. ينبغي عليّ أن أتذكر ماذا وأين ومتى وما إلى ذلك. أحتاج إلى منازلهم بعد نهاية كل موسم. أحتاج هذا، ذاك، العاشر، ولست مجبراً لأننى لست مضطراً لفعل أي شيء. عندما يجتمعون الفطر ينادوننى كي أحضر وأنظر فيما إذا كان هناك أي فطر سام. وحينئذ يجب أن أذهب أو أن أدعهم يسممون أنفسهم.

أنا أحدّ من حريتهم. كما لو أن كل واحد منهم عرف معنى ذلك. أو أنهم

يأتون إليّ بتظلمات وشكاوى مختلفة ويجب أن أستمع إليهم. بالطبع، هم ينقلون الأخبار. وكيف يكون بلا نقل للأخبار مع وجود الكثير من المنازل والكثير من الناس. أشعر في بعض الأحيان كأنني قسيس أثناء لحظة الاعتراف. سوى أن القساوسة يعلمون كيف ينسون. يتركون وينسون. أما أنا فلا أترك ولا أعرف النسيان. وإلا، ليقُل لي السيد من منا يقيد حرية الآخر. الحرية يكمن إنكارها في الكلمة ذاتها. مثلما يتصاعد اليأس في أجمل وهم. لأنك إذا فهمت هذا على أنه تحرر من جميع القيود فحينئذ من نفسك أيضاً. بعد كل شيء، الإنسان هو الأكثر إكراهاً لنفسه. ويصعب تحمله في كثير من الأحيان. بعض الناس لا يستطيعون تحمل أنفسهم. لنأخذ أقرب مثال، العم (يان)، مثلاً. لم يحدث أي شيء كي يكون مكرهاً على فعل ما فعله. وكان بإمكانه بطريقة ما أن يتحمل ما اتهموه به. الإنسان يمكنه أن يتحمل الكثير. هل شق نفسه لأنه كان حراً؟ أو لأنه لم يتمكن بخلاف ذلك من تحرير نفسه من نفسه؟ دعني أخبرك أيها السيد بشيء واحد، الإنسان الحر لا يمكن التنبؤ به. ليس بالنسبة للآخرين فحسب ولكن في المقام الأول لنفسه.

عندما أتفكر في الأمر أحياناً أتوصل إلى استنتاج مفاده أن الحرية هي مجرد كلمة، مثل كثير من الكلمات. لا تعني ما تود الكلمات أن تعنيه لأن ذلك مستحيل. بودها أن تبلغ سقفاً عالياً جداً وإذا بها تبلغ الأوهام. ولا عجب لأن حياتنا كلها هي سلسلة من الأوهام. تديرنا الأوهام وتجعلنا أوهاماً. الأوهام تدفعنا، تعوقنا، تحدد لنا الأهداف. نولد من الأوهام والموت هو أيضاً مجرد انتقال من وهم إلى آخر.

بعد ذلك، هناك كلمات ليس لها معاني دائمة. الكلمات قابلة للتبادل مع كل رغباتنا، توقنا، أحلامنا، حنيننا وفكرنا. يمكننا القول إن الكلمات غير مجسدة، ضائعة في عالم الكلمات الأخرى التي تبحث عن معانيها أو من الأفضل أن نقول، عن تصوراتها. على سبيل المثال، الخلود، العدم. إذن، من يدري ما إذا كانت الحرية تنتمي إلى هذه الكلمات أو لا. إذاً، يجب على المرء أن يحذر من مثل هذه الكلمات لأن بإمكانها أن تتجسد في كل معنى وكل تصور. اعتماداً على مدى استعدادنا للاستسلام لها ولأي غرض نريد استخدامها. في رأيي، حتى الطبيعة ليست حرة.

سأقول للسيد، إن الأطفال فقط هم من يمسون بي هنا وإلا لترك
المراقبة منذ فترة طويلة. نعم، أحب الأطفال. ربما أحب الأطفال فقط. أما
نفسي؟ لماذا يسألني السيد؟ نفسي، ليس لدي ما يدعو لذلك. يصطحبون
الأطفال وهم يهرعون إليّ من تلقاء أنفسهم. وكل ما يطلبونه مني أفعله لهم،
أريهم، أشرح لهم. أستخرج الديدان من الأرض للأسماء وأضعها بالصنارة،
أعلمهم كيفية التمييز بين سمكة وسمكة، أعلمهم السباحة. وحينما يكسرون
شيئاً أقوم بإصلاحه دون أن أنبس بينت شفة. أحياناً أخذ منهم مجموعة
أكبر أو أصغر إلى الغابة. طبعاً، بموافقة أولياء الأمور. أعلمهم الأشجار كي
يميزوا بين البلوط والزان والصنوبر أو التنوب. نجتمع العنب البري، الفراولة
البرية، التوت الأسود، مخاريط الصنوبر وثمر شجر البلوط. أعلمهم كيفية
التمييز بين الفطر السام وغير السام. أحياناً أقوم بتخمينات مختلفة حتى
يتمكنوا من تذكر الأشياء أفضل. عندما نرى طائراً أشرح لهم ما نوعه وكيفية
عدم الخلط بينه وبين الطيور الأخرى. إذا وجدنا عشاً أقول لهم لأي طائر هو
ينتمي وما هي الأعشاش التي تبنيها الطيور الأخرى. وحينما يتعبون نجلس
وأحكي لهم. ماذا؟ ليس حول ما حدث هنا سابقاً، لا. والشيء بالشيء يذكر،
لا أقودهم إلى هذه القبور أبداً. يمكن أن يتوقفوا عن كونهم أطفالاً، لأن هذا
لا يعتمد على العمر سواء أكان طفلاً أم لا.

ليس عندي أطفال. كنت متزوجاً ولكن ليس لدي أطفال. ولهذا السبب
انفصلنا أنا وزوجتي لأنها أرادت أطفالاً. لكنني أحببت أطفال الأصدقاء.
ذهبت لزيارتهم ولم يحدث أنني لم أقدم لهم هدية. كنت سعيداً لرؤيتهم
وهم يفرحون. لقد استمتعت باللعب معهم. لكنني شعرت بالقلق بمجرد
التفكير فيما لو كان أي واحد منهم ابني...

مع الكبار أعرف على الأقل أنه لا توجد لدي قواسم كثيرة مشتركة. ولا
موجب لما يجمعني معهم ما عدا أنني أعطني بيوتهم وأطلب منهم النظام.
ليس من أجل النظام بحد ذاته ولا لأن النظام يسهل المراقبة. لا. ولكن إذا
توفر النظام حول المرء فمن الأسهل عليه أن يحافظ عليه داخل نفسه. ونظراً
لأنهم يتمردون عليّ من وقت إلى آخر فإنني معرض للتهديد بعدم المراقبة.
طالبتهم بأن يطفئوا الأنوار في المنازل في الوقت نفسه. بعد كل شيء هم

يأتون للراحة ويجب أن يتوفر الهدوء. هل يعتقد السيد أنهم فهموا ذلك على الفور؟ كيف يحدث ذلك. لقد أشعلوا الأنوار في بعض المنازل طوال الليل عن قصد. وأحسوا فقط عندما قلت لهم: لن أراقب هذه المنازل ولا تلك. لكنني سأسمح بساعة إضافية أو اثنتين، لكن ليس طوال الليل، فقط عندما يكون لدى الشخص عيد الاسم أو مناسبة أخرى. حددت الأماكن المخصصة للمواقف بعيداً عن المنازل والغابة، بالقرب من الماء. لا مانع لدي من شوي النفاق لكن فقط حتى هذه الساعة وتلك الساعة. بعد ذلك هم ملزمون بصب الماء على الموقد. أتجول وأتحقق.

على سبيل المثال، لم تكن المنازل مرقمة. لقد قدم أحد الغرباء إلى هنا لكنه تاه. ولو جاء إليّ، ليعرف أين يقع منزل فلان أو علان، فكان ينبغي عليّ أن أدله بنفسه وإلا لما عرف عن طريق الشرح فقط. أنا نفسي أخطأت أحياناً بخصوص من يسكن في هذا المنزل أو ذاك. لقد رأى السيد بأم عينيه الكثير من المنازل المتشابهة هنا. وقررت أن أبدأ بترقيم جميع المنازل من هذه النقطة بالفعل. أسهل بكثير من خلال الأرقام. ظاهرياً كان يجدر بالجميع أن يصفقوا. لكن، من أين ذلك. مرّت القضية وكأن شيئاً لم يكن. في البداية، كل واحد أراد الحصول على أصغر رقم ممكن. ثمّة من توصل إلى فكرة الترقيم حسب الأولوية، بناء على الحضور. لكن، في هذه الحالة وبعد هكذا ترقيم، لن يعثر المرء على أي منزل. لكان رقم واحد، على سبيل المثال، في مكان ما بالقرب من الغابة، أما الرقم الثاني فعلى هذه الضفة من البحيرة. وطبعاً، لم يكن هناك إجماع حول من كان الأول ومن كان الثاني أو العاشر، لأن المنازل تم بناؤها في البداية من قبل نفس الشركة. وليس الواحد تلو الآخر، بل بناء على من دفع رشوة أكبر أو من كان لديه صديق في الشركة. ومرة أخرى نشأت قضية من أي ضفتي البحيرة يبدأ الترقيم. وأيضاً لم يتمكنوا من التوصل إلى اتفاق فيما بينهم، لأن هذه الضفة أرادت أن يبدأ منها وبعدها يتواصل الترقيم. والشيء نفسه أرادته الضفة الأخرى.

وماذا ترى حضرتك فاعلاً لو كنت في مكاني؟ أردت منهم أن يحددوا ذلك وحدهم لأنني توقعت أنه إذا لم يتوصلوا من تلقاء أنفسهم إلى اتفاق فيما بينهم، فلن يكون هنا اتفاق. ستبقى هذه الأرقام تؤلمهم دائماً، لأنهم

لا يسكنون وفقاً لتلك التي يرغبون السكن فيها. في النهاية، هذه منازلهم وأرقامهم. شخصياً تعهدت بشراء الطلاء وقطع النماذج والصبغ فقط. وكاد يغمرني الحنق. قلت: هم يريدون مني أن ألون تلك الأرقام، لأن عليها أن تكون ملونة؟ وهنا ستكون البداية، وهنا النهاية. وعلى كلتا الصفتين أن تكونا معاً وليس كل واحدة على حدة.

هل يعتقد السيد أن القضية قد انتهت عند هذا الحد؟ كيف ذلك. وبعد أن وصل الأمر إلى ما وصل إليه، فما من أحد أراد رقم (13) لأنه يجلب الشؤم. لكن أي ترتيب هذا بدون رقم واحد؟ بعد كل شيء، يمكن أن يأتي أحد الأشخاص باحثاً عن رقم 13. لم يكن هناك مخرج، أجريت قرعة فخرج الرقم 13 وهو الآن بين رقم 26 و 27. لكن فليكن هذا، يبدو أن على كل تنظيم أن يكون معيماً بعض الشيء.

ونفس الشيء مع القمامة لقد رموها حيثما أرادوا، حملوها في أغلب الأحيان إلى الغابة. وصل الأمر إلى حد تشويه الغابة. كانت الغابة تنظف حتى من الأعواد سابقاً. أمرتهم بجلب أكياس والقيام بجمع الأزبال فيها وبعد ذلك نقلها إلى مكان القمامة في المدينة. ومع ذلك لا يمكن إنقاذ المدن. ولو أنني قابلت علبة بييرة، كوكا كولا أو أي شراب، لقامت الكلاب بشمها على الفور ولعرفت من الذي رماها، ثم جلبتها ووضعتها أمام عتبة منزله.

وبالنسبة للشمس، ليس على الفور ولا حسب الوقت الذي يريده كل شخص، بل هناك تحذير يدعو إلى الشمس التدريجي، وعلى الصلحان أن يضعوا القبعات. حدث ذات مرة أن أحد الأشخاص أراد أن يتشمس دفعة واحدة وكان علينا أن نستدعي سيارة الإسعاف.

عملت لوحيتين، ثم نصبت عمودين على ضفة البحيرة الثانية، وعلقت اللوحيتين عليهما، وذكرت فيهما المحظور والمسموح به، في كل موسم أكتب ذلك. يأتون ولهذا فعلى كل واحد قراءة ما هو مكتوب هناك، لأنني أدخل في كل موسم شيئاً جديداً أو أغير بعض التحذيرات بأخرى أكثر وضوحاً، حتى لا يتمكن أحد من القول لاحقاً: إنه يمكن فهم ذلك على هذا الوجه أو ذاك.

هل يرغب السيد في مشاهدة هاتين اللوحتين؟ إنهما تقفان هناك في الرواق. نعم، أرفعهما في نهاية كل موسم. ربما يمكنك أن تنصحنى بإدخال شيء آخر. النظام لا نهاية له. أو ربما ذات يوم عندما سيأتي السيد إلى هنا في الموسم. حينئذ سيرى السيد ذلك بنفسه. أفكر في عمل لوحتين إضافيتين مماثلتين. في الواقع، ينبغي أن تكون أمام كل منزل. ومن الأفضل أن يسير كل شخص حاملاً واحدة مثلها على ظهره. وبهذا فلن يكون بوسعه القول، إنه لم يكن لديه وقت للقراءة.

يسألني السيد لماذا أفعل ذلك؟ وأنا بدوري سأسأل: هل يعرف السيد الناس؟ لأن هناك شيئاً يبدو لي غير واضح. هل السيد بقادر على أن يرى كل شيء من خلال الأصابع؟ ثم، يغفر كل شيء؟ من منطلق أن الإنسان خلق هكذا بالفعل؟ إذًا، فلماذا وجد أساساً؟ ما كان عليه أن يكون. ألا يمكن تصور العالم بدون الإنسان؟ ولمَ لا؟ لأن العالم سيكون بلا مخيلة حينئذ؟ قد تكون مخيلتنا هي مصيبتنا ومن خلالها تعاسة العالم؟ شخصياً، لا أملك القوة التي يمكن أن تكون لدى السيد. لا علم لي، أنا لا أعرف السيد. لكن على الأقل، هنا في هذا المكان، لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. لو لم أراقب لما أكثرت بأي شيء. وبما أنني تعهدت بذلك، على الرغم من أنني لم أكن مكرهاً، فهي الآن مسألة مختلفة تماماً.

أوه، على سبيل المثال، منذ الموسم الماضي، لا يجوز اصطحاب الأطفال إلى المياه العميقة. هم ليسوا أطفالاً، لكنني لم أستطع أن أنظر كيف الأب أو الأم يأخذان طفلهما إلى المياه العميقة لتعليمه السباحة. لا تخف، لا تخف. هذه ليست طريقة كي لا يخاف الطفل. ذات مرة، كاد أحدهم أن يغرق. شرق أبوه بالماء فأطلق سراح طفله. ولو لم يتمكن أحد الأشخاص من الوصول إليهما سباحة لانهى أمر الطفل. لحسن الحظ أن الكلبين (ركس) و(وبس) قد اندفعا صوبهما وسحباهما.

لقد منعت الكبار أيضاً ممن لا يجيدون السباحة. حتى إنني أفكر في أن أطلب من الجميع الحصول على بطاقات سباحة خاصة بهم. كيف يمكن التحقق من أن شخصاً لا يعرف السباحة عندما يقول إنه يعرف. بعد كل شيء، لا يمكنني أن أقف بجانب كل شخص. سأنظم مباريات في السباحة

ذات يوم وليظهر لنا كل واحد، هل هو يعرف أم لا يعرف. لا مزاح مع الماء.
مع الماء، والنار، والقدر.

هناك قضية واحدة فقط لا أستطيع التعامل معها، وهي أن لا يتساجروا
مع زوجاتهم ويضربوهن. أقول، زوجة، لأنه لا يهمني، هل هي زوجة أم
لا. هناك من يأتون في كل موسم مع واحدة أخرى، لكنني أعرف حدودي.
وبعضهم يأتون كل يوم سبت أو أحد مع واحدة أخرى. في المرة السابقة
كان مع واحدة أكبر سنًا والآن جاء مع واحدة أصغر سنًا بكثير. لا يمكنك
ألا تعرف ذلك. حتى إن بعض سكان المنازل يتبادلون النساء فيما بينهم. من
المستحيل ألا تعرف بأن فلانة سكنت في هذا المنزل، والآن تسكن في ذلك
المنزل، وبعد أسبوع أو اثنين تسكن في مكان ما في النهاية. أنا لا أتعلم في
ذلك. لم يخطر في بالي قط أن أسأل هذا أو ذاك، هل هذه زوجته الجديدة.
ولا أريد كذلك سماع ما ينقلون لي عن هذه الزوجات أو غير الزوجات.

أخبروني ذات مرة بأن أحد الأشخاص في أحد المنازل، سامحني لن
أذكر الرقم، مازال يضرب، لا أعرف، أهى زوجته أم لا. ويحدث هذا في
الليل دائماً. ويا ليتني أفعل شيئاً ما؟ لكن، ماذا أفعل؟ لن أذهب إليه وأقول
له: لا تضربها. ليس من حقي أن أقول ذلك، سواء هي زوجته أو ليست
زوجته، لأنني لا أعرف. شخصياً لم أضرب امرأة قط. لكن كيف يمكن أن
أوضح لشخص مثل هذا؟ من أنا بالنسبة له؟ أنا أراقب هنا ليس إلا، سمحت
لهم باستئجاري. وإذا أردت الكتابة على اللوحة، فما الذي سأكتبه؟ ممنوع
ضرب الزوجات أو غير الزوجات؟ هناك أشياء غير مناسبة لأي لوحة كانت.
حتى أيقظني صراخ في إحدى الليالي. ربما لم أكن نائماً؟ قفرت
وهرعت خارجاً، تبعني الكلبان. لم أر ضوءاً في أي منزل. عم الصمت كما
هو في الليل هنا. تساءلت، ربما كنت أحلم. أحياناً أحب أن أحلم هكذا
بشكل يوقظني، حتى من السبات العميق. بعد ذلك لا أريد التصديق أنني
حلمت فقط. على سبيل المثال؟ لن أقول للسيد، لا يمكن أن تحكي الحلم.
الحلم المحكي لم يعد حلماً. يبدو الأمر كما لو كنت تريد أن تخبر عن الله.
هل سيكون إلهاً؟ على أي حال، هل يمكن أن تحكي أي شيء؟ المحكي لا
يعدو أكثر من كونه محكياً. وعموماً لا علاقة له بما كان، يكون أو سيكون.

يعيش حياته الخاصة به. لكنه لا يتجمد مرة واحدة وإلى الأبد، بل هو يحلم باستمرار، يتسع، ويتعد أكثر وأكثر عما كان عليه، يكون أو سيكون. لكن، من يدري، ربما هذه هي الطريقة التي يقترب بها من الحقيقة؟

للتعمق السيد في ذلك، لتحاول، إذا كان هذا ممكناً، أن تلمس العالم، بطريقة ما، بهذه الفكرة الأولى، بهذه الفكرة التي مازالت غير ملوثة بأي شيء. عندها سيقر السيد بأن ما قيل، وليس العكس، يحدد ما كان، يكون أو سيكون، يمنحه بُعداً، ويحكم عليه بالعدم أو الانبعاث. وما يحكى فقط هو الخلود الوحيد الممكن. نحن نعيش فيما يحكى. العالم هو ما يحكى. لهذا السبب، يزداد العيش صعوبة. وربما الأحلام لا غير هي التي تشكلنا. ربما الأحلام فقط مازالت لنا.

أعترف للسيد، أنني على العموم، لا أحلم كثيراً. وهي تقل مرة بعد أخرى. علاوة على ذلك، عندما أستيقظ لا أتذكر بعد ذلك أي شيء. على أي حال، أنام بشكل سيئ. أحياناً لا أحس برجلي وحينما أستلقي لا يمكنني النوم. وإذا غفوت فلا أعرف، هل أنا نائم أم لا، أو ربما أنا نائم في اليقظة أو أنني أحلم باليقظة. أعطاني أحد الأطباء من هذه المنازل بعض الحبوب الأجنبية لأنام بعد أخذها بالتأكيد. في بعض الأحيان، يفحصني، ينصت إلى دقات قلبي، ويفحص ضغطي. أقول له: ما الداعي يا دكتور؟ لست مجبراً على أن أعيش طويلاً. يكفيني الذي عشته. سأخذ الحبوب ولتتني أنام على حجر وليحدث ما يحدث في المنازل خلال هذا الوقت. بعد الحبة لا يتمكن حتى الكلبان من إيقاظي، وهما لن يهرعا وحدهما. لن يفتحا الباب بنفسهما لأنه مغلق بالمفتاح. لم أتناول أي حبوب للنوم من قبل، ولهذا فلن أتناولها الآن. منذ متى لا أستطيع النوم؟ بقدر ما تحفظه ذاكرتي. إلا أنني لا أستطيع وكل مرة أسوأ من ذي قبل. من يدري، ألا يكون الموت هو الذي يفطمني هكذا عن النوم. يقال، كلما اقترب الإنسان منه أصبح أكثر ميلاً للنوم. لكن يبدو أن الحال هو العكس بالنسبة لي. سأموت عندما يجافيني النوم تماماً. حينئذ ربما قد أراه، وأسأله لماذا لم تجئ في ذلك الوقت؟ كان من الممكن أن ينتهي الأمر منذ فترة طويلة.

أوه، كما يرى السيد، ليس لدي وقت لأحلم. إلى جانب ذلك، فكلباي هذان يحميانني حتى لا أحلم في أي شيء. لا أعرف، هل هما لا يحبان عندما أحلم بشيء ما، أو لأنهما لا يريدان أن تعذبني الأحلام أيضاً. بمجرد أن يبدأ الحلم في شيء ما وإذا بهما على الفور يلعبان يدي، وجهي، يرفعان اللحاف أو أنهما يتذمران كما لو أن شخصاً ما قد اقتحم أحد المنازل. وحالما يوقظانني، يقفزان من الفرش لأنهما أيقظانني. أظن أنهما يعرفان شيئاً عن أحلامي. لأنني أحلم في بعض الأحيان بشيء وأحب ألا أستيقظ بعده. وإذا استيقظت فكما لو أنني لا أستطيع تخليص نفسي من هذا الحلم، ومازلت تائهاً فيه، مستلباً، لا أشعر فيما إذا كنت أنا أو شخصاً ينوب عني. وما زال كل شيء حولي يبدو لي حلماً متواصلاً.

أخرج في منتصف الليل مع الكلبيين لرؤية المنازل هناك، ويتراءى لي أنني سائر عبر هذا الحلم. الهواء كما هو الآن، يقرص الخدين بقوة، الوقت خريف، وفي الشتاء يقرص بشكل أسوأ ولست متيقناً مما إذا استيقظت أو أنني فقط أحلم في هذه البحيرة، في المنازل وبهذين الكلبيين اللذين يسيران معي. نعم، لم يسمع السيد خطأ. هل هذا حلمي أو ربما ثمة شخص آخر يحلم بحلمي. لا أعلم. يا ليتني علمت...

أتذكر عندما قالت جدتي، إن الإنسان لا يحلم دائماً بأحلامه. قد يحلم السيد، على سبيل المثال، بأحلام الموتى الذين لم يكن لديهم الوقت للحلم. أو بأحلام أولئك الذين يولدون للتو. ناهيك عن أن الأحلام، حسب جدتي، تتجول مراراً في الناس والبيوت والقرى وفي المدن وبشكل عام. ويحدث أن أتبه في بعض الأحيان. حدث أن شخصاً ما كان عليه أن يحلم بهذا أو ذاك في هذا المنزل لكن حلم به أحد الأشخاص في منزل آخر. كان على شخص ما أن يحلم به في القرية، لكن شخصاً آخر حلم به في المدينة. كان عليه أن يكون في هذا البلد لكن حلم به في بلد ما بعيد. من الممكن أن يكون لدي مثل هذه الأحلام التائهة ولهذا السبب يستشعر الكلبان ذلك على الفور فيوقظانني عندما أحلم بشيء من هذا القبيل.

جدتي، يجب أن يعرف السيد، كانت تعتبر خبيرة في الأحلام. لم يكن هناك حلم لا تستطيع أن تفسر ما يعنيه. وليس في العائلة فحسب. جاء إليها

جيرانها الأقرب والأبعد، من هذه الجهة وتلك لنهر روتكا. جاؤوا إليها من القرى الأخرى. جاء إليها كبار السن والشباب، العذارى، المتزوجات، والملحدون. عاشوا في دول أخرى، لكنهم جاؤوا إليها. إذا لم يتمكن أحدهم من تفسير حلمه، قامت جدتي بتفسيره. كل حلم بتفسيرها خرج للعلن، كما لو كان شيئاً مهماً قد أغفله الإنسان في حياته. طلبت من المعني أن يذكر تفصيلاً ما، لأن الناس لا يهتمون كثيراً بالتفاصيل. ومثل هذا التفصيل كان في وسعه أحياناً أن يغير الحلم تماماً من تفسير إلى آخر، من جيد إلى أفضل أو من سيئ إلى أسوأ. أو حتى إن كان من المفترض أن يحلم بهذا الحلم شخص آخر نظراً لأن بعض التفاصيل كانت من حياة أخرى.

كل يوم أثناء الفطور كان يلزم علينا أن نخبرها بما حلم به كل واحد منا. ومن غير الممكن أن أحداً لم يحلم بشيء. أن تنام طوال الليل ولا تحلم؟ كان جدي هو الاستثناء الوحيد، لأنه لا يحلم بشيء أبداً. حتى إنه من الصعب تصديق ذلك، أليس كذلك؟ حتى نحن الأطفال غالباً ما حلمنا بشيء ما. سوى أن أحلامنا لم يعتد بها بعد، لأنه مازالت لدينا أحلام من الأب والأم. قالت إن الإنسان لا يصل إلى أحلامه الخاصة إلا من خلال المعاناة.

علاوة على ذلك، لا يتخيل السيد، كم عدد الأحلام التي كانت تعرفها. كانت تقص علينا أثناء تقشير الفاصولياء وتقص، كما لو استخرجت هذه الأحلام من قرون الفاصولياء، من الأحياء والموتى. أحلام الملوك، الأمراء، والأساقفة. أتذكر ما قالته ذات مرة، إن أحد الملوك قد حلم بسقوط لؤلؤة من تاجه. لا، هي لم تقل إنه جاء إليها لتفسر له معناه. لكنني اعتقدت أنه قد جاء إليها حاملاً تلك اللؤلؤة بيده. لا أعلم ما إذا كان هناك شخص آخر غيري قد صدق مثلي. لقد صدق جدي بالتأكيد. لأنه آمن بكل شيء حدثته به جدتي. على أي حال، لا أهمية لذلك، هل صدق أحد أم أنه لم يصدق. عندما يستمع المرء، خاصة أثناء تقشير الفاصولياء، لا يتعين عليه تصديق ما سمعه. يكفي الاستماع فحسب. على أي حال، كان قلبي يتجمد بمجرد أن تبدأ جدتي بالقول: ذات مرة، حلم أحد الملوك أو حلم أحد الأمراء، أو ذات ليلة، حلم أحد الأساقفة...

على أي حال، تحول الجميع إلى آذان صاغية، سواء صدقوا أو لم

يصدقوا. خيم الصمت ولو لم يكن وقت الخريف أو الشتاء لسمع السيد الذبابة. أصغى الأب، الأم، ياغودا، لثونكا، وحتى العم يان الذي لم يؤمن بأي شيء. ناهيك عن جدي الذي توقف عن تقشير الفاصولياء بسبب الاستماع. وبالنسبة للبعض تباطأت قرون الفاصولياء في أيديهم إلى درجة أن الفاصولياء تقطرت على الشرشف ببطء أكبر. كان أبي يقاطع جدتي أحياناً فقط عندما يتعلق الأمر بالملوك لأنه لا يحبهم وينسب كل مصائب العالم إلى الملوك:

- ومن أي دولة هو؟ ها، هذا الملك. لا يمكن أن يكون الملك هكذا بلا مكان. نعم، هذا فيما يخص الإنسان العادي فحيثما رميته عليه أن يعيش هناك. لكن ليس الملك. حيث الملك يجب أن تكون هناك مملكة. حتى الأحلام لا تعتبره ملكاً بدون مملكة.

ومع ذلك، لا يهم الحلم من أي بلد كان الملك، وغالباً ما كان هذا هو سبب غضب العم يان المفاجئ الذي بدا أن تقشير الفاصولياء قد أعاده إلى الحياة:

- كل هذا هراء أيتها الأم. الأحلام مجرد هراء، هراء حقيقي. لقد جرف الملوك منذ زمن، لكن أين اختفت أحلامهم؟ - بعد ذلك، نهض وشرب الماء.

كانت أمي المدافع المخلص لجدتي. كل حلم، بالنسبة لأمي مهما كان معناه، لم يحدث مجاناً، ويتعين على المرء أن يعرف ما يعنيه. لأن عدم المعرفة هو أسوأ من معرفة الأسوأ. بينما أشاد جدي، الذي كان يؤمن بأن الله منبع كل حلم، بحكمة جدتي:

- هم علماء ووزراء وكهنة وهي بلا تحصيل مدرسي، وكما ترون. وكل صباح، برفقة البطاطس وحساء الجاودار الحامض، في خضم الاتهام، التلمظ، وقعقة الملاعق على أطباق الصفيح، عندما سألتنا الجدة ما الذي حلمنا به وحاولت أن تفسر كل حلم، ولإعجابه بحكمة الجدة، أوقف الجد ملعقته في منتصف الطريق بين الطبق وفمه سواء أكانت مع الجاودار أو البطاطس. وأكثر من مرة، انسكب حساء الجاودار من الملعقة

على المائدة أثناء حملة لها أو فلتت البطاطس منها إن كانت فيها بطاطس.
حيثئذ وبخته جدتي قائلة:

- لا توسّخ.

أما هو فعبر عن إعجابه بها مرة أخرى بالكلمات التالية:

- انظر، انظر. لولا تفسيرها لما عرفت بماذا أنت حلمت. أوه، عندما تفسر لك الأحلام تصبح هي حياة ثانية. لا يتطلب الأمر سوى حكمة، نعم، حكمة عظيمة. حكمة تصل إلى العالم الآخر وأبعد.

ولم يستطع أن يغفر لنفسه أنه لم يحلم في أي شيء. عندما ينام يكون كما لو أنه ميت. ويستيقظ كأنه ينبعث من بين الأموات. وثمة فجوة بين هذه الغفوة والانبعاث. إذا أراد عدّ كل تلك الثقوب سيتضح أنه لم يكن في العالم عبر ثلث حياته. لم يحلم بأي شيء حتى من الحروب وقد مرت أربع منها بحياته. قاتل في إحداها وأصيب بجرح، أوه، بعد أن حرثت الحربة بطنه، وكأن شيئاً لم يكن. ربما لو آلمته الحربة، لكن، لم يؤلمه أي شيء، على العكس من ذلك، شعر الجد بقوة في داخله لدرجة أنه قتل الشخص الذي وضع الحربة في بطنه مع رفيقه.

أوه، كان جدي خبيراً في الحروب مثل جدتي فيما يخص الأحلام. لم يماثله في الحروب أحد. لقد شكلت الحروب علامات بارزة سمحت لجدي بآلا يضيع بذاكرته في العالم. إذا تحدث عن أي شيء، تشبث بالحروب كتشبهه بمسارات مألوفة. عندما تحدث أحد عن شيء ما كان جدي يسأله دائماً: بعد أو قبل أي حرب حدث ذلك. الحروب هي من رتبت ذاكرة جدي دائماً وليست التقاويم أو القديسين. كانت الحروب أعلى من الفصول، والله وحده فقط أعلى من الحروب. لقد مرّ الوقت -بحسب جدي- من حرب إلى حرب. الحروب نفسها حددت الفضاء بدقة أكبر من الخرائط. حدث كل شيء حيثما كانت هناك الحروب. وكل شيء حدث بعد هذه الحرب، قبل تلك، قبلها أو قبل التي قبلها أو ما قبلها. وتذكر التي سبقتها أيضاً. وتذكر أن والده، أي جد جده كان مشاركاً في تلك الحرب وأنه أصيب بجرح أيضاً، لكن ليس في بطنه، إنما في رأسه. ومن ذاكرة جد جده تذكر تلك التي تذكرها

جد جده من ذاكرة أبيه، أي من جد جده، وهذه كانت تسمى، أوه، قبل تلك، تلك حيث لم نكن لا أنا ولا أنت في هذا العالم.

لو استمع السيد إلى جدي لضعت في هذه الحروب. لقد كان وديعاً جداً وعاجزاً جداً بحيث يمكنه أن يكون جندياً، وبالأخص، أن يقتل أحداً ما، أو حتى دجاجة. وإذا ما وضع رأسها على الجذع، ورفع البلطة توقف عند هذا الحد هكذا حتى يخرج أحداً ما من منزله ويأخذ منه البلطة لتسقط على عنق الدجاجة. وطالما اشتكى من -حيوانات الخلد لأنها تنتشر في المروج، وتنشر العدوى، تحفر وتحفر وعما قريب لم يعد هناك مروج بل أكوام من الخلد فقط. وإذا ما أخذ المجرفة ووقف عند إحدى الأكوام ورأى الخلد يتحرك فيها لدرجة أنه يلعب، فثمة شيء -حسبما قال الجد- كان يمنعه من دفع المجرفة في الكومة. كأنه انتظر حتى يخرج الخلد ويكون بمحاذاة السطح بعد تأكده من أنه لا شيء يهدده. لقد حبس أنفاسه وصار كالعمود جامداً، وكان على وشك أن يغرز المجرفة، وأمر نفسه بالفعل: أوه، الآن، اغرزها، لكن شيئاً ما حاله دون فعل ذلك. من المؤكد أنه سينال منه، خاصة أن الخلد قد أخرج بوزه، كان بإمكانه أن يقطعه ببساطة، كانت المجرفة مشحونة مثل موسى الحلاقة، لقد شحذها مسبقاً، لكن ثمة شيء منعه. والآن أمر نفسه بكل قوة: الآن، الآن. لكن من الواضح أن القوة التي منعتها كانت أعظم.

على الأرجح، لقد خرج الخلد بالفعل من الكومة مرة، وتواجهها: جدي مقابل الخلد، والخلد مقابل جدي. وحدث لجدي بطريقة ما، كما لو لم يكن عليه أن يقتل الخلد. وقال:

- عش، لأنك مخلوق إلهي. سيتحمل المروج ذلك. لم يضرب جدي أحداً مطلقاً حتى في الحفلات أثناء شبابه، رغم أنهم ضربوا، أوه، تضاربوا، وأحياناً كان الجميع في الحفلة يضربون بعضهم بعضاً. لم يضرب حتى من أجل جدتي، على الرغم من أنهم اختطفوها منه للرقص مراراً وتكراراً. اختار الجلوس في مكان ما على المصطبة بينما كانت جدتي ترقص. يفضل مشاهدتها وهي ترقص مع أحد الأشخاص بدلاً من التضارب معه من أجلها. لا، كان فارغ الطول، قوياً كالحصان، لا بد أنه كان في شبابه رجلاً فخماً. لكنه كما ذكرت، كان وديعاً، عاجزاً، كما لو أن قوته الخاصة قد أوهنته.

- تذكرها بكل فخر أحياناً: أوه، لقد رقصت، رقصت، ما كنتم لتعرفوها. إنها أوبرك⁽¹⁾ في الهواء. نظرتُ، أين قدماها، لأنها لم تلامس الأرض. فهل كان ينبغي عليّ أن أكون غاضباً؟ سترقص وترقص وعرفت أنها ستكون لي. لقد كان جدي مدعواً للحرب عندما عقدا قرانهما. لم يرد جدي معرفة ما إذا كان سيعود. لكن الجدة ترى، الزوجة تتوقع زوجها، بشكل مختلف عن انتظار الخطيبة لخطيبها. لذلك قادت جدي إلى مذبح الكنيسة. سيعرف من الآن كيف يقاتل طالما أنها زوجته. سيفرحان بعد عودته بشكل مختلف، لأنه مضطر إلى العودة، وربما ستكفر بالرب إذا لم يعد.

وكي لا تضطر الجدة إلى أن تكفر بالله أتت القوة لجدي عندما شعر بالحربة في بطنه لدرجة أنه قتل الذي طعنه في بطنه ورفيقه أيضاً. تذكرهم كما لو حدث البارحة. كان الشخص الذي طعنه بتلك الحربة نحيفاً، صغيراً كما لو أنه مجرد معطف من الرقبة إلى الأرض، وليس سوى خوذة على الرأس. فبدلاً من اليدين، كان هناك كمّان لا غير، وكما لو أنهما قد غرزا الحربة في بطن جدي. حدث ذلك عندما فتح جدي فمه، لأنه أراد أن يقول: دعنا لا نقتل بعضنا بعضاً. يجب أن أعود. وأنت يجب أن تعود. وكان مضطراً لقتله. لا بالحربة، ولا بالرصاصة، بل فقط بتلك القوة الكبيرة التي شعر بها في داخله بدلاً من الألم. ضغط على خوذة ذلك الرجل بقبضتيه وألقاه أرضاً. وفعل برفيقه الشيء ذاته. حتى إنهم ركعوا أمام جدي، لكنه لم يتمكن من كبح هذه القوة الكبيرة في داخله. وضغط على خوذة الثاني وألقاه أرضاً وعلى خوذة الثالث وألقاه أرضاً. وغادرت تلك القوة فقط بعد قتلهم. حينئذ جلس بجوار جثثهم وبكى. وعندها فقط أحس بالألم في بطنه من طعنة الحربة.

ومع ذلك، فهم أيضاً لم يريدوا قط أن يحلم بهم جدي. وما على الجدة سوى أن تفسر له ما معنى ذلك، طالما أن الحروب هي التي تقرر المصير البشري، فينبغي عليها أن تقرر أحلام الناس أيضاً. فهل توقف

1- أوبرك (Oberek): رقصة بولندية شعبية ذات إيقاع حيوي وسريع، تصحبها قفزات في الهواء، وتأتي أيضاً بمعنى موسيقى للرقص، وإيقاعها قريب من الرقص الجبلي، وهي إحدى أسرع ثلاث رقصات وطنية: كويافياك، مازور، وأوبرك (المترجم).

عن كونه إنساناً؟ دعها تفسر له ذلك. لكن جدتي كانت في الغالب غاضبة من جدي:

- ماذا أفسر لك؟ ماذا تريد مني أن أفسره لك؟ دع الأحلام تأتيك أولاً. على الرغم من أنني سأخبر السيد، أعتقد كان يجب عليها أن تعرف ماذا تعني هذه الفجوة ليلة بعد ليلة. ربما لم ترد أن تقلق جدي فقط، لأنها بحثت عن بلسم في كل حلم حتى لو كان مرعباً. مع ثراء الأحلام التي كانت تحملها في داخلها ما كان من الممكن لها ألا تعرف. لذلك كان جدي يحمل لوماً لجدتي. ولكن كان في داخله يلوم ربه أيضاً، لأنه لم يمنحه نعمة الأحلام طالما أنه وهب الآخرين بكل النعم. فهل أنحى عليه باللوم بسبب مقتل أولئك الثلاثة؟ طالما أنه الله فعليه أن يعرف أن الناس يتقاتلون في الحروب. وينبغي أن يكون لديه فهم. منذ أن خلق العالم، وقد مرت حروب لا تحصى عبر هذا العالم، ولم يوقف أياً منها بقدرته المطلقة، وعليه، فما أهمية حرب جدي والثلاثة الذين قتلوا. وبما أنه يدير العالم فالحروب أيضاً، لأنه ما كان جدي ليقتل بدون إرادته. فعَلامَ يعاقبه؟

كنا نقشر الفاصولياء، عندما بدأ الحديث عن الحروب ولم تكن لذلك نهاية حتى الانتهاء من الفاصولياء. أتذكر ذات مرة قوله، إنه التقى بفيلسوف. لا، لم يكن واحداً من القتلى الثلاثة. خاصة أن أياً منهم لم يكن يعرف أنه قتل فيلسوفاً. عندما يُقتل شخص لا أحد يعرف بنفسه. حتى عندما يتقدم خط المشاة نحو خط المشاة، والحربة بمواجهة الحربة. وكانت الحرب على هذا النحو عادة بالحراب. تقافزوا من الخنادق، هللو واندفعوا بعضهم نحو بعض! بعد ذلك عادوا إلى خنادقهم ونما جبل من الجثث بين الخنادق. في بعض الأحيان، توقفت الحرب لأسابيع في مكان واحد وغالباً ما صاروا أصدقاء عندما توقفوا عن القتال. لن أخبر السيد بهذا. يتوجب على السيد أن يسأل جدي. لقد استمعت إلى ذلك حينما كنت طفلاً. والطفل يصدق كل شيء. ولماذا كان عليّ ألا أصدق ذلك؟ هل السيد لم يشهد أي حرب؟ كان السيد محظوظاً، إلا أنني أشفق على السيد. أشياء كثيرة ممكنة في الحرب. كل شيء ممكن في الحرب. الحرب تخلط، تساوي الفلاح بالفيلسوف - الجميع معرضون للموت.

ويمكن للجميع مقابلة الجميع. وإلا ففي أي مكان آخر يمكن أن يلتقي الفلاح والفيلسوف؟

لذلك عندما لم يتقاتلوا خاصة في الليل، كما تعلم في الليل لا يمكن القتال بالحرب، وأحياناً لم يتقاتلوا العشرات الأيام لعدم وجود أوامر، حينئذ خرج من كان في تلك الخنادق إلى الخارجين من الخنادق المقابلة، وجلسوا بين الجثث المثقبة، قدموا السجائر بعضهم لبعض، والفودكا، وأحياناً بادلوها بأشياء مختلفة، ولعبوا بالورق أحياناً. ولم لا؟ على سبيل المثال، يمكن اللعب بلعبة الواحد وعشرين بالورق حتى في الظلام. يكفي أن تسحب نفساً من السيارة وستوهج وحينئذ يمكن رؤية الورقة. أحياناً كان يغنى هذا الطرف وذاك الأغاني باللغة ذاتها.

حسناً، ذات مرة، كان الوقت ليلاً أيضاً، سقط المطر، وكان الجميع في خنادقهم منحنين تحت معافطهم العسكرية المطرية. آنذاك، رأى جدي شخصاً خارجاً من الخندق المقابل، وقف بين الجثث وأدار وجهه نحو السماء وكأنه أراد أن يجمع المطر كله على وجهه. فخرج جدي أيضاً وفعل الشيء نفسه تحت المطر بإدارة وجهه نحو السماء. حينئذ، سأل ذلك الشخص جدي: هل هو جائع. وكان جدي يتضور جوعاً لأنه لم يكن لديهم حتى البسكويت. عاد الرجل إلى خندقه وجلب علبة طعام. جلسا بعضهما مع بعض، فتحا العلبة وشرعا بالأكل. من المنطقي أنهما أكلا بنفس الحربتين اللتين كانا يطعنان بهما.

لم يجرؤ جدي على أن يسأل الذي يأكل معه من يكون؟ على كل حال، وما الداعي؟ يكفي أن ذلك الشخص قد أحضر الطعام المعب. وبما أنه في الزي العسكري أيضاً، فلم يخطر على بال جدي أنه يأكل مع فيلسوف، أكثر من كونه عدواً. وهكذا أكلا مائلين بعضهما إلى بعض وهما يحجبان علبة الطعام عن المطر. لم ينبس ذلك الآخر بشيء. أما جدي فكان في الحقيقة يحب الكلام لكن من الأفضل أن يكون عن الحروب كما ذكرت للسيد. لكن أن يتحدث عن الحرب وهما لا يزالان فيها، جالسين ويأكلان وسط الأجساد الصرعى. جمعوا الجرحى، المطعونين للتو، لكن عندما تحركت الجبهة.

بدأ جدي بالإطراء على الطعام المملح وأنه لذيذ ليس لتصوره من الجوع فحسب، بل لأنه أيضاً كان يحب أن يطري على كل شيء. على النهار، الليل، الحياة، الإنسان والله. كانت هذه طبيعته. لذلك قال الرجل لجدي أن يأكل بالفعل العلبة كلها حتى النهاية. وجدي تحدث عن نفسه بدافع الامتنان. وأنه قد ترك زوجته الشابة، ويريد العودة إليها، وأن لديه ثلاث بقرات، حصانين، وكذا من الأفدنة، وقطعة مرج وقطعة غابة. وأنه يزرع ويحرق وهكذا يوماً تلو الآخر. وفي الغالب يقشرون الفاصولياء وقت الخريف والشتاء، لأنهم يزرعونها بكثرة ليحصلوا على ما يكفي لتقشيرها في الخريف والشتاء. عندها يجلس الجميع على ضوء المصباح، هنا يقشرون وهنا يتحدثون. سيعود ويتحدث عن هذه الحرب وأنهما جلسا وأكلا الطعام المملح معاً.

حينئذ، قال ذلك الرجل لجدي: إنه يحسده. هو لا يعرف تقشير الفاصولياء، لكنه يفضل التقشير على ممارسة ما يمارسه الآن خاصة أنه لا منفعة للناس منه. حينذاك سأله جدي: ما هي مهنته. فقال ذلك الشخص إنه فيلسوف، ذاكراً اسمه ولقبه حتى لا ينساه بعد عودته. ظل جدي، طوال الحرب، يردد هذا الاسم واللقب كي لا ينساه بعد أن يعود. أراد على الأقل أن يعبر عن امتنانه له على الطعام المملح. لسوء الحظ، نسي. سيقول السيد من كان هذا الشخص؟ هل السيد متأكد؟ هل عرفه السيد؟ إنه لأمر مؤسف أن جدي لم يعيش وإلا لذكره السيد به.

على أي حال، كان بإمكان جدي التحدث عن الحروب بدون نهاية، خصوصاً أثناء تقشير الفاصولياء، كما لو أن ذاكرة جدي قد انفتحت على مصراعيها. سواء أكانت مثل هذه القوة تكمن في الحروب أو الفاصولياء إلا أنهما تفتحان الذاكرة حتى العمق. كان ثمة انطباع كما لو أن الحروب كانت مغرمة بالفاصولياء.

ومثلما يعلم السيد، غالباً ما أتساءل عما إذا كان جدي قد قتل هؤلاء الثلاثة فعلاً. ربما هو فقط تخيل أنه قتلهم، على أمل أنه بفضل ذلك سوف يحلم بهم على الأقل. لقد حاول بهذه الطريقة معالجة كونه لا يحلم في شيء أبداً. وكما ذكرت، هو على الأغلب بحث عن الدعم في الحروب في جميع الأمور. حتى عندما أراد مواساة نفسه أو الآخرين فإنه طالما ذكر نفسه

بشيء ما من الحرب. ليس بالضرورة من الحرب التي كان فيها. إنما من حرب أخرى، قريبة، بعيدة أو من تلك التي لم يكن موجوداً أثناءها في هذا العالم بعد.

ذات مرة سمعت الأولاد يتهايمسون في المرعى بأن العم (يان) ليس ابن جدي لأنه ولد مباشرة بعد عودته من الحرب. على الرغم من أنني لم ألاحظ قط أن جدي قد فرق بين أبنائه. وبالمقابل لم يبدُ على العم يان ما يشير إلى أنه لم يكن ابن جدي. وبعد شئق نفسه حزن جدي عليه كثيراً.

- لقد كرر مراراً: كيف هو ليس ابني، كيف هو ليس ابني. مرة أخرى قال للجميع: لم يخطر على بال الإنسان مطلقاً أن ابني سيشئق نفسه يوماً ما. للأسف، أن هذه القوة التي حلت حينئذ فيّ لم أمنحها لأولئك الثلاثة ليغرزوا حراهم في داخلي. ثلاث حربات، ولن أكون مضطراً إلى انتظار ما حصل. إيه، يا بني، يا بني. لو كنت على الأقل في الحرب لما كان هذا الأسى كما هو الآن.

على أي حال، مثلما كان هكذا كان الأمر هناك. لا الجدّ موجود ولا الجدة ولا العم يان. وأحياناً لدي انطباع أنه لم يعد هناك أحد. ربما أنا أيضاً؟ أحاول في بعض الأحيان معرفة ما إذا كنت موجوداً أم لا. سوى أن الإنسان وحده ليس بشهادة لنفسه. يجب أن يكون هناك دائماً شخص آخر للشهادة. الإنسان وحده متساهل جداً مع نفسه. يدافع عن نفسه ضد نفسه قدر ما يستطيع. المفاتيح، يتجنبها، يتخطاها، ليس أبعد، لا أعمق، ليست هناك حيث يخفي شيئاً ما. كل واحد يرغب في الظهور أمام نفسه كما في صورة الزفاف. مصفف الشعر، حليق الشعر، مرتدياً بدلة، بالرباط، مفعماً بالحياة، مبتسماً حتى تكون نظراته حسنة. وبالطبع أكثر شباباً. ويعتقد أنه هو. لكن لو نظر إلى نفسه بصدق...

كل صورة زواج، كما يعلم السيد، هي صورة سعيدة. الرأس بجوار الرأس، الكتف جنب الكتف، تكيفا بعضهما مع بعض كما لو أنهما في مكيا ل من بذور الخشخاش. لو آمن المرء بالقدر لأمكنه الاعتقاد بأن القدر هو ذا المصور. أما ماذا سيحدث بعد ذلك، فهذا ما لن يراه السيد في أي صورة من

الصور. لا يوجد مثل هذه الكاميرات ولا المصورين. لا أدري، ربما ستكون يوماً ما. لكن حتى الآن، لا تزال جميع صور الزفاف سعيدة. وكم صورة من هذه الصور السعيدة معلقة في البيوت. مع ذلك سأقول للسيد، إنني أتساءل عما إذا كانت السعادة تكمن في صور الزفاف على وجه الحصر.

علقت صورة الزفاف عند ذلك في هذا البيت أيضاً. أوه، لم أكمل كلامي للسيد. إذًا، عندما أيقظني ذلك الصراخ في الليل قررت الذهاب لأرى ماذا يحدث. الليل كثيف والنجوم مغطاة بالغيوم. الصمت مطبق حتى إنني سمعت خطواتي كما لو كان من غير المعروف كم رجلاً كان يمشي. حتى بإمكانني سماع خطوات الكلين. سرت بين المنازل واضعاً أذني على الجدران، ملصقاً رأسي عند النوافذ المفتوحة. ومع ذلك كانوا ينامون في كل مكان نوماً عميقاً ويسمع شخير بعضهم. لقد اعتقدت فعلاً أنني حلمت. في هذه الأثناء يبدأ الكلبان بجريّ إلى مكان ما. ما الذي حدث؟ لكنني أسير وراءهما. وإذا بي أرى بجوار أحد المنازل جسداً بضاً لشخص ما. عارياً كأنه خلق للتو. إنها امرأة. انحنيت لكنها لم تعط أي علامة على الحياة. سلطت ضوء المصباح اليدوي على وجهها وكان ملطخاً بالدماء.

أخذتها بين ذراعيّ وجلبتها إلى مكاني. وضعتها هناك في الغرفة ونظفتها. كانت مصابة بكدمات شديدة لدرجة أن هذا الأمر يعصف داخلي عندما أحدث السيد الآن. دثرتها بالبطانية، حضنتها لأنها كانت ترتجف. عملت لها الشاي، لم تستطع شربه لأن شفيتها متورمتان. كان عليّ أن أصبّه بالملعقة في فمها وأسند رأسها باليد الثانية لأنها لم تكن قادرة على حمله بمفردها. فتحت عينيها لكنهما بدتا لي غير واعيتين. بدأت تقول شيئاً، انحنيت عليها لكن كل ما سمعته مجرد همسة خافتة:

- من أنت؟

- قلت لها: لتنم السيدة. النوم سيجعل السيدة أحسن.

أعتقد أنها لم تنم لأن بكاءها أيقظني قليلاً من خلال الحائط. أو ربما حلمت بأنها هناك تبكي وأن حلمي قد أيقظني. في الصباح ذهبت لجلب ملابسها من هناك حيث المنزل الذي وجدتها أمامه. في البداية أنكر أنه هو.

هذا مستحيل. لقد رأيت زوجته أكثر من مرة. [قال] هي لم تأتِ الآن لأنها لا تشعر جيداً. أوه، انظر صورة زفافنا، ربما يعرفها السيد. أما هذه فهو لا يعرفها على الإطلاق. وقد أخذ حبة للنوم حتى إنه لم يسمع صراخ أحد. أخطأ السيد، ربما حدث ذلك في منزل آخر. قلت: لكنني وجدتها أمام منزله. ربما ألقاها أحد ما أمام منزلي بخبث. ينبغي على السيد أن يعرف من يأتي إلى هنا وماذا يفعل، لأن السيد يراقب المكان. ولولا الكلبان لأنكر حتى النهاية. لكن الكلبيين قاما بسحب قسم من الملابس النسائية الداخلية من تحت السرير، بلوزة، وتنورة ونعلًا. ليتخيل السيد أنه لم يشعر بالحرَج على الإطلاق. لقد ضحك فقط:

- يا سيد، يا سيد، في أي عالم أنت تعيش؟ ما العمل، السيد ليس من عالم اليوم؟ خذها إذا كنت تشعر بالأسف عليها. في كل الأحوال أنا أردت تغييرها.

أراد أن يقدم لي البيرة. أخذ الكلبان يشعران بالغضب فعلاً، وكان عليّ أن أهدئهما، قلت: اهدأ، يا وابس، اهدأ يا ريكس، لأنهما كانا في انتظار أن أعطيتهما إشارة فقط.

- أجبته: ربما لست من عالم اليوم. - لكن، ليحدث مثل ذلك مرة أخرى وسأضرم النار في منزلك. ولن يعرف السيد من فعل ذلك لأنك ستُقلَى فيه.

- لماذا يتدخل السيد فيما لا يعنيه؟

قلت بهدوء: كل القضايا هي قضاياي.

- لقد كلفوك بالمراقبة!

ولهذا.

كما هو الحال الآن بعد الموسم، اليوم لا يختلف عن غيره تقريباً. في الصباح كأى شخص يستيقظ، أغتسل وألبس ملابسي. وسأقول للسيد، إنني عندما أدرك أن العالم كله يستيقظ معي، يغسل ويرتدي ملابسه، أشعر أحياناً برغبة في العودة إلى السرير للاستلقاء وعدم الاستيقاظ هذه المرة على الأقل، أو عدم الاستيقاظ نهائياً. كما لو أن لعنة ما قد ألمّت بالإنسان بحيث يجب عليه النهوض كل صباح، أن يغتسل ويلبس، على نفس المنوال. سيكون من حقه أن يشعر بالإحباط طوال اليوم، ولكل ما يحدث فيه أو لا يحدث، رغم أن اليوم لا يزال في بدايته. والآن فليتخيل السيد، إن الحال طوال الحياة هو هكذا. كم مرة نهضنا، اغتسلنا، لبسنا، وما الداعي؟

بالطبع، أعني اليوم الذي يبدأ للتو في هذه الجهة من العالم. لأنه في الجهة الأخرى عندما نحن نستيقظ، نغتسل، نلبس، هم يخلعون ملابسهم، يغتسلون ويؤوون إلى الفراش، وما ينتظرنا عاجلاً عند نهاية اليوم، آنذاك يكون ما مررنا به صباحاً في انتظارهم. أوه، ووفقاً لهذا فإنها أفضل طريقة لرؤية أن العالم يدور ولا يتجه إلى أي مكان.

أقسم هذا العالم على جهتين في الصباح فقط، لأنه ليس هناك أي جهة في المساء. في المساء يكون شبيهاً بإنسان ممزق إلى أشلاء. أما في الصباح فلا يزال الإنسان كاملاً.

لا، يجب عليّ إطعام الكلبين أولاً. يجب أن يحصل الكلبان على الأكل في الوقت المناسب. خصوصاً في الصباح. حتى إذا لم أتمكن من النهوض فهما يجب أن يحصلوا على الأكل. سواء أكنت مريضاً أم لا، فهما

يجب أن يحصلوا. هما يحصلان على وجبة في الصباح والأخرى في وقت متأخر بعد الظهر. عندما يأتي وقت حصولهما على الأكل هما يقومان بتذكيري. يستلقيان وينظران إليّ. أستيقظ في الصباح الباكر وهما يستلقيان وينظران إليّ.

إذاً، كيف لا أنهض حتى لو كان الإنسان غير راغب في ذلك أو لا يرى الهدف الذي ينبغي عليه أن ينهض من أجله. عيونهما لا تلمع من الجوع، بل من اليقين بأنهما سيحصلان على الأكل حالاً. إذاً، فكيف لا تستيقظ؟ سأقول للسيد إنني لا أستطيع الاستغناء عنهما. أحياناً يبدو لي أن اليوم بدونهما لا يريد أن يبدأ، لا يريد أن ينتهي. بعد ذلك، نخرج لنرى ماذا يجري هناك في المنازل. وبعد ذلك هذا أو ذاك. أنت لا تدري. يعتمد على اليوم، لكنها متشابهة في الغالب. أحياناً أستقل السيارة لأشتري شيئاً ما. نعم، لدي سيارة. لا بد من الذهاب بين الفينة والأخرى لشراء شيء ما. وبالمناسبة أعرج على مكتب البريد والمصرف. نعم، لكن عدا ذلك لا أسافر إلى أي مكان. لا، ليس لدي أحد ولا مكان أذهب إليه وليس لدي أي هدف. ودائماً هناك أشياء تحتاج إلى عملها حولي. الغسيل، الكوي، الغسل، المسح والتنظيف. وحتى لو لم يكن لدي ما أفعله فلديّ هذه الألواح التي تأخذ الكثير من وقتي. رغم أنني لا أعيد طلاءها كل يوم. أحياناً تكون يداي صالحتين وأحياناً تؤلماني. لا أقوم بجدولة أنشطتي في كل يوم.

أبدأ اليوم كما لو أنني لا أبتغي منه شيئاً، ما سيجلبه، سيجلبه. كما أنني لا أتوقع أن يجلب أي شيء. فقط مراقبة هذه المنازل تضع يومي في مثل هذا النظام. فقط من خلال هذه المنازل أرى أن يومي لا يراوح في مكانه.

على الرغم من أن اليوم كما الآن هو الخريف ويبدو كل مرة يصير أقصر، فإنه بالنسبة لي يطول أكثر كل مرة. أحياناً عندما أستيقظ صباحاً وأفكر في أنه يجب عليّ أن أعيش إلى المساء، أشعر كما لو كان ذلك من الولادة إلى الموت مرة أخرى. لا أعرف، هل شعر السيد بمثل ذلك من قبل، لكن كما لو أصبح اليوم كل مرة أصعب على العيش. لا، ليس المقصود أنه طويل. كيف يمكنني أن أقول ذلك للسيد. حسناً، مثل هذا اليوم. إنه يوم كبقية الأيام، لكنه العمر كله.

في المساء أقرأ قليلاً وأستمع إلى الموسيقى قليلاً. لا، لا أشاهد التلفزيون تقريباً. لا يحبه الكلبان. عندما أشغله يتوتران ويتذمران. ولا بد لي من إيقافه. لو كان بإمكانني العزف. حسب اعتقادي لا شيء يمكن أن يؤاخي بين الموت والحياة كالموسيقى. صدقني، لقد عزفت طوال حياتي، وأعرف. نعم، حتى لدي ثلاثة ساكسوفونات، لقد جلبتها لنفسني. ساكسوفون سوبرانو، ألتو، وساكسوفون التينور. لقد عزفت على الثلاثة. إنها هناك في الغرفة. هل يرغب السيد في أن يراها؟ ربما في وقت لاحق. دعنا ننهي الفاصولياء أولاً. جلبت المزممار والكلارينيت أيضاً. أحياناً عزفت كبديل على البيانو. لكن آتني هي الساكسوفون. يسألني السيد: هل أنهيت مدرسة ما؟ هذا يعتمد على ما تعنيه بالمدرسة. حسب اعتقادي، لقد أنهيت أكثر من واحدة، رغم أنني لا أملك أي شهادة. لأنه لكي تعرف هل يجب عليك أن تجلس لسنوات على الرحلة؟ يكفي أن تكون لديك رغبة في أن تعرف. وأنا أردت ذلك منذ الصغر.

بدأت العزف على الهارمونيكا التي حصلت عليها من عمي يان. جلسنا ذات مرة تحت شجرة البلوط عند حافة الغابة، وعزف عمي. عزف بروعة. حتى إنه عزف مقطوعات من عروض الأوبريت. فجأة سقطت بلوطة من شجرة البلوط على رأس عمي.

فتوقف عن العزف، نظر إلى الأعلى وقال:

- أوه، ربما على هذه الشجرة؟

سألته: ماذا على شجرة البلوط؟

- أجاب: سأشقق نفسي. لكن لا تخبر أحداً بذلك بعد. وضع الهارمونيكا على فمه مرة أخرى، لكنه مررها بدون صوت وسرح في أفكاره. بعد ذلك أعطاني الهارمونيكا وقال:

- خذ. أنا لست بحاجة إليها بعد الآن. فمن المؤسف أن تهدر. كانت هارمونيكا جيدة. سألته وقتئذ:

لماذا لا تريد يا عمي أن تعيش؟

- مهما قلت لك، مع ذلك فلن تفهم. اعزف لي شيئاً ما بشكل أفضل.

مازلت غير قادر يا عمي.

- هذا لا يهم. لكنني سأخبرك هل ستعرف العزف.

بدأت في النفخ، وسحب الهارمونيكا على فمي، لكن الصوت لم يرد أن يتناغم مع الصوت. لكن يبدو أن عمي قد سمع شيئاً ما:

- ستعرف. لكن، تمرّن فقط.

وهكذا بدأت. هل يعتقد السيد أنه يمكن احتساب المدرسة من هنا؟
ليكن، إنها كانت مجرد روضة أطفال. كانت تسمى دار رعاية خيرية وليس روضة أطفال. وبدأت بالعزف من شجرة البلوط تلك. كنت مولعاً ومهووساً بالعزف. عزفت طوال الأيام. أردت أن يسمع عمي كيف أعزف قبل أن يشنق نفسه. كنت أعزف والأبقار تجول في المرعى. دفعوني إلى الحقل فاحتميت بالغابة وعزفت هناك. طردوني من البيت لأنهم لم يعودوا قادرين على تحمل عزفي كان الجو ممطراً، فوقفت تحت الطنف وعزفت. تسلقت الأشجار إلى أعلى ارتفاع ممكن حتى لا يتمكنوا من إنزالي. ركبت القارب، فحملني نهر رودكا بينما كنت أعزف. حتى إنني ذهبت إلى المرحاض الخشبي، أغلقته بخطاف وأخرجت الهارمونيكا ثم عزفت. لم يكن بمستطاع أحد أن يفهم ماذا يمكن عمله في المرحاض لفترة طويلة. لحسن الحظ كان المرحاض الخشبي يقع خلف حظيرة المبنى لذلك لم يتمكنوا من سماع عزفي.

لا، مازال عمي يان على قيد الحياة. كما لو أنه انتظر حتى يستمع إليّ. ذات مرة رأيته جالساً تحت شجرة البلوط تلك على حافة الغابة وذهبت إليه.

هل سيسمعني عمي؟

- إذاً، هيا اعزف. وهو يستمع إلى عزفي قال: أوه، لا تكفيك هذه الهارمونيكا لوقت طويل. اختر الساكسفون بعد ذلك. لم ير أحد الساكسفون هنا من قبل، سيدعونك إلى كل الحفلات والأعراس. وربما أبعد وأعلى. الساكسفون هو الأكثر أناقة الآن. والساكسفون هو العالم. سأقول الكمان أيضاً، لكنه آلة غجرية. يجب أن يكون لديك دم غجري وروح غجرية. مثلما الغجر ير تحلون، كما الغجر يسرقون. لا، الغجري لن يعزف هكذا أبداً.

هم يعزفون على الكمان في القرى، لكن أين هم من الموسيقيين. ليجتمع الكمان والأرغن والطبل وسيعزفون كل شيء بطريقة مماثلة. بُمّ تُسيكْ تُسيكْ، وبُمّ تُسيكْ تُسيكْ [لالالا، لالالا]. هم لا يعرفون العزف بخلاف ذلك، لأنهم هكذا عزفوا هنا دائماً. هكذا عاشوا وهكذا عزفوا وهكذا ماتوا. بوم تُسيكْ تُسيكْ، بُمّ تُسيكْ تُسيكْ. يجب أن يأتي الساكسفون لكي يتغير شيء ما. ربما بعد ذلك سيبدوون بالرقص بشكل مختلف. كنت في المدينة ذات مرة في المرقص وكان في الأوركسترا ساكسفون، أقول لك... بعد ذلك رأيت واحداً مشابهاً له في واجهة المحل. وكان يستلقي الكمان بجانبه. لو كان لدي نقود، وهو ما لم يكن، لا شتريته. لتعلمتُ العزف بنفسي. إذا أراد المرء يمكنه أن يتعلم كل شيء. الله! الله! كان غالياً. أكثر بكثير من ذلك الكمان الذي على جانبه. لا أعرف كم سيكون سعر أرضنا هذه... سأترك لك حصتي، ربما تكفي. وإلا، فيجب أن أدخر. لو عرفت مبكراً... لكن الأمر يتطلب البدء من شخص مثلك.

حسناً، هكذا حدث بعد الحرب وأن ألفت نفسي في مثل هذه المدرسة. لم تكن مدرسة عادية. وخير دليل على ذلك أن القاعة المشتركة التي احتلت الثكنة بأكملها كانت مليئة بالآلات الموسيقية. ما الذي كان موجوداً هناك، لن يصدق السيد. يا لها من مدرسة موسيقية؟ لا، لماذا. أبواق، مزامير، آلات الترومبون، آلات الأوبوا، باسونات، كلارينات، كمنجات، ساكسفونات الألتو، آلات التشيلو، وكمانات الأجر. وكانت هناك حتى آلات موسيقية سماها لنا معلم الموسيقى قد جلبوها له أخيراً.

وكان من ضمنها ساكسفون ألتو أيضاً. صحيح أنه كان يفتقر إلى مفتاحين، لكن لو لمستته بالأصابع لعزف بطريقة ما.

كانت بعض الآلات في وضع أسوأ. معقوفة، محطمة وممزقة وفيها ثقب من الرصاص والشظايا كما لو أنها اشتركت في الحرب أيضاً.

لكنها كانت في حالة جيدة جداً أو على الأقل كان يكفي لحام شيء هناك قليلاً أو كثيراً ثم لصقه أو أن يؤخذ من آتين أو ثلاث وتكييفه مع آلة واحدة، كأن تنقل من هذه الآلة إلى تلك، مثلاً الأوتار، أو أن تنقل معبرة الآلة إلى

أخرى ويمكنك العزف. كان لدينا ورش للتصليح ولذلك أمكننا أن نجرب مثل هذه التصليحات.

البعض، كما اتضح، عرفوا العزف قليلاً على هذه الآلة أو تلك. لكن معظمهم لم يلمس أي آلة موسيقية في حياته قط. أنا، على سبيل المثال، عرفت العزف على آلة عمي فقط. وفي غضون ذلك عندما جاءنا المعلم، بعد ذلك بوقت قصير، أعلن على الفور أنه سيشكل متفرقة موسيقية. بالأحرى كلفته المدرسة بهذه المهمة التعليمية. لحسن حظنا أنه سرعان ما نسي الموضوع.

وعموماً، هو لم يبد حماساً على هذا الصعيد حقاً. القضية الأخرى هي عمل فرقة موسيقية من هذا الخليط كما نحن في المدرسة، لا أعرف، هل كان هناك أي شخص قادر. كان يجيء مخموراً في معظم الأحيان، وبالكاد يقف على قدميه أحياناً. وكان يغفو أثناء الدرس في بعض الأحيان، أو يأخذ آلة موسيقية من أجل أن يوضح لنا كيفية العزف عليها، وغالباً ما يستمر في العزف حتى نهاية الدرس.

كانت لدينا تمارين معه في المساء أيضاً في الغرفة العامة المشتركة واعتمد ذلك على ما إذا كان سيأتي مخموراً كثيراً أو قليلاً. فإن كان مخموراً كثيراً تأثر أكثر لحالة هذه الآلة الموسيقية العاطلة أو تلك، وكيف أمكنهم تشويهاها بهذا الشكل. هذا عمل بربري. هذه الآلة كالإنسان تعاني. كل ثقب طلبة، كل وتر ممزق، كل عنق آلة مكسور، هي جروح. حسب اعتقاده، لقد تم جلب بعض تلك الآلات الموسيقية إلى مدرستنا ربما عن طريق الخطأ، لأن عليها أن تكون في المتحف.

لكن ربما هم جلبوها من المتحف لإيصالها إلى مكان آخر، لكنهم جلبوها إلى مدرستنا. ربما يتذكر السيد، كل شيء تم إحضاره ونقله من هذا المكان إلى ذاك، ومن ذلك إلى مكان آخر. ولا ينطبق الأمر على الآلات الموسيقية فحسب. بل على الآلات والحيوانات والناس. الأثاث والفراش والأواني والأطباق. أحياناً كنا نخرج إلى المحطة فكان قطار الشحن يعقبه آخر وكل واحد مليء بممتلكات مختلفة. كانت قطارات الركاب نادرة، بينما

جاءت قطارات الشحن الواحد تلو الآخر. ربما هكذا هو الحال، بعد كل حرب، يعود كل شيء إلى مكانه، رغم أن الحرب تغير الأمكنة، تستبدلها، ومن العبث البحث عن بعض الأماكن، لأنها لم تعد موجودة إطلاقاً.

ذات مرة جاءت سيارة وجلبت معها قيثارة، وآلة هاربسكورد، وكمان الساق، ولم نكن نعرف ما هذه الآلات، فسألنا معلم الموسيقى عنها، لكنه أجهدش بالبكاء. فقدت القيثارة نصف أوتارها، ولم يبق على الهاربسكورد سوى عدد قليل من المفاتيح، أما كمان الساق فكان مثقباً كما لو أن أحداً قد أطلق النار عليه. ومنذ تلك اللحظة أحببناه. هو الوحيد من بين المعلمين. على الرغم من أنه، مثلما ذكرت، عادة ما يأتي مترنحاً أو في حالة سكر بالفعل.

كان يحمل معه زجاجة مسطحة دائماً. أوه، هنا، في جيبه الكائن على الصدر. لم يشعر بالحرج كونه معلماً ويخرجها أمامنا ويحتسي منها أحياناً. اعتذر منكم يا شباب، لا بد لي من ذلك.

كل المعلمين تصرفوا معنا مثل رجال الجيش وعاملونا كمجندين. جميعهم، ما عداه هو الوحيد، ارتدوا الزي الرسمي بدون نجوم ولكن مع الكتاف، مربوطين بأحزمة عسكرية. قيل، كانوا يحملون مسدسات في جيوبهم. نحن التلاميذ أيضاً كان لدينا زيّ موحد لا هو بالأسود ولا بالأزرق الداكن، وأحذية منعلة بالمسامير، وقبعات عليها علامات معدنية كشمس مشرقة في نصف دائرة من الأشعة. وكما شرحوا لنا في درس التربية كان من المفترض أن تعني بزوغ عالم جديد أفضل. وأن هذا العالم هو أمامنا مباشرة. وما علينا سوى تعلم الإيمان، الإيمان الصلب. ومن أجل هذا الإيمان نحن هنا في المدرسة.

علاوة على ذلك علمونا المهن. مهنة البناء، الجصاص، النجار، المسقف، الخراط، عامل الحديد، التفريز، اللحام، الميكانيكي، الكهربائي، وعدداً قليلاً آخر. كان بإمكان كل واحد أن يختار المهنة التي يرغب في تعلمها. لكن ليس بشكل مطلق. في النهاية، كل هذا كان يتوقف على ما تملكه المدرسة من هذه المهن المحددة أو سواها.

سكنّا في ثكنات موزعين على مجموعات. كل مجموعة كان لها قائد فريق من الأكبر سنّاً بيننا والأقوى وكان يقف أعلى منه على رأس كل مجموعة معلم.

تعلمت في بادئ الأمر العزف قليلاً على البوق، وقمت صباح كل يوم لمدة عام بعزف نداء الاستيقاظ. يلي النداء اغتسال وإفطار: قهوة سوداء من الحبوب، وخبز مع مربى البرتقال (مرملاد). بعد ذلك يتم تجميعنا على صفيين في الساحة ثم العد والأوامر. وكالعادة، يتم تقديم تقرير في عدد قليل من الأشخاص بسبب سوء السلوك. بعد ذلك ترسل كل مجموعة إلى الدروس في قاعة مستقلة أو إلى ورش عمل للفصول. على أن يذهبوا مرتين في الأسبوع إلى العمل بالمعاول، والفؤوس وهم يغنون.

ما الذي لم نفعله؟ أوه، كان هناك الكثير للقيام به في ذلك الوقت. خاصة أنه في المنطقة التي كانت تقع فيها مدرستنا جرت مواجهة عسكرية لعدة أشهر. قمنا بطمر المخابئ والخنادق والحفر بعد الانفجارات، كان بعضها ضخماً، لا يمكن للسيد أن يتخيله. هل رأى السيد ذلك؟ وطبعاً، قمنا بترقيع الطرق، على الأقل بشكل تقريبي، حتى يتمكن الناس من المرور. أو كنا نقطع الحجارة لهذه الطرق. قمنا بتفكيك بقايا المباني التي كانت مهددة بالانهيار. أو الجسور غير القابلة للإصلاح على الأنهار. أصلحنا السدود التي أنهكتها الدبابات وتلك المحفورة كي تمر عليها السيارات والمدافع. كما هو الحال بعد الحرب. بغض النظر عن المطر أو عدمه، مثلما أخبرونا: يجب أن يصلب عودنا. بالطبع، في الشتاء كذلك. جرفنا الثلج من الطرقات وخطوط السكك الحديدية.

أما بالنسبة للتعليم، فكان بيننا من حضر دروساً سرية أثناء الحرب. كان بعضهم بعد الصف السابع. لكن معظمهم لا يجيد القراءة ولا الكتابة. وبعضهم حتى لو عرفوا إلا أنهم نسوا بسبب الحرب. بسبب الحرب لا يمكن نسيان القراءة والكتابة فقط، يمكن أن تنسى نفسك. ونسوا. لم يعرفوا من أين أتوا، ما هي أسماءهم، أين ومتى ولدوا. كلهم عبارة عن خليط ما بعد الحرب، كما قلت، بلا منازل وآباء وأمّهات والعديد منهم ذوو ضماير سيئة. بالإضافة إلى ذلك، كنا في أعمار مختلفة، أكبر سنّاً وأصغر سنّاً وبعضنا مازال

طفلاً. على الرغم من أنه لم يبق أحد طفلاً بالفعل. كان من غير الممكن أن يكون طفلاً حتى لو اشتاق أحدهم إلى ذلك.

لذلك لم تكن مدرسة تماماً، بل مدرسة قليلاً وكجيش فتي قليلاً. وكما هو الحال في الجيش واجهنا التقارير لأصغر ذنب، كان علينا أن نركض إلى تلك الشجرة وأحياناً مع بعض الأثقال. أو قالوا: اقفزوا إلى الماء حتى الرقبة باللباس الرسمي والأحذية. أو اعملوا كثيراً من تمارين الضغط. وبالحبس الانفرادي على الخبز والماء لارتكاب الذنوب الأكبر. كان علينا تسجيل أنفسنا عند المعلمين وليس [مخاطبتهم] كما هو الحال في المدرسة، حضرة السيد، بل، أيها المواطن المعلم، وبالنسبة للآمر: أيها المواطن الأمر. لذلك لم نشعر نحن أيضاً بأننا طلاب تماماً. حتى إن قلة رغبت في الاجتياز من صف إلى آخر. على أي حال، لم يكن الانتقال بهذه الأهمية. جعلونا في نفس المستوى، معتبرين، على ما يبدو، أن الحرب أعادت الجميع إلى البداية ولهذا علّمونا من البداية.

ربما كانوا على حق لأنك لو حضرت درساً ما، واستمعت لنا، كيف نتأتى، لو نظرت في دفاتر ملاحظتنا، وما فيها من خريشات، لا أعرف ما إذا كان بإمكانك معرفة أي منا قد أنهى ومن منا بدأ للتو. مثلاً، تدريبنا على التوقيع لعدة دروس. حتى إننا ارتكبنا أخطاء في أسمائنا وألقابنا. فضلاً عن ذلك، لم تكن القراءة والكتابة هي الأهم.

فيما يتعلق بالمهنة، أنا اخترت مهنة اللحام. لا أدري، من أين أتت فكرة اللحام على بالي. لم أر كيف يُلحم قط. رأيت في ورشة الحدادة فقط كيف يصوغون الحديد. ومرة واحدة سمعت ما قاله الحداد لأحدهم: لا يمكن فعل ذلك. يجب أن تلحم. لكن بعد سنة اتضح أن عدد آلات اللحام في المدرسة لا تكفي للعديد من الراغبين. والمتوفرة منها كثيراً ما تتعطل. ناهيك عن أنه كان علينا الانتظار في بعض الأحيان طويلاً وطويلاً حتى يجلبوا لنا أسطوانات الأوكسجين.

وبالتالي تم نقلي إلى مهنة كهربائي. كان بإمكان المدرسة أن تعلم الكهربائيين دون قيود، نظراً لأنهم شرعوا بكهربة القرى. تماماً كما هو الحال

عند اختيار اللحام ولم تكن لدي فكرة عن كيفية اللحام، لم أكن أيضاً أعرف ما هي الكهرباء. لأنه من أين لي ذلك؟ كانت الشمس والفانوس الزيتي هما الضوء الوحيد الذي عرفته. قال لي العم يان فقط: في المدن تضاء الشوارع بالكهرباء. وهي داخل المنازل في كل مكان. وعندما سئل عن ماهية هذه الكهرباء أجاب: إنها أكثر إشراقاً من المصباح الزيتي. لا تحتاج إلى إضافة الكيروسين، وتنظيف الزجاج وتقليم الفتيل، يوجد مقبس كهربائي على الحائط، ويكفي الضغط عليه فقط ليضيء.

لماذا وُجِّهت إلى مهنة كهربائي وليس، على سبيل المثال، إلى عامل بناء أو نجار؟ لأنه عند اختيار مهنة اللحام كان عليّ المرور في اختبار التسلق على الأعمدة. لأن اللحام كثيراً ما يجب عليه أن يلحم في أماكن مرتفعة. كان القصد هو، إذا استطاع الشخص أن يتعامل مع الارتفاعات دون أن يصاب بالدوار. كان ينتصب في الساحة عمود طويل منزوع القشرة حتى صار لزجاً من كثرة الاختبارات. صعدت إلى قمته سريعاً. كان بإمكانني أن أكون أعلى لكنهم بدؤوا بالصياح في الأسفل:

- انزل! لا يوجد عمود في الأعلى! لقد انتهى! انزل!

وإلا فماذا يعني هكذا عمود بالنسبة لي. لقد تسلقت كل الأشجار في الغابة. صعدت إلى أعلى أشجار الحور عند نهر رودكا. ويجب أن يعلم السيد، من الأصعب أن تبلغ قمة شجرة الحور. خصوصاً إذا كانت بأسقة ونامية. سحبت نفسي على يديّ فقط، وتسلقت الجذع حافي القدمين بدون أي حزام. كان من الضروري اجتياز امتحان العمود من أجل مهنة الكهربائي، ونظراً لأن الكهربائيين طالما يعملون على ارتفاعات أكثر من عمال اللحام اعتبروا أن بإمكانني أن أكون كهربائياً وكذلك لحاماً.

لم يكن الأمر مهماً بالنسبة لي، في أن أكون لحاماً أو كهربائياً. الشيء الوحيد الذي استوقفني في المدرسة هو أن أتمكن من تعلم العزف على الساكسفون. ولولا ذلك لهربت منها مثلما هرب الآخرون. أحياناً تم إلقاء القبض عليهم وإجبارهم على مواصلة دراستهم وفي بعض الأحيان اختفوا دون أن يتركوا أثراً. لو هربت لما تمكنوا من القبض عليّ، لأنني عرفت

إلى أين سأهرب. ذهبت كل مساء تقريباً إلى الغرفة المشتركة وتمرت. كنا نعود، لنقل، من ردم الخنادق بعد يوم كامل، منهكين مثل مخلوقات غير سماوية وكان النعاس يدق أرجلنا، كان الأولاد يلقون بأنفسهم للنوم بدون غسل وأكل أحياناً، أما أنا فذهبت إلى الغرفة المشتركة وتمرت. كانت يداي ميتين من المجرفة، شفتاي جافتين من العطش، لكن كان يجب أن أتمرن ولو قليلاً. كان يأتي معلم الموسيقى في بعض الأحيان، يجلس ويستمع ويأخذ رشقات من زجاجته. أحياناً كان يصحح لي أو يعطيني تلميحاً، أو على الأقل، يعذر نفسه: لو لم يكن مخموراً. ولأنه كلما أخذ رشفة جديدة بدا أكثر سكرأً من قبل لهذا كان يتمم مع كل رشفة:

آخ، أنت عنيد، عنيد. لكن الموسيقى تحب العنيد. ربما ستجازيك في يوم ما على ذلك. لكن، فقط لا تراجع، لا تراجع. واصل التقدم. هي لا تجازي دائماً لكن ربما ستفعل ذلك لك. ربما سيقابلك هذا الحظ. أحياناً تعرضك لفقدان الإحساس بالواقع حتى لا تريد العيش بسببها. لكن ربما عليك، مع ذلك أن تواصل التقدم. ومن الجيد أن تقابل يوماً ما معلماً أفضل. ليس سكيراً. معلماً حقيقياً. سامحني يا فتى، لكنني مضطر. أتمنى ألا تضطر أنت إلى ذلك.

حدث أن غفا والزجاجة في يده. حينئذ أخرجتها من يده وأعدتها إلى جيبه هناك حيث يحملها. استيقظ، ابتسم وبعدها عاد إلى مواصلة النوم. رجوته أن يستيقظ ويذهب إلى مسكنه. كانت لديه غرفة في الثكنة المخصصة للمعلمين. سحبه أو هددته بمجيء الأمر. كان يخاف من الأمر عندما يكون صاحباً فقط. حتى لو تمكنت من إيقاظه بهذه الطريقة وهو في حالة سكر لكال اللعنات وتمتم، كما لو أنني أغضبته. أنت تعرف أيها الفتى، في أي مكان أضع هذا البائس. اعتذر منك.

ثم واصل نومه. اتضح أن البوق كان أكثر وقعاً، لكن الفلوت هو الأكثر فاعلية. الفلوت يتغلغل في سكره أكثر. لذلك وضعت البوق جانباً طالما أنه لم يساعدني، وأخذت الفلوت وعزفت عليه بجوار أذنه، ليس بصوت عالٍ بالطبع. بعد لحظة، وضع إصبعه الصغير في أذنه وبدأ في الحفر لا بد أنه شعر بالحكة. بعد ذلك ظهرت على وجهه ابتسامة جراء الفلوت لكن عينيه

ما زالتا مغلقتين. في حين ظهر تقطيب ما في حالة البوق. بعد ذلك فتح عيناً واحدة ونظر بها للحظة إلى يدفء. ثم فتح الثانية وكانت عادية غير مبالية وثقيلة. هددني بإصبعه أحياناً لكن بلطف.

- أوه، أنت عنيد. خاصة أن هذه الإصبع المتمايلة أسوة بيده المخمورة، لم تبد لي خطيرة. لا تتراجع، لا تتراجع.
ومد يده إلى جيبه من أجل الزجاجاة. أحياناً لم يعد هناك شيء فيها ومع ذلك كان ينحني ويرشف.

مثلما ترى أيها الفتى - تنهد بشدة كما لو بسبب فراغ الزجاجاة. أترى، كيف انحدرت. أما أنت فلا تتراجع. ولكي يسمح لي بأن أخذه إلى مسكنه كان عليّ أن أجلسه قبل ذلك أمام البيانو. طلب أن يعزف ولو عدة مازورات (وحدات) على الأقل وبعدها سنذهب. ومع ذلك لم ينته عزفه عند بضع مازورات قط. أحياناً عزف وعزف، على الرغم من كونه سكران، لكن السيد لا يصدق ذلك. الأكثر غرابة هو أن يديه ازدادتاً رصانة فتكون انطباع بأنه مررهما على مفاتيح البيانو برشاقة. كانت أصابعه طويلة ورشيقة كأصابع السيد. أنظر للسيد كيف يقشر الفاصولياء وكأنني أرى يديه على لوحة المفاتيح. لا بد أن السيد قد قشر الفاصولياء من قبل. السيد يقشر أفضل مني. يداي أصبحتا متخشبتين نوعاً ما. ما كان لحضرتك أن تصل إلى هذه المهارة من خلال مرة أو مرتين لو أنك لم تقشر قط. لم نقشر كثيراً بعد وحضرتك تقشر هكذا حتى إنني لا أصدق. ربما حضرتك قد نسيت فحسب؟ إذا لم يتعامل الشخص مع شيء ما لسنوات يمكنه أن ينسى حتى تقشير الفاصولياء. يمكن نسيان كل شيء. لكن الأمر لا يتطلب كثيراً من الوقت لتذكر ذلك. أنا نفسي نسيت. لذلك بدأت بزرع الفاصولياء لتذكير نفسي. على الرغم من أنني، كما أخبرت حضرتك، لا أحب الفاصولياء. يمكنني الامتناع عن أكل الفاصولياء على الإطلاق.

هل يعزف السيد على البيانو؟ لا، أنا أسأل فقط. لأنني ما زلت أرى يديه أمام ناظري عندما جلس أمام البيانو مخموراً. هنا كما لو كان سكره على انفراد، ويداه الصاحيتان اللتان على لوحة المفاتيح على انفراد. ربما كان

موسيقياً عظيماً، من يمكنه معرفة ذلك. أما أنه قد عزف في مدرسة اسمها مدرسة مثل مدرستنا فهذه مسألة أخرى. كم عدد الناس الذين هم في غير محلهم. لا، هو لم يعزف على البيانو فقط. لقد عزف على كل آلة وقعت في متناول يده. على الكمان، الفلوت، التشيلو، البوق وعلى كل آلة. بالطبع إذا لم يكن مخموراً جداً. نصحني بالعزف على الكمان. لم يحب الساكسفون. - أقصى ما يمكنك أن تعزف على الساكسفون هو في فرقة رقص موسيقية. أما الكمان، أوه، يا ولدي، الكمان يمكنه أن يأخذك بعيداً. أنت مخلوق للكمان. أعرف ذلك بالفعل.

ذات مرة قدته مخموراً، مسكته بإحدى يدي من خصره، ووضعت رأسي تحت ذراعه حتى إنه تدلى فوقى بكامله. وتمتم بشيء ما في أذني، استطعت أن ألتقط منه:

- الكمان، الكمان يا ولدي. لديك قلب للكمان. تملك روحاً للكمان. أنت ولد طيب. ستكون أحبّ لله بفضل الكمان. نطقت: لا أعلم ما إذا كان الله يود أن يسمعي.

- لا تقل هكذا. أوقفني بكل عجز جسده المخمور. لا تفكر هكذا. إذا استمع الله إلى شيء ما فإنما للكمان. الكمان آلة إلهية. لم يعد بإمكانه الاستماع إلى الكلمات بعد الآن. هناك كثير من الكلمات. وبعد ذلك في كل اللغات. لا يكفيه الخلود لسماع جميع لغات العالم. أما الكمان ففي واحدة. في الكمان توجد أصوات كل اللغات والعوالم، هذا وذاك، الحياة، والموت. أما الكلمات فليس بوسعه على الرغم من قدرته المطلقة.

لا أعرف، ربما نصحني حسناً. لكنني اخترت الساكسفون. كيفما اعتقد المرء، لكن ماذا يمكن المخمور أن ينصح به شخصاً طالما أنه لا يستطيع أن يتدبر أمر نفسه. وربما اخترت الساكسفون ضد الله طالما أنه يحب الكمان أكثر. أوه، كان الله مديناً لي بالكثير. وهو عندما كان مخموراً جداً تحدث عن هذا الإله دائماً.

ذات مرة، قال أمام القاعة المشتركة بأكملها: إن بناء عالم جديد ليس عليه أن يبدأ من البناء بالطوب، التجصيص، اللحم، وتزجيج النوافذ، بل

من الموسيقى. ولو بدأ الله بالموسيقى لما كانت هناك حاجة لأي عالم جديد. لقد نقل أحدهم الكلام للأمر. قام الأمر باستدعائه، وتشاجر معه وهدده، إذا لم يتوقف عن التحدث حول الله فسوف يعود إلى هناك إلى حيث كان. هو محظوظ لأنه قال ذلك في حالة سكر. بطبيعة الحال عرفوا أنه يشرب، لكن لم يكن لديهم مصدر للحصول على معلم موسيقى آخر. هو الوحيد الذي وافق على المجيء إلى مدرستنا. هذا ما كانت عليه المدرسة! وزعم أن الآلات الموسيقية صودرت من بعض الظالمين ومصاصي الدماء والمستغلين ومختلف الأوغاد.

لم أفهم من المقصود. هذا ما قاله لنا المعلم خلال درس التربية. والآن عليها أن تخدمنا نحن مستقبل العالم الجديد الأفضل. على أي حال، حيثند واجهتني صعوبة في فهم أي شيء. كنت أخاف من كل شيء، من الناس، الأشياء والكلمات. وعندما كان لدي ما أقوله تلعثت عند كل كلمة. في بعض الأحيان، لم أتمكن من التحرك بعد أول كلمة. أبسط كلمة كادت تؤلمني وكل كلمة شعرت بأنها ليست كلمتي.

عندما غفا الجميع في القاعة غطيت رأسي ببطانية واختبرت نفسي بصوت هامس بهذه الكلمات أو سواها كما لو تعلمتها من البداية، روضتها، وعودت نفسي على أنها كلماتي. حدث أن استيقظ أحدهم على السرير المجاور وسألني وهو يجرجر البطانية من فوقي:

- لماذا أنت تتحدث مع نفسك؟ استيقظ يا هذا، ربما أنت تحلم بشيء سيئ. إنك تتكلم في النوم.

لأكثر من مرة استيقظ من كان على الأسرة الأخرى وأيقظوا الآخرين. ثم ضحكوا وسخروا مني سريراً تلو الآخر، لأنني تحدثت مع نفسي.

لماذا فعلت ذلك في السرير وفضلاً عن ذلك غطيت نفسي ببطانية؟ لا أدري. ربما تحتاج الكلمات إلى دفء لدى ولادتها من جديد. لأنني عندما وجدت نفسي في هذه المدرسة كنت أخرس تقريباً. تكلمت قليلاً، لكن قليلاً بدون أي ترتيب أو تنسيق. عندما سألني أحدهم عن شيء ما لم أستطع الإجابة، رغم أنني كنت أعرف ماذا عليّ أن أقول. لكن بفضل شروعي بتعلم

العزف استعدت الكلام ببطء وبنفس الوقت الشعور بأني على قيد الحياة. على أي حال، لم أتلعشم هكذا لأن مزيداً من الكلمات أخذت تردني، وأصبح خوفي من الكلمات كل مرة أقلّ.

وسأقول للسيد، استحوذ عليّ الجشع جداً لدرجة أنني قررت تعلم العزف على كل الآلات. حتى على الطبول. لقد كانت الطبول فقيرة. طبل، طبل صغير واحد، صحن ومثلث. لكن عندما كنت أقرعه عدة مرات شعرت بأن شيئاً ما قد بدأ بالاهتزاز في داخلي كما لو أن ساعة ما كانت واقفة وبدأت في الانطلاق. فهمت ذلك بمرور الوقت. حسناً، حسب رأيي، إن الإيقاع لا يتحكم بالموسيقى وحدها وإنما بالحياة كذلك. عندما يفقد الإنسان الإيقاع في داخله يفقد الأمل كذلك. حسناً كيف يكون هناك بكاء ويأس إذا لم يكن هناك إيقاع. ما الذاكرة إذا لم تكن إيقاعاً.

مع ذلك فقد تدرّبت على الساكسفون أكثر من سواه. وسأقول للسيد، هناك شيء ما في الساكسفون، وكانت بدايتي معه، عندما علّقته حول رقبتني، وضعت معبرته بين شفّتي واحتضنت جذعه بيديّ، وبفضله وحده اعتراني بعض الأمل. ربما لم أعبر بشكل صحيح، كان شيئاً أعمق، كما لو أردت أن أولد من جديد. من يدري، ربما يوجد شيء من هذا القبيل في كل الآلات الموسيقية. لكنني شعرت به في الساكسفون فقط. وأنذاك في المدرسة قررت أن أشتري الساكسفون ذات يوم. يجب أن أشتريه مهما كان الأمر.

وعندما أرسلوني بعد تخرجي من المدرسة إلى كهربة القرى بدأت بالادخار منذ راتبي الأول من أجل هذا الساكسفون. لم يكن المبلغ كبيراً في البداية، لأنني لم أكسب كثيراً. لم أكن كهربائياً مكتملاً على الفور. بالأحرى، طلبوا مني، أحضر، ناول، هكذا يقال. عملت عادة في الحفر لأعمدة الكهرباء. كان فريق يربط الأسلاك على الأعمدة، والثاني يعمل التأسيسات في البيوت. سمحوا لي في وقت لاحق فقط بالدخول إلى أعمال أخرى. على سبيل المثال، عندما كان البيت مبنياً من الطوب وثمة ضرورة إلى عمل مسارب للأسلاك، حسناً قمت بحفر الأخاديد. كان أفضل بكثير في البيوت. كان من الممكن كسب مال إضافي بسبب مثل هذه أو تلك من المعوقات. على الرغم من قلة البيوت المبنية من الطوب في ذلك الوقت.

في بعض الأحيان قدموا لنا شيئاً ما، كوب حليب مع الخبز أو الجبنة. أو سمحوا لنا، إن كان لديهم بستان، بقطف تفاحة، برقوقة، أو كمثرى. لأنه كان يحدث في بعض الأحيان حالة امتصاص في المعدة بسبب الجوع، خاصة في نهاية الشهر.

حتى لو كان الشهر أكثر الشهور جوعاً كان عليّ أن أترك بعض المال جانباً من أجل الساكسفون. عرفت مقدماً عندما استلمت راتبي أنه لن يكفيني حتى الراتب التالي، لكن توجب عليّ [الادخار] من أجل الساكسفون. أغرتني، في بعض الأحيان، فكرة اقتراض ولو بضع زلوتيات⁽²⁾ من الساكسفون. ليس للأكل. لا، لم أكن لأجرؤ على فعل ذلك بالنسبة للأكل. لكن، مثلاً، عندما تهتك قميصي أو أن رتق جواربي لم يعد ممكناً أكثر. حلّ الشتاء وتطلب شيئاً أكثر دفئاً: ملابس داخلية، بلوزة، حذاء. بطبيعة الحال، كنا نعمل في الشتاء. لكننا عملنا داخل المنازل أثناء الصقيع اللاذع. لكن عندما لم يكن الصقيع كبيراً، حفرنا لهذه الأعمدة مقطعين الأرض المتجمدة بمعاولنا.

احتفظت بالمال ملفوفاً بجريدة في فراش محشو بالقش. دعني أخبر السيد، فراش القش هو أفضل مكان لحفظ النقود. خاصة بالنسبة لأمثالنا، حيث كنا نغير قرانا وأماكن سكننا، وكان فراش القش هو الأفضل. نام الناس على فراش القش، وفراش القش يتجدد تحت الجسد فمن كان بإمكانه توقع وجود أموال فيه. عندما أضفت إلى مالي من الراتب التالي كان عليّ البحث عنه أكثر من مرة في جميع أنحاء فراش القش.

أوه، أغرتني فكرة الاقتراض في بعض الأحيان. ولذلك سحبت الكيس، فككته، صارعت نفسي، ربما يمكنني. بعد كل ذلك، سأعيده! يمكنني إعادته مع الفائدة مقابل تلك الأيام حتى يحين موعد الراتب التالي. هذه المرة فقط. أقسم على أنني سأعيده. هي ذي المرة الوحيدة لا غير. لن يحدث أي شيء بسبب هذه المرة. هذا يختلف عما إذا اقترضت من شخص ما. أن اقترض من نفسي يعني أنني لست مضطراً إلى التفسير فيما لو أخلفت الموعد أسبوعاً

2- زلوتي Złoty: هي العملة البولندية الرسمية وكل أربع زلوتيات تساوي دولاراً أميركياً تقريباً.

أو شهراً لأنه بالتأكيد ليس أطول. هل أنا لا أثق بنفسي إلى هذا الحد؟ إنها نقودي ولا أثق بنفسي إلى هذا الحد؟ طيب، على الأقل، دعني أحسب المبلغ الذي تجمع لدي، رغم معرفتي بمقداره. حسبته كل شهر عندما أضفت إليه. ما الذي يضيرني سأحسبه طالما ينبغي عليّ ألا أقترض. لا يزيد المبلغ بعده، لكنه يرفع من المعنويات وعلى الأقل أنه لم ينقص.

عددت، وقمت بتصويب الأوراق النقدية، ما كان منها متجعداً، وضعتها في أكوام حسب القيمة، هنا المئات، هناك فئة الخمسمائة، هنا الألوف، وكل كومة وضعتها في ورقة نقدية واحدة من فئتها كغلاف. ومرة أخرى، لم أفرزها حسب الأوراق النقدية، بل على أساس مبالغ متساوية. إذا بدالي أن الأكوام قليلة قمت بتقليل المبالغ بحيث تكون أكثر. صدقني، هناك شيء من هذا القبيل في النقود، عندما تجذب السيد سيكون من المؤسف أن تنفق منها على أي شيء لاحقاً. يفضل أن يعدها الإنسان فقط ويعدها إلى ما لا نهاية. حتى إنني بدأت بالخوف من أن أكون أسفاً على إنفاق هذا المال على الساكسفون.

سقط أحد الكهربائيين من العمود فكسريده وساقه ولذلك وضعوني في مكانه. على الرغم من أنني لم أكمل فترة التدريب، فإنني أصبحت كهربائياً متكاملأً. أوه، لقد كسبت أكثر حتى أصبح الساكسفون كل مرة أكثر قرباً. بدؤوا بالسماح لي بالعمل الإضافي والأعمال الخاصة. لم أعد أحفر للأعمدة، وضعت الأسلاك على الأعمدة. وأكثر الساعات الإضافية تمت على الأعمدة. كانت الخطط متأخرة جداً وصدر أمر بتسريعها. لهذا كانت الساعات الإضافية كثيرة. قبل غرس العمود تم تركيب ركائز زجاجية أو خزفية في أعلاه. أعقبها الصعود ثم القيام بسحب الخطوط وتثبيتها على تلك الركائز.

بالرغم من الساعات الإضافية لم يكن هناك كثير من الراغبين للعمل على الأعمدة. كان معظمهم يفضل عمل التأسيسات الكهربائية في المنازل. لهذا كان مد الخطوط متأخراً وعليه أن يلحق بالمنازل. استمر العمل على تلك الأعمدة حتى الغسق أحياناً. القضية الأخرى هي الجلوس على تلك الأعمدة فإذا لم يتحمل الشخص الجلوس عليها فإنه لا يمكن طويلاً. لا، لا، كانت المساند الخشبية تحت القدمين للاستناد إليها. ألم ير السيد

الكهربائيين على الأعمدة قط؟ كل الأرض مزودة بمثل هذه الأعمدة. هنا، على البحيرة يمتد خط الكهرباء على أعمدة أيضاً. في البداية كانت الأعمدة من الخرسانة وبعد ذلك أصبحت من الخشب. كيف يمكنني أن أشرح للسيد معنى المساند. إنها مثل المناجل نصف دائرية مشدودة على الجزء السفلي من الحذاء. ألا يعرف السيد معنى المنجل؟ ألم يره السيد من قبل؟ كانوا فيما مضى يحصدون الحبوب بالمناجل. أي شيء يشبه المنجل؟ أوه، يشبه القمر في المحاق. وكان لا يزال في أسفل الظهر هناك الحزام المربوط الذي يحضن عامل الكهرباء والعمود. وبغض النظر عن ذلك، كان من الضروري أن يكون لديك قوة في أسفل الظهر والرجلين لكي تتنقل من عمود إلى آخر طوال اليوم.

كان معظم الكهربائيين من كبار السن من فترة ما قبل الحرب، شكا بعضهم من العلل والأمراض بعد المرور بالحرب. تسلق أحدهم العمود الأول فالثاني، لكن رجليه رفضتا الانصياع عند الثالث، وحطمه ظهره. وكلما صار الطقس أكثر برودة تخشبت أيديهم. كان من المفترض أن تكون لديهم قفازات، لكن أي عمل هذا من خلال القفازات. وعلى الرغم من أن الدفع مقابل الساعات الإضافية كان مضاعفاً فإنهم تركوا تلك الأعمال للأصغر منهم سناً. لكنهم عوضوا عن ذلك بالعمل في التأسيسات المنزلية، ولذلك لم يسلموا لنا تلك الأعمال الإضافية بسهولة.

إلى جانب ذلك ثلة قليلة منهم لم تشرب الخمر. أوه، لقد شربوا وشربوا. لم يمر يوم عليهم دون أن يشربوا في مكان إقامتهم بعد العمل، وأثناء العمل كذلك. أحياناً شربوا منذ الصباح. وإذا لم يشربوا فلائهم لم يصحوا من شربة الأمس بعد. إذن، كيف يمكنهم في هذه الحالة أن يصعدوا على العمود؟ وكان الصعود على العمود، مثلما قلت للسيد، لا شيء بالنسبة لي. كان بوسعي أن أكون طوال اليوم على هذه الأعمدة. حتى إنني أحببت ذلك. بالإضافة إلى ذلك لم أكن أشرب الخمر في ذلك الوقت. لقد حماني هذا الساكسون، أردت أن أكسب أكبر قدر ممكن وأدخر أكبر قدر ممكن. وربما ما كانوا يشربوا هكذا لو أنهم لم ينتجوا الكحول في كل منزل تقريباً. كان من الممكن الحصول عليه في أي وقت من اليوم في الليل والنهار. حصلوا

عليه عبر النافذة بمجرد طرقها. ناهيك عن أنهم فضلوا الدفع بالكحول مقابل العمل. وعموماً كان يمكن تسهيل كل شيء بواسطة الكحول المنزلي. لم يعد الناس يثقون بأي نقود. وماذا كان يمكنهم فعله بالكحول المنزلي؟ الشرب. لذلك شربوا.

يجب عليّ أن أعترف، رغم شربهم، كانوا محترفين من الدرجة الأولى. حتى وهم في حالة سكر أنجزوا كل عمل. ما تعلمته في المدرسة لا يقارن بما تعلمته منهم. كان عليك أن تتبّع بعناية عندما كانوا يفعلون شيئاً ما والإصغاء إليهم بعناية وعدم تفويت أي كلمة. كل واحد منهم كان لديه أسرار وأحياناً كان هذا أو ذاك يخون أسراراً لا إرادياً. ما هذه الأسرار؟ أنت لست كهربائياً، إذاً، ما الذي سأقوله لك.

حسناً، لكن ليس من الصعب التكهن، بأن السيد لم يعرف معنى المسند، ولم يعرف السيد معنى المنجل. دعني أخبرك بشيء واحد، المحترف، بعد كلمة، كلمتين، ثلاث كلمات، يفهم المحترف الآخر من نفس المهنة. لا أنكر أن عدم المعرفة هي معرفة أيضاً. سوى أن عدم المعرفة تجعل من غير الممكن معرفة أسرار الكهربائيين. عندما لا يكون للرجل أي مهنة، من الصعب أن تفهمه حتى كإنسان. على أي حال، عندما نظرت أكثر من مرة إلى عملهم كان لدي انطباع بأن التيار الكهربائي يتدفق من خلالهم كما يتدفق عبر الأسلاك. لم يكن هناك عطل دون أن يصلحوه. في بعض الأحيان كان هناك نقص في المواد لكنهم أخذوا من ذاك [وأضافوه] إلى هذا، لفوه وقاموا بلحام ذاك. لم يكن هناك شيء مستحيل بالنسبة لهم. لذلك عندما انتقلت فيما بعد إلى مواقع البناء تمكنت من التعامل مع أصعب التأسيسات الكهربائية. على سبيل المثال، عملت في بناء مخازن التبريد حيث جميع المعدات تعتمد على الكهرباء، ولم تكن لدي مشاكل.

الشيء الذي لم أتعلمه منهم هو شرب الفودكا. حدث في مواقع البناء فيما بعد. أما في ذلك الوقت فلم أدخل أي قذح إلى فمي هكذا منعني الساكسفون. سكنت في مكان واحد مع عدة أشخاص منهم وكل مساء يشربون بقوة، وكانوا يحفزوني ويدعونني. حتى بدأوا بالاشتباه في أنني سأبلغ عنهم. خاصة شاباً مثلي. لم يثقوا بالشباب. ولا أستغرب ذلك.

الشباب مستعد لفعل كل شيء للتقدم على الأكبر سنًا. الشاب في عجلة من أمره. الشاب لا يملك الصبر الذي يُكتسب بالتجربة. لا يفهم أننا، مع ذلك، نتجه إلى شيء واحد. يتراءى للشباب دائماً أنهم سيبنون عالماً جديداً أفضل. لجميع الشباب. للشباب الجدد والشباب الأكبر سنًا. ومع ذلك، فالجميع يتركون وراءهم هذا العالم بحيث لا يريد أحد أن يعيش فيه. أقول للسيد - حسب رأيي، كلما تجاوزوا فترة الشباب أصبح العالم أفضل. كنت شاباً وأعرف. آمنت بهذا العالم الجديد الأفضل أيضاً. خاصة، أنه بعد هذه الحرب لم يكن من الصعب تصديق ذلك، لأنه لم يكن هناك ما يؤمن به. والقليل يصلح للإيمان به كما هو مع العالم الجديد الأفضل.

لذلك فليس من المستغرب أن يتهموني بهذا أو ذاك وحتى ربما بالإبلاغ عنهم طالما أنني لا أشرب. لم يعرفوا أنني كنت أذكر من أجل الساكسفون. أذكر لأقصى درجات السرية. ربما كنت سأشرب أحياناً لولا أنني أعرف العادات الملزمة عند الشرب. لو شربت قدحاً واحداً لكان عليّ تقديم نصف لتر على الأقل. بالإضافة إلى الخبز والخيار والنقانق. وكنت آسف على كل زلوتي. تعذرت بوجود قرحة لدي في الاثني عشر. لم أكن أعرف ما هي القرحة ولم أعرف الاثني عشر. فقط ذات مرة، عندما دخلت إلى المقصورة في القطار وصحت: إجااص، برقوق، تفاح، كان هناك من يقدم شيئاً لأحد الأشخاص، فرد عليه: لا، شكرًا، لدي قرحة في الاثني عشر ويجب أن أتبع حمية غذائية صارمة. على أي حال، تراءى لي كما لو كانت عندي. اتضح بعد سنوات عندما كنت في الخارج بأنني مصاب بها.

مع ذلك، فوفقاً للكهربائيين، ليس لأولئك فحسب، وإنما بالنسبة لمن سكنت معهم أيضاً في أماكن أخرى، في مواقع البناء، كانت الفودكا أفضل علاج للقرحة. لأنه لم تكن لديهم قرحة؟ طيب، لماذا؟

سأفاجئ السيد، ربما لم يكن الأمر سيئاً إلى هذه الدرجة لأنهم شربوا. لكن إذا لم يشربوا واجهوا صعوبة في النوم. ليتخيل السيد، هم منهكون بعد يوم كامل من العمل وينبغي على النوم أن يطرحهم. لكن هذا لم يستطع أن يغفو، وذاك استيقظ قليلاً، والآخر كان نومه خفيفاً حتى لم يستطع معرفة ما إذا كان نائماً أم لا. وها هو الفجر ووقت الذهاب إلى العمل. أسوأ شيء هو

عندما يكون لدى الفرد صعوبة في النوم إذ تخطر على باله أفكار مختلفة لا تسمح له بالنوم.

ذات مرة عشنا خمسة أفراد في حجرة واحدة بإحدى القرى، الكل كانوا كباراً في السن ما عداي، وكان يسكن معنا أحد رؤساء العمل [الأسطة]. رددنا كلمة الرئيس حتى في غيابه. اذهب إلى الرئيس، دع الرئيس ينصحك. ذكرناه بلفظة الرئيس هو وحده فقط. ولا أدري، هل يعرف السيد ماذا يقال عادة عن رؤساء العمل وراء ظهورهم. في كل الأحوال لم يستخدم أحد لفظة رئيس العمل.

كان قليل الكلام ولم ينجرّ إلى أي محادثة حتى أثناء الفودكا. أحبّ الفودكا، ولم لا يحبها؟ لكن كان ينبغي إخراج الكلمات منه كما لو من أعماق بئر. ولم تكن قط بالكلمات التي تعني لك شيئاً. ربما بالنسبة له ولكن ليس للآخرين. نعم، لا، يمكن، ربما يجدر بالمرء أن يفكر في الأمر. وهذا ليس شيئاً قاطعاً أبداً.

وحدث ذات مساء، أنهم لم يشربوا الكحول. رجعنا متأخرين من العمل. سأل أحدهم: هل لدى أي منكم شيء ما؟ لم يكن في حوزة أي منهم، ولم تكن هناك رغبة لدى أي منهم في الذهاب للشراء. إذًا، دعونا نذهب إلى النوم. استلقينا، أطفأنا الضوء، ساد الهدوء، وبدأت أغفو. في هذه الأثناء ثمة من تنهد بعمق، وثمة من استدار بكامل وزن جسده على السرير الآخر، عدّل وضعيته وتقلّب. كانت الأسرة بالية وتصرّ عند أدنى حركة.

أما رئيس العمل فكان لديه سرير بجانب الشباك. ودائماً كان يواصل تدخين سيجارته بعد إطفاء الضوء. ودخن عندما استيقظ في الليل أيضاً. وكان عليه أن يدخن سيجارتين أو ثلاثاً، كي يعود إلى النوم. الفودكا وحدها أنامتة على الفور. على الرغم من اعتماد ذلك على مقدار ما يشرب. إذا شرب كثيراً نام حالاً. وإذا قليلاً عانى أكثر. أوه، لقد دخن حينئذ ودخن. كان ينفذ سيجارته ويطفئها في أصيص نبتة الغرنوق التي تقف بجانبه عند النافذة مباشرة. كان يلتقط في الصباح أعقاب السجائر دائماً، ويمكن معرفة كيف نام من خلال أعقاب تلك السجائر. وليس كيف نام فحسب.

ولم يكن ذلك هو المقياس الوحيد لأرقه. ولكن ماذا عنا نحن الكهربائيين. أعقاب السجائر، بالنسبة لنا، هي أعقاب سجائر. بالإضافة إلى ذلك كنا نشعر برائحة الدخان في الصباح دائماً، بلى، استنشقهنا بأنوفنا، أوه، لقد دخن الرئيس كثيراً، نعم، دخن بشراهة. سأله أحد الأشخاص أثناء تدخينه آنذاك:

- الرئيس لا ينام؟ وأنا لا أستطيع أن أنام أيضاً.

وعلى الفور قال جميع من في الأسرة الأخرى، إنهم لا يستطيعون أيضاً.

- هكذا هو الحال عندما لا يشرب الإنسان قبل النوم - قال أحدهم، ولعن الآخر. وثمة من تذكر أنهم يصنعون كحولاً منزلياً أقوى في ذلك المكان مما يعملونه هناك في المكان الفلاني.

وهكذا بدأت المحادثة. في تلك الأثناء دخن رئيس العمل سيجارة ثانية. نفخ الرمد في أصيص نبتة الغرنوق فبانت. وعندما سحب نفساً انكشف وجهه أيضاً. كان يمكن رؤيته مستلقياً بعينين مفتوحتين. لكنه ربما لم يستمع عندما كانوا يتحدثون حوله، لأنه لم يتفوه بأي كلمة. أنا، بصفتي الأصغر سناً، لم يكن عندي صوت، استمعت فقط. على أي حال، ماذا كان يمكنني أن أقول، عندما، على سبيل المثال، كانوا يتساءلون عما سيفعله الواحد إذا اكتشف أن زوجته كانت تخونه. كانوا متزوجين إلا أنني لم أفكر في ذلك. الشيء الذي لم نكن نعرفه هو، هل رئيس العمل متزوج أم لا. لم يتحدث قط عن ذلك. نعم، كما يعرف السيد، بمجرد التفكير في أن زوجتك تخونك، فإنك قد لا تغمض عينيك طوال الليل. وكل شيء يخرج عن السيطرة في النهار أثناء العمل. مع ذلك، كان كل واحد يعرف ما سيفعله. هذا سيقتلها، وذاك سيطردها، والثالث سيفعل شيئاً آخر.

بعد ذلك بدؤوا يفكرون: هل الرجل الكبير في السن ما زال قادراً، ومنذ متى يصبح الإنسان كبيراً، فيما يتعلق بهذا الأمر. هل يعرف السيد ما أقصده؟ وإذا لم يعد قادراً على ذلك فما الذي يبقيه على قيد الحياة؟ وهل الحياة تستحق أن تعاش بعد ذلك؟ رد أحدهم عليه قائلاً: الحياة يديرها الله ولا يحق للإنسان التفكير حتى فيما إذا كان الأمر يستحق ذلك. وهكذا دخلوا في

موضوع الله. هل ينبغي الإيمان بالله أم لا ينبغي الإيمان به بعد هذه الحرب؟ هذا يعتقد بضرورة ذلك، لأن الله لم يبدأ الحرب، بل الناس. في حين يرى الثاني أن الأمر قد يبدو هكذا، لكنه لو أراد لكان بوسعه إيقاف الناس. ورد الآخر: يقال إن الإنسان يطلق النار والله يحمل الرصاص، ولهذا يمكنه إدارة الحرب بطريقة من شأنها تقليل المآسي والمعاناة والموت. وبدأوا يتحدثون عن حالات مختلفة كانوا شهوداً عليها أو أنهم سمعوا عنها. حتى إن أحدهم سأل مباشرة، لأن أخاه قد رُمي بالرصاص: هل الله موجود أصلاً. بعد ذلك أخذ يسألنا سريراً تلو الآخر، ما هو رأينا نحن؟ أنا تظاهرت بالنوم. وسأل رئيس العمل أخيراً:

- ماذا يعتقد الرئيس، هل الله موجود؟

أطفأ رئيس العمل للتو سيجارته في أصيص نبتة الغرنوق وأشعل أخرى. لابد أنها كانت الرابعة منذ ذهبنا إلى الفراش. كما أنه لم ينس طوال الوقت بينت شفة، كأنه لم يستمع على الإطلاق. انتظرنا في تلهف لما سيقوله كأن الأمر متروك له فيما يتعلق بوجود الله. حتى إن الشخص الذي سأله، سأله مرة أخرى:

- حسناً، أيها الرئيس، كيف يعتقد الرئيس هل هو موجود أم لا؟

- من؟ أجاب أخيراً.

الله.

لم يجب مباشرة إلا بعد أن أطفأ سيجارته:

- لماذا أنت تسألني؟ لماذا أنت تسألهم؟ لن تمرر قراراً بالتصويت. اسأل نفسك. شخصياً، يمكنني أن أقول لك فقط: لم يكن موجوداً في المكان الذي كنت فيه موجوداً.

وأشعل سيجارة مرة أخرى. ساد الهدوء ولم يجرؤ أحد على السؤال أكثر من ذلك. ولم يقل أحد لأحد أي كلمة أكثر. وبعد قليل بدؤوا يغطون في النوم. تنهى حفيف هنا، ونفس أعلى هناك. فكرت فيما إذا كان رئيس العمل قد نام لأنني لم أسمع أي شيء من سريره. وكذلك لأنه لم يشعل سيجارة أخرى.

أنا لم أستطع النوم. ملأت رأسي بالأفكار من النقاش، لأن كل شيء تحدثوا عنه كان بالنسبة لي خارج حدود مخيلتي. وأكثر ما أزعجني هو قول رئيس العمل: لم يكن الله موجوداً في المكان الذي كان فيه.

وفي اليوم التالي ذهبت إليه للحصول على بعض المشورة لأن قوابس الكهرباء مازالت تضییء عند ربط النظام الكهربائي الثلاثي الأطوار. سألته: أين كان الرئيس؟

نظر إليّ بارتياب.

- أتمنى أنك لم تكن هناك مطلقاً. ثم صاح: اذهب إلى العمل. أنت تعرف بالفعل ما يجب القيام به.

أما فيما يخص الساكسفون فقد تمكنت من الادخار له من شهر لآخر. لم أفوت أي وقت إضافي. علاوة على الأعمال الخاصة التي كانت تتم في المساءات وأيام الأحد. لم آخذ الكحول المنزلي مقابل العمل بل أخذت المال. فضلت أن آخذ أقل لكن نقداً. فضلت الانتظار حتى تتوفر النقود. لم تكن هناك قرية تقريباً لا يرد أحدهم مقبساً كهربائياً إضافياً، نقطة اتصال، وكان لابد من سحب الأسلاك إلى كل مقبس أو نقطة اتصال. رسمياً، أي بأسعار مخفضة، لم يسمح بنصب أكثر من نقطة اتصال واحدة ومقبس واحد في الغرفة. لكن ليس في الأبهاء، والمخازن والعلالي ولا في أي مكان آخر. بالنسبة للعلالي يمكن فهم الأمر لأن العلالی في أغلب البيوت تقع تحت أسقف من القش وفي حالة حدوث تماس كهربائي يحترق المنزل بكامله كعود الثقاب. لكن على سبيل المثال، هل يمكن المشي عبر البهو والبحث عن مقبض الباب في الظلام؟ هل تدخل إلى المخزن بمصباح زيتي والكهرباء موجودة في البيت؟

لهذا قمنا بوضع المقابس والنقاط في الأماكن حسب رغبة كل واحد. بالطبع للخاصة. وإذا رغب الشخص في البهو، في المخزن أو في مدخل بيته فأهلاً وسهلاً وسيتم تنفيذ طلبه. هذا نادر، لكن كان هناك من أمثال هؤلاء الأشخاص. حتى إن أحد الأشخاص في إحدى القرى طلب منا أن نوصل الكهرباء إلى الحظيرة، لأنه انتهز الفرصة واشترى محركاً كهربائياً بسعر

مناسب وأراد تحويل ربط آلتى الدرس والتذرية من الطاحونة الحيوانية إلى الكهرباء، فقمنا بالعمل. وما كان عليه سوى الانتظار حتى توفر المواد من حصص الإعاشة الحكومية. لكننا أيضاً وضعنا المقابس والنقاط حتى فى العلالي تحت أسقف القش إن كان هناك من يرغب فى ذلك. قمنا بلف السلك بشريط عازل إضافي وتمريره من خلال أنبوب معزول، معدني لكنه مبطن جيداً وتم سحبه على أقواس عالية بمسافة مناسبة من السقف المصنوع من القش، وعلى طول العوارض الخشبية، بعد ذلك تم تثبيت نقطة الكهرباء على قناة المدخنة. وما كان من الممكن حدوث أي شيء. لم تكن هناك أي موانع بالنسبة للعمل الخاص. ما هو ممكن بشكل خاص، كما تعلمون، هو مستحيل رسمياً.

مع ذلك لم يكن الجميع إلى جانب الكهرباء، أوه، لا. بعضهم لم يسمح حتى بوقوف عمود الكهرباء أمام بيوتهم. هل عليّ أن أنظر إلى العمود طوال حياتي؟ عليه اللعنة! أرضي تمتد حتى منتصف الطريق. في بعض الأحيان، انقضوا علينا بالفؤوس وكان علينا استدعاء الشرطة الشعبية. لم يسمحوا لنا بدخول بيوتهم، وطرّدونا كما يطرد الأوغاد. خاصة أنه لم يكن هناك إكراه عندما تعلق الأمر بالبيوت. إذا لم يرغب الشخص فهذه قضيته. كيف فسروا ذلك؟ بشكل مختلف. لأن حرباً جديدة ستقع، أوه، يكفي أن تنظروا. ولأن المصباح الزيتي هو الأضمن في الحرب. ولأنه إذا تعذر النفط فسنشعله بزيت بذر الكتان، ولأن الكتان يزرع. ولأن الشمس من بين جميع الأضواء لا تخذل، مادام الله يعطيها، ولا المصباح الزيتي أيضاً. وليس من الضروري أن تكون الإضاءة نفسها في النهار والليل. يكفي أثناء النهار، لأن الليل للنوم. هل جئتم لقلب العالم رأساً على عقب؟ وفوق ذلك تنصبون الأسلاك على الأعمدة؟ دع العصافير أو السنونو تحط عليها؟ ستحترق وتتحول إلى فحم. ستجذب الصواعق. وربما الأمراض كذلك. تكفينا الأمراض التي نعاني منها حتى الآن. من الواضح أن المرء لم يكسب المال من هؤلاء. لكن بشكل عام، لم يكن الأمر سيئاً في الأعمال الخاصة. على سبيل المثال، عند أصحاب المطاحن قبل تأميمها. وفي منازل رجال الدين في الكنائس. على الرغم من أن الوضع كان مختلفاً مع القساوسة. دائماً ما أخلفوا قائلين: جازاكم الله.

ذات مرة، عندما عدتُ مرة أخرى كمية المبلغ الذي جمعته بالفعل من أجل هذا الساكسفون، تراءى لي أنه ربما يكفي. لم أكن أعرف كم يكلف مثل هذا الساكسفون. بدأت بالسؤال وسط الموسيقيين في القرى، كانوا يعرفون كم تكلف آلات الأكورديون، الكمان، الكلارينت، لكن لم يسمع أحد بالساكسفون. لهذا أخذت إجازة ليوم واحد وذهبت إلى أقرب مدينة. كان هناك متجر للموسيقى لكن لم يكن لديهم ساكسفون ولم يعرفوا أيضاً كم يكلف، خصوصاً الآن بعد الحرب. لذلك وبعد مرور بعض الوقت ذهبت أبعد، إلى مدينة أكبر. لم يكن متوفراً لديهم، لكنهم وعدوني بمعرفة التكلفة وربما سوف يحاولون أن يطلبوه إن كان موجوداً. سوف يستطلعون شخصياً حولهم، ربما سيكون في حوزة أحد الأشخاص، لأن الناس يجلبون لهم أحياناً آلات موسيقية للبيع. أعطيتهم اسمي. أردت أن أعطيهم عربوناً لكنهم لم يريدوا. قالوا: تعال إلينا بعد شهر أو شهرين. وإذا حصلوا عليه فسوف يحتفظون به.

ليس لدى السيد فكرة، بأنني، في كل مرة قبل النوم، تخيلت نفسي وأنا أعلق هذا الساكسفون حول رقبتني وأضع معبرته بين شفتي وأدير أصابعي على مفاتيحه. حتى قررتُ أنني حالما أستلمه سأقيم جلسة شرب وسأشرب بدوري أيضاً.

فجأة، في أحد الأيام، كصاعقة من السماء، سمع أحد الأشخاص في «كوكوروزنيك»، بمبادلة النقود. ما معنى «كوكوروزنيك»؟ إنه ليس طائرة⁽³⁾. لقد أطلقوا الكلمة ذاتها أيضاً على مكبرات الصوت اللاسلكية المثبتة في المنازل التي كانت فيها الكهرباء بالفعل، طبعاً، إذا رغب أحد الأشخاص في ذلك. أما مبادلة النقود، فهل يعرف السيد على أي شيء اعتمدت؟ لا لأنها أوراق نقدية جديدة. بل لأن السيد أمكنه أن يشتري، أقل بثلاث مرات، مقابل النقود الجديدة. لم يسمع السيد شيئاً حول هذه المبادلة؟ إذاً، أين كان السيد حينئذ موجوداً؟ على أي حال، هذا ليس مهماً. في كل الأحوال، لم أعد

3- كوكوروزنيك: اسم طائرة سوفيتية صغيرة صنعت قبل الحرب العالمية الثانية كانت تحدث ضجيجاً أثناء الطيران.

أحلم بالساكسفون. دعني أقول للسيد إنني حتى لم أشعر بالحنق. لم أشعر بأي شيء على الإطلاق. الشيء الوحيد الذي شعرت به هو أنه لا يوجد لدي سبب لمواصلة العيش. ولهذا قررت أن أشق نفسي.

عملت في ذلك اليوم على عمود محول. وكان هذا العمود يشبه حرف الألف [باللاتيني]. تألف من عمودين التقيا في الأعلى، وكانا في الأسفل مربوطين بعارضة للتقوية. وعلى هذه العارضة. استعرت قبل يوم حبلاً من أحد المضيفين. وعند المساء بعد الانتهاء من العمل، وضعت الأدوات في الكيس وأنزلت الكيس باتجاه الأرض. ربطت أحد طرفي الحبل بتلك

العارضة وعملت مشنقة من الطرف الثاني. وضعت المشنقة حول رقبتني وكنت على وشك فك المساند من العمود، لكنني نظرت إلى الأرض مرة أخرى، فرأيت عمّي (يان) واقفاً، مرفوع الرأس مراقباً ما أفعله. لا، لم يترأّ لي. رأيته كما أرى السيد هنا.

- قال: لا تفعل ذلك. لقد شنت نفسي والآن لا أرى فرقاً.

مكتبة

t.me/soramnqraa

لا، لم أدخر بعد ذلك أكثر من أجل الساكسفون. على أي حال، بعد ذلك بفترة وجيزة، انتقلت إلى العمل في موقع البناء. بعدما استلمت راتبي الأول اشتريت لنفسني قبة. لماذا قبة؟ لا أدري. ربما كان يجدر بي أن أشتري شيئاً ما كي لا أنجذب من جديد للادخار من أجل الساكسفون. ولماذا قبة، ربما عندما كنت في المدرسة، قررت أن أشتري قبة إذا اقتنيتُ الساكسفون. الساكسفون والقبة، أحببت أن أنظر إلى نفسي هكذا أحياناً عندما تخيلتُ نفسي.

ذات مرة، جلبوا لنا فيلماً إلى المدرسة. يظهر فيه متاجر كبير بقبعات، يدخل شخصان رجل وامرأة، اسم الرجل (جونني) وهي (ماري)، أراد الرجل شراء قبة. بدأ بتجريب القبعات بينما جلست المرأة على مقعد ذي ذراعين وانغمست في إحدى المجلات. كان هذا أول فيلم في حياتي. لذلك عندما جرب هذه القبعات كان لدي انطباع بأنه لا يجربها على الشاشة، لكن هنا بيننا في القاعة المشتركة. أو أن جميعنا نتواجد حيث هو يجرب في هذا المتجر. لقد جرب وجرب، أما ماري، فهي امرأة جميلة بالمناسبة، أقول، لقد جلست على المقعد وعيناها في المجلة. كانت ترتدي الفراء، وضعت رجلاً على رجل، وكل رجل في شيشب أنيق.

لا أعرف، هل سيوافقني السيد الرأي على أن ساقِي المرأة تمثلان كل شيء. وكذا النعال، وما عدا ذلك فكل الأشياء الأخرى يمكن أن تكون متواضعة. يمكن أن يكون الوجه قبيحاً إذا كانت الساقان. لكن يجب عليهما أن تكونا في شيشب جميل. اليوم من النادر أن تقابل مثل هاتين الساقين.

معظم النساء يرتدين السراويل تقريباً وحتى لو كنّ في الفساتين، فهن يمشين أحياناً في مثل هذه الأحذية التي تذكرنا بالحرب. ونادراً ما تستطيع إحداهن المشيء كما يجدر بالمرأة. هل رأى السيد كيف تمشي النساء الآن؟ ليلق السيد نظرة في وقت ما. يرمين أرجلهن ويسمّرنها في الأرض. هنّ جنود ولسنّ بنساء. حتى ها هنا، يخلعن ملابسهن، حفاة، ومعظمهن يمشين هكذا. ولا يوجد إسمنت تحت أقدامهن، إنها مجرد أرض وعشب. حدثني مخرج سينمائي في الخارج قال: لم يتمكن من اختيار ممثلة لفيلمه كي تمثل دور الأميرة. كانت الوجوه مناسبة، لكن ليس المشي.

وكانت هذه أُل (ماري) منشغلة جداً في المجلة حتى إنها لم تعر اهتماماً للرجل. أما هو فجرب، وجرب. وفي كل قبعة، وقف أمام المرأة أطول وأطول، وكأنه لا يعرف، بعد كل مرة، ما إذا كان عليه أن يقول: ربما [أفضل] في هذه القبعة، أو أن عليه أن يخلعها ويطلب أخرى، أم أن ينظر إلى نفسه مرة ثانية. لقد جرب بعضها فعلاً، لكنه على ما يبدو لم يعجب بأي منها، لأنه مازال يطلب غيرها. أما البائع فكان يجلب له الواحدة تلو الأخرى، وكأن شيئاً لم يحدث، ويتسمم مع كل قبعة يجلبها مصحوبة بنصف انحناء. وعلى الرغم من أن الرجل رأى نفسه في مرآة كبيرة من رأسه حتى أخمص قدميه فإن البائع دار حوله وفي يده مرآة، وكان يضعها على هذا الجانب، ثم على الجانب الثاني، تحت وجه الرجل، ثم في الخلف، كي يرى نفسه في انعكاس هذه المرأة الصغيرة على المرأة الكبيرة الكاثنة أمامه. وأشاد بقناعة مماثلة بكل قبعة جربها الرجل للتو:

- سيدي المحترم، انظر الآن. والآن. سنسحبها إلى جبهة الرأس قليلاً. دعنا نحنيها من الجبهة قليلاً. إلى الجانب قليلاً، هكذا قليلاً، نعدلها قليلاً. إنها مثالية، مثالية تماماً. مثالية لوجه السيد المحترم. لجبين السيد المحترم، لعيني السيد المحترم، للحاجبين وهلم جرا. مثالية.

اليوم أنا مقتنع أنها كانت كوميدياً أيضاً. لكن لم يكن الأمر بالنسبة لي مضحكاً في ذلك الوقت. عشت كل قبعة خلعتها جوني وأعادها للبائع كما لو أنني أنا نفسي فقدت شيئاً ما. من الواضح أن الضحك لا يعتمد على ما تراه وتسمعه. الضحك هو قدرة الإنسان على الدفاع عن نفسه ضد العالم،

ضد نفسه. وحرمانه من هذه القدرة يعني جعله أعزل. وهكذا كنت أنا حقاً. ببساطة لم أعرف كيف أضحك. حتى بدت لي أمراً غريباً إمكانية الضحك من شيء ما. كان معظمنا على هذه الشاكلة ممن انتهى بهم المطاف في هذه المدرسة. لكن ليس الجميع بالطبع. استطاع بعضهم أن يضحكوا حتى عندما جلسوا في الحبس الانفرادي.

نعم، وانفجر البعض بالضحك أثناء عرض هذا الفيلم. مع ذلك لم يكن ذلك مجرد ضحك. شعر المرء بوجود غضب متزايد وحزن وراء ذلك الضحك. كلما ارتدى الرجل قبعة، وسط ذلك الضحك، تم إطلاق اللعنات والإهانات عليه وعلى البائع، وقبل كل شيء على (ماري)، لأنها غارقة في المجلة ولا تنصح الرجل. وقد جلست، أوه، كما نجلس نحن هنا. لو أنها رفعت عينيها على الأقل وقالت له: هذه جيدة أو سيئة، أو أنه في هذه أسوأ وفي تلك أحسن. وبطبيعة الحال كان بإمكانها مواصلة القراءة.

كانت القاعة العامة ممتلئة تماماً، ويمكن للسيد أن يتخيل ما حدث. عندما لا تعجب الرجل إحدى القبعات يحدث صراخ على الفور، طقطقة بالأحذية وصفير. ارتفعت الأصوات وازدادت ضراوتها كل مرة، وبالأخص لأنها لم تترك أي انطباع فيه. وأكثر ما حصل هو أنه تباطأ قليلاً قبل أن يقول: مع ذلك، لا لهذه القبعة أيضاً، فربما هذه أو تلك. وكان البائع على الدوام ينحني نصف انحناء ويتفق معه والابتسامة ذاتها على وجهه.

- أنت محق تماماً أيها السيد المحترم. في الواقع هي داكنة قليلاً. في الحقيقة هذه كاشفة أكثر. هذا اللون كأنما. هذا القماش كما لو. الحافة كما لو أنها واسعة. حضرة السيد لديه وجه، وهذه القبعة كما لو. لا يهم. سنختار غيرها.

أوه، لقد اعترت القاعة حينئذ ضجة بالفعل. سأقول للسيد، حتى إنني أخذت أشعر بالخوف. أما البائع فذهب لجلب قبعة أخرى على أمل أنها ستعجب الرجل حقاً.

كانت المنضدة مليئة بتلك القبعات المجربة بالفعل، وحتى لا يضطر الرجل إلى الانتظار طويلاً من أجل القبعة التالية وضع البائع كل القبعات

المجربة في كومة على المنضدة. لو أنني لم أر ذلك لما تخيلت كل هذا العدد من القبعات في آن واحد. وكلها لرأس واحد، لهذا المدعو (جونى). يا ليت كان شخصاً مهماً. لكنه لم يكن كذلك. كما لو كنت أنا أو السيد. أنا آسف، لا أقصد الإساءة للسيد، لكن البائع ما كان ليعرف من يكون السيد، لو دخل السيد مثلاً وقال: أريد أن أشتري قبعة. لكن ربما للتعرف عليك. أوه، بائعو القبعات ذوو فراسة. عرفت أحدهم.

على أي حال، كانت القاعة المشتركة ممتلئة بنا، ولا أحد يعرف من يكون هذا الجونى. حتى إننا لم نخمن ذلك. ربما كان البائع يعرف. أو سيكون الأمر واضحاً في نهاية الفيلم. خطر على بالي بعد تجريب إحدى القبعات، أن القبعة ليست شيئاً عادياً، رغم أنها مجرد غطاء على الرأس. الفيلم يتواصل ويتواصل وهذا يجرب ويجرب، والأمر ليس شيئاً عادياً بالتأكيد.

ذات مرة أحضروا إلى المدرسة أحد الأشخاص، وقد أخرج أرنباً من القبعة. في لحظة ما، هرب الأرنب منه وبدأ بالركض في جميع أنحاء القاعة، كان بوسعنا جميعاً الإمساك به. كانت القاعة ممتلئة بنا أيضاً، إلا أننا مسكناه بصعوبة. كان ناصع البياض من نوع الأنجورا، ارتجف بكامله، نعم كان مرتعباً، على الرغم من أنه استطاع أن يختفي ويظهر، مرة، كان في هذه القبعة، وفي خارجها مرة أخرى. هل يمكن للقبعة أن تملك مثل هذه القوة، ساورني الشك في تلك اللحظة.

سأخبر السيد أيضاً بأن القاعة المشتركة تولت دور هذه الـ (مارى) التي لم تكثر بأي شيء، ولذلك فكلما جرب الرجل قبعة أخرى قفز الجميع من أماكنهم وحشوه على شراء هذه القبعة التي جربها للتو. وعندما لم يقرر الرجل شراءها، وطلب قبعة أخرى، صرخوا بالبائع طالبين منه ألا يجلب له المزيد، وأن يدعه يشتري هذه القبعة، هذه، وإلا فلا.

ومع ذلك كانت رغبة البائع عموماً أن يشتري الرجل ولذلك جلب له قبعة أخرى وهو ما زال بنفس الابتسامة والانحناءة النصفية. حيثئذ، وكما لو أنه انتقام من خيبة الأمل التي سببها للجُمهور تم توجيهه مختلف اللعنات الأكثر ابتذالاً إليهما. سيكون من المخجل أن أكررها. بدا كما لو أنهم رشقوهما

كليهما بالأحجار. أنت كذا وكذا، اشترِ وإلا!... و[كلمات] أسوأ منها بكثير. أنت كذا وكذا، لا تجلبْ له أكثر! دعه يشتري هذه التي على رأسه. ازمِ هذا الخطمَ من المتجر! والأُنكى من ذلك، أنك تضع مرآة صغيرة تحت بوزه! وكما لو قاموا بالإحماء بتلك اللعنات، لأنهم انفجروا بصرخات وحشية بمجرد أن طلب الرجل قبعة أخرى.

لم يكن سقف القاعة مرتفعاً كما هو الحال بالنسبة للثكنة، اهتزت الجدران والنوافذ والسقف وبدا كأنها على وشك الانهيار. تدلّت الشاشة من السقف على حوالي ثلاثة أرباع الحائط، وكان جهاز العرض خلفنا تحت الحائط المقابل. جلس الأكبر سناً ومن ضمنهم بضعة معلمين على المقاعد بمحاذاة الجدران الجانبية، بينما جلسنا نحن جميعاً على الأرض. كانت حزمة من ضوء جهاز العرض تمرّ فوق رؤوسنا تقريباً. لم يكتف البعض بذلك الصراخ والصفير واللعنات فلذلك كانوا يقفزون من الأرض ويلوّحون بأيديهم في شعاع الضوء هذا كما لو أرادوا رفع القبعة عن رأس الرجل الذي حاول ارتدائها، ثم خطف التالية من يد البائع الذي حملها له.

لا أعرف ما إذا كان بإمكان السيد تخيل ذلك. فعلاً، كانت عاصفة، عصفاً وليس ضحكاً. صاح المعلمون بهم: الهدوء، الهدوء! لكن ذلك لم يجد نفعاً. ربما هم أيضاً كانوا خائفين بالفعل. خاصة أن كبار السن الذين جلسوا بينهم على المقاعد بجوار الشاشة كانوا يقفزون في حزمة الضوء أيضاً قاطعين بأنفسهم على البائع الطريق إلى الرجل.

- إلى أين؟! إلى أين؟!

مع ذلك مرّ البائع بهم من خلال الضباب وسلم القبعة التالية للرجل ثم أخذ منه القبعة التي لم تعجبه هذه المرة أيضاً. وأخيراً تلقفوا ماري. أنت، يا لك من كذا وكذا، اتركي القراءة! اجبريه على شراء تلك التي جربها! انزعني تلك الساق! تحركي! اركليه في مؤخرته، في كاحله، في الخصيتين! لن أواصل تكرار ذلك على السيد. بدا الأمر في لحظة ما، كما لو أنهم سيقتمون الشاشة، يخربون المتجر، يضربون البائع، يضربون الرجل،

ويخلعون عن ماري ذلك الفراء والفستان ويغتصبونها. خاصة أن هناك أيضاً من انتهى بهم الأمر في هذه المدرسة لهذا السبب بالذات.

ما زال المعلمون يحاولون إحلال الهدوء. وإلا فسوف يوقفون عرض الفيلم! رعا ع وليسوا شباباً! غداً سيرفع تقرير بكم جميعاً! سنحاسبكم! لقد أشار ذلك مرارة أكبر. حقيقة أن الأمر لم ينته بمصيبة هو بفضل البائع فقط. كان الوحيد الذي حافظ على هدوئه ونصف انحناءته ونفس الابتسامة على وجهه وكان يعطي للرجل القبعة تلو الأخرى. لكن الرجل كلما وضع قبعة على رأسه نظر في المرأة بدون أدنى أثر من اللطف إزاء نفسه. كما لو اعتراه الشك في بعض الأحيان، أمام هذه أو تلك. نظر إلى نفسه في المرأة أطول أحياناً، كما لو أنه لم يعد يثق بأنه الشخص الذي يقف أمام المرأة في هذه القبعة. وبدأ أحياناً أنه بصوت مستسلم سيقول أخيراً: ربما هذه.

ومن غير المعلوم لماذا، لأنه وفقاً لجمهور القاعة، هذه القبعة غير مناسبة له، الأمر الذي تم التعبير عنه بموجة فائضة من الصغير والركل بالأقدام والصرخات. أوه، يا لها من فزاعة! أوه، جدّ في كنيسة! أوه، يُشبه!... وتحول الجو إلى دويّ لا لا لا! مع ذلك، هذا لم يحبط الرجل، حتى تكون انطباع بأنه يثير القاعة بإطالة تجريبه. وهو يشتري على عكس إرادة القاعة، بالرغم من أنه نفسه غير معجب بما يرتديه. ابتسم بمختلف الابتسامات إلى انعكاسه في المرأة، بدءاً من شفثيه المنفرجتين بالكاد، مروراً بصفيين منضدين من أسنان بيضاء، بشتى أنواع الابتسامات التي لا تراها إلا في الأفلام. من المعروف ما هي الأسنان التي يملكها الناس عادة. يجب على معظمهم ألا يتسموا قطعاً وربما ألا يتكلموا. لقد أمال القبعة خارج جبهته. وحركها من جديد راسماً على وجهه تعبيراً غامضاً. أمال قبعته على الجانب الأيسر من رأسه وعلى اليمين، كما لو أنه أراد أن يكون شبيهاً بشخص ما قد رآه في الفيلم. أو اقترب من المرأة لدرجة أنه كاد يلمسها بحافة القبعة، نظر إلى نفسه وجهاً لوجه، قبعة لقبعة. أو ابتعد عن المرأة فجأة وتطلع في نفسه من قدميه إلى تلك القبعة. دسّ يده في جيب بنطلونه، ثم الثانية، أو بالتناوب، أو كليهما معاً في وقت واحد، متخذاً وضعية مريحة. أو عدّل ربطة عنقه، زرّر سترته ووقف منتصباً كالشمعة. بدا في بعض الأحيان أنه ينظر إلى انعكاسه

هذا بإحباط جلّيّ، وفي أحيان أخرى، أنه على استعداد للتصالح مع القبة بل حتى مع نفسه، لكنه يفتقر إلى الإرادة. والتفت عاجزاً إلى ماري الغارقة في المجلة:

- ما رأيك يا ماري؟ انظري. هل أنا أعجبك في هذه؟ الحقيقة، ليست سيئة. لكن ماري حتى عندما رفعت ناظرها أسبيلتهما على المجلة بدون أن تنبس ببنت شفة. وانسحب الرجل حزينا:

- مع ذلك، لا هذه القبة ولا تلك.

نحن في القاعة شاطرناه هذا الحزن في تلك اللحظات. لوحظ ذلك من صرير الأرضية والمقاعد، لأن الجميع قد صلحوا دفعة واحدة. لا أحد صفر، ولا سب ولا سخر. مع ذلك لم يكن هذا الحزن حزناً عادياً. حتى كان بالإمكان سماع همسة مستاءة لأحد الأشخاص: لو كنت أنا لخنقت هذه العاهرة. أعتذر لحضرتك، كانت هذه الكلمات يومية في المدرسة ولم يكن من الممكن فعل ذلك في المدارس الأخرى. مثلما لم يستطع أحد أن يفهم لماذا ذلك لا يهم ماري. هل من الصعب عليها أن تقول: نعم، لا، خاصة أن المقصود كان مجرد قبة؟

كانت ماري ترفع بصرها عن المجلة مرة، وتخفضه مرة. وإن رفعته فإنما بملل متزايد. وبهذا أثارت المزيد والمزيد من الغضب داخل القاعة. كنا جميعاً مقتنعين أن هذا ذنبها لعدم قدرة الرجل على اتخاذ قرار بخصوص القبة. كيفما فكرنا في ذلك فما هو ذنبها، هل لأنها جلست بهدوء وتصفح المجلة فقط. كان يكفي أن يتوجه الرجل إليها: انظري يا ماري، ما رأيك في هذه القبة، يا ماري، ماذا ستقولين في هذه، ماري. أما القاعة فكما لو أنها أصيبت بالحمى. وبدأت في التخلص ليس من الغضب فقط، لكن من الغضب المشوب بالعجز والألم وربما باليأس. من هذه الـ (ماري). نعم، لكن من أجل ماذا؟ ليقول السيد بنفسه، على ماذا؟ ألم يكن الرجل ذاته هو من جرب القبعات، ولم تعجبه أي منها، فما هو ذنب ماري؟

كان بإمكانه أن يتذكر جيداً أثناء تجريبه، أنه لم يجد نفسه في أي قبة. ولم يعجب بأي منها. ربما لم يتعلق الأمر بكثرة تجريب القبعات، إنما بقدر

جداله معها. لكن، على ماذا يمكن للرجل أن يجادل القبعة؟ يقول السيد، حول نفسه؟ مع ذلك ستبقى القبعة أعلى دائماً. وأيّ واحدة يجربها ستكون أعلى منه. ولا يهم ما إذا خلعها من رأسه فوراً أو لم يفعل، جربها طويلاً أو حتى تباهى بها أمام المرأة. ستكون النتيجة واحدة. لا أهمية لذلك، بإمكانه أن يجربها طوال الفيلم، يمكنه أن يجرب إلى ما لا نهاية. هذا التجريب ينتهي فقط بنهاية كل شيء.

حقاً، كانت هناك كثير من القبعات، أوه، كانت. لم يكن المتجر محلاً عادياً. أينما نظرت تجد القبعات في كل مكان. وما زال البائع يجلب القبعة تلو الأخرى من الحجرة الخلفية مع موجة جديدة من الأمل في أن هذه أو تلك ستعجب السيد المحترم بالتأكيد. وستكفي هذه القبعات قبل أن يفقد البائع الأمل أيضاً.

ربما سيفقد الرجل الأمل أخيراً قبل البائع. خاصة أن هناك علامات من الإحباط لوحظت على وجهه وحركاته عندما كان ينظر إلى انعكاسه في المرأة وهو يرتدي قبعة أخرى. نزع وارتدى قبعة أخرى كما لو من دون رغبة. لا شكر، لا اعتذار. أخذ من يدي البائع القبعة التالية وأعاد له تلك التي نزعها. كما لو أنه نقلها من يدي البائع إلى رأسه ومن رأسه إلى يدي البائع. وقلمما كان ينظر إلى نفسه في المرأة. كان يجدر به أن يتوقف عن التجريب، لكن من الواضح أنه لم يستطع تحمل ذلك أيضاً. فهل شعر بالأسف تجاه البائع، الكثير من تلك القبعات عبثاً. لذلك ما زال يحاول ويحاول.

فجأة، تردد أثناء ارتدائه إحدى القبعات التي لا هي بالجميلة ولا بالقيحية حينما كنا متأكدين من أنه سيخلعها مرة أخرى ويقول: مع ذلك، لا. أسبل يديه، اقترب من المرأة ثم وقف أمام انعكاس صورته بلا حراك، بوجه ثابت، لكن ظهر بعض العذاب في هذا الوجه: أخلعها، لا أخلعها، لا أخلعها، أخلعها، لا أخلعها. تجمدت القاعة. ساد الصمت، أقول للسيد، كما لو توقفت قلوب الجميع كلها. وثمة شعور، عندما وقف هناك، بأن الحرارة تنمو وتنمو، حتى تجاوزت حدّ التوقع في لحظة ما، ولا يهم ما إذا خلعها أم لا، لأنه وجد نفسه في هذه النقطة: لم يعد مناسباً له سواء أخلعها أم لا. كان المخرج الوحيد أمامه هو إخراج المسدس وإطلاق النار على نفسه وهو في

هذه القبعة. صحيح أن البائع كان ينتظر فعلاً بنصف انحناء والقبعة الأخرى في يده والابتسامة نفسها تعلو وجهه، مما يشير إلى عدم تفكيره في تحول مسيرة الأحداث. لكننا، في القاعة، طالبنا بأن يسحب المسدس ويطلق النار على نفسه وهو في هذه القبعة. وليقل في كلمته الأخيرة نكايه بماري:

- ستدفعين يا ماري ثمن القبعة.

ربما كان سيضع فوهة المسدس على القبعة لولا أن ماري غردت بصوت متحمس:

- أوه، اسمع، يا جوني، يكتبون هنا، أن قبعات اللباد هي الأكثر موضة للرجال في هذا الموسم. جرّب اللون البني، من اللباد! لقد جربت هذه اللباد البنية.

- لكنهم يكتبون هنا!

قد يظن البعض، لقد تم إطلاق النار في هذه اللحظة. وأنا اعتقدت هكذا أيضاً، عندما حاولت أن أتخيل كيف يمكن أن ينتهي هذا الفيلم. ويكون لهذه النهاية ما يبررها. لأنه لا يمكن حتى تجريب القبعات بدون نهاية. ربما شاهد السيد هذا الفيلم؟ للأسف. لقال لي السيد: اشترِ، أطلق النار. أنا لم أشاهد ذلك، لأنهم قطعوا التيار الكهربائي فتوقف الفيلم. أوه، لقد قطعوه مراراً. وغالباً ما حدث ذلك في المساء. ونادراً ما أعادوا التيار الكهربائي على الفور. في أحسن الأحوال، بعد ساعة، ساعتين. غالباً ما قطعوه مساءً وأعادوه عند الصباح في أحسن الأحوال.

أحياناً كنا نعود من العمل وبالكاد نجر جر أقدامنا، علاوة على ذلك جعلونا نغني طوال الطريق، وهنا بلا كهرباء. على سبيل المثال، لقد كسرنا الأحجار للطريق، حيث الغبار، والحرارة، والجميع كانوا عطشى، عرقين، شعورهم لزجة، وهنا بلا كهرباء. ولا طريقة هناك للاغتسال، الأكل وخلع الملابس. وفوق ذلك كان على بدلاتنا الرسمية أن تكون نظيفة في الصباح والأحذية مدهونة، لأنه كانت لدينا دروس في اليوم التالي، وكان عليك أن تبدو كتلميذ في الدروس. لم تكن لدى أيّ منابذة ولا حذاء احتياطي. لقد غيروها لنا فقط عندما لم يعد من الممكن رقع أو إصلاح البدلة أو الحذاء.

وبعد كل شيء، توفر الوقت في المساء فقط، للغسل، التخييط والرتق. وهنا بلا كهرباء.

أحضر لنا معلم الموسيقى ذات مرة شمعداناً مباركاً كان قد اشتراه لنفسه. وقبل عيد الميلاد، سرق بعض الأولاد، في مكان ما، حزمة من الشموع لشجرة عيد الميلاد. لكننا قمنا بإشعالها حتى النهاية قبل حلول أعياد الميلاد، نظراً لأنهم كانوا يقطعون الكهرباء كل يوم تقريباً. وبالتالي كان لدينا شجرة عيد الميلاد بدون شموع. نعم، سمحوا لنا بذلك. وقفت في القاعة المشتركة. قطعنا الشجرة في الغابة، كسوناها بشيء ما، وعملنا بأنفسنا الألعاب والسلاسل والقنافذ. إلا أن شجرة بدون شموع ليست بشجرة عيد الميلاد.

هل يحب السيد شجرة عيد الميلاد؟ أحببتها أيضاً. لكن، كان لابد من إشعال شموع حقيقية. كان من الممكن أن تكسى الشجرة بتواضع، لكن على الشموع أن تشتعل. دائماً كنا نوقدها ونحن أطفال وفقاً للأقدمية، أنا أولاً، لأنني الأصغر، بعدي لثونكاثم ياغودا. وعندما لم أستطع الوصول إلى الأعلى قام أبي بحملي ورفعي بيديه. طبعاً، لو كانت حقيقية لاشتعلت بلهب حي. كنت كهربائياً لكنني، أقول للسيد: لا أحب الشموع الكهربائية. الكل يستعمل الكهربائية اليوم، وفي رأيي، هذه ليست شموعاً. إنها تضيء بخفوت. بدأت عشية عيد الميلاد دائماً بإيقاد الشموع على شجرة عيد الميلاد. بعد ذلك قامت الوالدة بوضع سماط أبيض على المائدة وأحضرت وجبات الطعام. وكان عدد الوجبات اثنتي عشرة. في البداية كسرنا رقاقة عيد الميلاد ثم جلسنا حول المائدة. كان لكل واحد منا مكان ثابت في عشية عيد الميلاد. وكل واحد حاول أن يأكل بدون تلطيخ السماط، لا سمح الله. حتى جدي كان لا يملأ المعلقة حتى لا يقطر أو يسقط منها أي شيء. أكل بهدوء لا كالمعتاد، لم يشفط ولم يتلمظ. حتى أثنت عليه الجدة قائلة: ألا يمكنك أن تأكل كل يوم هكذا.

أوه، هذا لم يكن سماطاً عادياً. غطت أُمي به المائدة فقط في عشية عيد الميلاد. نسجته بنفسها، خاطته خصيصاً لعشية عيد الميلاد. وكان كل واحد

منا يعرف مقدار العناية التي كلف أمي هذا السماط. لقد زرعت الكتان بنفسها وعلى أفضل قطعة أرض. زرعت قليلاً لكي تدخل الشمس إلى كل سويق. بعدها قامت بالخروج يومياً لتراقب نموه. قامت باجتثاث العشب الضار من الجذر فوراً بمجرد خروجه من الأرض. أقول للسيد: لهذا عندما استوى نبات الكتان كان جميل المظهر. حصدته بنفسها بالمنجل. أوه، أكيد لم يعرف السيد ما المنجل. استخدمت المنجل حتى لا تكسر السيقان. بعد ذلك ترك ليجف طويلاً تحت أشعة الشمس وفي الحظيرة أيضاً. وفيما بعد تم ربطه على حزم وضربه بالأوتاد وتنقيعه في نهر روتكا حيث يوجد أسرع التيارات، وجرى تجفيفه مرة أخرى. بعد ذلك يتم فصل الكتان بدراسة خشبية [للحصول على الألياف]. لكنني لن أشرح للسيد معنى الفصل [الفرز]. وسموها «مُقشّرة القنب» في أماكن أخرى. تم رمي الألياف الأكثر سمكاً أو الأقصر مباشرة. لكن كم كان بعد ذلك من تصفية وتمشيط، هذا ما لا يمكن للسيد أن يتخيله. حتى بقيت لحمة الخيوط وحدها. هكذا اعتادت الجدة على التحدث في كل ليلة من أعياد الميلاد: هذا السماط تم نسجه من خيوط عنكبوتية. عندما حاكت الخيوط غسلتها وجففتها، غسلتها ثم جففتها عدة مرات. وعندما توفرت الشمس نشرتها على العشب لتجعلها أكثر ابيضاضاً. على الرغم من صعوبة تخيل أنها يمكن أن تكون أكثر ابيضاضاً. نشرتها طوال الصيف تقريباً طالما كانت هناك شمس، يوماً بعد يوم. ولم تشرع بالتطريز إلا في وقت الشتاء كي يكون السماط جاهزاً لعيد الميلاد، لكنها طرزت وطرزت حتى يكون جاهزاً لعشية عيد الميلاد التالية. لقد علمت كلاً من ياغودا ولئونكا التطريز على هذا السماط. لقد طرزت الفردوس بأكمله. أحياناً يظهر أغني مما هو في الصور. كان الجد أثناء الأكل يحب أن يمرر إصبعه على تطريز أمي.

- قال: انظروا، سنكون هناك، سنكون هناك. لكن ماذا أكلنا ليلة عيد الميلاد؟ أولاً، قليلاً من الجبنة بالنعناع كما الرعاة. بعد ذلك أكلنا حساء الحامض بالفطر مع جريش الحنطة السوداء. ثم فطائر البيروغي محشوة بالكرنب والفطر. بطاطا مسلوقة ومملحة على شكل أصداًف. حساء الحامض مع مصل اللبن للشرب. فطائر البيروغي من البرقوق المجفف

مرشوشة بالمكسرات ومغطاة بالكرامة المقلية. فطائر مع الخشخاش. سمك مسلوق أو مقلي. أوه، لا يصدق السيد، كيف كان نهر روتكا مرتع سمك. الآن لا يوجد نصفها في البحيرة. أستطيع رؤية ذلك، يأتي الصيادون إلى هنا، وهم يبخلقون ويبخلقون في صناراتهم. أذهب إلى هناك لإلقاء نظرة في بعض الأحيان ونادراً ما يخبط الصنارة شيء ما. أما في روتكا فكان يمكن الصيد بسلة الخوص. كانت توضع السلة على الحافة وتقصف ثقبها بالعصا وفي كل مرة كان يسقط فيها شيء. قبل عشية عيد الميلاد عندما كان نهر روتكا جامداً تم عمل حفرة ووضع شبكة فيها وانتظروا حتى تأتي الأسماك. بعد ذلك قدم الملفوف مع البازلاء أو الملفوف المقلي بزيت بذر الكتان. إذا كان الملفوف فقط، فحينئذ [قدمت] الفاصولياء مع العسل والخل على انفراد. وإذا كانت البازلاء، فحينئذ تكون الباقلاء فقط من دون الفاصولياء. للمزمة. ثم يأتي دور هلام التوت البري. وفي الختام كومبوت من الفواكه المجففة.

امتلاًنا بالطعام، على الرغم من وجود القليل من كل شيء. وطبعاً، بعد ذلك ذهبنا إلى القديس الرعوي. نحن الأطفال كنا نائمين على الأغلب، لأن القديس جرى عند منتصف الليل. مع ذلك كان علينا الذهاب. حينئذ تم إطفاء الشموع على شجرة عيد الميلاد. سأقول للسيد، بالنسبة لي، ليست وجبات الطعام، بل هذه الشموع كأنها تؤكد على أن هذه هي ليلة عيد الميلاد. عندما اشتعلت بهذه الطريقة، كنت على استعداد لتصديق كل شيء. آمنتُ بشرشف والدتي وبما قاله جدي، أننا سنكون هناك عندما يمر إصبعه على التطريز. حتى أنني اعتقدت أحياناً أننا هناك فعلاً.

ربما لهذا السبب صرت أحب الشموع المشتعلة طوال حياتي. عندما كنت خارج البلد في حفلة بمكان ما، أتذكر حتى يومنا هذا، اشتعال الشموع أيضاً، بالإضافة إلى الثريات وحاملات المصابيح الجدارية.

وإذا دعوت شخصاً ما إلى منزلي، توجب إيقاد الشموع أيضاً. ولا أطفئ الشموع بعد مغادرة الضيوف طالما أنها مشتعلة. أبقى جالساً حتى تنطفئ وحدها. لن يصدق السيد، يحزنني أن أضطر لإطفاء شمعة. لدي انطباع كما لو أنني أقطع حياتها. كما لو أن شيئاً ما قد انتهى فجأة ولا شيء هناك على

وشك البدء. كأنني أخذت شيئاً في داخلي. لا أعرف كيف يمكن أن أشرح للسيد ذلك.

سأقول ما يلي: بالنسبة لي يوجد شيء ما في الشمعة الموقدة. ربما كل شيء. كما في قطرة الماء، يوجد الماء كاملاً، كل الماء في نفس الوقت. ليحاول السيد إطفاء شمعة في وقت ما. لديّ شمعدانان فضيان. اشتريتهما من الخارج. كما لو أنني علمت أن السيد سيأتي إليّ يوماً ما. في يوم ما سيأتي السيد غير مرة. هل يمكنني إحضارهما؟ هما موجودان في الغرفة هناك. يقفان على الخزانة. سأضع الشموع، سنوقدها، ننظر إليها وهي تشتعل وستيقن السيد بنفسه. في بعض الأحيان اعتدتُ على الذهاب إلى متجر التحف، لقد سكنت في نفس العمارة في الطابق الأول. أحببتُ أن أنظر إلى الأثاث واللوحات والأشياء القديمة بدون سبب. إلى جميع هذه الخزانات، الخزائن ذات الأدراج، مكاتب الكتابة، المرايا، المصابيح، الساعات بله المحابر، المجففات ومقصات قطع الورق. إذا فكرت في الأمر، فكم يا ترى هي عدد اللمسات والنظرات البشرية المخبأة في كل هذا الأثاث والأشياء، كم عدد دقات القلوب، التنهدات، الأحزان، البكاء، الخوف، والضحكات بالطبع، النشوة، ونوبات الفرح، وكلما كان عدد تلك الأشياء أقل، كانت هذه أقل دائماً. يعني، فقط، ليتخيل السيد، كم عدد الكلمات. وكل ذلك لم يعد موجوداً. لكن هل لم يعد موجوداً حقاً؟ على سبيل المثال، الهاون لطحن الفلفل والقرفة والقرنفل، عندما لمستّه، صدقني، ثمة شيء تحدث معي. لكن، لم يكن بوسعي أن أسمع.

أنا آسف لسؤال السيد. ألم يشعر السيد بأي توق مماثل للعيش هنا وهناك؟ لا يهم متى. أبداً، ولو للحظة؟! أوه، اللحظة مهمة.

وذات مرة، اقترب مني سائلاً أحد بائعي الأنتيكات الذي لطالما حيّاني بابتسامة، لكننا لم نتبادل الكلمات بعد:

- عفواً يا سيدي، أرجو أن تخبرني، أنت تتردد على هذا المكان أحياناً، وصرت أعرف السيد، لكن لا شيء أثار اهتمام السيد حتى الآن. ربما يبحث السيد عن شيء مميز، أرجو أن تخبرني سأضعه في اعتباري.

وعلى الرغم من أنه لم تكن لدي نية لشراء أي شيء، فإنني قلت بشكل غير متوقع: أبحث عن شمعدان أثري جميل.

- أوه، لدي كثير من الشمعدانات. من فضلك انظر. وأشار إلى خزانات كائنة على طول الجدران. من النحاس، البرونز، الخزف، السيراميك القيشاني، الورنيش الشرقي، والفضة. كما يحب السيد. وشرع بفتح الخزانة تلو الأخرى، ولم يكن ذلك ضرورياً، لأنها كانت مزججة وبإمكانني رؤيتها. أخرج شمعداناً من إحدى الخزانات وهو يرفعه أمام عينيّ مادحاً: ربما هذا سيعجب السيد؟ أخرج الثاني. وهذا ألا يسعد السيد؟

قلت: لا، لا، لكل شمعدان أخرجه. لقد رأيتها كلها. بعد ذلك، هذه ليست المرة الأولى لي عند السيد.

- قال: هذا صحيح. وسألني: هل يمكن أن يكون اثنان؟ أجبت: بالطبع. في الحقيقة، أنا أبحث عن اثنين.

- أوه، سيكون لدي شيء من هذا القبيل للسيد. سألتك، لأن هناك زوجين غير منفصلين. لا يمكنني أن أبيع أحدهما على انفراد.

وأخرج الاثنين اللذين اقتنيتهما من خزانة ضخمة غير مزججة، مقفلة بمفتاح احتفظ به في جيب صدريته. وضعهما أمامي.

- من فضلك ألق نظرة عليهما. أليس هذا ما تبحث عنه؟ خمنت من الوهلة الأولى. إنهما من الباروك. مدينة البندقية. يجب أن يعترف السيد بأنه عمل متقن. مع ذلك يجب أن أحذر السيد...

قاطعته قائلاً: أخمّن ذلك. لا يهم السعر. أرجوك احزمهما. ربما لم يكن متوقفاً أن أشتريهما، لأنه وهو يحزمهما ما زال يقنعني:

- إنها معجزة، لأنهما قد نجيا حتى أوقاتنا هذه، وكزوجين. لا يسعنا سوى أن نتخيل كيف كان مصيرهما. أوه، مصائر الأشياء مشيرة للاهتمام كالمصائر البشرية. وهي مأساوية بنفس القدر. لو أمكن، على سبيل المثال، استحضار مصير هذين الشمعدانين. ليس التاريخ، لكن المصير، لاستطعنا حينئذ معرفة أشياء كثيرة كذلك عن الناس الذين كانوا يمتلكونهما. وهذه في الظاهر من الأشياء الأكثر زوالاً، لكن من يدري، إن لم تكن أهم الأشياء التي

لم نتعلمها من الوثائق. أقول، في بعض الأحيان، يمكن للإنسان أن يعتمد على الأشياء فقط لأنها تفهمه. أحياناً يعهد للأشياء بما لا يعهده إلى شخص آخر. أحياناً، فقط الأشياء تستطيع أن تتعايش معنا حقاً. أتمنى للسيد كي يكون هذان الشمعدانان... وأدعوك إلى هنا.

يمكنني إحضارهما، هل يرغب السيد في ذلك؟ سأوقد الشموع. يقول السيد: يكفيننا هذا الضوء الحالي لتقشير الفاصولياء. لقد أساء السيد فهمي. لم يكن قصدي أن يكون الضوء أكثر سطوعاً. أحياناً لا توجد لدي رغبة في القراءة، ولا في سماع الموسيقى. مازالت الأمسيات طويلة كما هي الآن في الخريف أو الشتاء وأنا مع هذين الكلبين، ويحدث أن أحضرهما إلى هنا، إلى المطبخ، أضع فيهما الشموع وأنظر إليهما كيف يشتعلان. أقول للسيد: عندما أنظر إليهما هكذا كيف يشتعلان لا أعود أشعر بأنني أنا الذي ينظر. كما لو كان ورائي أحداً ما. لا أعرف من. على أي حال، هذا غير مهم. الكلبان ينطرحان، أوه، كما الآن جنب الجدران في الظلام، ينامان أو يتظاهران، أما أنا فكما لو أن كل شيء قد مرّ في داخلي واعتراني هدوء متزايد. كدت أصبح غير مبالي بنفسي، لا يعنيني العالم كله، طالما أنه هكذا وليس على نحو آخر. حتى صار لديّ شعور بوجود نفسي في وضع غير معروف بالنسبة لي. وكما يرى السيد، بدا كما لو أنها شموع عادية. تشتعل وتضمّت. لكن ربما ثمة شيء أكثر من الصمت في صمتها هذا، ماذا يعتقد السيد؟

أوه، لقد كان هذا تمرداً حقيقياً. وبطبيعة الحال، لقد تمردنا حتى قبل ذلك الوقت. كيف تكون شاباً ولا تتمرد؟ خاصة في مدرسة مثل مدرستنا. كانت هناك أسباب لا حصر لها للتمرد. بسبب أشياء مختلفة. من أجل الطعام، لأنهم أطعمونا بشكل حقير. وضد العقوبات. وعلى سبيل المثال، إذا لم يكن هناك زر في البدلة الرسمية لأحدنا، يقومون بإيقاف فريقنا بكامله في وضع استعداد لمدة نصف يوم. ذات مرة، دفعونا لتنظيف الثلج بدون قفازات كعقوبة لنا. وكان الصقيع شديداً مفرقاً.

لم تكن تلك التمردات كبيرة. ذات مرة، عدنا عند المساء من العمل ولم يكن هناك ضوء. لم تكن تلك هي المرة الأولى. لذلك قررنا عدم حضور الدروس، لن نذهب إلى الدروس في الورشات ولن نذهب إلى أي عمل آخر. اجتمعنا في القاعة العامة وجلسنا. لم يقدموا لنا الغداء ولا العشاء وفي الصباح عندما لم نخرج للنشيد لم يعطونا الفطور كذلك. اعتقدنا أنهم سيجوعوننا. وكل واحد منا كان يتضور جوعاً. يمكن القول إننا لم نكون متمرسين في أي شيء كتمرسنا في الجوع. لقد نجا الكثيرون من الحرب بفضل حقيقة أن الجوع ربطهم بالحياة. شهد الجوع على وجود الإنسان. الجوع أيقظ، والجوع أنام. الجوع حزن، أراح، وداعب. غالباً ما كان الجوع هو الملاذ الوحيد لأننا جميعاً، كما أسلفت، لا نعرف من أين أتينا.

استمر الوضع على هذا الحال لثلاثة أيام. جاء المعلمون، حثونا، أقنعونا وهددونا بأن الوضع سينتهي بشكل سيئ. حتى إن المأمور نفسه قد حضر بمدايات معلقة على صدره وحزام التحالف [يتم ارتداؤه من الكتف عبر

الصدر مربوطاً بحزام البطن] وكان يتزّياً بهذا الشكل في المناسبات فقط. حتى إنه بدأ حديثه بهدوء، يمكن القول، بأبوية: يجدر بنا أن نفهم. لم يقم بإدانتنا. هو يعرف معنى أن نكون بلا ضوء. هم يقطعون الكهرباء عن المعلمين أيضاً. ويقطعونها عنه رغم أنه المأمور. إذن، يجدر بنا أن نعرف أننا جميعاً نلحق للتو جراحنا بعد الحرب. وعلينا دون سوانا أن نعرف ذلك. ما زال إنتاج الكهرباء قليلاً والاحتياجات إليها هائلة. تشغيل المصانع، مصانع الصلب، المناجم، المستشفيات والمدارس. ومدرستنا هي مثال على ذلك. عدّد لنا لفترة طويلة. وكم من الكهرباء تحتاج المدن، ليس البيوت فحسب، بل الشوارع أيضاً. وفي القريب العاجل سيحتاج الريف أيضاً، لأن الكهرباء قد بدأت بالفعل الأمر الذي سيقتضي على عدم المساواة بين المدن والقرى. بعد كل شيء، هم يعلموننا في هذا الاتجاه، نحن الذين سيخرجون كهربائيين من المدرسة. ألم تُنظّم بنا هذه المهمة محل الفخر؟ أدعو كهربائي المستقبل للوقوف! لم يقف أحد! وهذا ما جعله يبرد قليلاً. إلا أنه سعل وواصل. مهمة مثيرة. على مقاس القلوب الفتية، على مقاس اتقاد فتوتنا. لقد التهمت درجة حرارته لدرجة أن الميديايات تقافزت على صدره. كان متحدثاً لبقاً، علينا أن نعترف له بذلك. وبأن علينا أن نفهم ويجب أن نفهم أن البلد مازال غير قادر بعد على تحمل كلفة كل واحد حسب احتياجاته. ومع ذلك سنصل إلى ذلك ببطء، بالعمل، الحماسة والصبر. وطبعاً بالعلم لأن العلم مفتاح القوة. وعلينا نحن الشباب يعتمد من سيربح هذه الحرب السلمية الجارية الآن. أما الآن فيمكنه، هو مأمور المدرسة، أن يعدنا بأننا سنفوز بها.

لقد فهمنا القليل من ذلك. وأما أن هناك حرباً جديدة تجري وإن كانت سلمية فكانت تفوق خيالنا. على أي حال لم يعرف عنها أحد. بعد ذلك، عاد من جديد إلى القول: يجدر بنا أن نفهم، ويجدر بنا أن نفهم. ولا يجدر بنا أن نرد الجميل للمدرسة بالجحود. لقد أخذتنا المدرسة تحت جناحيها، اعتنت بنا، عوضتنا عن بيوتنا وعوائلنا، خلقت لنا الظروف كي ننضج...

في تلك الأثناء قاطعه صفير أحدهم، وبدأ جميعنا بالصراخ حالاً، كما لو أننا تواطأنا على ذلك:

- لا نريد أن نكبر! لا نريد! لا نريد! نريد منهم ألا يقطعوا عنا الكهرباء!

تجمد كما لو تعرض للصعق. لكن ليس لوقت طويل. بدأ وهو يخرق صراخنا بالصراخ أيضاً:

- يوجد هنا زعماء فتنة! يوجد هنا زعماء فتنة! شخصوهم! سنسامحكم، أريد أن أعرف زعماء الفتنة! لقد أثار بذلك صفيراً ونقرأ بالأحذية وصراخاً أقوى. لقد صفينا حسابنا معه. تشنّج، هزّ رأسه، ولوح بيديه. تحول لون وجهه إلى أحمر كالشمندر. بدا كما لو أن الدم على وشك التدفق من عينيه وأنفه وفمه.

- ليقف الجميع. استعداد. أنا أمر ببناء عقابي. نحن ستحاسب معكم بالفعل. لدينا طرق للتعامل مع هؤلاء. رعا. مجرمون. لدينا معلومات عن كل واحد منكم والذنب الذي اقترفه. هناك ملف لكل واحد. لصوصية، حرق متعمد، اغتصاب وقتل! نحن نعرف كل شيء. سنخرج كل ذلك. سنرسلكم إلى هناك حيث كان عليكم أن تكونوا منذ البداية. التمرد لا يغتفر. العقوبات والسجون لا المدارس لمثل هؤلاء الأشخاص. وإلا فلن نطهر البلد من الدم الملوّث. الشباب ليس عذراً أبداً. ينبغي تصفية الأعداء بغض النظر عن العمر. التصفية، التصفية بكل صرامة. وكلما تمّت مبكراً كان أفضل.

- من الأفضل في المهد! هدر أحد الصبية بوضع يده على البوق. انفجرت القاعة العامة بالضحك. عجز عن الكلام. كما لو أن عينيه قد تجمدتا. وبهدوء، لكن بحماس قال كأنه أمر:

- من تجرأ على مثل ذلك؟ ليقف على الفور! لتكن لديه الشجاعة. أنا أنتظر. هيا؟!

ساد الصمت، كما لو أنه قطع هذا الضحك بالسوط. أخرج الساعة ومسكها بيده:

- هيا؟ أعطيه عشر ثواني. إذا لم يقف... حينئذ وقفنا جميعاً، القاعة كلها كشخص واحد. نظر إلينا بعينين غاضبتين.

- أوه، إذاً، هكذا. وصاح: انتظروا يا... وكاد يهرع من القاعة تقريباً.

إذاً، انتظرنا متوقعين ما هو أسوأ. لم نكن نعرف ماذا يمكن أن يكون، لأنه يصعب تخيل الأسوأ. دارت شتى الافتراضات في خلدنا. أخيراً توصلنا إلى استنتاج مفاده أنه لا داعي للانتظار. سنهرب. ستهرب كل المدرسة. على أن يتم ذلك في الليلة التالية. حددنا أي الثكنات ستكون الأولى وأبها الأخيرة. الأولى ستكون قبل منتصف الليل، وبعد مرور كل ساعة تليها التالية. سنهي التمرد قبل المساء، سنذهب إلى ثكناتنا، سيتنفس المعلمون الصعداء، سينامون جيداً وأما نحن فسنهرب حينئذ.

في غضون ذلك، ظهر معلم الموسيقى في القاعة قبل الظهر بشكل غير متوقع. كان ثملاً قليلاً، لكنه أخرج القنينة، أخذ منها رشفة وسألنا:

هل يشرب أحد منكم؟ وقال: لقد أرسلوني لإقناعكم يا أولاد. بيد أنني لا أعرف الإقناع. لم أقنع نفسي. ظننت أنني سأؤلف لكم نشيداً ما. كل التمردات تركت وراءها الأناشيد. مع ذلك فذهني اليوم غير صاف. اعذروني. وماذا سنفعل هنا؟ ماذا سنفعل هنا؟ بعد كل ذلك لا يمكنكم أن تجلسوا هكذا، إذا قمت بتأليف لحن ما سيكون بإمكانكم أن تغنوا. ها؟ يمكن أن نبدأ المحاولة مع الفرقة الموسيقية؟ كان ينبغي أن أفعل ذلك منذ فترة طويلة. كانت هذه هي المهمة التربوية الملقة على عاتقي منذ البداية. حسناً، دعونا نبدأ.

أخرج القنينة وأخذ منها رشفة أخرى. بعد ذلك دعانا لأخذ الآلات.

- قفوا يا أولاد، نعم، هناك مع هذه الآلات، وأشار إلى نهاية القاعة.

أخذ كل واحد الآلة التي وقعت بين يديه، معتقدين أنها ستكون نوعاً من التسلية. لم نقم بأي محاولة مع الفرقة الموسيقية حتى الآن. أخبرنا أنهم أرسلوه لهذا الغرض إلى هنا أحياناً. وأي بروفة ستكون مع الفرقة الموسيقية طالما أنه سكران. حتى إن أحد الأولاد سأله إذا كان من الممكن أخذ آلة مكسورة، معتقداً أنه سيقول: لا، ويغضب. لكنه أوماً برأسه موافقاً. ضحك الجميع خاصة أن بعضهم قد أخذ آلات موسيقية مكسورة.

أخذت الساكسفون، لكنه أوقفني بشكل غير متوقع: - الساكسفون لا. الساكسفون غير محسوب في النوتة الموسيقية. لم يكن الساكسفون

موجوداً حينئذ يا فتى. خذ الكمان. بقي كمان واحد فقط. بدون أوتار ورقبته مكسورة. وليس هناك قوس أيضاً.

قلت له: يوجد هذا الكمان لا غير.

- قال: لا يهم. ستقف في الخلف وراء الآخرين.

بدأ في إعدادنا. هنا الكمان، وهناك الكمانات المتوسطة، هنا آلات النفخ الخشبية، وهناك الآلات النحاسية، وفي هذه الجهة آلات التشيلو، وخلفها آلات الكمان الأجره وهلم جرا. بدأنا بالضحك مرة أخرى. جلسنا متمردين في القاعة العامة لثلاثة أيام فظننا أنه يريد تسليتنا حتى لا نشعر بالملل. لكنه كان أكثر جدية من أي وقت آخر ولم يكن مستعداً للضحك.

- قال: لا تضحكوا يا أولاد. هذا هو يومي.

ترأى لنا أنه قد وضع كل واحد في مكانه، لكنه مازال غير راض نوعاً ما، فطلب من ذلك أن ينتقل إلى هنا، وذاك أن يتحول إلى هناك، وعلى الآخر أن يبتعد قليلاً وعلى ذلك أن يقترب. ربما ما زال هو لا يثق بنفسه أم تراه أغفل شيئاً ما. وقفنا جميعاً مثلما رتبنا، بعد ذلك أمر أحدنا أن يعطي الكمان لغيره ثم ينتقل إلى مكانه ويأخذ زاويته، وطلب من أحدهم أن يعطي آلة الباسون للآخر ويأخذ منه الترومبون، ومرة أخرى طلب من أحدنا أن يتخلى عن الفلوت ويتحول إلى آلة التشيلو، وأن يتحول هذا من آلة التشيلو إلى الكمان الأجره. وما زال غير راضي. كما لو أننا لم نتوافق مع الآلات. أو ربما شوشنا في داخله ذكرى فرقة موسيقية ما.

أوه، لقد كانت أوركسترا كبيرة. لقد شغلنا ثلث القاعة العامة تقريباً. والقاعة مثلما أسلفت عبارة عن ثكنة كاملة. أولئك الذين لم تسعهم الفرقة الموسيقية ووقفوا في آخر القاعة كان عددهم أقل بكثير.

أكيد، لقد شعر بالتعب من تنظيمنا، لأنه جلس على المصطبة.

- سامحوني يا شباب للحظة فقط. أنا بحاجة إلى الراحة. ثم سحب جرعة من القينة. مسح العرق عن جبهته بالمنديل. أخذ عدة أنفاس عميقة ووقف أمامنا. - لا تضحكوا الآن. حافظوا على جدكم. ليمسك كل واحد منك بآلته كما لو أنه يعزف عليها. مع ذلك لا تحاولوا أن تعزفوا. أرجوكم لا تحاولوا العزف.

الظاهر اعتقد أنه لا يزال غير مخمور بدرجة كافية بعد، فلذلك أخرج القينة مرة أخرى واستلّ منها جرعة. بعد ذلك أعطى القينة لأقرب الأولاد، كما لو كان لعازف الكمان الأول.

- وضعها في مكان ما هناك. حسناً، والآن انتباه يا أولاد. فتح يديه وتجمد. وقف للحظة هكذا. بعدها رفع يديه إلى الأعلى وحينئذ ضحك أحد الأولاد في الفرقة الموسيقية من جديد.

- بالله عليكم لا تضحكوا. سألتكم ألا تضحكوا. اليوم هي الذكرى السنوية. بعد ذلك سأخبركم. إذًا، انتباه، مرة أخرى.

لا، لم يقل لنا قط ما هذه الذكرى السنوية. لكن لم يتجرأ أحد على الضحك بعد ذلك. أما هو فمد يديه مرة أخرى ووقف هكذا، وقف كما لو أنه لم يستطع أن يخفض هاتين اليدين أو يرفعهما. حنى رأسه قليلاً ثم أغمض عينيه. اعتقدنا أنه سينهار، لأنه جاءنا مخموراً بالفعل وفوق ذلك سكب بعض الجرات الإضافية المشتهاة في جوفه. لكنه لم يترنح كمثل كثيراً. وقف. ضحك أحد أعضاء الفرقة الموسيقية بصوت هادئ مرة أخرى. مع ذلك، بدت الضحكة هذه المرة كأنها مرت بجانبه. وقف، مثلما وقف، بيدين ممدودتين، بانحناء خفيفة وعينين مغمضتين. وفي لحظة ما همس لكنني لا أعرف ما إذا سمعه أحد سواي:

- المعذرة يا أولاد، لكن، كما لو كنتم موتى.. لا أفواه لديكم، ولا أيدي، ما عدا هذه الآلات.

ثم طوح بيديه في الهواء. بعد ذلك لوح بيديه على كامل سعتهما حتى ترنح جسده المرتعش واهتز شعره. ولم يوقف تينك اليدين بعد ذلك. منغمساً بكامله - أقول للسيد - بالذي من المفترض أننا عزفناه، مصححاً إياه بتينك اليدين. رأيت فيما بعد مختلف الفرق الموسيقية، إلا أنني لم أر قائد فرقة موسيقية مثله. الشيء مختلف فيما لو رأيت ذلك لأول مرة في حياتك، الأكثر عادياً سيبدو غير عادي. حتى مثل هذه الدعسوقة، فكيف الحال مع قائد فرقة موسيقية. لكن، ربما مثل هذه الرؤية هي الحقيقية فقط؟ معلم موسيقى وفي مثل هذه المدرسة، علاوة على أنه سكران، وهنا كأنه

طائر يحاول التحليق بهاتين اليدين. ربما حتى ذلك الحين لم نكن نعرف بعد بوجود مثل هذه الكلمة، قائد الأوركسترا. على أي حال، أنا لم أكن أعرف. الفرقة الموسيقية الريفية التي صادفتها حتى الآن فيها من نقر بقدميه، والآخر أعطى اللحن، ثم عزفت من تلقاء نفسها.

امتدت يده بعيداً جداً حتى إن جميع أعضاء الفرقة الموسيقية أمالوا رؤوسهم. انكمشتا، رسمتا بعض الدوائر، قطعتها خطوط متعرجة ما، من اليسار إلى اليمين، من اليمين إلى اليسار، ومن أعلى إلى أسفل بشكل قطري. مسرح اليدين. شاهدت ذات مرة مثل هذا المسرح في الخارج. اليدان وحدهما مثلتا، وعرضتا كل ما هو في هذا العالم الحزين.

حسناً، لو أن أحداً ما نظر الآن هكذا إلى أيدينا ونحن نقشر الفاصولياء فماذا تراه سيتصور حسب رأي السيد؟ نعم بالضبط. نعم وهو كذلك. لأنه ما كانت تسمع هناك موسيقى. كانت يدها هما الموسيقى فقط. أما أننا لم نسمع فلم يكن لذلك أهمية! كنا ضروريين له من أجل أن يسمع ما أراد سماعه فقط.

ثم سحب يديه إلى صدره وفي اللحظة نفسها كما لو أنه حررها من أسر جسده المخمور دفع بهما بعيداً أمامه. شعرت في بعض الأحيان أن يديه تحومان فوقه. فوقه، أمامه، قريباً منه، بعيداً عنه، تطيران، تحطان وهو يتبع حركاتهما بالسمع فقط. من يدري ربما كان الحال هكذا. لأننا نحن كفرقة موسيقية وقفنا في المكان الذي وضعنا فيه. عازفو الكمان مسكوا آلاتهم محشورة تحت ذقونهم والأقواس على الأوتار، وعازفو الفلوت وضعوها تحت أفواههم، وهكذا وقفنا جميعاً مع آلاتنا كالمسحورين. كما لو أنه سحرنا بيديه. لا، لم يضحك أحد بعد الآن. حتى أولئك الذين لا ينتمون إلى الفرقة الموسيقية الذين تراجعوا إلى الحائط المقابل.

ولم أقل للسيد بعد، عندما وقف على أطراف أصابعه، كما لو مد نفسه خلف تينك اليدين، بدا طويلاً رغم كونه متوسط الطول. وقف على أصابعه كالوتر وهو يرفرف بيديه في مكان ما هناك في الأعلى. بعد ذلك سقط على كعبيه من تلك الأصابع، من ذلك الارتفاع، حانياً ركبتيه كأنه التقط هذه

الموسيقى بيديه الممدودتين من الأرض. أو ربما توسل بها لكي ترفعه. من الصعب القول طالما أنني لم أفهم الكثير ولم أسمع أي شيء. أو أنه شمر إحدى يديه فوقه واحتفظ بها هكذا مستقيمة ومتشعبة، وعمل بالأخرى نصف دائرة أمامه، موزعاً أصابعه في الوقت نفسه كما لو بحث عن شيء ما في هذه الموسيقى.

خفنا من أن جسده المخمور قد يسحبه إلى الوراء أو سيطير نحونا لأنه حتى لو كان صاحباً لو هكذا مال، انحنى، ارتفع، فمن غير المعلوم ما إذا كان سيتوقف.

وللأسف، عندما تسلق على أصابع قدميه مرة أخرى ترنح فجأة. كان من الممكن أن يسقط. من حسن الحظ أن أحد الأولاد الواقفين قريباً منه قفز وسنده. لكنه انزلق من بين يديه. رفعناه ووضعناه على المصطبة. كان شاحباً مثل ملاءة غارقاً في العرق لا يمكن سماع ما إذا كان يتنفس. أراد أحدهم أن يهرع إلى المأمور. والآخر أن يتصل بالإسعاف. في تلك الأثناء بدا كأنه يتنسم لنا من تحت أجفانه المواردية.

- همس: لا شيء، سأكون بخير يا أولاد. شربت أكثر من اللازم من أجل هذه الموسيقى. لو أنكم سمعتم ما عزفتموه يا أولاد. لو سمعتم. أحياناً، الحياة تستحق العيش، أيها الأولاد.

حسناً، لن يصدق السيد أننا لم نعد نرغب في الهروب.

وسيدعونا في غضون أيام للوقوف في الساحة. نرى سيارة واقفة. وأمامها يقف المأمور مع المعلم. إنه مختلف هذه المرة، مسرور، مبتسم، ويكاد يكون أبوياً مرة أخرى.

- تعالوا، تعالوا. انظروا ماذا جلبوا لنا. المصابيح. في الحقيقة هي نفطية، ومع ذلك، لا يجدر بالمرء التطلع إلى أمام فقط. من الجيد أن يتطلع المرء خلفه من حين إلى آخر. هناك يمكنه العثور أيضاً على شيء ينفعه اليوم. ولهذا، تحمّلوا، تحمّلوا. ثم التفت إلى السائق: هل أحضرتم النفط؟ كم قارورة؟ حسناً.

في الواقع، لم يكن عدد المصابيح كبيراً لدرجة أن تدعى المدرسة

بأكملها. كان هناك مصباح واحد لكل قاعة. وأربعة للقاعة العامة. ومصباح واحد لكل معلم. ليست بتلك المعتبرة، إنها مصابيح عادية. علاوة على ذلك، لم يكن الزجاج ملائماً لجميعها. لكن على الأقل هناك شيء ينير عند انقطاع الكهرباء. وبإمكاننا أن نغتسل كالإنسان، نأكل ونأوي إلى الفراش. بل حتى أن نصلح شيئاً، نخيط، نرتق. حتى مهما كان الضوء فهو ضروري للإنسان. على أي حال، لم نتمرد بعد ذلك من أجل الضوء قط.

وهذا شيء مختلف. نحن لم نتمرد من أجل الضوء حينئذ. بل كي لا يتوقف عرض الفيلم. وفي مثل هذه اللحظة. يعترف السيد، أنه لا يمكن اختلاق ما هو أسوأ من ذلك. اشترى، لم يشتر. هل أطلق النار على نفسه. بالإضافة إلى ماري هذه. وبعد ذلك، كل ذلك من أجل قبة؟ وما الفرق فيما لو كان المقصود أنها تخونه؟ أوه، القبعات يمكنها أيضاً. لقد خرجت طوال حياتي بالقبعات، وأسير لحد الآن، ولهذا أعرف عنها شيئاً. حتى إنني أملك قليلاً منها، جلبتها معي من خارج الحدود. أرندي بعضها يومياً، وبعضها في أيام الأحد والأعياد. وقبة أرنديها عند الذهاب إلى الغابة دائماً.

يحب الكلبان هذه القبة أكثر. عندما أضعها على رأسي، يقفزان، يتزلفان، تبتسم أعينهما، يعرفان على الفور أننا سنذهب إلى الغابة. لماذا يستغرب السيد من أن أعينهما تبتسم؟ ليس كالإنسان لكنها تبتسم. أعرف متى تبتسم أعينهما. ما الذي لا يفهمه السيد؟ وماذا هناك لفهمه؟ لو كان لدى السيد كلب لفهم السيد كثيراً. ولوجب على السيد أن يوافق حتى على أن الكلاب تصنع لنا معروفاً لأنها تعيش معنا في هذا العالم. ويجدر بالإنسان أن يبادلها بشيء ما مقابل ذلك. ليس فقط أن يعطيها أكلاً وسقفاً فوق رؤوسها. في هذه الحالة، ليقبل لي السيد، هل يتحمل الإنسان التعلق بالكلب كما هو يتعلق به؟ أوه، هو ليس بنفس التعلق. حسب اعتقادي، لدى الكلاب كثير من الأفضلية على الإنسان. على سبيل المثال، الكلاب لا تدير الحروب، لا تخرق القوانين لأنها غير مضطرة لسنّها، لكونها تحملها في داخلها. نسمع أحياناً ماذا فعل الناس بالكلاب. رموها من السيارة. نقلوها إلى أماكن بعيدة، تركوها في المصايف والمصححات. لقد رأيت مثل هذه الكلاب الضالة عندما سافرت إلى المصح. تشبثوا بكل

واحد على أمل أن يجدوا فيه إنساناً. أو كيف هم ربطوا كلبى هذا (ركس) بالشجرة في الغابة.

لذلك سأقول للسيد: فهم الكلب أصعب من فهم الإنسان. من أين يملك مثل هذا التعلق ولا فرق في ذلك سواء كان هذا إنساناً أو شريكاً. هل سمع السيد بأن أحد الكلاب قد هجر إنساناً بمحض إرادته؟ هكذا ببساطة، ذهب ولم يعد. أو على سبيل المثال، هل سمع السيد بـكلب هرب عندما هجم علينا أحد ما؟ وليكن مثل داوود مقابل جالوت، لأمسك به على الأقل من طرف سرواله أو عضه من كاحله. لضغط عليه ونبح رغم كونه لا حول له ولا قوة. هل سمع السيد بأن كلباً قد تنازل عن مريض أو تخلى عن محتضر؟ من غير الممكن أن يكون السيد قد سمع بذلك. ويحدث أن يموت الكلب أحياناً حزناً بعد موت الإنسان.

نحن لا يمكننا حتى أن نستشعر اليوم التالي. لا نستطيع أن نستشعر الشخص الثاني. أما الكلب فيستشعر الموت. ربما لا تدع ذلك يظهر عليها على الأغلب. أوه، مثل كلبى، ينظر حان بهدوء، وقد يكونان نائمين. ونحن لا نعرف ما إذا كانا قد شعرا بشيء ما فعلاً. الشم، الشم. هو ليس مجرد شم فحسب. الشم وحده لا يشكل الكلب. ماذا؟ لا أعلم. لو علمت، لكنت عرفت أكثر من ذلك بكثير.

مع ذلك، يكفي المقارنة بين ألم الإنسان والكلب عندما يؤلمهما شيء ما. إنها ليست الآلام نفسها. على الأقل، الإنسان يشتكي، يتنهد، يتأوه، بينما الكلب يصاب بالخمول وفي الغالب لا يمس الطعام. أقل ألم عند الإنسان يبدو مرئياً كما لو على ظاهر اليد، بينما لا يبدو على الكلب إلا الصبر. أو ليتطلع السيد في عيني الكلب ليرى ماذا ينعكس عليهما؟ هل الشيء نفسه كما في عيوننا البشرية؟ في الظاهر، هو نفس الشيء الذي ينظر إليه الإنسان، لكن هل يرى الشيء نفسه؟ هل سبق للسيد أن تساءل؟ عينا الإنسان تتسعان، تضيقان، ترتعشان، تبسمان، بغض النظر عن الشيء الذي تنظران إليه. بينما هما تقفان لدى الكلب في مكانهما بغض النظر عما ينظر إليه. أو أي نوع من الناس يوجد في هاتين العينين الكلبيتين؟ هل تساءل السيد؟ هل كما ترى نفسك، على سبيل المثال، في المرأة، في عيون الناس الآخرين أو في رضاك،

في عدم رضاك، في ذاكرتك الخاصة، في آمالك، مخاوفك، ويأسك؟ وماذا يفكر مثل هذا الكلب في الإنسان؟ وما هو رأي كلبّي الآن فينا، عندما ينظران إلينا هكذا ونحن نقشر الفاصولياء؟ هما يريان السيد عندي لأول مرة، ولا يمكنهما ألا يفكرا. أوه، لقد استيقظا. ماذا، يا ركس، ماذا، يا وابس؟ وأنا والسيد نتحدث بعضنا مع بعض هنا.

أو القلب، بعد كل شيء، لدى الكلب قلب. يقال أحياناً عن شخص ما: لديه قلب طيب. يقال إن الله سكن في قلب أحد الناس. وهل لا يريد الله، وهو ينظر إلى كل هذا، أن يسكن في قلوب الكلاب فقط. لا نعرف، هذه حقيقة. لكن، يمكننا أن نفترض. بالنهاية، ماذا نحن نعرف؟ لا نعرف حتى أبسط الأشياء. يقف شعُر الكلب ولا نعرف أحياناً ما المقصود. يهز ذيله ولا نعرف أيضاً. يتذمر بدون سبب ولا نعرف. أوه، لا يمكن بالشّم وحده أن تشعر بكل ما يشعر به. حتى إنه يشعر بمن يأتي وبأي نوايا.

قد أفاجئ السيد بالقول إنني أودّ أن أكون كلباً أحياناً ولو للحظة. ليس دائماً ولكن للحظة. ربما سأعرف حينها، على سبيل المثال، ما إذا كانا يحلمان بي. كل واحد بوجه أن يعرف كيف يحلم به الآخر. والسيد لا؟ بود السيد، بود السيد. ومن أين يعرف السيد أنه لا أحد يحلم بك؟ ربما لأنه، لا أحد أخبرك بهذا من قبل. أنا أريد فقط أن أعرف كيف يحلم بي كلباي.

ماذا، التمرد؟ أوه، لم أنه ما بداؤه للسيد. حسناً، لقد قطعوا عنا الكهرباء وانقطع عرض الفيلم. ربما، لو لم يحدث ذلك في تلك اللحظة. ربما، لو لم تكن تلك القبة. وهذه الـ (ماري). هل يتذكر السيد دواعي اندلاع حرب طروادة؟ بالضبط. في البداية، مع حلول الظلام، ساد تأوه عظيم من خيبة الأمل. وعندما بدا أن هذا الظلام سينفجر صرخ أحد المعلمين الذين شاهدوا معنا هذا الفيلم:

- حافظوا على الهدوء! سنذهب للتحقق، من المؤكد أنها مجرد فواصم كهربائية [فيوزات]!

وخرجوا الواحد تلو الآخر من قاعة العرض. ربما هم اعتقدوا أنهم إذا خرجوا جميعاً للتأكد فبالأكيد ستكون الفواصم الكهربائية. أما نحن

فسنبقى بالأحرى هادئين. وبالفعل، يمكننا القول إنه بالنسبة لمثل هذه القاعة المزدحمة حافظنا على الهدوء. لا بد أنهم كانوا غاضبين أيضاً بسبب الانقطاع في مثل هذه اللحظة. من المؤكد أن الجميع لم يغادروا. لذلك التزمنا بالهدوء حتى يعودوا. لقد هَذَا بعضنا بعضاً. وبخ بعضنا بعضاً. الزموا الهدوء هناك! الهدوء! وانتظرنا على أمل أن تجيء هذه اللحظة المتوقعة عندما يظهر أحد المعلمين في الباب بصرخة انتصار:

- إنها الفواصم يا شباب. تماماً كما توقعنا. سيتم إصلاحها قريباً. لكن الوقت قد مرّ ولم يحضر أحد. لو لم يتكلم مشغل الشريط فجأة لحدث الانسراح في الانتظار نفسه. لأحدثنا ربما بعض الضوضاء ولربما بدأنا بالغناء. لكن صوته بدا كالحكم، في هذا الهدوء، في هذا الظلام:

- أيّ فواصم كهربائية. هل يستغرق إصلاح الفواصم كل هذا الوقت؟ سألف الشريط. كلما عرضت فيلماً في مكان ما وقطعوا الكهرباء لم يحدث أنهم أعادوها.

وحيثذ، كيف يمكن لهذا الهدوء ألا ينفجر، بدا كأن القاعة ستتحطم. صفير، صراخ، عويل ونقر بالأحذية على الأرض. في البداية، عوقب المشغل الذي لا ذنب له كما لو أن كلماته هي التي أصبحت الشرارة التي أشعلت هذا الهدوء. انقض عليه أولئك الجالسون في نهاية القاعة، طرحوه أرضاً، سحقوه، ثم ركلوه. وحطموا جهاز العرض. أخرجوا البكرات من الصناديق ثم شبكوها كالأشرطة. أخرج أحدهم أعواد الثقاب وبدأ بإشعال هذه الأشرطة حتى تعمل نوراً. تعمل نوراً! لحسن الحظ، أننا أطفأناها في الوقت المناسب. لأشعلها على نفسه. يعرف السيد، ماذا سيكون؟ بعد ذلك حطم كل زجاج النوافذ. كل من كان في متناول يده شيء أو بالأحرى كل من عثر على شيء ما في الظلام حطم به. بالكراسي، المصاطب، والآلات الموسيقية. حاولت حماية الآلات. توسلت، صرخت وانتزعتها من بين أيديهم:

- اتركوا هذه الآلات! اتركوا الآلات! ما هو ذنب الآلات الموسيقية؟! استعاد بعضهم رشده بينما وجد البعض الآخر الارتياح فقط في الآلات

الموسيقية. سحقوها، حطموها، وقذفوها من النوافذ. حتى إنهم أرادوا رمي البيانو، لكن من حسن الحظ لم يكن مناسباً للنافذة. بدلاً من ذلك، بدأ أحدهم بالقفز عليه من الغضب وبالدوس على لوحة المفاتيح.

كنت في الطرف الأخير من القاعة العامة عندما سمعت فجأة قعقة الأصوات الموطوءة. تسللتُ مندفعاً وأمسكت بذلك الشخص من رجليه. وهو مسكني من رقبتي وبدأ بخنقي. لقد ضاق نفسي، لكنني رفعتي من البيانو وألقيته على الأرض. وبما أننا لم نملك شيئاً لضرب بعضنا بعضاً به، نظراً لأن أحداً أمسك بالآخر، لذلك بدأنا في عض بعضنا بعضاً. عضضنا بعضنا بعضاً حتى خرج الدم. وكان عازفاً واعداً على البيانو كما قال له معلم الموسيقى أحياناً.

لقد نجت معظم الآلات التي رميت خارج القاعة سواء أكانت في حالة أفضل أو أسوأ. أما البقية فقلة منها خرجت سالمة. لحسن الحظ، هم لم يهتدوا إلى كل الآلات في الظلام. خاصة أن الغضب يعمي البصر أكثر. لو رأى السيد، فيما بعد، تلك الآلات الأكثر تحطماً لتألم قلبك. مع ذلك لم يحضر أحد من المعلمين. وقد حدث هذا التمرد الغاضب جداً بسببهم.

والسيد لم يشارك في أي تمرد؟ حتى في مثل هذا المدرسي؟ لم يتمرد السيد قط؟ ضد ماذا؟ أليست الأسباب كافية؟ وهكذا الحال منذ الطفولة. هم يدفعون الطعام لنا عندما لا نشعر برغبة في الأكل. وعلى مَرّ السنين كان من الممكن القيام بتمرد تلو الآخر. ضد المدرسة، لأنه من يريد الذهاب إلى المدرسة حقاً؟ لا أقصد مدرستنا. إنها قضية منفصلة. وعموماً، ضد الحياة، لأنها كما هي عليه وليس غير ذلك. ضد العالم، لأنه كما هو عليه وليس كما ينبغي أن يكون. ضد الإله لأنه كائن لكنه غائب. ولا ضد نفسك أبداً؟

بعد كل شيء، لا يحتاج التمرد إلى أسباب. حتى إنني لا أعرف إن كان التمرد مهماً كان نوعه يندلع للسبب الذي نسنده إليه. ناهيك عن وجود أنواع من التمرد التي نحس بعدها بالندم لأننا تمردنا. بيد أنه لا يمكن العودة إلى ما كان قبل التمرد. ما العمل، الإنسان كائن غير مستقر لا يزال في داخله يغلي،

يفور وسيتمرد حتى لو لم يكن لديه سبب. إنه بحد ذاته سبب أبدي. سوف يتمرد حتى نهاية العالم. وفي رأيي، ما زال ينتظر العالم أكثر من تمرد. لذلك ربما تصرف معلمونا بحكمة حينئذ عندما تركونا وحدنا وشأننا. لأننا سنضطر في النهاية إلى تهدة أنفسنا طالما أنه لم يكن بسبب الفواصم الكهربائية ولم يكن هناك أمل لإعادة التيار الكهربائي. إلا أنه كما يحدث غالباً في لحظة غير متوقعة يتدخل الحدث. هكذا وبشكل غير متوقع انخلعت الشاشة من الحائط حينئذ. سيقول السيد، ما هذا؟ لكن في لحظة كهذه، يمكن لأي شيء أن يصبح قوياً للغاية. ربما كانت الشاشة مربوطة بشكل سيئ. كان يمكن أن يحدث ذلك أيضاً بسبب الصراخ، الضجيج، وتحطيم كل شيء حتى اهتزت الثكنة. هجموا على الشاشة وبدؤوا يدوسون عليها. كما لو كانت الشاشة هي المسؤولة عن الضوء. في ذلك الحين رفع أحد الشبان هذه الشاشة من على الأرض وصرخ:

يا رفاق، دعونا نضفر حبلاً! سنشئ به أحد الأشخاص. وردد الجميع:
الحبل، الحبل! سنشئ!

أوضح لاحقاً أن نيته كانت حسنة. أراد منهم فقط ألا يواصلوا تحطيم الآلات الموسيقية لأننا كيف سنتعلم العزف لو دمروها كلها. أما الشئ، فلم يكن في المدرسة أحد يمكن شنقه سوانا. بدؤوا بتمزيق الشاشة إلى أحزمة متسائلين لمن. كان هناك مرشعون متنوعون لذلك الشئ. من المنطقي، أن يكونوا من المعلمين، وإلا فمن أين؟ دائماً يصلح المعلمون أفضل في مثل هذه الحالات. خاصة معلمينا. لكن لم يكن هناك اتفاق على من منهم. وفي الخصام فيما بينهم ضفروا هذا الحبل. علاوة على ذلك ضفروه في الظلام لا على التعيين. الحبل كالضفيرة لكنه لم يكن وثيقاً بما يكفي. بعد ذلك مثل هذه الشاشة لا تصلح لتكون حبلاً. ولا القماش القطني كما في الملاءة أو غطاء الوسادة. فقط القنب يصلح لمثل هذا الحبل. حينئذ توجد ضمانته بأنه لن ينقطع. عندما أرادوا تحرير العم (يان) من الحبل لم يتمكنوا من قطعه بالسكين لأنه كان قنبياً وثيقاً. لذلك نشره بالمنشار مراراً. حتى أخذ والدي فأساً وقطع الغصن مع عمي.

في تلك الأثناء صاح أحدهم:

- يا رفاق، سنشوق المأمور!

وإذا بالقاعة كلها تصرخ:

يا هلا، المأمور، المأمور!

وكان المأمور هو الوحيد على قدر هذا التمرد. على أي حال، بدا هو الشخص الأنسب. وفوق كل شيء كما لو أنه سمح بشخصه أن يجتاز الحاجز التالي. التمرد الذي بدا كأنه على وشك التحول من شجار إلى قتال اندلع من جديد.

- هيا، إلى المأمور! سنشوق مثل هذا كذا وكذا!

ردد أحدهم:

- دماؤنا تسفك لوقت طويل من قبل الجلادين!

حسناً، لم تعد القاعة بطبيعة الحال مناسبة لمثل هذا التمرد. على العموم، اندفعنا إلى الساحة من النوافذ والباب سواء أكان أحدنا مع شوق المأمور أم لم يكن. هرعنا إلى ثكنة المعلمين حيث كانت غرفة المأمور. بدأنا بالهتاف: يا مأمور! يا مأمور! ليخرج المأمور! لا، لم يسكن المأمور في منطقة المدرسة. كان يأتي. ولم يكن في مثل هذا الوقت موجوداً قط. نحن عرفنا بالطبع. لكن التمرد أعمانا حتى إننا لم نعد نرى. لذلك لم يخرج أحد.

ساد الصمت والظلام في الثكنة. لو ظهر أي شيء في إحدى النوافذ، لكن لا شيء. يبدو أنه لم يكن هناك أحد من المعلمين أيضاً. من المحتمل أنهم هربوا جميعاً، عندما انقطع بث الفيلم. أو جلسوا هادئين جداً.

طرقنا كل الأبواب والجدران بقوة. وفي النهاية كسرنا كل الزجاج في النوافذ. ولا شيء. لا أحد. اقترح أحدهم أن نضرم النار في الثكنة لأنه لا بد أن يكون فيها شخص ما. دائماً كان هناك ثلاثة معلمين على الأقل في الخفارة. في حين، دعا آخر لإضرام النار في جميع الثكنات حتى في تلك التي سكنا فيها، وأن نشعل النار في المدرسة برمتها. النار هي النار. أوه، وسنصعد هناك على التل ونظر كيف هي تحترق. ولو بهذا القدر. هكذا أحرق نيرون روما. لم أكن أعرف ما هي روما ولا من هو نيرون. كان هناك

بعض الأفراد في المدرسة عرفوا هذا وذاك. وبعد ذلك سنهرب. وداعاً أيتها المدرسة يا كذا وكذا!

تطوع أحدهم حالاً لروما هذه قائلاً: إنه يعرف مكان حاويات النفط وسيهرع لجلبها. ثم قال أحدهم: إذاً، من الأفضل أن نشق أحداً. الحبل من الشاشة، ألم يكن الفيلم هو السبب. لأجل ماذا نحن صنعناه؟ وبدناً في اجتياز الميدان محطمين كل الشكنات بالفعل، مكسرين الزجاج في كل مكان على أمل أن نجذب أحداً ما، نستدعي شخصاً ما، لأن الوضع لا يمكن أن يستمر هكذا، أن نبقى وحدنا مع هذا التمرد. لقد بلغ غضبنا ذروته. وهناك خيبة أمل من عدم وجود أحد. طالب البعض بأن نعود إلى القاعة العامة لمشغل الفيلم لعله يكون قد استعاد وعيه الآن.

في هذه الأثناء سمعنا أن أحداً ما يسير. كما لو أنه يسقط بشدة على رجليه ويجر جر خطاه بطيئاً. كانت الساحة مغطاة بالحصى لذلك كان الحصى يصير كل مرة بصوت أعلى. وحتى عندما توقف قليلاً صرّ تحت قدميه من التوقف كما لو أنه تآرجح فوق هذا الحصى. هل يخمن السيد؟ نعم، لقد كان هو، معلم الموسيقى. ومن يكون غيره. فقط الشخص المخمور يمكن أن يكون كل رعب غريباً عليه. عرفناه من بعيد. كان مخموراً للغاية. خطأ الخطوة الأخيرة خارجاً من الظلام عندما ترنح فجأة. لو لم يقفز أحد الأولاد ويسنده لسقط على الأرجح.

- تتمم قائلاً: شكراً، شكراً لك. لكننا ظهرنا له بعد الخطوة التالية. لماذا لم تناموا بعد يا أولاد. تفاجأ، أو أنه لم يتفاجأ. لا تأخذوني مثلاً. أنا لا أنام تقريباً.

صاح أحدهم: هذا تمرد.

- تمرد؟ شهق حتى تمايل. من الجيد أنكم تتمردون. أنا أيضاً تمردت سابقاً. وترون كيف انتهيت. لكن ربما ستنجحون أفضل مني. حسناً، اسمحوا لي بالمرور. أنا منجذب إلى الفراش اليوم نوعاً ما.

صرخ أحدهم في أذنه قائلاً: إنه تمرد حقيقي!

لقد كسرنا كل النوافذ! والآن نريد أن نحرق المدرسة! سنحرق جميع

الثكنات - صرخ الواحد بعد الآخر حول رأسه المترنح وهم يحيطون به بشكل أكثر إحكاماً.

- تلثم قائلاً: أصدق أنه حقيقي. أنا أصدق كل شيء يا أولاد. والآن اسمحوا لي بالمرور. النوم، النوم. حينئذ صاح أحدهم من أعماق الجمع، لا يُعرف من يكون، لأنه لم يعترف أي أحد بذلك فيما بعد:

دعنا نعلقه هو! إنه في حالة سكر ولن يشعر بهذا! ثمة من قاوم ذلك. لكن أحدهم صاح: التمرد هو التمرد! ليس مهماً من سنشق. لا يوجد من هم أفضل أو أسوأ. اربطوه بحبل المشنقة! كان سكران وبالكاد تمكن من الوقوف على رجله، لكنه استيقظ فجأة:

- من أجل ماذا يا أولاد؟ لماذا؟

يجب علينا. التمرد - حتى إن صوت أحدهم قد انهار عندما قاموا بوضع حبل المشنقة حول رقبتهم.

حسناً، وماذا سيقول السيد؟ لقد أحبيناه وحده من بين جميع المعلمين. بغض النظر عما إذا رغب أحدنا بالعزف على إحدى الآلات الموسيقية، أو لا. على الرغم من أن عدم الراغبين شكلوا الأغلبية، لكننا أحبيناه جميعاً. ربما لم نعرف قوانين التمرد بعد وانفجرنا من الغضب فحسب. أما هو فكان عليه أن يعرف ذلك الأمر لأنه تصرف كما لو كانت مزحة.

- إذًا، اشنقوني يا أولاد. طالما أنكم مجبرون. اسمحوا لي فقط أن أشرب قبل ذلك، واستل القنينة، أوه، من ذلك الجيب. سيكون من المؤسف أن أترك حتى جرعة واحدة. ربما كانت فارغة لأنها تركت صدى عندما مضى. حسناً، الآن يمكنني على الأقل أن أموت كما يليق بالفنان، على أيدي الأكثر قرباً. وهذا جيد أيضاً. بعد ذلك، تأكد من حبل المشنقة حول رقبتهم بمجرد أن ربطوه. - أولن ينقطع هذا الحبل يا أولاد، لأنه من هذا القبيل؟ وأنا، خلاص، لا أريد أن أعود.

بدأوا باقتياده مع هذا الحبل إلى المكان الذي سيعلقونه فيه. مع ذلك، اتضح أنه لا عارضة خشبية منصوبة هناك، ولا توجد أي شجرة قريبة. وتساءلوا: كيف يمكن هنا، كيف يمكن هناك. أما هو فبدأ يفقد صبره:

-- حسناً، وماذا تنتظرون يا أولاد؟ أنا مستعد.

حينئذ، اندفع أحدهم أمام الآخرين باتجاهه واعترضه بوضع قدمه أمام رجله، فوقع وسقطت القبعة من على رأسه، وتدحرجت القينة التي كان يحملها بيده في مكان ما.

- صاح بصوت أجش: القينة! القينة! لا تسحقوها. وقال بهدوء حتى كأنه بندم وهو يحاول النهوض من الأرض: هذا مبكر يا أولاد، أنا لم أشتق بعد.

ماذا سيقول السيد، لقد اندفع أولئك الذين ربطوا حبل المشنقة حول رقبته وقاموا برفعه. في حين بحث البعض الآخر عن القينة في الظلام. ثمة من وضع القبعة على رأسه، والآخر نفض الغبار عنها. وقاموا بضرب وركل ذلك الذي وضع قدمه أمام رجله. ثم قام جمع منا بإيصاله إلى الثكنة حيث يسكن.

- قال لنا قبل النوم: للأسف، يا شباب، وإلا لكان كل شيء ورائي. عليكم أن تجدوا قنيتي تلك غداً. والآن إلى النوم، إلى النوم.

وهكذا انتهى التمرد. لا، لم يعرضوا لنا الفيلم مرة أخرى. بعد ذلك، من كان يرغب في المشاهدة. أعادوا الكهرباء في اليوم التالي كالعادة. لم تكن هناك تجمعات ولا تقارير أو خطب. لقد دفعونا للتنظيف فقط. أمرونا بأن نرفع الآلات التي تم رميها عبر النوافذ. علقوا الدروس في الصفوف، علقوا الدروس في الورشات، والخروج إلى العمل. حصلنا على الفطور والغداء والعشاء كما كانت سابقاً بدون تقليلها. حضر الزجاجون في الحال وبدؤوا بوضع الزجاج في النوافذ، وقبل كل شيء في القاعة المشتركة. وبعد ذلك قدر ممثلو التأمين حجم الضرر. اتضح من ذلك أن تمردنا كان مؤمناً عليه. ولن يعرف السيد من خلال المعلمين إن كان ثمة تمرد هنا. حتى إنهم صاروا أكثر ليونة. على أي حال، لم يرفع أحد صوته أو يعبس. أجاب المأمور على الانحناءات الشيء الذي أدهشنا أكثر، لأنه إما أوماً برأسه سابقاً أو لا، عندما حياه أحد ما. وفي أغلب الأحيان لم يلاحظنا. وإذا لم يعجبه شيء في أحد ما فسيقوم بصفعه حينئذ، وأمام أنظار الآخرين.

لكن أكثر من أدهشنا هو معلم الموسيقى. لا، لأنه بدا صاحبياً. لكن لأنه كان إنساناً آخر تماماً، يمكن القول إنه لا يشبه نفسه ظاهرياً. كان متأملاً، عفا عليه الزمن، وعموماً، نادراً ما كان يظهر. لا، لم نعثر على هذه القنينة، على الرغم من أننا بحثنا عنها في جميع أرجاء الساحة في اليوم التالي كما طلب منا. وأغرب ما في الأمر أنها اختفت مثل الحجارة في الماء. أفهم، في العشب والشجيرات، لكن الساحة كانت مكسوة بالحصى الناعم تماماً. لم يكن فيها أي شيء ما عدا الحصى والثكنات. حتى إننا أردنا شراء واحدة مماثلة لها لأنها لم تكن قنينة عادية، اليوم مثل هذه القناني المسطحة شائعة الاستخدام، لكنها كانت مستديرة فيما مضى. لا أعرف، من أين حصل عليها. ربما بحث هو عنها بنفسه كذلك، لأنه كان يخرج في الصباح أحياناً ويتجول في الساحة.

عدا ذلك لم يحدث أي شيء. لقد جمعونا في القاعة العامة مرة واحدة فقط أثناء وضع الزجاج في النوافذ من قبل الزجاجين. حضر المأمور هناك وجميع المعلمين. وطلبوا منا التفكير في تمردنا، وهل نفعلنا في شيء. وهل كنا أفضل حالاً بدون المدرسة. أما بخصوص الفيلم فلم يقل أحد شيئاً عنه. عموماً كان الوقت قصيراً. كل ما قالوه هو أنهم سيعطوننا عدة أيام إجازة للتفكير في كل شيء حتى استعادة النظام وإصلاح الضرر. علق أحد الأولاد: أيام عقابية للتفكير!

لذلك عندما اشتبهنا في البداية بأن الأمر لن ينتهي عند هذا الحد لأنه هدوء يسبق العاصفة، توقفنا عن الشك في ذلك طالما أنهم طلبوا منا التبصر في الأمر. وبدأ البعض يندم على عدم قيامنا بحرق ثكنة المعلمين على الأقل. مر أسبوع وربما لا، على أي حال، كنا مازلنا نحظى بأيام إجازة، وإذا بنءا يدعوننا للاستيقاظ عند الفجر. لم يكن كالذي اعتدنا عليه يومياً، بل كما لو أن شيئاً ما قد حدث. خرجنا إلى الساحة وإذا بثلاث مركبات عسكرية. إنها سيارات ميدانية، إذا كان السيد لا يعرف. تجمعنا في صفين، احسبوا الوقت لأنه سيتم استجوابنا بعد الفطور.

أرسلونا لتناول الفطور. هم أيضاً كان عليهم أن يتناولوا الفطور، لأنهم انتظروا طويلاً. عندما بدأوا في استدعائنا للتحقيق في القاعة العامة كانت

الشمس قد قطعت مسافة معتبرة في ابتعادها عن الأرض. لم يستدعونا حسب الحروف الأبجدية، ولا وفق الأكبر سناً، ثم الأصغر ولا فريقاً بعد فريق أو حجرة بعد حجرة، لكن بطريقة عشوائية. كان لا بد من وجود فكرة في ذلك، بيد أننا لم نتمكن من معرفتها. ولم يستدعوا حتى بناء على من صرخ أثناء هذا التمرد، أو من كان الأعلى صوتاً، والأكثر نشاطاً. ولا من نادى أولاً بضفر الحبل وبتعليق أحد ما عليه. مع ذلك كان الجميع يعرفون من هو. بدؤوا باستدعاء الولد الذي مرض وأصيب بالحمى بعد التمرد.

جلس خلف الطاولة عدد قليل من المدنيين مع بضعة عسكريين، وجلس مأمورنا عند الحافة تماماً. كانت الطاولة تقع عند الحائط المقابل لحائط قاعتنا العامة، طاولة طويلة، مكونة من عدة طاولات ومغطاة بقماش أحمر اللون. على الطاولة أصيصان مع الزهور وكان عندهم كؤوس مع الشاي. حتى إنهم بدؤوا لطيفين، ابتسموا لنا بلطف، ليس المدنيين فحسب، بل أولئك العسكريون أيضاً. سألونا بأدب أيضاً، لم يرفع أي منهم صوته، بدا كما لو أنهم جاؤوا للتحدث إلينا ليس إلا.

عن أي شيء سألونا؟ على الأغلب، عن المعلمين كما لو كان يهمهم: هل هم جيدون بالنسبة لنا. على سبيل المثال، هل غالباً ما كنا نسأل المعلمين كثيراً وماذا كانت إجاباتهم. ماذا يجيبوننا عندما ينقطع التيار الكهربائي؟ أو بماذا أجابونا عندما كان الأكل أسوأ؟ هل سألناهم عن ذلك؟ لم يتمكن أي شخص من فهم ذلك السؤال لأن الأكل كان أسوأ دائماً. ألم يعرفوا ذلك؟ مع ذلك لم يسألوا أحداً حول ما نأكله. لو سألوا ربما لعرفوا أن الكثير يعتمد على الأكل، وليس دائماً على الفيلم. جلبوا لنا الفيلم للمرة الأولى، أما الطعام فنحن نتناوله كل يوم. إذًا، يعتمد على الأكل، وأيضاً بماذا وفي أي شيء نأكل، على الأطباق، الملاعق، السكاكين والشوكات. ونحن كنا نأكل في أوانٍ متداعية. قيل لنا إن الجيش أعطاها هدية للمدرسة. مع ذلك لم يصدق أحد هذا الكلام. كانت هناك شائعات بأنهم جمعوها من القتلى في الجبهة. يمكن للسيد أن يتخيل، أنك تأكل من هذا الإناء وثمة قتيل يجلس جنبك لأن هذا الإناء يعود له. وحتى لو كان لدى السيد شريحة لحم في الإناء فهل ستستمتع بها؟ لا، لا شيء من هذا القبيل، لم يعطونا

أي شريحة لحم. إذا كان هناك لحم فهو على الأرجح قطعة من الكبد أو الطحال، ونادراً ما كانت من القلب أو الكلى. وغالباً ما قدموا لنا الجريش، البطاطس، البطاطس ثم الجريش. جريش الشعير. لا أطيعه حتى يومنا هذا. أما الحساء فغالباً ما كان خفيفاً مليئاً بالماء. أحياناً ومن باب الغضب، قام البعض بغمس الملاعق وسكب هذا الحساء بعضهم على بعض. بدأوا بصبه على طاولة واحدة ثم انفلت الحال، حتى شمل المقصف بأكمله. ومثل هذا الحساء كان يهدد بالتمرد. كانت السكاكين والشوكات هشة، مصنوعة من الألمنيوم وكان لابد من تعديلهما باستمرار. ناهيك عن أن معظم الشوكات لم تملك كل الأسنان وأحياناً كانت بسنين. كما لم يكن هناك ما يكفي من السكاكين للجميع، طبعاً إذا كان هناك شيء لتقطيعه. لحسن الحظ، نادراً ما كانت هناك حاجة إليها. ولم يعرفوا بكل هذا؟

يبدو كأنهم أرادوا التفريق بين المعلمين. مع ذلك لم نتمكن من أن نقول لهم الكثير، لأن كل معلم، حسب اعتقادنا، كان شبيهاً بالآخر، ولن أقول أكثر. بعد ذلك، ما الداعي للنش في قضية المعلمين، طالما تعلق الأمر بتوقف الفيلم بعد أن قطعوا التيار الكهربائي. حاول بعض الأولاد أن يخبروهم، عن هذا الرجل، يعني (جونى) وهذه الـ (مارى). وكيف أنه جرب وجرب لكنهم قاطعوه في الحال، كما لو أنهم غير مهتمين بذلك. حتى إن أحد العسكريين على ما يبدو قد ابتسم، ولكن لم أكن أنا الذي كان يجري استجوابه في ذلك الوقت. أعتقد كان يجب عليهم أن يشاهدوا الفيلم أولاً وبعد ذلك يقومون باستجوابنا. يا ليتهم وجدوا في نفس المكان الذي توقف فيه الفيلم. ربما لفهموا حينئذ كيف يندلع مثل هذا التمرد. أعتقد السيد أنهم لم يفهموا؟ لأن الفيلم لا يكفي؟ أو لأن القبة كانت هي المقصودة فقط؟ أوه، أنا لا أتفق مع السيد.

على أي حال، هم لم يرغبوا في سماع أخبار الفيلم. أما بالنسبة للتمرد فسألونا، على سبيل المثال، ما الذي هتفنا به، لنذكر لهم، وإن لم يكن حرفياً، لأننا قد لا نذكر، إنما عن المحتوى الذي تعلق به. سألوا كل واحد أيضاً، ما الذي فعله كل واحد أثناء التمرد. كيف يمكن للواحد في مثل هكذا تمرد أن يفعل شيئاً على انفراد. التمرد يعني أن الجميع معاً ولا يعرف الشخص

ماذا يفعل الآخر منفرداً. عندما يصرخ أحد، سيكون لدى الآخر إحساس بأنه يصرخ أيضاً. دع الواحد يتقدم إلى أمام وسيبدو للجميع أنهم تقدموا. تماماً كما في الحرب حينما يقتل أحد سيشعر الجميع بأنهم قتلوا أيضاً. أما لأنهم على قيد الحياة فإنما لكي يكون هناك من يتذكر أنهم قتلوا. ولكي تهرب عليك الهروب بشكل منفصل فقط.

مع ذلك فربما استقوا منا شيئاً ما. يعرف السيد كيف يكون عليه الحال في مثل هكذا استجواب. لا أريد أن أقول شيئاً ما ولا أريد حتى معرفة إن كان قد قيل أي شيء. لا يوجد ما يُعترف به، والإنسان يعترف بين الكلمات. وعموماً، الأهم في مثل هذه الاستجوابات هو عن أي شيء يسألك، وليس ماذا تجيب. يوجد في الأسئلة الجواب الذي يريدون سماعه. في الأسئلة ستقر بالذنب حتى لو لم تكن مذنباً. سواء اعترفت بأنك لا تتذكر، أو حتى لو صمت. الصمت أكثر من سواء، لأنك تؤكد به ذنبك. ثمة اعتراف بالذنب في داخل الإنسان على جميع الأسئلة المحتملة. وحتى على تلك التي لم يطررها أي شخص بعد وقد لا يطررها أبداً. لأنه من يكون الإنسان إن لم يكن سؤالاً عن الذنب؟ الشيء الوحيد الجيد هو أنه نادراً ما يطلب إجابة من نفسه. والخط أكبر لأنه لا يتمكن من الإجابة عليه بنفسه.

كنا لا نزال خائفين من أن يلقوا القبض علينا جميعاً، ولكان من المحتمل أن نتخبط في هذا وذاك. سألونا، على سبيل المثال، عن زعماء العصابة حسب تعبير أحد العسكريين. وأوضح على الفور، أي أولئك الذين قادونا، الأكثر حماساً، والأكثر والأعلى صراخاً، وطلب منا أن نعطيهم أسماءهم. وليقدم كل واحد منا شخصاً آخر، لذلك فمن الممكن أن نكون جميعاً أعضاء في العصابة، خاصة أنهم لم يعتقلوا أيّاً منا.

ومع ذلك، لم يكن بالإمكان أن تنتهي الأمور على هذا النحو. ولم تنتهِ. هل يعرف السيد من اعتقلوا؟ نعم، ذلك البريء، معلم الموسيقى. ربما كشف أحد ما أننا أردنا أن نشنقه. وكان ذلك كافياً بالنسبة لهم. لقد كان هذا بالفعل دليلاً بالنسبة لهم. لعدم وجود أي أثر يقودهم إلى شخص آخر. صحيح، لقد جرى التهامس فيما بعد، أنه كان ملزماً بإبلاغهم بكل ما يحدث في المدرسة لكنه لم يلتزم بذلك. لكن السيد يعرف ما معنى هُمس، لذلك

لم يصدق أحد منا ذلك. من أين لمعلم الموسيقى أن يقوم بذلك. علاوة على أنه نادراً ما كان صاحياً. كيف بإمكان السكران أن يراقب أو يسترق السمع. وما زالت عيناه ضباييتين وربما لا توجد سوى أصوات في أذنيه. وربما كانت أصوات في عينيه أيضاً، لأنه لم يتمكن في بعض الأحيان من رؤية الاتجاه الذي سار فيه. حدث أنه لم يتمكن من الوصول إلى شقته، وكان لا بد من إيصاله، وإخراج المفتاح من جيبه ثم فتح الباب. ومساعدته على خلع معطفه وحذائه. ووضعه في السرير. من يدري، ربما نحن أيضاً كنا مجرد أصوات بالنسبة له، حاول من خلالها أن يؤلف شيئاً ما، أما لأنه فشل فهذا ليس ذنبه وإنما هو ذنبنا.

أتصدق ذلك؟ نعم، بالضبط. لكن حصل الهمس. وهذا هو الأسوأ، لم يعرف أحد شيئاً، لم يقل أحد شيئاً، لكنهم همسوا كما لو أن الخبر استدعى نفسه. ومن أين يأتي هذا، هل سيقول لي السيد؟ ربما يوجد شيء من قبيل التوليد التلقائي للكلمات، ألا تعتقد ذلك؟

عندما ذاع خبر أنهم سيأخذونه، هرعنا إلى القاعة العامة، جلبنا الآلات الموسيقية، وكل واحد أمسك بما توفر منها، سواء أكانت مكسورة أم سليمة. اصطففنا في الساحة كما أوقفنا في الفرقة الموسيقية، على أي حال سواء بشكل مشابه أو لا، ليس الأمر مهماً. لقد تحلق حولنا حتى أولئك الذين لم يكن هناك ما يكفي من الآلات لهم، لأن المدرسة خرجت بقضها وقضيضها. عندما قادوه، هيأنا جميعاً آلاتنا كما لو بدأنا بالعزف في نفس هذه اللحظة. لكننا لم نعزف، بل وقفنا هكذا.

سار برأس مطرق، لم ينظر حتى في اتجاهنا. أجلسوه في المقعد الخلفي وجلس على أحد جانبيه شخص وفي الجانب الثاني آخر. وكان على وشك التحرك عندما قفز فجأة وصاح:

- تحيا الموسيقى يا شباب!

لم تعرفه حضرتك؟ للأسف. وربما عرفت القسيس؟ لا أقصد أي قسيس بحد ذاته. أطلقنا عليه اسم القسيس. حتى سمح لي أنا بمخاطبته بالقسيس، على الرغم من أنني كنت أصغر منه سنًا بكثير. كان لحاماً. عملنا في البناء معاً. أنا أعتقد هكذا، لو تذكرنا بعض المعارف المشتركين فربما وجدنا نحن أنفسنا أيضاً، هنا أو هناك، في ذلك الوقت أو بعده. أحياناً أتذكر أحد معارفي وهو يقودني إلى صاحب آخر، وذاك يقودني إلى آخر أيضاً وهذا إلى آخر مرة أخرى. وسأقول للسيد، لا أريد أن أصدق في بعض الأحيان أنني تعرفت على هذا أو ذاك. لا بد أننا تعرفنا بعضنا على بعض طالما كانوا يتذكرون لقاءنا هنا أو هناك، في ذلك الوقت أو ذاك. حتى تبين لي أننا عزفنا قبل سنوات معاً في الفرقة الموسيقية، هو على الترومبون وأنا على الساكسفون. لكنه لم يعد على قيد الحياة. أوه، المعارف يمكنهم أن يقودونا، لا أدري، إلى أين، حتى إلى هناك حيث لا يريد الإنسان أن يكون أبداً.

أخبرني شخص ما في الخارج أن لديه صاحبين شقيقتين اشتركا في الحرب الأهلية كل منهما مع طرف. شقيقان على طرفي نقيض، يمكن أن تتخيل حضرتك كيف كان عليهما أن يكونا عدوين لدودين. غير أن الحرب كانت شرسة أيضاً. لقد تقاطلا كما لو أرادا إغراق بعضهما بعضاً في الدماء. الحروب الأهلية مثلما تعرف حضرتك هي أسوأ من الحروب العادية. لأنه لا توجد كراهية أعظم من تلك التي تولد من القرابة. لذلك ظلا عدوين حتى عندما انتهت الحرب. عاشا في القرية نفسها لكنهما لم يسمحا لزوجتيهما أن تلتقيا، ولا لأطفالهما بأن يلعبوا معاً. طبعاً، يفهم من ذلك، أنهما أيضاً لم يتبادلا الكلمات بعضهما مع بعض قط. ارتادا حانة البيرة نفسها فقط. إنها

قضية مختلفة أن تكون في القرية حانة واحدة للبيرة. جلسا على طاولتين منفصلتين، شربا البيرة، وقرأ الصحيفة. إذا كانت هناك نسخة واحدة من الجريدة فقط، فهذا الذي قرأها أعادها إلى مكانها حتى لو كانت طاولة شقيقه أقرب إليه. وهكذا فعل هذا الثاني عندما قرأها أولاً.

ومع ذلك، فمن قرأها أولاً لم يخرج، بل شرب البيرة، كأنه انتظر حتى يقرأها شقيقه الثاني. جاء إلى الحانة كل يوم تقريباً في نفس الوقت إلى حد ما، كما لو أنهما عرفا متى عليهما أن يأتيا. شربا البيرة نفسها، قرأ الجريدة، هذا في تلك الجهة وذاك في هذه، ثم خرجا بعد انتهاء البيرة في قديهما. وبالتساوي، هذا قبل ذاك أو ذاك قبل هذا. ولم يحدث أن شرب أحدهما البيرة أسرع من الآخر وخرج. لم يضطرا إلى التلصص بعضهما على بعض، لأن البيرة ترى من خلال القدحين. وربما كان نفس الإيقاع في داخلهما، لأنهما شقيقان؟ على أي حال، لقد شربا بالتساوي. وهذا يدل على أنهما لم يتوقفا عن كونهما شقيقين. لأن الحرب قتلت فيهما الكلمات إلى الأبد.

مرت السنوات وشاخا. شاب أحدهما بينما صلب الثاني، ومازالا يرتادان الحانة ذاتها، جلس أحدهما على هذه الطاولة والآخر على الطاولة الأخرى، شربا البيرة، قرأ الجريدة. وبنفس الطريقة أعاد الجريدة إلى المكان الذي أخذها منه. كان عليهما أن يرتدي النظارة عند القراءة. وكانت خطواتهما ثقيلة، مع ذلك لم يناول أحدهما الجريدة للآخر بعد قراءتها. شربا البيرة، خرج أحدهما، وخرج الثاني بعده مباشرة. ولم يقل أحدهما للآخر، طيلة كل هذه السنوات، على الأقل:

- هي ذي الجريدة.

ربما ستكون هذه الجملة الواحدة كافية. لأنه من يدري، ألم يقولوا بعضهما لبعض في هذه الجملة الوحيدة ما لم يقولاه طوال هذه السنوات. أوه، يمكن للجملة الواحدة أن تستوعب الكثير. يمكن تضمين كل شيء. قال أحد الفلاسفة: الجملة هي معيار العالم. نعم، هو. أتساءل أحياناً، عما إذا توجب علينا أن نقول الكثير لكي يمكننا استنباط هذه العبارة الوحيدة

منها. ما هي؟ لكل إنسان جملته الخاصة التي بمستطاعه أن يقولها في نوبة من اليأس ولن يكون كاذباً. على الأقل تجاه نفسه.

لو عرف السيد القسيس. أقصد ذلك اللحاح بالطبع. لن أقول لحضرتك. حتى إنني لا أعرف اسمه. قالوا: القسيس، القسيس. وهكذا ضاع اسمه ولقبه في مكان ما. أتعرف، عندما أنظر إلى حضرتك هكذا يترأى لي أنك شبيه به إلى حد ما. صدقني. ثمة شيء عندك في الملامح والعيون كما لو أخذ منه. بالطبع، عندما أتخيل حضرتك في سنوات الشباب. هو لا يزال شاباً أيضاً. أكبر مني بكثير، بيد أنني كنت صغيراً في ذلك الوقت. كانت هذه البناية الثانية بالنسبة لي لأنني عملت في الأولى لأقل من عام. لو رفع السيد رأسه قليلاً هكذا لبدا الأمر كما لو رأيته. ليتوقف السيد قليلاً عن تقشير الفاصولياء. اليدان هادئتان والوجه أكثر وضوحاً.

لماذا القسيس؟ لأنه درس ليصبح قسيساً، قضى ثلاث سنوات في حلقة دراسية لكنه تركها. لم يقل لي ذلك. مع ذلك فقد احتفظ بالرداء الكهنوتي والصدرية والإنجيل وكانت في حقيبة منفصلة مغلقة بمفتاح. لكن من الذي لا يفتح حقيبة الثاني والنظر إلى ما في داخلها في موقع بناء كهذا. خاصة أنها ذات قفل. دائماً ما كان يجثو على ركبتيه قبل النوم بجوار السرير ويصلي طويلاً. كما أنه لم يفوت القداس يوم الأحد. لذلك كانت الحقيبة تغري بفتحها. نحن عملنا أحياناً في يوم الأحد أيضاً عندما لم تنفذ الخطة أما هو فتوجب عليه أن يكون حاضراً في القداس.

بطبيعة الحال، كانت لديه منغصات، لقد وبخوه وقطعوا مكافأته. وبخوه أثناء الاجتماعات لأنه لم ينفذ الخطة بسبب هؤلاء الأشخاص. ولأن هناك الكثير من المؤمنين في مواقع البناء وكان مثلاً يحتذى به دائماً. مع ذلك، لم يكن هو استثناء. عمل أشخاص مختلفون في البناء حينئذ. كانت مواقع البناء بمنزلة أماكن اختباء. ولذلك لو أرادوا طرد كل هؤلاء الأشخاص أو من يشبههم من مواقع البناء لما كان لديهم من يعمل فيها. ناهيك عن عدم وجود محترفين على الإطلاق. أما هو فكان من خيرة اللحامين. من يدري، ربما أفضلهم. كل اللحامين كانوا يذهبون إليه لطلب المشورة. وكان جاداً في عمله في الوقت نفسه. لو كان هناك أي عمل عاجل يتعين القيام به لبقى

في موقع البناء حتى لو لم ينم الليل. لم يشرب الكحول، لم يدخن، ولم يذهب إلى الحفلات. تجنب الفتيات. وكان يقرأ في أوقات فراغه. في هذا الصدد كان استثناء لأن الجميع شربوا في أوقات فراغهم. قال: توجب عليه قبل نومه أن يأخذ كتاباً في يده ولو من أجل قراءة بضع صفحات حتى لو كان منهكاً. قال لي ذات مرة عندما ذهبت إليه على السقالة: الكتب هي الخلاص الوحيد كي لا ينسى الإنسان أنه إنسان. على أي حال، لم يستطع العيش بدون كتب. الكتب هي أيضاً عالم يختاره الإنسان لنفسه وليس عالماً يأتي إليه⁽⁴⁾.

لقد حثني، وحثني على ذلك حتى بدأت بالقراءة أخيراً. فكرت، ما الضرر، سأحاول حتى أحببته... سألني ذات مرة: ألا أرغب في قراءة كتاب ما. قاومته، لا وقت لدي، متذرعاً بهذا السبب أو ذاك. قلت له في النهاية، من أجل إرضائه: لي جلب لي كتاباً. كانت لديه بعض الكتب وضعها في حقيبة ثانية بدون أن يغلقها بالمفتاح، لذلك لم ينظر أحد إلى داخلها. وهكذا بدأ الأمر. بعد ذلك جلب الكتاب الثاني والثالث. بعدها قال: لم يعد لديه أي شيء آخر، لأن بقية الكتب ستكون صعبة بالنسبة لي. ثم أخذني إلى المكتبة. كانت هناك مكتبة صغيرة في موقع البناء، فيها عدد قليل من الأرفف. بحث، بحث حتى اختار لي أحد الكتب. قرأته، وذهب معي مرة أخرى وقام بالاختيار. وهكذا كان حتى النهاية يذهب معي ويختار لي. سأخبر السيد، بأنني بدأت أخيراً بالقراءة من تلقاء نفسي من باب تذكركه. وكان عليّ مثله أن أقرأ ولو بضع صفحات قبل النوم.

من الغريب أن حضرتك لم تكن تعرفه. عرفه جميع من في موقع البناء. كان محبوباً، حيادياً وعادلاً في كل الأمور، وودوداً للجميع. توقف وتحدث مع كل واحد. عندما كان في عجلة من أمره، سأل على الأقل عن هذا وذاك. وكان يتذكر دائماً إذا أزعج شيء ما أحدهم في اللقاء السابق. يمكنك استعارة بضع زلوتيات منه لدى الضرورة. وإذا علق أي كلب أو قط في موقع البناء أطعمه. وأفضل دليل على مستواه كالحام هو عمله في أعلى الارتفاعات.

4- يقصد المؤلف، أن الإنسان يختار الكتاب ولذلك يختار ويخلق عالمه الخاص كما يشاء، وليس العالم المخلوق من قبل شخص آخر. يولد الإنسان ليس بإرادته وعليه أن يعيش في هذا العالم الجاهز ويتكيف مع ظروفه الحالية.

وعندما ارتفع هيكل البناء كان دائماً هو الأعلى. لم يثبت نفسه بأي شيء، ولم يتشبث بأي شيء. حتى إنه لم يطفئ الشعلة لدى انتقاله من لحيم إلى آخر. مشى مثل لاعب السيرك في هيكل البناء. وعلى السيد أن يعرف، كلما كان البناء أكثر ارتفاعاً توجب على اللحام أن يكون الأفضل.

عندما كان يراني من أعلى هيكل البناء أحياناً يناديني، حتى لو سرت في الساحة، لكي أقرب منه للحظة لأنه يريد أن يقول لي شيئاً ما. خرجت عندما لم يكن لدي أي شيء عاجل. أحبني ولا أعرف لماذا. بعد كل شيء، كنت طفلاً إزاءه. قال لي: سيرتاح قليلاً بفضل مجيئي. لا، لم نتحدث عن أي شيء من هذا القبيل مرة أخرى. سألني عما إذا كنت قرأت ذلك الكتاب الذي اختاره لي في المكتبة مؤخراً، وهل أعجبني وما هو رأيي فيه. لا، لم يقصد التحقق مما إذا كنت قرأته، إنما هل فهمته. أرشدني كيف يجدر بي أن أفهم. وأشار إلى مثل هذه القضايا، إلى الحياة، العالم والناس بشكل عام. وكان دائماً يقول لي شيئاً يجعلني أفكر فيه طويلاً.

لا، لم نتحدث عن الكتب فقط. قال لي: هنا على هذه الارتفاعات فقط، يمكننا أن نشعر بالبشر. وهذه كانت الحقيقة التي لم أدركها إلا فيما بعد، بعد مرور وقت طويل جداً. خصوصاً، أن الناس لم يتحدثوا في الأسفل عادة، نظراً لأن العمل يلاحقهم منذ الصباح الباكر حتى الليل أو أن المرء مستاء للغاية عندما لم يحضروا له شيئاً أو لم يسلموه وهناك عمل يتعين القيام به. ربما بوجود الفودكا، لكن على الواحد أن يحذر مع من يشرب، نظراً لأنهم نقلوا الكلام أحياناً. على أي حال، هم نقلوا الكلام حتى لو لم يكن هناك حديث. بل حتى لو تنهد السيد فقط.

ذكر أنه عمل في كل مواقع البناء وعلى الأغلب في أعلى الارتفاعات. وعمل في العديد من مواقع البناء كما لو كان الارتفاع أرضه، ولهذا فلا عجب في أن يكون الحديث هناك أفضل بالنسبة له. وعندما نزل بعد العمل إلى الأسفل، قرأ، وأطعم الكلاب والقطط، ولم يتصادق مع أي شخص. بالرغم من ذلك - كما أسلفت - كان محبوباً من قبل الجميع. بالطبع، كان يجني هناك مالاً أكثر. لكن لم يكن المال قصده.

هل يمكن للسيد أن يتخيل، لقد انتشر خبر بعد فترة الغداء، في أحد الأيام، مفاده أن القسيس قد سقط من الأعلى ومات! قال بعضهم إنه سقط، وقال آخرون إن شخصاً ما ساعده، أما البعض الآخر فقال: أراد السقوط فسقط، وإلا لسقط مع آلة اللحيم والنظارات. في حين وضع آلة اللحيم جانباً ونزع النظارات. مع ذلك، نحن لم نعرف الحقيقة قط. قد يكون السبب كامناً في ذلك الارتفاع. بلغ هيكل البناء الطابق الرابع. وكل طابق تميز بالارتفاع لأنها كانت قاعات. وعندما يتعود الإنسان على هكذا ارتفاعات فقد لا يكون قادراً على التخلص من هذا التعود لأنه يعيش في الأسفل. أوه، لا مزاح مع الارتفاع. كلما صعدت إليه كان الأمر كما لو أن شيئاً يسحبني إما إلى الأسفل أو الأعلى.

مع ذلك، فالحقيقة - حسب اعتقادي - كمنت في مكان آخر. كانت هناك فتاة. عملت في مطعم المدرسة. لا، لا شيء من هذا القليل. قلت للسيد: إنه تجنب الفتيات. كانا يميلان بعضهما إلى بعض. كان رقيقاً، ومهذباً، وليس مثل بقيتنا. أكثر ما فعله، عندما جلبت له الحساء أو الوجبة الرئيسية، أنه عبر عن إعجابه بجمال جديلتها التي لا يمكن رؤيتها اليوم تقريباً. حقاً، لديها ضفيرة سميكة، أوه، كما لدي هنا في مفصل الشعر. لقد تجاوزت حزامها من جهة الظهر. عندما وزعت الأطباق مسكها كل واحد في الكافيتريا من جديلتها.

أنا لم أفعل ذلك. لم تكن لدي الشجاعة. على أي حال، أنا حديث العهد بالعمل في هذا البناء. حتى إنني لم أنظر إليها عن قرب، عندما أحضرت لي الحساء والوجبة الرئيسية، بل عن بعد فحسب. أما هم فكانوا معتادين عليها بالفعل. وهي اعتادت على مسكهم لها من جديلتها أيضاً. مع ذلك لن أخفي أنها أعجبتني على الفور، وهي اكتشفت ذلك على الفور أيضاً. ذات مرة انحنت وهمست لي في أذني قائلة: أمسكني أنت أيضاً من جديلتني واشعري. بيد أنني لم أمسكها. لكنني قررت فقط أنها مع ذلك ستكون لي. سأقول لها ذلك عندما ستسبح الفرصة في يوم من الأيام. وحتى الآن لم أفصح عن أي شيء. حتى لم أقل لها، إنك جميلة اليوم يا آنسة (باشا) أو (باشينكا) لأن اسمها (بربارا)! وهكذا قال الجميع لها كل يوم. قلت لها: شكراً عندما

وضعت لي الطبق. هذا كل شيء. بينما لم يأكل الآخرون قبل أن يمسكوها من جديلتها ويقولوا لها: أنت اليوم تبدين جميلة يا آنسة باشا أو باشينكا⁽⁵⁾.

سكبت الحساء لأكثر من مرة، لأن أحدهم قد مسكها بالفعل من جديلتها قبل أن تلحق بوضع الطبق على الطاولة. علاوة على ذلك، كان لدى بعضهم يدان صلبتان وقويتان بحجم يديّ الاثنتين أو يدي السيد. حتى إنها حطمت الطبق عندما حاولت الإفلات من تلك اليد. أوه، لقد اصطدم طبق الحساء بطبق الأكل أكثر من مرة. حتى عندما جمعتها من على الطاولة وهي فارغة.

حدث ذات مرة، أن كانت تحمل ستة أطباق من الوجبة الرئيسة على الصينية، على حد ما أتذكر، وإذا بأحدهم يمسكها من الجديلة، بالرغم من أنها لم تذهب إلى طاولته بل مرت حولها. ارتجفت الصينية في يديها فسقطت كل الأطباق على الأرض. أرادوا أن يسرحوها من العمل على الفور. من حسن الحظ أن الذي مسكها دفع بشرف تكاليف تلك الأطباق والوجبات الرئيسة. بعد ذلك أصبحوا حذرين ولم يمسكوا جديلتها إلا بعد وضعها الأطباق على الطاولة وإلا لكسرتها حتى آخر طبق ولم يكن ذلك ذنبها. ما لم تكن الجديلة مذنبه أيضاً. في رأيي، لا ينبغي أن تعمل الفتيات أو النساء الجميلات في المطاعم خاصة في مثل مواقع البناء هذه. نعم، أن يكنّ مهذبات ولطيفات لكن ليس جميلات جداً.

أحياناً، وضعتها على رأسها في هيئة تاج. ربما حاولت الدفاع عن نفسها بهذه الطريقة وإلا فكيف يمكنها الدفاع عن نفسها ولديها مثل هذه الجديلة التي تلتمس التقاطها والإمساك بها للحظة على الأقل. وربما أرادت أن تكون أجمل، من يدري. على الرغم من أنه ما كان عليها أن تكون أجمل، حسب رأيي. مع ذلك، لو كانت بدون تلك الجديلة لأصبحت مختلفة تماماً، كما لو كانت غير متاحة ومتعالية. ولو وضعت أمامك الحساء أو الوجبة الرئيسة لبدأ أنها تقدمها بدافع المنة. لم أحبّ تاجها. قلت لنفسني، سأخبرها، عندما ستصبح زوجتي بأنني أفضل الجديلة. عندما ماست جديلتها خلف ظهرها بدت، لا، لن أقول، كيف يمكنني القول، لكن كما لو أنها أطلت على هذا العالم للتو.

5- تصغير الأسماء للتعجب أو للتحقير أمر شائع في اللغة والحياة في بولندا عموماً.

يبتسم السيد؟ أفهم. لدي تصورات عفا عليها الزمن، أليس كذلك؟ لكنني فكرتُ هكذا حينئذ. ومع ذلك عندما نفكر في الأمر هكذا، ألا يعتقد السيد أننا نحمل بثبات في دواخلنا نفس الأفكار التي حملها الناس في دواخلهم دائماً؟ على الرغم من أن العالم يتغير. على الرغم من أننا مازلنا مختلفين. أو ربما نتظاهر بأننا مختلفون كي نواجه العالم. بيد أننا جميعاً، في أعماق أشواقنا، مازلنا كما نحن، إلا أننا نخفي ذلك عن أنفسنا، وعن العالم.

على أي حال، ليخبرني السيد بنفسه، هل يمكن أن تتخيل شعراً أجمل من الجديلة بالنسبة للفتاة؟ بالطبع، يجب أن يكون لمثل هذه الجديلة صرح من الشعر وليس شبكة عنكبوت. يجب أن يكون لديها هبة الشعر كما كانوا يقولون في طفولتي. هنا، عندما يأتين إلى البحيرة في أيام السبت والأحد أو في العطل يمكنك رؤية شعر جميل أيضاً. لكن من الأفضل ألا تنظر إليه. كله مصبوغ وأحياناً بصبغات لا تحتوي على ألوان الشعر الحقيقي. للشعر الحقيقي لون مختلف عند كل شخص، هل لاحظ السيد ذلك؟ علاوة على ذلك، يبدو كما لو أنه منفوخ من قبل مُصقفي الشعر من خلال مختلف المغذيات، والشامبو والمثبتات. يبدو الرأس مثل باقة في بعض الأحيان. وهذه الباقة يمكن أن تضعها بأكملها في خُصلة لو أخذتها من الرأس.

عموماً، هناك شيء سيء يجري لشعر الإنسان. أليست هذه علامة على أن شيئاً ما بدأ يحدث للعالم؟ على الرغم مما يظنه المرء، غالباً ما يكون من الصعب ملاحظة البداية. نادراً ما يبدأ شيء ما من أشياء أو أحداث كبيرة. في الغالب، يبدأ من الأشياء التي لا تستحق الاهتمام عادة، كشعر الإنسان على سبيل المثال. أو هل لاحظ السيد أن عدد الشباب الصلعان في ازدياد؟ وكل مرة يمس الأكثر شباباً. كان لدى كل شاب في فترة شبابه شعر.

عندما تنظر إلى الناس من خلال الشعر فقط، دعنا نقول: من خلال أقدامهم الحافية، على سبيل المثال، هنا بالقرب من البحيرة، من خلال أيديهم، عيونهم، شفاههم، وحواجبهم، أوه، ترى الناس بشكل مختلف تماماً عما تراه عموماً. ثمة شيء هناك لتخمينه. هناك شيء للتفكير فيه.

وجديلتها تلك كانت بداية لما كان على وشك الحدوث. لكن لم يعتقد

أحد أنها ستبدأ من الجديدة. الجديدة هي جديدة. أغرت فقط بمسكها والإحساس بها. ولو أنني سأخبر السيد، عندما احتكت جديلتها بوجهي عن طريق الصدفة أثناء جمعها الأطباق من الطاولة اعترتني رجفة كما لو أن الموت قد مسني. على الرغم من أنني لم أتخيل أن يكون أي شعر آخر لديها. عموماً وعلى أي حال، كان ثمة شيء غريب فيها. لأن وجهها كان يحمر خجلاً دائماً، عندما مسكوها من جديلتها في حين كان عليها أن تعتاد على ذلك. نظراً لحملها العديد من الأطباق والوجبات منذ بدء البناء، وكان يجدر بها أن تكون معتادة. وحتى إذا نظر شخص ما في عينيها أثناء وضعها الأطباق احمر وجهها خجلاً. واحمر أيضاً حينما قال: تبدين اليوم جميلة يا آنسة باشا أو باشينكا. دائماً كانت تبدو جميلة، لكنهم هكذا قالوا لها. في الحقيقة، لا توجد هناك الكثير من الكلمات عندما تريد أن تقول شيئاً لطيفاً، خصوصاً في الكافيتريا، لفئة تقدم لك طبقاً من الحساء، أو وجبة من الأكل، أو حين تجمع الأطباق.

إنها لقضية مختلفة عندما يتعلق الأمر بالكلمات إذا حصل شيء ما بين الرجل والمرأة، ألا يعتقد السيد؟ قال لي أحد الأشخاص هنا ذات مرة: إنها غير ضرورية وتموت. من المعلوم ما يفعله الرجل، ومعروف ما تفعله المرأة، إذاً، لماذا المزيد من الكلمات. صحيحة، غير صحيحة، حسيمة، غير حسيمة، بارعة، غير بارعة، كلها بدون استثناء تقود إلى الشيء ذاته. وإذاً، فما الداعي؟

صحيح، لم يكن الحال أفضل مع الكلمات في مواقع البناء أيضاً. استخدمت بقدر ما تطلبه البناء. ويمكن للسيد تخمين طبيعة هذه الكلمات في الغالب. عمل أعقبه عمل حتى إن المرء جاء إلى الكافيتريا لتناول الغداء على عجل ثم العودة إلى العمل، متسخاً، عرقاً، وأحياناً لم يغسل يديه. بالإضافة إلى ذلك، إذا أنت أكلت للتو فما زال آخرون ينتظرون حتى تفرغ الطاولة. إذاً، أين يمكنك أن تتعلم كلمات أخرى. اليوم الآنسة باشا أو باشينكا جميلة، هذا كل ما عرفه البعض. ومع ذلك اعتبروهم كثيري الكلام. كان من الأسهل بكثير مسكها من جديلتها. هل وقع في حبها أحد ما؟ يصعب عليّ الإجابة نيابة عن الآخرين. من المؤكد أن الجميع كانوا مستعدين لاصطحابها إلى

الفراش. لكن، هل وقع أحدهم في حبها؟ إذا كان القصد من ذلك الحب الحقيقي، فالسيد يعرف، الحب الحقيقي لا يعرفه إلا القليلون. من الصعب ملاحظته، خاصة في موقع بناء كهذا.

ما زال البناء غير مكتمل بعد، ثلاثة أرباعه في أحسن الأحوال، وطبقاً للخطة، أخذت تصل إلى موقع البناء أجهزة من الخارج. بعد ذلك بوقت قصير حضر فريق لنصب تلك الأجهزة، بمن في ذلك اثنان أو ثلاثة أشخاص من نفس الشركة الأجنبية التي أرسلت الأجهزة. تراءى لنا أنه لم يكن لديهم الكثير لعمله حتى تلك اللحظة، لكنهم استعدوا بحزم بشكل غير متوقع. طلبوا منا إنهاء العمل بسرعة في إحدى القاعات وشرعوا بنصب بعض تلك الأجهزة. من حسن حظنا، كان يجب عليهم أن يعملوا بعض القياسات من جديد نظراً لعدم تطابقها، بل حتى إنهم غيروا الخطط، الأمر الذي سمح لنا بالمواظبة على خططنا أيضاً. في غضون ذلك جلسوا في الإدارة، وكثيراً ما اتفقوا معها على شيء ما، بحجة وجود خطأ، وأنه كان من المفترض أن يكون الوضع مغايراً، ثم هددوها.

أوه، كانوا سادة. كل واحد من اثنين مهندس. أعدوا لهم ثكنة كاملة للعيش فيها. لم تعد تسمى ثكنة بل جناح. قاموا بتجسيصه من الخارج وصبغه من الداخل وإزالة أي تسريب فيه، استبدلوا الأبواب والنوافذ. كان لكل واحد منهم غرفة منفصلة. أما نحن الذين عشنا في هذه الثكنة قبل ذلك فنقلونا إلى سكن خاص وتم حشر كل سبعة أو ثمانية أشخاص منا في حجرة واحدة. اشتروا لهم أثاثاً جديداً شديد اللمعان، أسرة وثيرة، عدا الأرائك، مقاعد بذراعيين، خزائن للملابس، طاولات، كراسي صغيرة، رفوفاً، طاولات صغيرة بجانب الأسرة، مصابيح ليلية، ستائر شيفون في النوافذ، وستائر ثقيلة. أما نحن فقلة قليلة كان لديهم شيء من هذا القبيل في منازلهم. علاوة على ذلك، كان في كل غرفة جهاز راديو، سجادة على الأرض ومراة على الحائط.

عندما سكنا في تلك الثكنة كانت الأسرة حديدية، ذات طابقين، وخزانة واحدة لكل ستة أشخاص. وبالكاد تمكن الشخص من حشر بدلته فيها إن كانت لديه بدلة. تم الاحتفاظ ببقية الملابس في الحقائب تحت السرير أو

في علب كارتونية للسجائر أو البسكويت. ولم يخطر في بال أحد أن يعلق لنا الستائر في النوافذ ناهيك عن ستائر الشيفون. كان من الصعب علينا أن نطلب تغيير الصابونة أو المنشفة. اشترينا قطعة من نسيج البركال وعلقناها بالمسامير في النافذة مساءً. والمرأة كذلك. وجدت المرايا في الحمام العام فقط، ولم تسلم من الكسر ما عدا القليل. عادة ما كان على الشخص أن يحلق ذقنه أمام مرآة مكسورة، يمشط شعره أو على سبيل المثال، يعصر بثرة، ويربط ربطته عندما يحل يوم الأحد. وإذا أردت النظر إلى نفسك فقط فستبدو كأنك تألفت من نفس القطع المهشمة، كهذه المرأة. خصصوا لهم جناحاً في الكافتيريا قرب النافذة ووضعت فيها الطاولات، ومهما تأخروا بقيت تلك الطاولات فارغة في انتظارهم دائماً. لم يجرؤ أحد على الجلوس هناك. في بعض الأحيان، تكون الطاولات كلها مشغولة، وحتى لو أسرعرت لأنك قطعت عملاً ملحاً، توجب عليك الانتظار حتى ينتهي أحد الأشخاص من الأكل، بينما طاولاتهم فارغة. وأحياناً، وصل عدد المنتظرين إلى عدة أشخاص بل حتى إلى أكثر من عشرة ممن وقفوا خلف رؤوس أولئك الذين كانوا يأكلون. قمنا بحثهم على أن يأكلوا بسرعة، وبعضهم أكلوا ببطء كما لو بغرض النكاية. صعد الدم إلى الرأس نظراً لشدة الجوع من جهة ونداء العمل من جهة أخرى، في حين انتظرتهم تلك الطاولات فارغة كما لو أنها سخرت منا. بالإضافة إلى ذلك، غالباً ما جاؤوا إلى الكافتيريا بعد أن انتهى آخر من فيها من الأكل تماماً. إذاً، فكم سيكون عدد الذين بوسعهم أن يأكلوا على تلك الموائد حتى وقت مجيئهم. حدث أن عاد أحدها جائعاً إلى عمله لأنه لم يحتمل ذلك. أكل في البوفيه على الأكثر سمكة الرنكة أو بيضة أو قطعة من النقانق، على الرغم من ندرة النقانق، ثم عاد نصف جائع على الأقل.

أما هي فوقعت في حب طاولة من تلك الطاولات، هل يمكن للسيد تخيل ذلك. على مرأى الجميع ومنذ اليوم الأول. ظهر أحدهم ثم جلس وهي قدمت له الحساء. نظر إليها ولم يحمر وجهها خجلاً بل بادلته النظرة ذاتها أيضاً. نظرا بعضهما إلى بعض للحظة فتوقفت الكافتيريا كلها عن الأكل. حتى إن من رفع إلى فمه الملعقة بالحساء أو اللحم أو الشوكة بالبطاطس، تجمد ونظر! واصلوا الإمساك بها من جديلتها قائلين: اليوم تبدين جميلة

يا آنسة باشا أو يا باشينكا، والآن يظهر شخص لا يعرف من يكون وهي لا تحمر خجلاً.

هو أيضاً مسك الملعقة بيده، لكنه لم يغمسها في الحساء بعد، كما لو أنه لم يستطع إشاحة نظره عنها وهي تقف فوقه وربما هجره الجوع. وهي كذلك لم تستطع رفع عينيها عنه. بالرغم من أنها قد وضعت أمامه طبق الحساء ويجدر بها أن تتركه، خاصة أنها تركت كل واحد منا بعد وضع الطبق أمامه. ثابت إلى رشدها بعد أن مدت الطباخة رأسها من نافذة المطبخ ونادتها:

- باشكا، لا تقفي هناك! خذي الأطباق.

قالت له: شهية طيبة.

لم تقل لأي واحد منا قط: شهية طيبة.

وهو قال: شكراً. سيكون شهياً بالتأكيد. ثم تطلع خلفها أثناء مغادرتها حتى وصولها إلى النافذة. أكل الحساء كأنه لم يأكل. أتذكر، كان الحساء (كروبنيك) من الشعير والبطاطس والجزر⁽⁶⁾ هل يحب السيد الكروبنيك؟ أنا لا أطيقه. لا أستسيغه منذ الطفولة. إن أكل طبق من الكروبنيك كان عذاباً لي. بعد ذلك جلبت له الوجبة الرئيسة وهو حتى لم ينظر إلى لطبق. أخذ جديلتها بيده، لكن ليس كما أخذها الآخرون، إنما أخذها بيده المبسوطة بالكامل من خلف ظهرها واحتفظ بها على تلك اليد المبسوطة كما لو كان يزننها، كأنها مصنوعة من الذهب. ولم تنتزعها منه كما انتزعها من الجميع.

- قال لها: أين تنمو مثل هذه الصفائر؟ من منّا عرف أن يقول، أين تنمو هذه الصفائر؟ وهي لم تحمر خجلاً. نظرت إليه كأنها غير مبالية بما سيفعله بجديلتها، كما لو سمحت له بأن يفعل كل شيء. بإمكانه أن يلفها حول رقبتة، بإمكانه أن يقص قطعة منها، يمكنه فكها، ولم تكن لتنتزعها منه، لكنها قالت له:

من فضلك كل. سيرد الحساء.

قال:

6- الكروبنيك -krupnik: شوربة بولندية تقليدية تعمل من الشعير مع البطاطس والجزر.

- أحبه بارداً. وبهذا التعبير اختلف عنا جميعاً، لأنه لا أحد منا سيقول إنه يحب الحساء البارد. ونحن إذا بدا الحساء غير ساخن بما فيه الكفاية أحدثنا ضجة على الفور:

لماذا هذا الحساء بارد؟ وما هذه البطاطس، كأنها من البارحة؟ ما هذا اللحم، ألا يكفي أنها نقانق من الدم؟ يا آنسة باشا، ألا تخبري السيدة هناك في المطبخ! دع السيدة تأخذ الطبق وتسخنه لك! أما هو فسيقول إنه يحبه بارداً. لا أدري، ما إذا أكل أي شخص هنا عن طيب خاطر في ذلك اليوم. حتى إنني لن أخبر السيد، ماذا كان في الوجبة الرئيسة؟ أكيد قطعة من اللحم المشروم [كستلاتة]، لأنهم غالباً ما أعطونا قطعة لحم مشروم. الطحين فيها أكثر من اللحم وسموها قطعة لحم! سيظن السيد، مثلما يقال، إنها طعنتني بحربة في قلبي. لم أكل وجبتي الثانية الرئيسة تلك حتى النهاية. عدت إلى العمل. ولو أنني لم أتحمس للعمل. لكنني في النهاية رضيت بفكرة أنني سأنتظر حتى ينقشع. سينصبون جميع الأجهزة في حجرة التبريد وهو سيرحل وأما أنا فسأبقى. يجب عليّ التحلي بالصبر فقط. على أي حال، لم أرد حقاً تصديق أن يحدث ذلك من اليوم الأول. ناولته الحساء والوجبة الثانية الرئيسة وكان يا ما كان.

مع ذلك، لقد تغيرت منذ ذلك اليوم بشكل لا يمكن التعرف عليه. كانت تنظر ولا ترى، وأحياناً لم تجب، حتى لو قلت لها: نهارك سعيد، آنسة باشا أو باشينكا. وعندما وضعت الأطباق أمامنا بدا الأمر كما لو أنه لا يعينها من يكون هذا أو ذاك. عرفت الكافيريا عن ظهر قلب وكان يمكنها التحرك بين الطااولات في الظلام، لكنها بدأت تضيع. لقد انتظروا أطول منا عند تلك الطاولة لأنها أعطتنا الأكل أولاً. وقبل ذلك لم تخطئ فيما يتعلق بمن له الأولوية. عرفت حتى في أي لحظة تقريباً من جاء أولاً، وأين جلس هذا الأول. أما الآن فحدث العكس. ناديناها: هنا، هنا، يا آنسة باشا، باشينكا، لقد جئنا أولاً. ألقت علينا نظرة غائبة وحملت الأكل إلى هناك إلى الذين جاؤوا لاحقاً. أو أنها جلبت لإحدى الطااولات الوجبة الرئيسة وهم لم يأكلوا الحساء بعد، بينما كان الآخرون في انتظار الوجبة الرئيسة عند الطاولة الأخرى الأقرب لها.

يمكن أن تقع في الحب من النظرة الأولى، لكن إلى هذا الحد؟ بمجرد أن تعرف متى جاء إلى الكافيتيريا. إذا كانت تحمل الحساء والوجبة الرئيسة فإن الصينية سترتجف بين يديها، والصحون ستقطع، وعندما وضعتها على الطاولة بدا كما لو أنها أرادت إزاحتها كلها دفعة واحدة. وهرعت إلى نافذة المطبخ فوراً لجلب الحساء له. ثم أحضرت له الوجبة الثانية الرئيسة وإن لم يكمل هو أكل الحساء بعد. أما نحن فكان علينا، بعد أكل الحساء، أن نتظر الوجبة الثانية حتى تفرغ من توزيع الحساء على الجميع. قمنا في بعض الأحيان بدق الشوكات على الأطباق إشارة إلى أننا ننتظر الوجبة الثانية طويلاً. بينما هو لم يكن مضطراً لأن ينتظر. مكتبة سر من قرأ

وهل رآها السيد عندما يطول عدم حضوره. بدا الحال كأنها ليست هي التي تضع الأطباق على الطاولة بل يداها فقط. حتى إنها لا ترى ماذا تحمل هاتان اليدان. هي وحدة من العذاب المتأهب. وضعت تلك الأطباق هنا، بينما ما زالت عيناها تحدقان في الباب. سأخبر السيد، كنا نشعر أثناء أكلنا بعذابها ذلك تقريباً في الملاعق والشوكات والسكاكين.

وإذا ما ظهر فجأة، ونحن منغمسون في الأطباق بحيث لم ينظر أحد إلى الباب، سيرى الجميع من خلالها أنه قد أتى. فجأة، تصير مفعمة بالحياة ومبتسمة. كما لو سرت فيها الحياة. جديلتها متأرجحة. عيناها تنثران الألوان والألق. تكاد ترقص بين الطاومات. بدا كما لو أنها ستقطف الجديلة من رأسها، ستدخلها في قارورة وتضعها أمامه على الطاولة لكي يأكل بشهية أكبر. وهذا الشيء الذي كان يرى في الكافيتيريا وحدها. لقد قابلوهما أكثر من مرة وهما يمساكان بعضهما بأصابع بعض. أو كان يطوقها بيده وهي تحضن جانبه. وإذا انحنى شخص ما لهما قام هو برد الانحناءة عن نفسه وعنهما، لأنها لم تر ذلك. يجب الاعتراف بأنه كان مهذباً. لم يترفع. عندما احتاج إلى المساعدة مني ككهربائي أو من شخص آخر كان يرجونا دائماً، وينتظر حتى ننهي شيئاً ما هناك. عرف كيف يعيش مع الناس حتى يحبوه. وسأقول للسيد، حتى إننا أحبيناه.

أما هي فكان نفاذ صبرها بدأ بالتزايد. نظفت الكافيتيريا، بيد أنها لم تعد

ترغب بالمساعدة في غسل الصحنون في المطبخ، لأنها كانت في عجلة من أمرها. بعد ذلك رأوها تنتظره في مكان ما هناك حتى يخرج من عمله. غالباً ما، كانت تتمشى في الجهة الأخرى من الطريق. أو حتى حول السياج مباشرة بجوار الشبكة. على الرغم من عدم وجود طريق، باستثناء أكوام محطمة أمام أرض البناء. ومشت هناك على الأكوام ممسكة بشبكة السياج أحياناً. وعندما رآته خارجاً هرعت حتى بدت جديلتها كأنها تتبعثر. خلعت نعلها أكثر من مرة وركضت حافية حتى لا يتركها. وبما أن البوابة تقع بعيداً عنها لاجتيازها، فلذلك عبرت من خلال أقرب ثغرة في السياج. كان السياج مليئاً بالثغرات لأنهم قاموا بالسرقة من خلالها.

وانتظرته مهما طال خروجه. من المعلوم، ليس ممن الممكن ترك العمل في الوقت الموعود دائماً. خاصة عندما يكون العمل متخلفاً عن الخطة المرسومة في موقع البناء هذا. علاوة على ذلك، هم كانوا ضمن عقد خارجي. أما نحن فلم نكن وفقاً لعقد خارجي لكننا نادراً ما نزلنا من العمل في الوقت المناسب. عندما حدثت تأخيرات أكبر لم تحسب الساعات على الإطلاق.

انتظرته حتى لو سقط المطر. اشترت لنفسها مظلة أو ربما هو اشتراها لها. وحتى لو هطل المطر انتظرته تحت تلك المظلة، إما في مكان ما بجوار الحائط تحت إفريز البناء أو في حجرة الحراس عند البوابة أثناء سقوط المطر بغزارة. شوهدت في المكتبة أيضاً. ذهبت لاستعارة أحد الكتب وإذا بي أراها عند الطاولة منكبة على كتاب بجوار النافذة المطلة على البناء تماماً. لم ترفع عينها قط لترى من جاء. قلما ارتاد أحد المكتبة. لهذا فأني شخص يدخل يجلب السرور لأمانة المكتبة. أما هي فلا تنظر، كما لو أنها تستغرق في القراءة حتى لا تلاحظ.

وأنا لم ألاحظها. أو، لا قدر الله، أن أسألها ذات مرة عما تقرأ. ربما سيفزعها ذلك ويجعلها تشعر بالسوء تجاهي، وربما قد يجرحها. على أي حال، وما الداعي؟ لقد رأيت أنها في انتظاره. أما ماذا تقرأ فهل هذا مهم إلى هذه الدرجة. من الأفضل أن تكون في المكتبة بدلاً من الوقوف أو المشي تحت المطر. سأقول لحضرتك شيئاً، كان شعوري بالأسى تجاه نفسي أحياناً أقل من شعوري تجاهها.

بالطبع، قالوا عنها أشياء مختلفة. حتى إنني لا أريد تكرارها. أشيع، على سبيل المثال، أنها تنظف غرفته، تغسل ملابسه المتسخة، تكوي قمصانه وترتق جواربه. تبقى عنده في الليل. أوه، انظروا كيف عيناها متفتختان اليوم، من ماذا؟ ولم يخطر في بال أحد أنه قد تكون بسبب الدموع. كما لو أن حبها هذا من حق الجميع. كما لو كان من حق كل واحد أن يمشي ويدوس وحتى أن يبصق عقب السيجارة على هذا الحب، كما يمشي في موقع البناء. لا لسبب سوى لأنها خدمت في الكافتيريا.

لم يقل لها أحد بعد ذلك: أوه، كم تبدين جميلة اليوم يا آنسة باشا أو باشينكا، لأنها لا يمكن أن تبدو جميلة طالما هي متفتخة العينين. قالوا: صارت أكثر قبحاً، بدت محطمة ولم تعد جديلتها بتلك الجديلة ولا عيناها بتينك العينين. ربما هي حامل لأن بطنها أصبحت أكبر ولا تجلب الأطباق بسرعة بعد الآن. قالوا عنها أشياء مختلفة. حتى إن أحد الأشخاص قد سمع ما قالت: أنت وعدتني. وأجابها على ذلك: ستزوج. لكن افهمي. ردت عليه قائلة: وما الذي يفترض أن أفهمه؟ لست غبية مثلما تعتقد. ألأني أعمل في الكافتيريا؟ ثم انفجرت باكياً.

مع ذلك، كانت أمينة المكتبة تفهمها، امرأة كبيرة في السن، لا بد أنها مرت بالكثير من التجارب. حتى إذا مرّ وقت غلق المكتبة لم تغلقها لدى سقوط المطر أو عندما كانت منكبة على الكتاب. حينئذ قامت بترتيب الكتب على الرفوف، وإزالة الأغلفة التالفة ووضع أخرى جديدة، ثم رقمتها وسجلتها.

أحياناً، بالرغم من سقوط المطر، كانت تسلم أمينة المكتبة كتاباً وتخرج فجأة كأن قلقاً ما قد اعترأها، أما أمينة المكتبة فتقول لها: شيء جيد، لديك مظلة يا آنسة باشا. اعتذرت من أمينة المكتبة وفسرت ذلك بأنها تذكرت الآن وجود شيء عاجل لتسهيله.

- لا بأس، لا بأس يا آنسة باشا. أفهم، هذا يحدث أحياناً. فقط سأحدد المكان الذي قرأت منه الآنسة. أوه، سأضعه هنا وسيكون في انتظارك.

- نعم، أرجو أن تحدديه. شكراً. وغادرت على عجل تقريباً، كما لو أنها تذكرت شيئاً عاجلاً فعلاً.

وبعد لحظة شوهدت وهي تنتظره في مكان ما بمحاذاة السياج. رأتها أمينة المكتبة أيضاً من خلال النافذة. أو أنها سألت الحراس كي يدخلوها إلى موقع البناء وانتظرته هناك. أحياناً تجولت في موقع البناء حتى المساء، وحتى الليل لأنه لم يخرج بعد. وعندما سار أحد ما اختفت خلف رافعة، أو حفارة، كومة من الطوب، خلف بكرات الأسلاك، خلف الصناديق، الإطارات المستعملة، هناك قمم منها تملأ الساحة. وحيثما أمكنها الاختباء.

يسأل السيد: لماذا كانت تختبئ، طالما عرف الجميع ذلك؟ نعم، مضبوط. أنا نفسي تساءلت عن ذلك. خاصة أنني التقيت بها أحياناً في موقع البناء مساء. لكنها خبأت نفسها عني أيضاً. ربما هكذا كان حبها كما لو أنه لا ينسجم مع هذا العالم. أو ربما أرادت أن تكون هكذا.

لقد تزوجا أخيراً. كان الزواج غريباً. لا هو بالمدني ولا الكنسي. يبدو أنه شوش ذهنها حتى قبلت بأن يزوجهما هذا القسيس. نعم، ذلك اللحم. هي أرادت في الكنيسة. أما هو فليس مع الزواج في الكنيسة، لأنه سيفقد عمله حسبما أقنعها. هي تعلم أنه بناءً على عقد أجنبي وكان يجب أن يكفله شخص مشهود له. حتى إنه لا يمكن أن يخبرها باسمه نظراً لأنه من أسرار العمل. على أي حال، ما الفرق سواء أكان في الكنيسة أم لا. الأهم أن يكون على يد القسيس. توجد الكنيسة حيث القسيس. وهو يعرفه. إما لأنه لحام؟ ثم ماذا؟ لكنه قسيس. مصائر القساوسة اليوم مختلفة. لديه رداء كهنوتي وصدرية وإنجيل، يحملها معه في الحقبة، من أجل ماذا؟ من أجل الخدمات الكنسية البسيطة. وسوافق بالتأكيد. إنه يفهم ما هي أوقاتنا الراهنة. وبالتأكيد سيحافظ على السر. لأنه يجب أن يبقى سرّاً في الوقت الحالي. سيدعو ثلاثة أو أربعة أصدقاء مقربين على أكثر تقدير، لن ينسوا بكلمة واحدة أيضاً وهو سيضمنهم. وفيما يتعلق بها فلا أحد، لا الأب ولا الأم، لا أحد.

رتبوا الموعد في مساء السبت بعد أن يفرغ موقع البناء حتى لا يراهم أحد. كان كثير من عمال البناء يغادرون في أيام السبت بعد العمل لزيارة عوائلهم. وستعطى الفودكا للحراس في مكتب الاستقبال، كي لا يروا أو يسمعوا أي شيء أيضاً. وعلى كل احتمال سيقولون لهم: إنهم يحتفلون بعيد الميلاد. ستسدل الستائر في النافذة، وتحول المائدة إلى مذبح بتغطيتها بشيء

أبيض. سيشترون الشموع. سيكون كروسيفيكس [صليب عليه صورة يسوع مصلوباً] مفيداً ومن غير المعلوم إن كان بحوزة القسيس. قد يكون لديها في منزلها وعليها أن تجلبه، لكن فقط بطريقة لا يمكن لأحد أن يراه. وجلبته فعلاً. أعتقد السيد أنها كانت ساذجة إلى هذا الحد؟ لا أعتقد. الرغبات أقوى من الشبهات.

أرادت أن يكون لها فستان زواج لأنها حلمت دائماً بالزواج بفستان أبيض طويل ممدود. رأى، أنه لا توجد مشكلة، ستحصل عليه، سيشتريه. سوف يذهب إلى المدينة ويشتريه. ولا داعي لأن تذهب هي معه. سيشتري لها الأجل والأعلى. ربما سيشتك أحد ما فيما لو ذهبت معه. عليها أن تطمئن، سيكون الفستان لا تقاً. سيستلقي عليها كأنه مصبوب. فكر، كم يبلغ طولها بالضبط؟ كم في الوركين وفي الخصر، هنا؟ هكذا فكر. إذاً، فما الداعي لذهابها؟ وإذا رآهما أحد الأشخاص في المتجر معاً، ماذا سيكون فيما لو رآها وهي تقوم بقياس فستان الزواج. هذا ليس ذنبهما لأنهما يعيشان في مثل هذه الأوقات. يؤسف فقط أنهما لم يلتقيا في أوقات أخرى. هي نفسها ترى أنه من الأفضل أن يذهب وحده. ونعال بيضاء؟ سيشتري لها نعالاً بيضاء أيضاً. تساءل في داخل نفسه. ما هو الرقم الذي تحمله؟ مع ذلك وعلى كل احتمال، لترسم قدمها على الورقة. سيكون أكثر وثوقاً. خاصة، يحدث مع الحذاء أن يكون رقمه جيداً ثم يتضح أنه ضيق جداً أو كبير جداً. ويسألها عما إذا أرادت قفازات بيضاء، لأنه سيشتري لها بالمناسبة قفازات بيضاء أيضاً؟ وماذا تريد فضلاً عن ذلك أيضاً؟

من أين كان لي أن أعرف كل ذلك؟ لم تعمل حضرتك في أي موقع بناء قط؟ إذاً، أنت لا تعرف الكثير عن الحياة. يا سيدي، يعرف الواحد كل شيء في موقع بناء كهذا. لا أحد يكون مضطراً للتنصت. لا يجب عليه أن يرى، ولا أن يخمن. يمكن القول إن ما يحدث، ما يقال، ما يشعر به كل واحد، وما يفكر فيه كل واحد، يعرفه الجميع أولاً. وكل شيء يحدث فيما بعد إنما يؤكد ذلك.

على أي حال، لم تعد ترغب بتلك القفازات البيضاء، لأنه ما الداعي للإنفاق على القفازات أيضاً. لا، لا، هي لا تريد القفازات. مع ذلك،

سيكلف كل هذا كثيراً. الفستان نفسه وأنت تقول إنه الأجل والأعلى. وكم ستكون النعال؟ فضلاً عن ذلك، لم ترَ واحدة من قبل تزوجت وهي ترتدي القفازات. لقد حضرت جميع مراسم الزواج في الكنيسة تقريباً. وكما لو أن كل زواج غير حياتها للحظة نوعاً ما. حضرت منذ أن كانت فتاة. حتى إنها حضرت زواج الغرباء. عندما تزوج كبار السن لم يحضر سوى القليل، أما هي فحضرت. وما الضير في أن يكونوا كباراً. الزواج هو نفس الزواج. وعندما أقسم على ألا يفترقا شعرت كما لو أن قلبها يدق والدموع تملأ عينيها. مع ذلك لم ترَ أيّاً منهن ترتدي القفازات. بعد كل شيء، يجب عليهن وضع الخواتم في أصابعهن، فهل عليهن خلع القفازات وقتئذ؟

فجأة، هي أدركت أنه نسي خاتمي الزواج. يجب عليه أن يشتري خاتمين. لا، هو ليس مضطراً لذلك، لأنهما جاهزان، لقد فكر فيهما مسبقاً. ثم أخرجهما ورفع غلافهما وقال لها: جربي خاتمك. كيف عرف أنه سيكون على مقاس إصبعها؟ ليس على هذه الإصبع، بل على تلك وسيكون مناسباً. عليها أن تجربته. أهو كبير جداً؟ إذاً، سيقوم الصائغ بتصغيره. أهو صغير جداً؟ لتضعه في الوقت الحالي على الإصبع الصغير. بعد ذلك سيعطيه للصائغ كي يوسعه. لقد اشتراه منذ فترة طويلة، قبل أن يعمل ضمن هذا العقد. حصلت مناسبة، لقد خسر أحد الأشخاص في لعبة الورق ولم يكن لديه مال ليدفعه. لا، ليس هو، هو لا يلعب بالورق. اشتراه من ذلك الخاسر. لقد توقع أنهما قد يكونان نافعان ذات يوم. وإذا بهما حسب المرام. لقد نسيهما حتى رآها في الكافيتريا فتذكرهما. يبدو الأمر كما لو أن هذين الخاتمين اختاراً أن تصبح هي زوجته. لكن، من غير الممكن أن يقوموا بحملهما حالياً. سيخلعانهما بعد الزواج وهو سيخفيهما. وسيحملانهما من جديد بعد أن ينتهي عقد عمله. ربما سيسافران إلى الخارج. سيحاول أن يسهل شيئاً ما في هذه الشركة التي يقومون بنصب أجهزتها.

ومن بوسعه ألا يصدق ذلك، ليقبل لي السيد بنفسه؟ بناء على الفطرة السليمة ربما لا. لكن الحس السليم يخسر أمام الحياة. لقد خدمت في

الكافثيريا، وفجأة. قدمت الحساء والوجبة الثانية الرئيسة، ثم فجأة. من أراد، لمسها من جديلتها، أما هو فأخذ هذه الجديلة بيد مبسوطة ووزنها كما لو كانت من الذهب. بناء على الحس السليم، ينبغي الحذر من كل حب، لأنه من غير المعلوم إلى أين سيقود الإنسان. على أساس الحس السليم، ينبغي أن تحترس من نفسك ذاتها. ليس الإنسان هو من يؤسس لنفسه الحس السليم. وعموماً، ماذا يعني الحس السليم، ليقول لي السيد؟ سأقول لحضرتك، لن تكون قادراً على أن تعيش الحياة بالحس السليم. العقل السليم، نعم... لكن هذا فقط ما يقال عندما لا يُعرف ماذا سيقال.

للأسف، لم يعرفه حضرتك، وإلا لكان بإمكانك أن تحذرهما. لم يعرفه السيد؟ على الرغم من أنني متأكد من أنها لن تصدقك أيضاً. لا يمكن حرف أحد أياً كان عن الحب. وفي رأيي، لا ينبغي فعل ذلك. من غير المعلوم أبداً، أين يحرف شخص ما.

اعتقدت أنه من المحتمل ألا يوافق القسيس. لكنهم أجبروه. وهل من الصعب جداً أن تجبر الإنسان على مناقضة نفسه. كم مرة تناقض أنفسنا من أجل راحة البال. أجبروه بحجة أنهم سيفضحونه. ألم أقل للسيد إنه تجنب الفتيات. لا، لا أحد عرف ذلك أبداً. ماذا يجب عليك ألا تعرفه طالما أن كل شيء معروف. عرفوا أنه ترك الحلقة الدراسية. وعرفوا أنه حمل في حقيبته رداء كهنوياً وصدرياً وإنجيلاً. وأنه رسم إشارة الصليب على صدره قبل الغداء في الكافثيريا، وصلى قبل النوم، ولم يفوت القداس يوم الأحد، ولذلك اعتقد الجميع أنه لم يفارق دعوته. حتى إنني لم أعرف، وغالباً ما كانت لدينا محادثات طويلة عندما ذهبت إليه في أعلى موقع في البناء. كيف عرف ذلك الشخص؟ لن أقول للسيد. لا أريد توجيه اتهام بلا أدلة. على أي حال، إذا شاع الخبر فلن ينعم بالحياة في موقع البناء. ولن يسعفه حتى كونه أحد أفضل العاملين، أفضل لحام في الواقع. سيلاحقه ذلك حتى في مواقع البناء الأخرى. لن ينعم بالحياة في أي مكان.

مثلما قال، تم إسدال الستارة على النافذة. أما فيما يتعلق بما جرى في داخلها، فنحن نعرف فقط القدر الذي ذكره لنا أحد الحراس. لقد أرسلوه من موقع الحراسة من أجل نصف ليتر إضافي من الفودكا، لأنهم شربوا كل ما

حصلوا عليه بالفعل. مع ذلك بمجرد أن وضع قدمه على عتبة الغرفة أعطوه نصف لتر من الفودكا ودفعوه خارج الباب. حتى لا يرى المائدة مغطاة بشيء أبيض، ولا الشموع مشتعلة، ولا أن هناك صلياً. كل ما رآه هو أن الجميع سكارى، وخاصة هي. هل كان القسيس كذلك، لم ير ذلك أيضاً. ربما خرج بعد عقد الزواج مباشرة. على الرغم من أن الأمر سيكون غريباً أيضاً فيما لو أنه لم يسكر.

بعد ذلك، ما الذي كان بوسع هذا الحارس أن يراه في الواقع، طالما أنه نفسه كان سكران، ولكل سكران يتراءى أن الآخرين هم السكارى وليس هو. على الأرجح، هم شربوا كل ما في صندوق الفودكا الذي استلموه، عندما ذهب من أجل نصف لتر الفودكا الإضافي. يمكن حضرتك أن تتخيل كم كان ثملاً. هكذا هم الحراس كانوا. بدلات رسمية وبنادق ومازالت السرقات تحدث في موقع البناء. لدرجة أن أخرج أحد الأشخاص جراراً ذات مرة. ولم يروه. إذًا، فكيف كان يمكن تصديقه؟ إلا أنه قال ما قال، وكرر الآخرون بعده.

على أي حال، بدأ يحدث شيء سيئ بينهما بعد عقد الزواج. لدرجة أنه لم ينظر إليها عندما قدمت له الحساء أو الوجبة الثانية في الكافتيريا. أما بالنسبة لها، فلم يكن هناك فرق سواء أوضعت أمامه الطبق مع الحساء أو الوجبة الرئيسة الثانية، أم وضعتهما أمام أحدها. وبمرور الأيام، بدت عيناها منطفتين. ولم يعد من اللائق أن يقال لها: أنت اليوم تبدين جميلة يا آنسة باشا أو باشينكا، لأنه من غير المعلوم ألا تبكي. فكت جديلتها حتى تتمكن من ربط شعرها بشريط من الخلف. بدت جميلة أيضاً لكن ليس كما كانت مع الجديدة. مع ذلك، لم يجروا أحد على سؤالها عن سبب ما فعلته.

توقف القسيس عن المجيء إلى الكافتيريا مما سمح بكثير من التساؤلات أيضاً. على الأرجح هو ذهب إلى النزل لتناول الطعام. وذات يوم، عندما جلبت الوجبة الثانية الرئيسة إلى المائدة التي جلست عندها جاء أحد الأشخاص مسرعاً بخبر سقوط القسيس من السقالة. سواء سقط أو لم يسقط، فإنه صاح في القاعة كلها قائلاً إنه سقط. أما هي فكانت على وشك أن تضع آخر طبق على المائدة، أمامي مباشرة، إلا أنه سقط فجأة من يدها

على الأرض. انفجرت بالبكاء، غطت وجهها بيديها وركضت إلى المطبخ منتحبة. أما ماذا جرى هناك في المطبخ فلن أخبر السيد به. قد يعتقد البعض ممن كانوا في الكافتيريا أنه بسبب الطبق.

اندفع الجميع نحو الباب، خرجوا من المكاتب، من الإدارة، هرع الناس من موقع البناء بأكمله، احتشد الناس وكان من الصعب الوصول إلى مكان سقوطه. ثمة من فحص نبضه وقلبه، لكنه كان جثة هامدة. سرعان ما وصلت سيارة الإسعاف والشرطة، وبدأ الاستجواب وبحثوا عن شهود. إلا أن ذلك لم يحدث في فترة الغداء على ما اعتقد، من دون أسباب.

بعد ذلك، لم أرها في ذلك اليوم. أما هو فسافر في مساء اليوم ذاته. وهي لم تعد تقدم شيئاً في الكافتيريا لعدة أيام تالية. حلت محلها إحدى الطباخات. قالوا إنها في إجازة مرضية، لكنها ستأتي قريباً. وجاءت فعلاً. لكن السيد ما كان ليتعرف عليها. عندما جلبت لأولئك العاملين بناء على العقد الأجنبي الحساء سألتهم على الفور متى سيأتي. لم يقولوا أي شيء. جلبت لهم الوجبة الرئيسة الثانية وسألتهم مرة ثانية، متى سيأتي. وعندما لم يقولوا هذه المرة أي شيء، تشاجرت معهم بحيث نهضوا وغادروا المكان. أجهشت بالبكاء، صرخت بهم، ستأتون وتأكلون بأنفسكم وتطلبون منه أن يعمل. سينهكه هذا العمل. وهو مع ذلك يبدو في حالة سيئة فعلاً، شاحباً ومنهكاً. سرحوها من العمل في اليوم التالي.

جاءت إلى الكافتيريا من وقت إلى آخر، وقفت بجوار نافذة المطبخ وسألت الطباخات أن يقدمن له الأكل فقط عندما يأتي. والطباخات هن طباخات، قلن لها: تعالي إلينا هنا، اجلسي، سنقول لك عندما يأتي، وستقدمين له، نرى الباب من هنا، وإذا دخل فسوف نخبرك.

كان بالإمكان مقابلتها أيضاً عندما وقفت أمام البوابة بانتظار خروجه من العمل. لقد غادر الجميع أما هي فانتظرت حتى الغسق أحياناً، وإلى الليل. لو سقط المطر وانهمر أحياناً لانتظرت. حتى لم تكن لديها مظلة، لا أحد يعرف ما الذي حل بمظلتها. أخذها الحراس أحياناً بدافع الشفقة إلى غرفة الحراسة حتى لا تبلل أكثر. أو طردوها، لأنه لم يكن هناك ما تنتظره.

وكانت تجيئهم: زوجي يعمل هنا.

- عمل هنا لكنه لم يعد يعمل. كيف هو زوجك.

زوجي، لقد أقسم. كنت في ثوب الزواج، لقد عقدنا عند القسيس.

- وأي قسيس هذا؟ إنه لحام. وفي كل الأحوال، لقد مات.

توسلت بهم أحياناً كي يسمحوا لها بالدخول إلى موقع البناء:

أدخلوني.

- افهمي يا بنت.

سأقول له فقط إنني أنتظره.

وسمحوا لها بالدخول أحياناً. لا، لقد دخلت من خلال ثغرة في السياج.

عرفت جميع الثغرات. إلا أنهم لم يطردها عندما رأوها تتجول في مكان ما

بموقع البناء. غَضُّوا الطرف عنها. حتى لو كان هناك شخص من الإدارة كان

لديهم عذر بأنها دخلت عبر فتحة السياج وليس من البوابة. على أي حال،

كانت تتجول هادئة في الساحة لا غير. لم تضايق أحداً ولم تسأل أحداً عن

أي شيء. لم تعد تخبئ نفسها إذا مر أحد ما. عرف الجميع ذلك ولم يسألها

أحد عن أي شيء. في بعض الأحيان، جلست في مكان ما وكانت هائمة كما

لو أنها لا تعرف أين تكون.

قابلتها أكثر من مرة عندما اضطرت إلى البقاء لفترة أطول في موقع

البناء. ذات مرة عند حلول المساء، كانت جالسة على أحد الصناديق.

- قلت لها: أوه، آنسة باشا.

أجابت: لم أعد آنسة. أنا متزوجة. ومن أنت؟

- الكهربائي يا آنسة باشا.

آه، بلى. أتذكرك من الكافيتريا. أنت أعجبتني. كنت خجولاً، أتذكر.

أعرف، أنك أردتني أن أصبح زوجتك. كثيرون أرادوا ذلك.

لقد فاجأتني لم أخبرها بذلك قط. وكانت لدي نية بأن أقول لها، إنني لم

أرغب فقط، لكنني أريد الآن أن تصبحي زوجتي. قد لا تصدق حضرتك،

لقد شعرت فجأة بشيء ما، كما لو توقفت إلى أن أكون معها في مصيبتها تلك.

الحب الحقيقي جرح. وبهذه الطريقة فحسب يمكن للإنسان أن يعثر عليه في داخله عندما يؤلمه ألم الآخر وأنه ألمه.

لكنها سبقت كلماتي:

لكنكم أنتم في مواقع البناء، حيث يوجد بناء، هناك زوجة. ماذا تراكم تعرفون عن الحب.

وخذلتني الشجاعة.

- قالت: ساعدني على الخروج من هنا.

قلت لها: البوابة هناك. سأصطحب الأنسة باشا.

- قالت: لا أريد عبر البوابة. ونظرت إليّ كما لو بعينها السابقتين من الكافتيريا. ما زلت تعجبني، أتعلم؟ لكنّ لي زوجاً الآن.

سأقول لحضرتك، لقد غيّر حياتي. نعم، أمين المستودع. حدثت السيد عنه. أمين مستودع، واتضح أنه عازف على الساكسفون. لا أعرف لماذا يستغرب السيد. حضرة السيد، قليل من الأشخاص كانوا مثله في ذلك الوقت. قسيس ولحام. وكثير من أمثال هؤلاء كانوا يعملون في مواقع البناء متكرين وراء مهن مختلفة. لكن المرء غالباً ما اكتشف ذلك أثناء شرب الفودكا فقط. وليس من الوهلة الأولى. من لم يشرب أو يشرب من وقت لآخر لم يكن موثقاً به. لهذا السبب كنت أسكر. تحققوا بشكل تقريبي. بعد ذلك شرعوا بالتعمق في السير الذاتية. أو اقتحموا الضمائر أحياناً. واتضح أن الضمائر شيء مختلف عن تلك التي كانت. هل يعتقد السيد أن الضمير شيء دائم؟ للأسف، لم يسبق للسيد أن عمل في أحد مواقع البناء من قبل. بالتأكيد ولا في أي مكان آخر. إلا أنني عملت في مواقع البناء ويمكنني التحدث عن مواقع البناء فقط. يا سيدي، كل تغيير في العالم هو هجوم على الضمائر. خاصة عندما يتعلق الأمر بتغيير العالم إلى عالم جديد أفضل، وقبل كل شيء إلى ضمائر.

على أي حال، لا يمكن للسيد أن يقابل هذا العدد الكبير من مختلف الأشخاص في أي مكان آخر. عمال بناء وخرسانة وتجسيص، لحامون، كهربائيون، عمال رافعات، سائقون، عمال تموين وسواهم، وبشكل مشابه في المكاتب، وتبين أن هذا الشخص كان كذا، وذاك الشخص كان كذا، وهذا من هنا، والآخر من هناك، من المعسكرات، السجون، من هذا الجيش، من الجيش الآخر، من الانتفاضة، من الغابة، بكليتين معطوبتين، بلا أسنان، بدون أظافر، بدون عمر محدد، أو أنهم ما زالوا فتیاناً لكنهم شابوا. كل موقع

بناء كهذا كان بمنزلة برج بابل حقيقي، لكنه ليس برج لغات بل مصائر بشرية. على الرغم من وجود أولئك الذين غيروا مهنتهم بمحض إرادتهم للانضمام إلى بناء العالم الجديد الأفضل، لأنهم لم يعودوا يثقون بالعالم القديم.

لم أعد أتذكر موقع البناء الذي عمل فيه أحدهم في التخطيط. قيل، هذا الذي يعمل في التخطيط وكان الجميع يعرف من المقصود. وفي إحدى المرات، أثناء شرب الفودكا، اعترف بأنه كان مدرس تاريخ. لم يكن لديه رأس قوي لشرب الفودكا، سكر، وبدأ بالكشف عن أن التاريخ خدعه. هل يتخيل السيد أن التاريخ خدعه. كما لو أن التاريخ يمكنه أن يخدع أحداً ما. نحن الذين ما زلنا نخدع التاريخ وفقاً لما نريده منه.

على أي حال، في رأيي، كل واحد يعيش لنفسه وكل حياة هي قصة منفصلة. وبما أننا نحاول أن نسكب كل ذلك في إناء واحد، في اتساع واحد، فلماذا لا تنجم عنه حقيقة عن الإنسان بعد. يمكن أن يتخيل المرء مثل هذه القصة الفردية لأناس عاشوا في وقت ما. يقول السيد، هذا مستحيل؟ أعرف أنه مستحيل. لكن يمكنني التخيل. بعد كل شيء، لا يوجد شيء على العموم، ناهيك عن الإنسان. لا أعرف من أين تنظر حضرتك إلى هذا العالم. أنا أنظر إليه، مثلما أحدث السيد، من موقع هذا البناء أو ذاك. كانوا أفراداً لا يشبه أحدهم الآخر. قيل الطاقم مثلما يقال التاريخ، لكن ذلك في الاجتماعات فقط.

على سبيل المثال، عمل في أحد مواقع البناء طالب فلسفة. في الحقيقة، أنهى دراسته ولم يتبق أمامه سوى امتحان واحد عندما اندلعت الحرب. وبعد الحرب تعلم كيفية صب الأرضية. حتى إنه أصبح رئيس عمال، صادقته قليلاً. أوه، لقد شرب كثيراً. كان لديه رأس لا للفلسفة فحسب. وفي إحدى المرات أخذ يتحدث أثناء الشرب حول دراسته تلك غير المنتهية فسأله أحد: - لماذا لم تكمل دراستك؟ كان بإمكانك بعد الحرب. ليس هو سوى امتحان واحد.

احتقنت عيناه دماً ونحن لم نشرب الكثير بعد.

- علق، ولماذا بحق الجحيم؟ ما فائدة الفلسفة بعد كل هذا؟

لا يمكن لأي عقل أن يستوعب ذلك! لا أفلاطون ولا سقراط ولا ديكارت ولا سبينوزا ولا كانت! اللعنة عليهم جميعاً! حتى إنه ضرب الطاولة بعقب كأس الخردل⁽⁷⁾.

تطلع بعضنا إلى بعض، لأنه لا أحد يعرف من يكون هؤلاء بحيث أثاروا حنقه. لم يجرؤ أحد أيضاً على السؤال، لأنه ربما كان من المناسب معرفة ذلك. إلا أن أحداً قال:

- على ما يبدو يمكن مقابلة أمثال هؤلاء أولاد الزنا في كل مكان. ليس في مواقع البناء فحسب. وملاً له كأس الخردل كاملاً. - خذ، اشرب.

ليصدقني السيد، لو لم أعمل في مواقع البناء، حسناً، ولو أنني لم أشرب... على أي حال، لقد تعلمت في مواقع البناء كيف يمكنني أن أعيش. وبفضل مختلف الأشخاص الذين التقيت بهم ولم أكن لألتقي بهم في مكان آخر. أوه، أنا مدين لهم بالكثير. سأقول كالاتي: أي واحد منهم لم يرغب في العيش، لسبب أو لآخر. ومع ذلك عاشوا. قبل كل شيء أنا ممتن لهم على ذلك، حتى لو بدا الإنسان في بعض الأحيان أنه ليس في وضع يمكنه من دفع مثل هذا الثمن، ولا يوجد مكان للاقتراض منه، لكنه ينبغي أن يعيش. والأهم من ذلك اقتنعت بأنني لم أكن استثناء. وإذا كان الأمر كذلك فمن الواضح أن الاستثناءات تملأ العالم. وكل ذلك لم يخرج إلا بالفودكا. إذًا، كيف كان يمكنني ألا أشرب؟

على سبيل المثال، ثمة من عمل في القسم الاجتماعي، قَدَم الصابون، المنشف، الجزمات المطاطية والقفازات، وكان يمكنه أن يكون أي شخص، لكن تبين أثناء شرب الفودكا أنه كذا وكذا. ثمة شخص آخر عمل بالحفارة وتراءى لنا أنه ما عداها لا يعرف أكثر من شرب الفودكا، لكنه بعد انقضاء نصف اللتر الأول أو الثاني، أخذ يلقي علينا قصائد من الذاكرة، وألقى شخص آخر شيشرون باللغة اللاتينية. حتى إننا استمعنا إليهما بفضل الفودكا.

7- كأس الخردل: نوع من الكؤوس السمكية المخصصة أساساً للخردل لكنها استعملت للشرب أيضاً في الفترة الاشتراكية في بولندا.

وفي موقع بناء آخر كان يعمل شرطي من فترة ما قبل الحرب. لا أدري، هل يتفق حضرتك معي على أن كل تغيير في العالم يبدأ من الشرطة. توجب عليه أن يختبئ أثناء الحرب، بناء على ما أمرته به منظمته، لأنه كان شرطياً أيضاً. بطبيعة الحال، لم تكن لديه شهادة لكي يبرزها بعد الحرب. من كان باستطاعته أن يزوده بها؟ وربما مع الختم؟ من المفترض، أن من كان بوسعهم فعل ذلك قد قتلوا. بعد ذلك، كم كان يمكن أن يكون عددهم؟ اثنين أو ثلاثة في أحسن الأحوال. كما أنه واصل بعد الحرب التنقل من مكان إلى آخر بغرض تضليل القرائن وراءه. تعلم عدة مهن خلال هذه الفترة. كان جصاصاً في موقع البناء. لكنه كان يشرب كثيراً، حسب رأيي. وعندما سكر فك أزرار قميصه ولطم صدره حتى قعقع، وذلك لأن المنظمة قد أمرته. كانت هناك حدود للصراحة أثناء شرب الفودكا. أنا لم أتحدث كثيراً قط، أقصى ما قلته هو كيف كان الحال في مواقع البناء السابقة. بينما هو عندما تأسى على نفسه أقسم بالسيدة العذراء على أن المنظمة قد أمرته، الأمر الذي كان يمكنه أن يثير الريبة أكثر لأن السيدة العذراء لم تكن معنا. شرطي، ولم يكن يعرف كيف يشرب ببرودة أعصاب!

كان هناك ممن شربوا حتى الثمالة ربما لينسوا يأسهم الأكبر وكادت قلوبهم تنفجر صراحة إلا أنهم لم يقولوا أكثر مما أرادوا قوله. أوه، من يشرب بمهنية وليس عن طريق الصدفة يعرف طرقاتاً لكيفية أن يقول كثيراً ولا يقول شيئاً، كيف يضحك عندما لا يكون في داخله ما يدعو للضحك، كيف يؤمن بشيء ما حينما لا يؤمن بأي شيء، حتى لو كان هذا عالماً جديداً أفضل.

لا أعرف ماذا حدث لهذا الشرطي، لأنني انتقلت بعد وقت قصير إلى موقع بناء آخر. لم يكن هناك سبب معين. ربما تراءى لي أنني سأشرب أقل في موقع بناء مختلف وربما سأتوقف عن الشرب نهائياً. على أي حال، عندما عملت في موقع البناء طويلاً شعرت بشيء ما كما لو بدأ يشبكني ويمتصني. لم أتحمل فلذلك انتقلت إلى موقع آخر. سيعتقد السيد أنني لم أكن صبوراً كما هو الحال مع بقية الشباب. حسناً، لا. فقط، لم أتمكن من التعلق بأي مكان. حتى خفتُ من أنني قد أتعلق.

لا، لم تكن لدي مشكلة في ذلك. كنت كهربائياً جيداً. لقد كلفوني

بأصعب أعمال التنصيب دائماً. أنا للماكنات الجديدة، وربط الأجهزة دائماً. لم يكن هناك عطل إلا تمكنت من التعامل معه. سمعت كثيراً من الإطراء، وحصلت على شهادات التقدير. لم تفتني أي مكافأة. حتى عندما تعطل شيء ما في شقة أحد المديرين أرسلوني دائماً بناءً على طلب المدير أو المدير. كان من الممكن أن يذهب أي شخص بسبب المكواة أو القدر الكهربائي أو احتراق المصباح لكنني كنت أنا.

والسيد، هل غير عمله كثيراً؟ أبدأ؟ كيف يكون هذا ممكناً؟ إلى هذا الحد كان السيد سعيداً بالعمل في مكان واحد؟ وفي أي منصب عمل السيد، إذا جاز لي أن أسأل؟ ألم يتسلق السيد أعلى وأعلى؟ لا أفهم ذلك. بعد ذلك، كل واحد بوجه أن يتسلق ولو لدرجة أعلى. هذا هو هدف الحياة بالنسبة لمعظم الناس. والسيد ببساطة لم يكن مبالياً؟ لم أعد أفهم أي شيء. وما هي طبيعة هذه المؤسسة أو الشركة؟ لا يمكن للسيد أن يقول ذلك؟ أفهم. في هذه الحالة أنا أعتذر لأنني سألت السيد.

لم يكن بالنسبة لي في أي مكان أفضل. ليس بهذا المعنى، لأنني كسبت كل مرة أفضل. ربما دفعني إلى ذلك قليلاً شعور بأنني إذا انتقلت إلى مكان سيكون الأمر على الأقل مختلفاً هناك. لكن الشيء ذاته كان في كل مكان. شربت كما في موقع البناء السابق، حتى ثملتُ تماماً. وفقط في موقع البناء حيث عزفت في الفرقة الموسيقية والتقيت بأمين المخزن، عملت حتى نهاية البناء. على الرغم من تباطؤ البناء كما لم يحدث من قبل.

لحظة، في أي موقع بناء حدث هذا؟ على كل حال، هذا لا يهم. عمل أحد الأشخاص، وسجل ساعات العمل الإضافية، من الصعب القول إنه عمل. لم نعرف عنه أي شيء. حتى إنه لم يثر فضولنا لكي نعرف من يكون. لأن تسجيل ساعات العمل الإضافية أي عمل هذا. بالكاد كان يشرب الفودكا، ربما لأننا دعونا عندما اتضح أنه قد سجل هذه الساعات الإضافية بشكل موثوق.

وفي أحد الأيام جاء مدنيان وعسكري بسيارة، سألوه إن كان هو. لووا ذراعيه وقيدوه بالأصفاد، ثم دفعوه إلى داخل السيارة وانطلقوا بأقصى

سرعة. ولم يعد بعد ذلك مطلقاً. ونحن لم نعرف قط من هو. كل ما عرفناه هو أنه سجل ساعات العمل الإضافية.

في الحقيقة، كان يمكن أن يلهمنا القليل من التفكير، لأنه كان يرتدي ملابس لائقة دائماً، ستر، ربطة عنق، سراويل مجعدة، حليق اللحية دائماً وتفوح منه رائحة الكولونيا. عندما سلم على النساء كان يقبل يد المرأة دائماً، بغض النظر عن كونها منظفة أو مديرة حسابات. ولم يقل أي شيء عن النساء بخلاف أنهن الجنس اللطيف. الجنس اللطيف يا سادتي. مع الجنس اللطيف يا سادتي. لم يكسر حاجز الرسميات مع أحد أياً كان. ربما عندما كثر شربه معنا. لكننا دعونا فقط حينما أردنا أن نشكره على ساعات العمل الإضافية تلك. مع ذلك كان كريماً. إذا دعي جلب معه دائماً نصف لتر من الفودكا على الأقل.

آها، لقد ذكرني به شيء صغير آخر. لم يأخذ أي شيء من الطبق بيده سواء من السجق أو الخيار المخلل، كما نفعل نحن جميعاً. بالشوكة دائماً. عندما دعونا جاء مع الشوكة، أما الشوكة فكانت ملفوفة بمنديل. اسمحوا لي أيها السادة بالشوكة لأنني تعودت على ذلك. ولم يأكل السجق مع القشر أبداً. كان ينزع منه القشر دائماً. وأحياناً أتساءل بيني وبين نفسي، ربما لولا هذه الشوكة، لو استخدم يديه مثلنا جميعاً ولم ينزع القشر من السجق. أحياناً الشيء تافه، لكنه يترك آثاراً كما على الثلج.

نعم وأمين المستودع هذا. أعتقد أنني سبق أن ذكرت لحضرتك، أننا بنينا مصنعاً للزجاج. وفي حقل خالص. كانت المحاصيل ناضجة تقريباً، لكنهم لم يسمحوا للناس بحصدها. أبلغناهم بأننا مستعدون للمساعدة في حصدها، إنه لأمر محزن أن تضيع هذه الكمية من المحاصيل، وكم سيضيع من الخبز، وكان يحدث نقص فيه أحياناً. وجوابهم هو: لا، لأنهم غارقون في العمل. كان من المفترض أن تبدأ الخطة في السنة الماضية، كان عليها أن تبدأ في الربيع. وكانوا يحثوننا، أسرع وأسرع، في العطل والأعياد، فثمة مكافآت، وطبعاً ساعات عمل إضافية، وليالٍ بلا نوم. والمدن تنتظر النوافذ، القرى تنتظر، المصانع تنتظر، المدارس، المستشفيات، والدوائر الحكومية، كما لو أن كل شيء مصنوع من الزجاج. وهنا لم يجلبوا ذلك الشيء بعد،

ولم يسلموا ذلك، هناك نقص في بعض الأشياء ولذلك كان البناء يتوقف بين لحظة وأخرى.

حسناً، وكان أمين المستودع في موقع البناء المذكور. أقول للسيد، لم يبدُ عليه أنه أمين مستودع. لو رآه السيد لما صدق أنه أمين مستودع. محدودب وبصعوبة أدار رأسه في العنق. مشى كأنه يحرك قدميه أكثر من خطواته. قيل إن هذا من وقت الحرب، من الاستجابات. الظاهر أنه لم يخبرهم عن أحد ولم يعترف بأي شيء. لا أعرف، هل هذا صحيح أم غير صحيح. لم أسأله عن ذلك قط وهو لم يقل أي شيء بنفسه أيضاً. لم يرغب الناس بالمصارحة في الماضي. علاوة على ذلك كانت يده اليسرى عديمة الكفاءة قليلاً، طالما فركها أثناء الطقس الماطر. ولم يقل قط لماذا، بالرغم من أنها على ما يبدو بسبب الروماتيزم. ولو سأله السيد، لأجابه على الأرجح بليس هناك ما يتحدث عنه. لم تكن يده اليمنى على ما يرام أيضاً. عندما أراد كتابة إيصال بأي قطعة لأحد ما ضغط قلم الرصاص بكامل قوته على الإيصال حتى لا ترتجف يده. وكان قلمه قصيراً دائماً، بالكاد بان من بين أصابعه.

قطع كل قلم رصاص جديد على أربعة أجزاء واستخدمها قصيرة هكذا. ليس من أجل الادخار. دع قلم الرصاص يخرج كاملاً من يد حضرتك وسترى أنه سيخونك، بغض النظر عن كيفية ضغطك على الإيصال. ولكان الارتعاش ظاهراً على الإيصال، دعنا نقول، حتى لو كتب حضرتك فقط: برغي - العدد واحد.

أوه، كان بالكاد يرى بإحدى عينيه. نظر إلى السيد بعينه التي ترى بالكاد، بغرض التمويه، وأغمض العين التي ترى، أو بالتناوب، قليلاً بهذه، وقليلًا بتلك، مما زاد إرباكه أكثر. وكان متذمراً، أوه، متذمراً فظيلاً. إذا ذهب أحد إلى المستودع من أجل قطعة ما، كاد يجري تحقيقاً معه: لماذا، من أجل ماذا، أين، وإلى أي شيء، قبل أن يحرر الإيصال ويسلمه. أما ماذا قال أثناء ذلك فحدث ولا حرج: إننا نفسد هذه الأدوات التي يمكن بها تشييد مبنى آخر، وعلى الأرجح نحن نسرقها. هو يعلم، يعلم. ربما أنت لا تسرق، لكن الجميع يسرقون. لا يعتبرونها ملكهم ولهذا يسرقونها.

في المقابل، كان لديه سمع لا يصدق. ربما جعلوه أمين المستودع بفضل سمعه. عندما تقف أمامه أثناء تحرير الإيصال ومن فوق هذا الإيصال يسألك فجأة:

- لماذا هذا الصرير؟

أنا أصرّ؟ أنا أقف.

- أنت تصرّ، أنا أسمع.

أو يسألك:

- ماذا، هل عندك ربو؟ بينما الرجل سليم كالحصان. اشربوا الكحول، دخنوا وستنفد أنفاسكم قبل أن تموتوا. وإذا أعطاك جهازاً ما وجب عليه أن يضعه على أذنه أولاً. وإذا كان ثقيلاً انحنى عليه وقال، على ما يرام أو سأعطيك واحداً آخر.

أوه، السمع في مثل هذا المستودع يعني الكثير، من يدري، ربما أكثر من النظر. احتل المستودع ثكنة كاملة، وكان عليه التجول فيه ومراقبته باستمرار. ما عدا ذلك، جلس خلف مكتبه وسمع الأصوات من أقصاه إلى أقصاه. حتى لو تسللت فأرة، فكيف لو قام أحد ما برفع زجاج النافذة هناك في الطرف الآخر.

لم يعرف أحد في موقع البناء أنه عازف ساكسفون. هو نفسه لم يعترف بذلك. ولم يعزف منذ وقت طويل. لكن عندما يدخل المرء أحياناً إلى المستودع فجأة يمكن أن يتكون لديه انطباع بأنه حرره من الإنصات. ربما أنصت للمستودع. لأن الموسيقى، مثلما قال، يمكن سماعها حتى في الحجر. وما كان لأحد أن يعرف، لولا أن قراراً اتخذ بتأسيس فرقة موسيقية في موقع البناء. جاءت توصية من الأعلى مفادها أنه إذا كان عدد الطاقم يتجاوز حداً معيناً من الأشخاص والبناء طويل الأمد فينبغي تأسيس فرقة موسيقية، أو فرقة رقص أو حلقة مسرحية لضمان الترفيه عن العمال. لذلك شرعوا بالبحث في موقع البناء لمعرفة من يعرف العزف. قدمت نفسي كعازف على الساكسفون. في الواقع، لم أعزف منذ زمن المدرسة وقد مرت الآن بضع سنوات. وظننت أنني لن أعزف أبداً. لقد جذبني ذلك ولن أقول

أكثر. أحياناً، عندما أصابني الأرق تخيلت نفسي أنني أعزف. سمعت أنني أعزف. أحسست بطعم مَعْبَرَة الساكسفون. من الواضح أن لكل معبرة نكهتها الخاصة، في الحقيقة هي قسبة. حتى شعرت في اليدين بأني أحرك أصابعي ومن الواضح لمست بالبَنان مفاتيحه. وأن هذا الساكسفون على الشريط حول رقبتني ثقيل، وربما وزنه أكبر من الوزن الحقيقي. حتى إنني رأيت الناس وهم يملؤون قاعة محطة الإطفائية، وكيف يرقصون وأنا أعزف لهم، لأنني لم أكن أعرف قاعات أخرى باستثناء محطات الإطفاء.

لكن هذا حدث في الغالب فقط عندما لم أستطع النوم. لم يكن لدي وقت لتخيل أي شيء خلال النهار قط. أو أن المرء كان منهكاً من العمل والفودكا فقط هي القادرة على إعادته للحياة. انهماك وانهماك، أحياناً، خرجنا من العمل في الليل، لأن خطة العمل، كما أخبرت السيد، لا تزال متأخرة، ولم يبق سوى الفودكا.

لم أتوقع أنهم سيقبلونني. لكنني فكرت، سأحاول. لأنني جربت كل شيء. حاولت أن أقرأ، حاولت ألا أشرب، حاولت أن أؤمن بعالم جديد أفضل، حاولت أن أحب. ربما كان هذا أفضل شيء. لكن إذا وقعت في الحب فلا يمكنك العمل من الصباح إلى الليل، لأن ما تريد فعله بعد ذلك هو النوم فقط. عليك أن تذهب إلى الحفلة مرة أو مرتين. وأن تذهب إلى الحفلة يعني من الضروري أن تعرف الرقص. أما أنا فلم أعرف الرقص. لا، لم ينظموا لنا الحفلات في المدرسة ولم يسمح لنا بالذهاب إلى مكان للتسلية. ذات مرة ذهب الأكبر منا سنّاً إلى مكان ما في السر، تشاجروا مع أولاد المنطقة، فتح تحقيق، وبعد ذلك قاموا بالتأكد، حتى في الليل، من أن الجميع نائمون.

تارةً نظمنا في القاعة العامة بعضاً من الحفلات في مساء يوم الأحد. المساءات في الخريف والشتاء طويلة ولم تكن هناك دروس وأشغال لأننا لم نذهب إلى العمل في يوم الأحد. قمنا بتزيين القاعة العامة، وعلقنا إعلاناً عن الحفلة. اختير عدة أشخاص للفرقة الموسيقية، خُصص الأصغر سنّاً لدور الفتيات، والأكبر سنّاً للغراب. لكن أي متعة هذه طالما أننا لم نعرف الرقص، من أين لنا ذلك؟ ربما واحد أو اثنان كان يعرف، لكن معظمنا كنا

ندوس بعضنا على أقدام بعض . حتى تواصلت اللعنات والشتائم . أنت كذا وكذا، لقد دست على إصبع قدمي الكبيرة، دست عليّ هنا . بحذائك الضخم، عليك اللعنة ! هذه الفتاة لا تعينني هي وعجيزتي ! انتشرت أبشع الكلمات . يا ابن العاهرة، بالأصابع ... واصل الرقص هكذا . أكرر، أنا أعتذر للسيد .

لكن كيف يمكننا الرقص على الأصابع طالما أننا رقصنا بأحذية ذات نعل من المسامير . ولم تكن لدينا أحذية بديلة لتغيرها . كنا نرتدي الأحذية نفسها صيفاً وشتاء . أكثر ما أمكن فعله هو أن نسير حفاة . حاولنا الرقص حفاة فدخلت شظايا في أقدامنا لأن الأرضية الخشبية كانت مسننة، منقرة، وممزقة بسبب مسامير الأحذية . وعندما ركل أحدها الآخر في الكاحل بهذا الحذاء دون قصد جعل الآخر يئن . حتى وصل الأمر إلى الضرب إذا كانت الفتاة هي التي ركلت، أي أحدها من الأصغر سنّاً قد ركل الأكبر سنّاً .

أما إذا عزفت الأوركسترا لحناً سريعاً فحدث ولا حرج، فليس فقط داس أولئك الذين رقصوا بعضهم مع بعض ولكن القاعة العامة كلها داست، كما لو اصطدم الواحد بالآخر عمداً وطرحوا بعضهم بعضاً على الأرضية . أوه، حينئذ اندلعت براكين من الشتائم واللعنات ووصلت الأمور حد العراك، حتى قام البعض بسحب السكين . وكيف كان يمكن أن تكون تسلية طالما لا يحضن الواحد الآخر، ولا يوجد من تهمس في أذنه بكلمات رقيقة . في أحسن الأحوال كان يقول أحد العزّاب للفتاة التي يرقص معها: احضني أيها الوغد .

الأكبر سنّاً يعني العزّاب، عادة ما روجوا عن أنفسهم على حسابنا نحن الفتيات . وجدوا متنفساً في كل يوم، لكن لم تكن لديهم كوابح في الحفلات . أما بالنسبة للمعلمين، أي معلمين . إذا جاء أحدهم، ألقى نظرة وغادر . حينئذ، رقص الجميع بأدب . لم يسمع السيد بأن أحداً قد داس على أصابع أحد أو سب . لكن بمجرد أن يغادر المعلم يمكنك تخيل ما حدث . لقد فقدت الحفلة الاتزان وغالباً ما أطفؤوا الأضواء . حسناً، وفي غياب الضوء، فمن الأفضل عدم التحدث .

ياله من زعيم كان . أحد الأولاد من الأكبر سنّاً . رقص في كل حفلة دوماً .

علق مجموعة من الشرائط حول ذراعه. حتى إنه كان يعرف الرقص قليلاً. ثرثار وصلف. لكنه وقف في صف الأكبر سنناً دائماً. حتى إنني لا أعرف ما إذا لم يكن أسوأهم. كان لطيفاً، لم يسب قط، لم يشتم أحداً إذا داس على إصبعه، لكنه طلب منه الاعتذار له. لكن، قبل أن ينتهي الرقص كان يصطحب هذه الفتاة إلى الخارج، كما لو أنهما ذاهبان للتنزه وهناك فعل بها ما أراد. أحياناً كان يضرب ويدمي. ولمن سيشتكي السيد؟ أوه، سيدفع السيد الثمن لاحقاً.

نظمهم على حلقات ودوائر، زوجين تلو زوجين والرقص بالتبادل، مع رقصة التانغو البيضاء⁽⁸⁾. كفتيات كان علينا أن نطلب لرقصة التانغو البيضاء الأكبر منا سنناً يعني العزاب. وبصفته الزعيم فهو يراقب، ويشير بإصبعه، أنت افعل هذا، وأنت ذاك. وإذا حاول أحدهم الممانعة أمسكه من رقبته وقاده ثم أمره: ارجوه، انحنِ له، هيا، وإلا سأركلك. وسيشعر السيد كيف تضغط يده على مؤخرة العنق.

سأقول للسيد إنني خفت بعد ذلك أن أرقص لفترة طويلة. لقد نفرني الرقص، كما لو على العكس من طبيعته، لأن الرقص يجذب الناس عادة. ربما لأنني كنت في دور الفتاة طوال فترة المدرسة وهي طريقة تجعلني أنظر إلى كل شيء، وأستشعر بشكل مختلف تماماً وحتى من الصعب أن أؤمن بالرقص. وكسرت الحاجز النفسي داخلي في الرقص فقط عندما بدأت العزف في أوركسترا المعمل. يجب على الفرقة الموسيقية أن تعرف الرقص وليس مجرد العزف للرقص. خاصة بالنسبة لعازف الساكسفون.

اختاروا سبعة منا، من الذين تقدموا. حضر المدرب وأحضر الآلات وقام بتجربة أدائنا. وقال: حسناً لتدرب الآن وسنشكل نوعاً من الأوركسترا. لا، لقد جلب الساكسفون في المرة التالية واستمع لعزفي على انفراد. حتى إنه سألني: أين تعلمت العزف هكذا، وبعد كل شيء كنت شاباً. هل أنا عزفت في الأوركسترا من قبل؟ أجبته: في أوركسترا

8- التانغو البيضاء أو الأبيض: رقصة شائعة في بولندا وتعني أن تطلب النساء الرجال للرقص.

المدرسة. أوه، لابد أنها كانت مدرسة على مستوى عالٍ. لابد أن معلميك كانوا عظماء. أجبتّه: نعم، كان أحدهم على وجه الخصوص من هذا القبيل. رسم على كل آلة شيئاً ما بخط مائل يشير إلى أنها ملك المعمل. مثلما على المكاتب، الآلات، أجهزة التلفزيونات، الأدوات، المناشف وعلى كل شيء عائد للمعمل. كان على كل واحد التوقيع في القائمة على أنه استلم هذه الآلة للاستخدام وهو مسؤول عنها. اشتروا لنا زياً رسمياً موحداً أيضاً، بدلات رصاصية اللون، قمصاناً بيضاء من النايلون وربطات عنق لها نفس اللون والنقش. عُلفت في خزانة الملابس في القسم الاجتماعي وسلموها لنا بإيصال عند العرض فقط. لكن، كان لدى كل واحد منا جواربه وحذاؤه الخاص. بعد ذلك، أتى هذا المدرب لعدة أشهر وكنا نتدرب معه مرتين وأحياناً ثلاث مرات في الأسبوع. بطبيعة الحال، أعفونا بعد العمل من الساعات الإضافية لا غير. وحتى لا نخسر بسبب ذلك أضافوا لنا ساعتين إلى كل يوم لأننا نتدرب. للحقيقة، بعد عدة بروفات لم يعد المدرب ضرورياً لنا لأن كل واحد منا يعرف أفضل منه. واحد يخلط الإسمنت، والثاني لحام، والثالث يرصف الأرضية، الرابع عامل رافعة، والآخر موظف، وثمة من هو مثلي كهربائي، وباستثنائي فإن كل واحد منهم سبق له أن عزف في الأوركسترا، هذا في الأوركسترا العسكرية، والآخر في أوركسترا المنتجعات الصحية، وثمة من في أوركسترا الشارع أثناء الحرب أو قبلها، وثمة من لم يكمل دراسته الموسيقية الجامعية، والآخر كان عازف أرغن، وكان والد أحدهم عازف كمان في الأوبرا ومعه تعلم العزف أفضل من والده، حسبما قال.

اختاروني لأنني الوحيد الذي تقدم بطلب للعزف على الساكسفون. أوه، الساكسفون لم يكن آلة عادية في ذلك الوقت. نادراً ما عزف في الفرق الموسيقية. في العالم، نعم، لكن ليس عندنا في أوركسترا المعامل وفوق ذلك في مواقع البناء. لكن الساكسفون هو الذي تسبب في نجاحنا. أوه، لقد أعطانا حضور الساكسفون في الفرقة أفضلية على الأوركسترات الأخرى. إلى حد أنهم بدؤوا بدعوتنا للعزف إلى هنا، إلى هناك، إلى مواقع البناء الأخرى، إلى مختلف المعامل، المصانع وإلى الوحدات العسكرية.

ليس فقط إلى الحفلات، بل بمناسبة مختلف الأعياد والمناسبات السنوية وحفلات المناسبات لكي نعزف في الجزء الفني.

سأقول للسيد، كانت الفائدة من عزفنا بالنسبة للبناء أكبر من محاولات الإدارة. وحتى لا يكون كلامي بلا أساس، أقول، لقد عزفنا ذات مرة في الأكاديمية في معمل الإسمنت. ربما يعرف السيد كيف كان الحال مع الإسمنت في ذلك الوقت. في الحقيقة مع كل شيء. لكن لا يمكن التحرك في موقع البناء بدون الإسمنت. كان علينا شحذ كل طن في بعض الأحيان، من خلال تنظيم الحفلات لإدارة معمل الإسمنت، ومجلس إدارة المعمل، وضرورة تذكر عيد الاسم لهذا الشخص أو ذاك، لكل ذي شأن أو لمن يعتمد عليه القرار، وجلب الهدايا لهم. أو إرسال البرقيات وإجراء المكالمات التلفونية. وإذا لم ينفع ذلك قدمنا الشكاوى إلى السلطات العليا، لكنها كانت أقل جدوى. عندما توقف البناء ظل متوقفاً هكذا.

دعوني للعزف على الساكسفون وحدي خصيصاً لزوجتي مدير معمل الإسمنت لأن عيد اسمها أو ربما ميلادها صادف في ذلك اليوم بالضبط. وأعلنوا أنني سأقدم لها عزفاً منفرداً على أن تعزف الفرقة الموسيقية في الخلف. دافعت عن نفسي بالقول، إنني لم أعزف على انفراد قط. لكنني اعتقدت أن ذلك سيكون بمنزلة اختبار لي. أتذكر، جلست في الصف الأول جنب المدير، وزوجته امرأة جميلة جداً، ذات شعر داكن اللون. أثناء عزفي رأيت أنها مبتهجة ولذلك عزفت بكامل طاقتي. انتهيت من عزفي المنفرد والقاعة صامتة حتى لم يكن هناك أدنى تصفيق. هي الوحيدة في الصف الأول بدأت بالتصفيق دون أن تنظر إلى أي شخص. وبدأت القاعة كلها بالتصفيق خلفها حتى إن بعضهم كان أكثر حماسة منها. ولم تعد هناك مشكلة مع الإسمنت بعد ذلك. في أسوأ الأحوال أخروا التسليم يوماً أو اثنين. أما الأوركسترا فحصلت بأكملها على مكافأة مالية.

حدث ذلك فيما بعد، بعد أن انفصلت عنه. حسناً، عن أمين المستودع. وفارقه لأننا عزفنا في موقع البناء عندنا، كان هناك عيد أيضاً. حصل بعض الأشخاص على ميداليات وعشرات الدبلومات. ذهبت في اليوم التالي إليه

في المستودع، للحصول على بعض القطع، إلا أنه وهو يكتب لي إيصالاً قال لي كما لو كان ممتعاً:

- لقد عزفتكم كيفما اتفق. لن تتكون منكم أي فرقة موسيقية. فرقة مشكلة بشكل سيئ ولا تعرفون إلا القليل. لقد أزعجني ذلك لأنه ما حاجتي برجل مستودع. لقد ضجت القاعة من التصفيق حيث صفقوا بشكل أقوى مما بعد كلمة المدير، لقد هنا الجميع، حتى لم أتمكن من اللحاق بمد يدي، وها هو أمين المستودع! فكرت، دعه يسلمني هذه القطعة وسأجيبه لدى المغادرة. لكنه ارتخى فجأة:

- أنت لديك قبس من شرارة ربانية. لكن الساكسفون، أوه، لا تفكر في ذلك. ستضيع وقتك في هذه الفرقة الموسيقية. طبعاً، سيصفقون لكم، لأنه من سمع بالساكسفون هنا في هذه الأرض البوار.

انتفضت قائلاً، وأين هو سمع ذلك؟ وحيث، اعترف بأنه كان عازف ساكسفون، عزف كثيراً قبل الحرب وفي العديد من الفرق الموسيقية.

استمعت إليه بذهول وهو في الظاهر، كما يقال، لا يستحق حتى أن يعطيه السيد خمسة قروش. نسيت القطعة التي أتيت من أجلها، وسأقول لحضرتك، إلى يومنا هذا لا يمكنني أن أتذكر من أجل أي قطعة. لكنني ترددت، هل أصدقه أم لا، أصدق أم لا أصدق.

لم تندفق الكلمات منه بسهولة، الظاهر أنه أجبر نفسه عليها. كل كلمتين أو ثلاث وبعدها فاصلة، وهي متباعدة بعضها عن بعض كما لو أنه لم يتمكن من تجميعها معاً. فهل كان ذلك انطباعاً شخصياً لأنني مازلت لا أستطيع التصديق أن هذا الإيصال لا يكتبه لي أمين مخزن ما، بل عازف ساكسفون. من خلال ما قاله يظهر أنه عزف على مختلف أنواع الساكسفونات، لكن في الغالب على ساكسفون ألتو. حسناً، وعندما بدأ في سرد الأماكن التي عزف فيها، سأقول للسيد، أصغيت إليه كما لو أنني في حلم. في فيينا، برلين، براغ، بودابست فيما يتعلق بالعواصم، وفي مدن أخرى كثيرة، وعدد البلدان التي سافر إليها. شرع في عد المحلات التي عزف فيها حتى اعتقدت أنه يختلقها: الجنة، ألدورادو، شهرزاد، أركاديا، عدن، هاديس، إمبريال. كانت لدي نية

في أن أسأله عن معنى هذه التسميات، إلا أنني افتقدت الشجاعة. لأنه ماذا سيكون لو فكر وكيف تريد أن تصبح عازف ساكسفون. آها، ولقد عزف على متن سفينة ركاب كانت مبحرة إلى أميركا. لم أعد أتساءل، سواء قال الحقيقة أو لا، لأن حقيقة أن الساكسفون يمكنه أن يقود الإنسان حول العالم دفعني إلى التفكير بشكل مختلف في الساكسفون.

عادت لي فكرة البدء من جديد بادخار جزء من كل راتب لشراء أول ساكسفون، على الأقل جزء مما أنفقه على الفودكا، لأنني لن أعزف على ساكسفون المعمل طوال حياتي. ماذا لو انتقلت إلى موقع بناء آخر ولن تكون هناك أوركسترا؟ ذات يوم، سأكون عنده في المستودع من أجل شيء ما، ومن المحتمل سوف يسألني وهو منكب على الإيصال:

- هل لديك ساكسفون خاص بك؟

كلا، ساكسفون المعمل ليس إلا. سبق أن جمعت، لكن حصل تغيير للعملة. أفكر الآن في البدء بجمع النقود من جديد.

قال: إذاً، لا تجمع، وكتب لي إيصالاً ولم يقل أكثر من ذلك.

فكرت ربما هو يعتقد بعدم جدوى ذلك، لأنه قد يحصل تغيير آخر للعملة. وقبل تغيير العملة كما هو الحال قبل الموت لن يكون لديك وقت أبداً. كان يجب عليه أن يعرف الحياة.

بعد مرور بضعة أسابيع، كنت ماشياً بجوار المستودع وإذا به ينسلّ منادياً:

- تعال إليّ!

قلت: لا وقت لدي الآن. سأتي لاحقاً. كنت في عجلة من أمري حقاً.

- لا، تعال الآن. فيما بعد سيكون عادة بعد فوات الأوان.

ماذا، هل لدى السيد أمر عاجل؟ رأيت حقيبة على مكتبه.

- قال لي: افتح. فتحتها بقلب مرتجف ولم أصدق عيني.

قلت: ساكسفون، لكن كما لو أنني مازلت لا أصدق.

- قال: ساكسفون. - في يوم الأحد كنت عند عائلتي وجلبته معي. هل

عليه الاستلقاء عبثاً؟

قلت: ذهبي اللون، وشعرت بأنني أرتعش.

- قال: ألتو ذهبي. أوه، لقد سافر معي حول العالم.

سألته: كم تريد مقابلته؟ تشجعتُ أخيراً، وبدأتُ أفكر داخل نفسي في اقتراض المال من المعارف في موقع البناء، في المكاتب، وفي مكتب المساعدة والقروض. وفي أي مكان بعد، في أي مكان بعد، جلتُ عبر أفكارى ككلب الصيد، لأنني كنت متأكداً من أن كل ما بوسعي اقتراضه هناك سيكون ليس كافياً. هو أيضاً بدا كما لو أنه فكر في السعر الذي سيعرضه عليّ: - كم؟ كم؟ كيف تعرف أنني أريد بيعه؟ مثل هذه الأشياء ليست للبيع. أحياناً، يتبقى من كل الحياة ما هو ليس للبيع.

وقال لي، لو رغبت يمكنكني المجيء إليه إلى المستودع بعد العمل أو في أيام الأحد كي نعزف قليلاً. يعني أن أعزف أنا وهو يستمع. وهذا أفضل من شرب الفودكا أو اللعب بالورق. خاصة أنني مازلت لا أعرف الكثير والساكسفون كالإنسان يملك كثيراً من الأسرار، سيكشف لي بعضها وسيتعين عليّ أن أفعل الأخرى بنفسى، لا، لأنه يريد إخفاء شيء ما أمامي، وإنما لأنه لم يتمكن هو من اكتشافها أيضاً.

سألته: وكم سيكلفني هذا شهرياً؟

- لن يكلف أي شيء. ستعزف وأنا سوف أستمع. أنا أناسب هذا المستودع بصعوبة. بفضل الناس الخيرين فقط، مازال هناك مثل هؤلاء. أنا عليل، لن يدوم الأمر طويلاً.

وهكذا بدأ الأمر. في البداية، حشأ رأسي بأن الساكسفون ليس آلة للعزف فحسب. لا يمكنك أن تحصل منه على أي شيء بالغضب أو الإهانة. لكن بالصبر والعمل. بالعمل والاجتهاد. إذا أردت من الساكسفون أن يتآخى معك كالروح مع الجسد فعليك أن تفتح عليه. إذا لم تخف شيئاً أمامه فسوف يفعل الشيء نفسه معك. وسيستعصي ولن يسامح مقابل كل زيف. لا أعلى ولا أوطأ حتى لو نفخت رثتيك. على أي حال، لا تكفي الرثتان لأنك ستعزف وهو بلا حياة. يجب عليك أن تعزف بنفسك كلها، كذلك، بالمك، بكائك، ضحكك، آمالك، أحلامك، بكل شيء مازال في داخلك، بكل ما فيك من حياة. لأن كل هذا موسيقى. أنت الموسيقى لا الساكسفون. لكن إذا

أردت أن أسمع نفسي في الساكسفون فيجب عليّ ألا أدخر جهداً، لا أدخر جهداً، بعناية، كرر ذلك مراراً وتكراراً. لأن الموسيقى ستكون حينئذ فقط. سأقول للسيد: حتى إنني خفت من هذا الساكسفون. فكرتُ، يا له من ساكسفون؟ أعزف على ساكسفون المعمل ولا أشعر بالشيء الذي يحدثني عنه. في البداية، عزفت على ساكسفونه أسوأ بكثير من ساكسفون المعمل. على أي حال، يصعب عليّ القول إنني عزفت لأننا كنا نتمرن في الغالب. يعني، هو طلب مني وأنا تمرنت. وهكذا مرة تلو الأخرى، السلم الموسيقي، السلم الموسيقي، في كامل سلم الساكسفون الموسيقي. لقد أغضبني ذلك لكن لم يكن في اليد حيلة. بعد ذلك جلب بضع صفحات من النوتات الموسيقية وانتقلنا إلى التدريبات، والمقاطع، ولم يعطني مجالاً لعزف أي عمل بالكامل، بل تمرنت على عزف مقطوعات منفصلة وتكرارها إلى ما لا نهاية، وبعد مرور بعض الوقت، سمح لي بجمع تلك المقطوعات فقط. علاوة على ذلك سمح لي في الغالب بعزف صوت واحد لا غير حتى انقطاع النفس ثم تكراره وتكراره إلى أن يقول لي: مقبول.

ذهبت إليه بعد العمل وغادرته بعد أن خيم الظلام على موقع البناء. بعد ذلك لم أتمكن من النوم نظراً لأنني نسخت في داخلي عزف هذا وذاك، وعلاوة على ذلك، حلمت، تارةً، بذلك عدة مرات. قال لي ذات مرة إنني أمسك بمَعْبَرَة الساكسفون بشكل خاطئ وبالتالي فلا داعي لكثرة النفخ. ترتيب شفتي سيئ، لأنني أضغطهما على معبرة الآلة كثيراً والهواء يتسرب من زاويتيها. يجب علينا تغيير ذلك. وفي مرة أخرى قال لي إنني أستخدم أصابعي بشدة، أصابعي متصلة كثيراً وينبغي عليها أن تكون مرنة ويجدر بي أن ألمس المفاتيح بالأنامل. على الأنامل أن تكون حساسة لدرجة لو مسست الشعاع لكان عليّ أن أحس به. لأنني عندما أعزف يجدر بي أن ألمس الموسيقى لا المفاتيح. كما أن يدي بطيئتان كالسلحفاة وهما خرقاوان عند المفاصل. تمرّن. أوه، عليها أن تنحني هنا في النهايات بزواوية صحيحة. ومرنهما في العمل. وهذه المشاكل صارت لدي من العمل، بعد ذلك، هم لا يطلبون حركات كثيرة من الكهربائي.

في بعض الأحيان، ساورني الشك فيما إذا كان عازف ساكسفون حقاً،

أو لكونه يجلس في هذا المستودع فقط، ومن الضجر يتخيل نفسه عازف ساكسفون، طالما يمكنه تخيل أن يكون أي شخص آخر ما عدا عامل مستودع. حتى تمكن في يوم من الأيام من تعلم العزف قليلاً ولهذا يوجد هذا الساكسفون، وأما ما تبقى فمحض خيبة أمل. وغالباً ما يكون أمثال هؤلاء جحيماً لأنفسهم ويحاولون أن يزجوا بالآخرين في هذا الجحيم.

لم يتناول الساكسفون مطلقاً، ليريني كيف ينبغي عزف هذا أو ذاك، طالما أنني عزفت بشكل سيئ.

- قال: سأريك، لكن كيف؟ بهذه اليد الواحدة؟ أنا بالكاد أكتب بها الإيصالات. أنت رأيت ذلك.

إذاً، من أين له أن يعرف ما إذا كان هذا الشيء خطأ؟ خطأ، أعد مرة أخرى. أوه، عرف، عرف، لقد فهمت ذلك بعد سنوات.

أظن أنني ذهبت إليه لمدة ثمانية شهور وفي النهاية شعرت بعدم الرغبة. بدأت بالذهاب إليه من وقت لآخر أما هو فكان يجلس في المستودع بانتظاري يوماً حتى المساء. - لا أعرف لماذا لم تأت أمس، لماذا لم تأت أول البارحة. لم تكن موجوداً لمدة أربعة أيام. لقد كنت آخر مرة في الأسبوع الماضي وأنا مازلت في انتظارك هنا.

تعلمتُ بوجود عطل، ولم نتمكن من إصلاحه وسيستغرق ذلك عدة أيام أخرى. وفي المرة الثانية، قلت، لأنهم أبقونا في موقع البناء أطول بسبب شيء ما هناك. وبأننا عملنا على ترافق النعمتين في الأسبوع الماضي، ونحن يجب علينا متابعة الخطة في موقع العمل. اختلقت الأعذار وبدأ كما لو أنه تقبلها بتفهم.

- نعم، هكذا هو الحال في موقع البناء. نعم، هكذا هو الحال في موقع البناء.

وسألني بعد مرور وقت فقط: كيف الحال هناك، هل لحقتم بالخطة؟ آها، ها، لقد تلعثمت.

- قد تلحق بالخطة، لكن اللحاق بنفسك سيكون أصعب - كما لو كان ظلّ عتاب في صوته.

وإذا به يقول لي، ولم أكن عنده سوى ليوم واحد: يبدو لي أنني أخطأت.
لقد آلمني ذلك وأردت أن أقول له لو تكلم مرة أخرى: لن أجيء إليه
أكثر، لولا قوله:

- لا يمكنك الاستمرار هكذا في العزف طويلاً وفي الوقت نفسه العمل
في موقع البناء. لا يزال الوقت غير مناسب الآن. لكن ذات يوم ستكون
مجبوراً على الاختيار. الآن اسحب نفسك من هذه الأوركسترا فقط. على
الأقل، لا تدعهم يفسدونك.

كيف، هل عليّ أن أنسحب؟ لقد شتتني ذلك. قفز وبدأ يتجول في
المستودع، لم أره غاضباً بهذا الشكل قط.

- إذًا، اعزف، اعزف. هكذا الإنسان يتدحرج عندما لا يرى أبعد من طرف
أنفه. اعزف، اعزف. أنتم تحبون التصفيق، أوه، تحبون التصفيق بغض النظر
عمن يصفق لكم ولأجل ماذا. وفوق ذلك، يمنحونكم ساعات عمل إضافية.
وبهذا طعنتني في نقطة حساسة. قلت لحضرتك، لقد كافؤنا بساعاتي
عمل إضافية. بيد أنني لم أعزف في هذه الأوركسترا لهذا السبب. ليس
لهذا السبب ادخرت في المدرسة بشكل لا مثيل له بين الأولاد. ليس لهذا
السبب جمعت النقود من أجل الساكسفون، مقتطعاً من لقمة العيش. أوه،
لقد طعنتني في نقطة حساسة. وتوقفت عن المجيء إليه نهائياً. قلت في
نفسي، إلى متى سأستمع لقوله، ليس هكذا ولا كذا، وهذا غير صحيح، غير
صحيح. كرّر وكرّر. وليته مدحني ولو لمرة واحدة. وفوق ذلك يريدني أن
أنسحب من الفرقة الموسيقية.

خرجت منه دون كلمة، لكن سأقول للسيد، إنني ضغطت على كفيّ
بشدة. ولم أستطع فعل أي شيء في العمل لعدة أيام. أحرقت المحول، أنا
الكهربائي. هو يطلب مني الانسحاب من الأوركسترا، مازال ذلك يدق في
رأسي. الانسحاب من الأوركسترا. الأوركسترا التي كانت أمني الوحيد.
ناهيك عن كوننا نحقق المزيد والمزيد من النجاح. في الآونة الأخيرة، نقلونا
إلى دوام نصفني، نصف في الأوركسترا والنصف الثاني في موقع البناء لا
غير. علاوة على ذلك، كان من المفترض أن نعزف لبضعة أسابيع في حفلة

تنكزية لإحدى النخب. اختارونا من بين عديد من الفرق الموسيقية. اعتبر الجميع ذلك امتيازاً لنا. ليس لنا كأوركسترا فحسب بل لموقع البناء بأكمله، للإدارة وما إلى ذلك.

وبهذه المناسبة اشترت لنا الإدارة بدلات جديدة داكنة ومقلمة، قمصاناً جديدة وربطات عنق حتى إننا تساءلنا، أليس من الأفضل أن تكون ربطات القوس، كانت الآراء منقسمة. هذه المرة، حصل كل واحد منا على نعل أسود وجوارب سوداء ومنديل للأنف. أرادوا أيضاً أن يشتروا لنا معاطف موحدة للجميع، لأن الوقت كان في الخريف، لكنهم بلغوا حدودهم بالفعل. لا يمكن للسيد أن يتصور كيف عشنا تلك الحفلة. أحصينا كل يوم قربنا منها. ولم أُنم تقريباً في الليلة التي سبقت مجيئهم لاصطحابنا.

كان يوم السبت، عندما وصلت شاحنة بقماش مشمع سوى أنهم وضعوا المقاعد على الجانبين. وعندما ركبنا منعونا من الخروج من أسفل المشمع. في الواقع كانت هناك ثقوب في القماش المشمع لكن بما أنهم منعونا من ذلك، لم يجرؤ أحد على أن يمد رأسه من خلالها. على أي حال، جلس عسكريان في نهاية الشاحنة وكانت أعينهما مصوبة نحونا. وبمجرد أن تحركنا أسدلوا القماش المشمع وسرنا كما لو في صندوق مظلم.

قالوا لنا، ستستغرق الرحلة حوالي ساعتين. لم تكن المسافة بعيدة جداً لو لم يكن الطريق صاعداً ونازلاً بحيث رمتنا، وهزّتنا، كما ترحزحت المقاعد من الجانبين إلى الوسط وكان علينا أن نمسك الآلات الموسيقية بأيدينا. لذلك عندما وصلنا إلى المكان كان الظلام يعم المكان. لا أعرف طبيعة هذا المبنى. كان كبيراً واسعاً منتصباً في الغابة وربما في المنتزه. لم أتمكن من رؤية شيء سواه. على أي حال، لم يسمحوا لنا بالتطلع حولنا بعد خروجنا من السيارة. اقتادونا مباشرة إلى ممر في الجناح الأيسر من المبنى ومنه إلى قاعة ليست كبيرة. هنا قام أحد العسكريين اللذين أحضرانا بإبلاغ أحد العسكريين، وكان يحمل نجمتين على كتفيه، بجاهزية الأوركسترا المجلوبة للعزف. وهذا العسكري طلب بدوره منا أن نخلع معاطفنا وقبعاتنا ونعلقها على شموعات الملابس. شخصياً لم يكن لدي قبعة بل قلنسوة فقط. في الحقيقة عزمت على شرائها. واشتريتها، مقابل راتبي الأول، كما أسلفت

سابقاً، في موقع البناء الأول الذي انتقلت إليه بعد كهربة القرية. سوى أن موقع البناء الحالي هو الرابع وقد خرجت بالقلنسوة.

خلعناها مثلما طلب منا. خرج مدنيان اثنان من الغرفة المجاورة وكانت في يد أحدهما قائمة. تأكد من هوياتنا ووضع علامة مقابل كل اسم في تلك القائمة. بينما اقترب الثاني من معاطفنا، وقبعاتنا، وقلنسوتي، ثم تلمسها، وتطلع في داخل كل واحدة منها، ضغط قلنسوتي بقبضته. بعد ذلك قاما بتلمسنا ليريا ما إذا كان لدينا شيء ما. لا أعرف لماذا هما لم يتكلما. وكانت لدى عازف الكلارينيت سكين جيب. يعرف السيد كيف تبدو سكين الجيب. إنها ليست بالسكين، يمكن لليد أن تستوعبها. نصلان قابلان للطّي، أحدهما أطول من الثاني، ومفتاح قابل للطّي أيضاً، فتاح معلبات، وربما فيه مبرد أظافر، بيد أنني لا أتذكر هل كانت سكين الجيب تحمل مبرداً آنذاك. طلبا منه أن يتركها على أن يعيدها إليه بعد الحفلة.

توقف قلبي، لأن أحد ذينك المدنيين سأل الثاني فجأة:

- هل من المفترض أن يكون ساكسفون؟

فدخل الثاني إلى الغرفة المجاورة فوراً. طال جلوسه هناك، هكذا تراءى لي. حقاً، عندما يكون الخوف هو الذي يقيس الوقت وليست الساعة، حتى اللحظة يمكنها أن تستمر إلى ما لا نهاية. عاد، أو ما برأسه، لكنني لم أشعر بالراحة على الإطلاق، لقد تصبب العرق مني. قاما بفحص جميع الآلات الموسيقية. هذا الكمان ليريا ما إذا كان ثمة شيء ما يخشخش في داخله، نقرأ على الطبل، ليريا إن كان هناك ما يزعج الصدى، وبالنسبة لي نظرا إلى فنجان الساكسفون. بعد ذلك سألا: هل أحضرنا معنا قائمة الألحان التي ننوي عزفها؟ كيف يمكننا ألا نحضرها طالما أنهم طلبوا منا سابقاً أن نجلب معنا مثل هذه القائمة. سلمنا لهما هذه القائمة. لكن هل جلبنا معنا تلك النوتات الموسيقية للألحان؟ هل هناك كلمات لأي من تلك الألحان؟ استغربنا لأنهم لم يحذرونا من قبل بأن أحداً ما سيغني. لقد شرحوا لنا أن هذا ليس هو ما يقصدونه. بطبيعة الحال، نحن أحضرناها بالرغم من أننا نحفظ عن ظهر قلب ما كان من المفترض أن نعزفه عادة. ومع ذلك، جلبنا النوتات

الموسيقية نظراً لأن الأمر سيبدو أكثر جدية فيما لو عزفت الأوركسترا استناداً إلى النوتات الموسيقية.

لقد أوقفونا مع هذه النوتات أطول من سواها. فحصها أحدهما وسلمها للثاني. وهذا الثاني على ما يبدو كما لو كان ذا معرفة بالنوتات، لأنه تفحصها بدقة، ورقة بعد ورقة ومن خلال نظراته يمكنك معرفة أنه فحص كل ورقة من الأعلى إلى الأسفل. حتى إنه وضع ورقتين أو ثلاثاً بين أصابعه وبعد ذلك ذهب إلى الغرفة المجاورة مرة أخرى ولم يعد لفترة طويلة. كانت هذه المرة طويلة حقاً. اعتقدنا، ربما يوجد شيء لا يعجبهم، على الرغم من أننا انتقينا الألحان التي اعتدنا على عزفها في حفلات ومناسبات عديدة. وأخيراً خرج. أعاد لنا النوتات الموسيقية. قال: على ما يرام. اتضح أنه لم يحتجز أي لحن. عدا ذلك، عندما قمنا بتفحص الأوراق للتأكد من أنه لم يخلط تسلسلها، لاحظنا وجود كتابة في أعلى كل ورقة مع توقيع غير مقروء لشخص ما: موافق. نادانا العسكري ذو النجمتين: هيا بنا، وقادنا عبر ممر إلى ممر آخر ومنه إلى قاعة الاحتفال. طلب منا الانتظار أمام الباب، ودخل في البداية وحده. لا أعرف لماذا. ربما لأنه أراد أن يبلغ أحداً ما بأن الأوركسترا تنتظر أمام الباب. لا يمكنك التحرك من دون أن يبلغ أحدهم الآخر بوجودك.

كنا على وشك ركوب السيارة عندما جاء الاصطحابنا، إذ قام أحد العسكريين اللذين جلسا فيما بعد في الخلف وقاما بمراقبتنا، بوضعنا في صف، ثم أبلغ العسكري الآخر الجالس جنب سائق الشاحنة بأن الفرقة الموسيقية جاهزة للمغادرة. بعد ذلك أنزل الباب الخلفي وطلب منا الركوب. لقد خرج بعد لحظة من قاعة الحفلة التكرية، وضعنا في صف حسب الآلات الموسيقية، الكمان، الفيولا، الكلارينيت، البوق، الترومبون، الطبل وأنا ثم الساكسفون. لم أعرف، هل لأنني الأصغر سناً أم بسبب الساكسفون. كان من المفترض أن نعزف شيئاً ما عند المدخل قبل أن نتقل إلى المكان المخصص للفرقة الموسيقية. والآن ليتخيل حضرتك، أنك تدخل إلى قاعة كبيرة متوهجة بالأضواء والشرائط الملونة والبالونات، ولا ترى الناس، ما عدا الأقنعة. صاح أحد الأشخاص:

- براقو، الأوركسترا حاضرة!

قاطعه بنض التصفيق وثمة من أضاف إلى التصفيق مرتين:

- براقو، براقو!

تبين أننا متأخرون. لكن ذلك لم يكن ذنبنا. سأقول للسيد، إنني لم أعرف كيف يمكنني فهم ذلك. ينتظرنا هنا هؤلاء الذين يريدون أن يلهوا، وهذان قاما بفحصنا كما لو أنهما لم يكثرنا بهؤلاء. قلت لنفسني، هل هما كانا أهم من هؤلاء؟ لأننا تأخرنا بسببهما، وهما من أوقفانا طويلاً. ربما لأنهما بدون قناع أما هؤلاء ها هنا فيرتدون الأقنعة.

الحفلة هي حفلة. لم تختلف عن أي حفلة أخرى لولا هذه الأقنعة. رقص بعضهم في حين خرج البعض الآخر متوجهاً إلى القاعة المجاورة، ويمكننا أن نخمن أنهم شربوا وأكلوا. لم نر ذلك لأن أحد المدينين وقف أمام الباب وكان يغلقه بعد كل واحد. لكن كان كل واحد منهم يعود مترنحاً. وهكذا تناوبوا على الرقص. لا يمكنني القول، إنهم أكلوا وشربوا وهم يرتدون الأقنعة. لأنهم لم يسمحوا لنا بالدخول إلى هناك حتى للعشاء. قادونا إلى قاعة أخرى، وتم الإبلاغ بأننا جئنا من أجل العشاء وعددنا سبعة. ثم جلبوا لنا سبع وجبات. للمرة الأولى في حياتي رأيت الناس يلهون وهم بالأقنعة. لم أتمالك نفسي من التعجب. خاصة أن جميعهم، رجالاً ونساء، كانوا يرتدون أقنعة مماثلة، كما لو كانت مفصلة عليهم. غطت وجوههم من الذقن إلى الجبين، مع فتحة للفم، والأنف والعينين، كما لو كانت لديهم فتحات بدلاً من الوجوه.

بعد ذلك عزفت خارج الحدود في أكثر من حفلة تنكرية، لكن، كان لكل شخص قناع مختلف. حتى إن كل واحد أراد أن يتميز عن الآخر بقناعه. ناهيك عن أن جميع الأقنعة تلائم بالألوان، من ذهبية إلى فضية. وفي أشكال مختلفة: بهيئة نجوم، أقمار وقلوب. أو أنها ضيقة للغاية بحيث تغطي العينين فقط، أو أن تبقى العينان والأنف والفم مكشوفة، وبقية الوجه مستورة. بالإضافة إلى ذلك كانت الأزياء مختلفة. أما هنا فأزياء الجميع موحدة، وفي كل الأحوال لا تختلف بعضها عن بعض كثيراً. والأقنعة بلون واحد أسود.

تساءلت، كيف يمكن الرقص في هذه الأقنعة. لا ابتسامات متبادلة، لا إعجاب، ولا أي استياء من خلال هذه الشقوق. كان من الممكن أن يتكلموا، لكن الصوت من غير المعلوم لمن يمكن أن يكون من خلال هذا الشق. والوجه يلتصق بالوجه في الرقص.

ربما لهذا السبب ذهبوا إلى تلك القاعة المجاورة حيث أكلوا وشربوا. وهم يترنحون كل مرة أكثر وأكثر أثناء عودتهم. بالفعل تآرجح بعضهم قليلاً. بقي شخصان أو ثلاثة بالكاد في حلبة الرقص أحياناً أما البقية فكانت تأكل هناك وتشرب. أخذت الأصوات هناك تتعالى كل مرة أعلى وأعلى ونحن كنا نعزف هنا لزوجين أو ثلاثة أزواج. حدث أن عزفنا ولم يكن هناك أحد. ذهبت إلى المراحيض ربما خلال إحدى الاستراحات الأخيرة. لاحظتُ أحداً ما في الكابينة المجاورة. لم يكن هناك شيء غير عادي، لولا أنني سمعته كأنه يتحدث إلى شخص آخر. أنصتُ باهتمام بالغ، لم يتكلم بوضوح، تمتم فقط، اعتقدت، الظاهر أنه سكران جداً. لكن ما أثار استغرابي فقط هو أن الشخص الثاني لا يتكلم. لم تبلغ جدران الكابينات الأرضية لذلك انحنيتُ، لكن ما رأيته أثار استغرابي أكثر إذ لاحظت زوجاً من الأحذية ليس إلا. ليست لأمعة بل أحذية عادية مربوطة بالقيطان.

- حسناً، ماذا تعتقد، هل سنبنّي عالماً جديداً أفضل؟

لكن تخاطب من؟ رغم ذلك، يمكننا في بعض الأحيان مخاطبة النفس، ما هو رأيك؟ الحق معك، يفضل الإنسان التحدث مع نفسه. في رأيي، هو يتحدث في الحقيقة مع نفسه حتى لو تحدث مع شخص آخر.

على أي حال، فضولي حبس أنفاسي. خاصة حينما تحدث عن هذا العالم الجديد الأفضل الذي آمنت أنا به أيضاً. فجأة، رفع عقيرته وكاد يصيح:

- كلام فارغ! لا نحن ولا هم! كل هذا هراء يا عزيزي.

صعدتُ على مقعد المرحاض، وأمسكت أعلى الجدار بيدي، رفعت نفسي بحذر بحيث مددت رأسي فوق الجدار حتى ذقني وماذا رأيت. يقف رجل ما أمام مقعد المرحاض وحيداً. كان قناعه مسحوباً من وجهه إلى أعلى رأسه هكذا بحيث رأيت القناع من الأعلى فقط. خاصة أنه وقف

منحني الرأس مترنحاً، وما زال يمسك بيده سحاب البنطلون وهو ينظر في الأسفل كما لو كان يتمتم:

- الاشتراكية، الرأسمالية، كل ذلك لا يستحق شيئاً. أنت قوة. يتوقف عليك العالم. رغم ذلك، ما أنت؟ حسناً، ما أنت؟ تجلس في البنطلون. مكان هادئ ومريح. يمكن القول إنه مرفأ. لو استطاع الرجل لاختبأ هناك في بعض الأحيان. وهناك ما يختبئ منه. أوه، نعم هناك. حسناً، استرخ، لأنني لا أستطيع التبول.

المعذرة يا سيدي، لكنني أقول ذلك فيما بيننا نحن الرجال. لا أقول ذلك أمام المرأة مطلقاً. أردت أن أرى وجهه، لكنه لم ينظر إلى الأعلى ولو لمرة واحدة. حتى إنه أصبح أكثر انحناء. صحيح، ما كنت لأعرف من هو من خلال وجهه. بعد كل شيء، حتى لم أعرف أين نحن، أين نعزف، لمن، ومن يكون كل هؤلاء، أولئك الذين يمرحون، لأنهم جميعهم يرتدون الأقنعة. وفوق ذلك، جلبونا في سيارة مستورة الجوانب بقماش مشمع ولم يسمحوا لنا بإخراج رؤوسنا منها.

أخذت يداي اللتان تمسكان بأعلى الجدار تسخان وتضعفان. لذلك حررتهمما بنفس الحذر وخفضت نفسي، إلى مقعد المرحاض في البداية ثم نزلت من المقعد إلى الأرضية بهدوء. فكرت هل ينبغي عليّ أن أسحب الماء لعله يعرف أن هناك شخصاً ما بجواره. لكن الفضول أوقفني. السيد نفسه يعرف أنه من الصعب على المرء أن يتحدث حتى عن نفسه، كيف سيتصرف في مثل هذا الموقف أو ذاك. ولهذا قررت أن أتحنح فحسب. تنحنحت لكن لم ينفع ذلك. حتى كأنه رفع نبرة صوته:

- إيه، أنت لديك حياة. كل بلائك هو على الأرجح من فردة السروال إلى فردة السروال. وإذا عجزت فلن يطردك أحد من هنا أيضاً. أعط لكل واحد منا، لن أقول لمن، مثل هذا السجن المؤبد. أما أنا فكما ترى، لا يمكنني التأكد حتى من الغد. لا يمكنني التأكد من كلمات أي شخص. جميعهم خلف الأقنعة، كيف يمكنك تخمين لمن تعود هذه الكلمات أو تلك. من منها تعني هذا أو ذاك. من منها حُكِّم ومن منها أُمِية. حذارٍ من كل

قناع. ماذا، هل تنظر إلى مكان ما؟ ربما إلى المستقبل؟ لكنك بدون عيون. هل ترغب في رؤيتي؟ الأمر لا يستحق. أوه، أقف على مقعد المرحاض ولا أستطيع التبول بسببك. سأقول لك، يجب على الرجل أن يفكر كثيراً. أنت لا تعرف كل شيء. لأنه لو كنت تعرف، لما رغبت في العيش أحياناً. لكن ماذا يعنيك هذا. لديك شيء واحد فقط في رأسك. ولو من المفترض أنه رأسي. لكن والحقيقة تقال، كيف هو رأسي؟ من أين؟ هل أحمله على رقبتي؟ أوه، هذا ليس دليلاً على أنه رأسي. أنا أحملك في سروالي أيضاً، فهل أنت ملكي؟ بطريقة أو بأخرى لم أشعر بذلك. بالأحرى أنا ملك. معلق عندك لكي يكون لديك من يقوم بحملك، يحركك، يخرجك، يدعمك، يخفيك وما إلى ذلك. ربما سيكون من الأفضل لنا فيما لو انفصلنا بعضنا عن بعض. ماذا تعتقد؟ وسنكون معاً من وقت إلى آخر فقط. ربما سأرغب في شيء أكثر من ذلك حينئذ. لأنه ليس من دواعي السرور أن أكون رجلاً من الصباح إلى المساء، ماذا تعتقد؟ ربما بالنسبة لك. لكن لا يهملك ذلك. تتدفق وأنت سعيد، أما البقية فيجب أن أقوم أنا بها، بعد ذلك كلها على كاهلي. ناهيك عن أن لدي التزامات أخرى. مؤتمرات، لقاءات، اجتماعات ومشاورات. ومازلت من واحد إلى آخر، من الثاني إلى الثالث، فالرابع، إذا كان النهار طويلاً، وأحياناً يكون الليل كذلك. حتى إنني لا أتذكر في بعض الأحيان، هكذا هي حياتي. قد يقول المرء إنها تناقض في حد ذاتها. أتعرف معنى التناقض في حد ذاته؟ من المفترض أنت وأنا وحدة. وهذه كذبة مبالغ فيها. إذا كان على هذا العالم الجديد الأفضل أن يبدو هكذا فأنا لن أكون فيه. وربما لم أعد موجوداً فيه، ماذا تعتقد؟ ثم ماذا، لأنني أبول؟ هذا ليس دليلاً على الوجود. وكما ترى، لا يمكنني فعل ذلك من دون موافقتك. حسناً، رَوْح عن نفسك. آه، أنت، أنت... أعرف ماذا تريد. حتى إنني أفهمك. لكن، استعد رباطة جأشك. مع أي قناع كان؟ وهل تعرف من قد يكون خلف هذا القناع؟ أنت لا تعرف. وأنا لا أعرف. اهدأ. يجب علينا أن ننجو من هذه الحفلة التنكرية بطريقة ما.

وأخيراً سحبُ الماء وخرجت من الكابينة. وهو خرج مباشرة بعدي، لكن بالقناع على وجهه.

هل السيد في هذا العالم لأول مرة؟ لأنك تتعجب من كل شيء. يتعجب السيد، يتعجب. لا أنسب أي شيء للسيد. أنا فقط أستمع لما يقوله السيد. أوه، إني لأرى حتى يدي السيد تتعجبان من الفاصولياء. لا يمكن للسيد الحلاقة بموسى الحلاقة. موسى الحلاقة تتطلب يداً باردة، غير مبالية بما يحدث في داخل السيد. إذا قال أحد الأشخاص شيئاً ما غير متوقع بالنسبة للسيد فإنك ستجرح نفسك. هل سبق للسيد أن خلق بموسى الحلاقة؟ على الإطلاق؟ بالتأكيد، يخلق السيد بماكينة كهربائية. لم يخلق السيد على الإطلاق؟ كيف يكون هذا ممكناً؟ الآن يرى السيد أنني أتعجب. لكن هذا هو بالضبط، لماذا لا يزال من الممكن أن تتعجب في هذا العالم. في الحقيقة، السيد ليس ملتجئاً. أرى، أن وجه السيد أملس. ما لم تكن هناك طريقة أخرى للتعامل مع اللحية اليوم. في هذه الحالة لا يعرف السيد ما هي موسى الحلاقة. لدي واحدة هنا في الدرج. ولدي فرشاة في مكان آخر ومعجون حلاقة وسائل ما بعد الحلاقة. يمكنني أن أخلق للسيد. ليس مهماً ألا تكون للسيد لحية، لكنك ستكتشف مدى متعة الحلاقة بموسى الحلاقة. يمكنك التأكد من ذلك فقط من خلال وجهك. هل يخاف السيد؟ من ماذا؟ لا أفهم. لا، أنا لم أعد أخلق بموسى الحلاقة. ليس بمستطاعي الحلاقة بهاتين اليدين. بيد أنني خلقت لعدة سنوات إلى أن أصابني الروماتيزم. بعد ذلك، ليس هذا فناً. تعلمت ذلك بنفسى. في الطفولة شاهدت أبي وجدي وعمي يان كيف خلقوا. خلق عمي (يان) بدقة أكبر. مرتين دائماً. خلق، ثم وضع المعجون على وجهه وخلق مرة أخرى. كما قال، وجهه خشنٌ ولكي يخلق كل رواييه وتجاويفه كان عليه فعل ذلك مرتين. كانت يدها ترتجفان ومع ذلك خلق

بموسى الحلاقة دائماً. جرح نفسه أكثر من مرة وسال الدم على وجهه، على الأغلب عند التفاحة، لكنه حلق مرتين. وحلق صباح كل يوم. لكنه حلق لحيته في مساء اليوم الذي سبق شنفه. لم ينتبه أحد لذلك رغم أنه لم يحلق في المساء قط. وحينئذ جرح نفسه أيضاً حتى اضطر لإيقاف الدم بالشب.

لا لكون موسى الحلاقة عمياء، لأنه كان يشحذها قبل كل حلاقة. أولاً، بآلة الصقل، ثم بالحزام. وبعد شحذها كان يتأكد منها، هل هي مشحودة جيداً. وإذا لم تشحذ جيداً يقوم بشحذها أكثر. هل يعرف السيد ما هي أفضل طريقة للتأكد من كون موسى الحلاقة حادة؟ اسحب شعرة من رأسك هكذا ومرر عليها الشفرة وأنت تمسكها بهاتين الإصبعين. لحظة. سأخذ موسى الحلاقة وأري السيد بنفسي. إنها موسى حلاقة جيدة مصنوعة من الفولاذ السويدي. دائماً كان أفضلها مصنوعاً من الفولاذ السويدي. جلبتها معي من الخارج. أحتفظ بها للذكرى، حلقت بموسى الحلاقة سابقاً، عندما كانت يداي فعاليتين. أسحبها من وقت إلى آخر، أمررها على حزام الشحذ حتى تبقى حادة. ينبغي اختيار الشفرة المناسبة للحية وحينئذ ستحلق أفضل. اللحية الخشنة تحب الفولاذ اللين، واللحية الناعمة تحب الفولاذ الصلب. وبطبيعة الحال على السيد أن يعرف وجهه. وحينئذ لا يجرح السيد نفسه. يُعرف الوجه أفضل وقت حلقه بموسى الحلاقة. لا يكون السيد أكثر قرباً إلى وجهه أبداً مما هو أثناء الحلاقة وبشفرة الحلاقة. ليصدقني السيد. يحلق السيد هنا بماكينه الحلاقة وبماذا تفكر أيضاً. لا يمكن الحلاقة بموسى الحلاقة هكذا. حتى لو جرح الرجل نفسه وخرج الدم فإنه سيعرف أن هذا هو وجهه. أكثر إيلاماً مما يراه في المرأة.

دع السيد يلقي نظرة الآن. سأستل شعرة من رأسي. سأقصها بموسى الحلاقة في الهواء، من الأفضل تحت الضوء. لا بشكل مفاجئ. بل بخفة. لأن الشفرة غير الحادة وبشكل مفاجئ، ستقطع الشعرة. ستقطعها لكن لا تقصها. هكذا تم التأكد منها دائماً. الآن لينتف السيد شعرة من رأسه. لنجرب على السيد وعندئذ سيقنع السيد. ماذا، يتأسف السيد على شعرة؟ شعرة واحدة. كم شعرة تنتف أثناء التمشيط صباح كل يوم. كم شعرة تسقط بعد الغسل. لن تؤذي السيد شعرة واحدة. ليسمح لي حضرتك بأن أنتف واحدة

لك بنفسي. يخاف السيد حتى لو قلعت شعرة من رأسه؟ لم أعد أفهم أي شيء. لا توجد لدى حضرتك ثقة بي؟ طيب، وجاء حضرتك إلي من أجل الفاصولياء!

أنا بدأت الحلاقة عندما كنت لا أزال في المدرسة. ولكن ذلك كان من حين إلى آخر. نما الزغب على ذقني للتو. وبما أن الأكبر منا سناً حلقوا فنحن الشباب أردنا مجاراتهم أيضاً. الواحد حلق الآخر وأما موسى الحلاقة فاستعرناها من البواب. كما هو معلوم، ليس بدون مقابل. كان علينا كل يوم سبت أن نكنس الفناء والشارع أمام المنزل وإزاحة الثلج في الشتاء. اشترت موسى الحلاقة لأول مرة عندما انتقلت للعمل في موقع البناء. كنت مازلت أستعيرها أثناء كهربة الريف أيضاً من أولئك الذين سكنت معهم في الثكنة. جمعت النقود من أجل الساكسفون ولذلك كان من المؤسف أن أنفقها على موسى الحلاقة.

حتى حدث أن قام أحد الحدادين في القرية المجاورة بعمل أمواس الحلاقة من محامل الدبابات. ليس لدى السيد فكرة عن ماهية تلك الشفرات. يمكن أن تضارعهما الشفرات المصنوعة من الفولاذ السويدي فقط، وحتى ذلك الحين أنا لا أعرف. كانت لا تزال هناك دبابات مكسرة شاخصة في الحقل من الحرب العالمية الثانية، أخرج حماياتها وعمل منها أمواس الحلاقة. صحيح أنها ثقيلة، حواشيها غير مريحة، سميقة، ومصنوعة من خشب الدردار أو السنط، لكن بإمكان شفرتها أن تحصد لحية حضرتك. اشترت اثنتين، حلقت بواحدة واحتفظت بالثانية كاحتياط وفيما بعد أعطيتها هدية لأمين المستودع الذي علمني العزف على الساكسفون. لم يطلب المال مقابل التعليم، كما أسلفت ل حضرتك، ولهذا اعتقدت أنني سأعطيها ولو موسى حلاقة. أراد إعادتها لي بعد توقفي عن الذهاب إليه.

لا، منذ ذلك الحين، حتى إنني رجوت أحد الكهربائيين لأن يذهب إليه لي جلب لي أحد الأجزاء. لا أتذكر كم من الوقت استغرق ذلك. إلى أن مررت في أحد الأيام بالقرب من المستودع، ربما رأي من خلال النافذة فأخذ يدق على الزجاج، مع ذلك تظاهرت بأنني لا أسمع. اعتقدت أنه ربما سيقول لي مرة أخرى: إننا عزفنا بشكل سيئ. فقبل أسبوع كان عيد المرأة. عزفنا

بهذه المناسبة في القسم الفني. حضر، رأيته، جلس في الأخير. كانت هناك خطب، زهور، شوكلاتة وجوارب طويلة للنساء. مازال البناء متواصلاً، تعثرت الخطط ولكن كانت هناك عدة مناسبات في السنة. إلا أن يوم المرأة كان أكثرها متعة.

اجتزت المستودع، لكنه ناداني من الخلف. وقف في الباب وصاح:
- ماذا، تتظاهر بأنك لا تسمع؟! كيف يمكنك أن تكون عازف ساكسفون؟! تعال إلى هنا.

عدت، واقتربت منه.

ماذا يريد السيد؟

- قال: أريد أن أشتري منك هذا الساكسفون.

أي ساكسفون؟ لم أفهمه، لأنني لم أملك أي ساكسفون. لم يطلب مني الادخار من أجله ولهذا لم أدخر. أما هذا الذي عرفت عليه في الفرقة الموسيقية فكان مملوكاً للمعمل. وهذا الذي علمني العزف عليه في المساء فهو معه.

- قال: هذا الذي كان لي من قبل.

قلت: هو لا يزال ملك السيد وهو لديك.

- قال: نعم لدي، لكنه ملكك.

كيف هو لي؟ مازلت لا أعرف ما الذي كان يقصده.

- إنه ملكك. لقد أعطيته لك. كان عليّ أن أخبرك قبل فترة، لكن الأمور سارت على هذا النحو. والآن، أريد أن أشتريه منك. خذ هذا عربون. ثم قام بوضع رزمة من الأوراق النقدية في يدي. سحبت يدي لكنه أمسك بها ووضعها فيها وشد أصابعي على تلك الأوراق النقدية.
- خذ.

سأقول للسيد، كان كما لو أن الإرادة هجرت هذه اليد، والدم قد هجرها. وقفت ولم أعرف ماذا عليّ أن أفعل وماذا أقول. طارت مني إحدى الأوراق النقدية، لكنه انحنى والتقطها.

- كنت ستفقدتها. احسبها للتأكد من مطابقتها. يجب أن تكون بهذا

القدر. حتى إنني لم أسمع كم عددها. سمعت كيف كان قلبي يدق فقط. ثمة شيء ما ضغط على حلقي.

- سأدفع الباقي لك بالتقسيط. كل شهر، بعد استلام أجري. لا تخف، سأدفع لك كل قرش. على قدر ما يستحق. لا أريد أرخص من ذلك. لن أغشك. لم أغش أحداً في حياتي. على قدر ما يستحق. وهو يستحق الكثير. كل شهر، بعد استلام أجري. إذا لم تصدقني إذاً، فف خلفي في الطابور، أمام شبك الدفع. وسأدفع بعد استلامي مباشرة. كل شهر. لا يمكنني دفع الكثير دفعة واحدة، لا أملك راتباً كبيراً، كما تعرف، ويجب أن أبقى لنفسى شيئاً للعيش. لكن، شهراً بعد شهر. سيستمر البناء طويلاً، خاصة مع هذا العمل، أوه، سيتواصل، وسألحق بتسديد كل شيء. وإذا أنهوا العمل مبكراً فالمستودع سيقى. كيف بدون مستودع؟ لقد وعدوني بالبقاء حتى التقاعد. وإذا لم ألحق قبل التقاعد فلا تقلق. لقد فكرت في كل شيء. سكتب لي في أي مكان أنت وسأرسل لك شهراً بعد شهر. وسأدفع حتى مقابل التحويل كي لا يستقطعوا منك. فكرت، أليس من الأفضل أن آخذ قرضاً من الجمعية الائتمانية، لكنني أثرت الدفع كل شهر إذا وافقت. لا أحبذ تسديد دين بدين آخر. حينئذ سيكون على عاتقك دينان. وليس هناك ما هو أسوأ من التورط بالديون. الحياة دين حتى لو لم تكن مديناً بأي شيء لأحد، ولم تقترض من أحد.

بالطبع، لم آخذ منه تلك النقود. كيف لي ذلك؟ أراد شراء ساكسفونه مني؟ لقد مات بعد عام ونصف من ذلك الحادث. لم ينتهِ البناء بعد. ذهب أحد الأشخاص إلى المستودع من أجل جزء ما فحرر له إيصالاً به، وكان عليه أن يوقعه فحسب، وفجأة انخفض رأسه. وتلك كانت النهاية. بيد أنه لم يترك قلم الرصاص يسقط من يده، يمكن حضرتك أن تتخيل ذلك. كأنه أراد بذلك التوقيع قبل موته على موافقته.

أوه، التوقيع شيء مهم، خاصة قبل موت الشخص. لماذا لا يوقع الرجل قبل موته. طوال حياته يوقع على أي هراء مهما كان. إن كان ضرورياً أم لا. على الأغلب بدون ضرورة. يكفي أن يحسب كل واحد كم وقع في حياته. كما لو كان لزاماً عليه مواصلة التأكيد على أنه هو وليس شخصاً آخر قد وقع

مكانه. كما لو أن شخصاً آخر، لنقل، يمكنه أن يكون مكان السيد أو مكاني. إذاً، لماذا عليه ألا يوقع قبل موته. بعد كل شيء إنه موته. في رأيي، لا ينبغي عليه أن يوقف هذه اليد. يجدر أن يكون هذا من شأن الموت أيضاً لأن يوقع. يقول السيد: يولد الإنسان ولا يوقع على أنه يريد أن يولد. أوه، هذا مفهوم. لرغبة قلة من الناس وقتئذ في ذلك فيما لو اعتمد الأمر على توقيع الإنسان. الموت شيء مختلف. إزاء الموت يجدر بالإنسان أن يكون حراً على الأقل. على أي حال، ما يضير الموت لو انتظر لحظة. إنها مجرد لحظة بالنسبة للموت. يتكلم السيد هكذا كما لو كنت أعني المظاهر فقط. إذاً، سأقول للسيد، حتى لو كانت، فلا ينبغي احتقار المظاهر أيضاً. عندما لا تكون الحقيقة في صالحنا ستبقى المظاهر لحسن الحظ. في بعض الأحيان، تبقى المظاهر وحدها من كل الحياة، على أن الإنسان قد عاش.

ترددتُ عليه طيلة تلك السنة والنصف. حتى كما لو كنا ما زلنا نتمرن اليوم، على أنه سيموت غداً. وعملت بجهد أكثر من ذي قبل. ذهبت إليه كل يوم تقريباً بعد العمل مباشرة، إذا لم يبقونا في موقع البناء أطول، بمجرد أن أغتسل وأغير ملابسني وأكل شيئاً ما أو حتى بدون أكل. دائماً كان في انتظاري، وأحياناً كان ينام واضعاً رأسه على المنضدة. لكن بمجرد أن أدخل يرفع رأسه على الفور.

- آها، هذا أنت. اعتقدت أنك لن تأتي وكل غياب خسارة. رسم لي دائرة بالطباشير على الأرضية التي كان عليّ الوقوف عليها. ودائرة مشابهة أخرى لنفسه على مسافة مناسبة حيث كان يجلس على الكرسي.

- لقد قسْتُ أنه من هنا إلى هناك سيكون الصوت أفضل. سأسمعك أفضل. المستودع ليس قاعة للحفلات الموسيقية. كما أنه ليس بمحل. إنه مجمع مواسير، ألواح معدنية، أسلاك، وإطارات سيارات والله يعلم ماذا بعد. وكل صوت يتغير على الفور.

جلب مزيداً من النوتات الموسيقية. وعمل لي موقفاً خشبياً للنوتات الموسيقية. عندما أتيت كان الموقف منتصباً في دائرتي وقد وضعت عليه النوتات الموسيقية.

- قال: سنبداً من تلك الموضوعه أمامي، وحذرني، بألا أقوم بقلب تلك النوتات الموسيقية. بعد ذلك وضع كرسيه الصغير في دائرته وطلب مني أن أقف في دائرتي الخاصة.

- فقط ابق مستقيماً، وليس كما في فرقتكم الموسيقية حيث الجميع منحنون.

كان ينال من فرقتنا الموسيقية دائماً. ظننت أن هذه طريقتة الجديدة لإبعادي عنها. لو أنه لا إرادي وأكثر لطفاً، لأنه لم يعد يطلب مني الانسحاب مطلقاً.

ارتجفت ساقاي من التعب في بعض الأحيان، لأنني كنت أعمل في البناء طوال اليوم واقفاً ولم يسمح لي بالجلوس ولو للحظة. هناك كرسي ثانٍ في المستودع، دعاني للجلوس عليه، عندما كان يحضر الإيصال. لكن عندما جئت إليه للتدريب معه، كان هذا الكرسي موضوعاً في الطرف الآخر من المستودع.

- قف، قف - كرر. في حالة الوقوف يعمل الحجاب الحاجز أفضل، ويدخل مزيد من الهواء إلى رئتيك. التنفس، أوه، شيء مهم مع الساكسفون، وأنت تنفس بسطحية، من هنا فإن دفعك الهواء إلى الساكسفون ليس جيداً. ناهيك عن القول إن عازف الساكسفون يجب أن يكون قوياً في الرجلين، قوياً في العنق وفي العمود الفقري بأكمله، وحينئذ سيعزف بطلاقة أكبر. يحدث أن تعزف حتى الصباح إذا أرادوا أن يلهوا وعندئذ لا يمكنك القول إن رجلينك تؤلمانك.

وسأقول لحضرتك، إنني لا أشعر بالتعب في رجليّ أبداً. وأحياناً ينبغي عليّ المجيء إلى هنا. كما هو الآن، بعد الموسم. قلت لحضرتك، أنا بحكم الواجب يجب أن أطوف حول المنازل ثلاث مرات يومياً، من جهتي البعيدة هذه وتلك، وعلى الأقل مرة واحدة في الليل. عندما أمشي أعرف أنني أحرس.

أرجو المعذرة يا سيدي، أنا بحاجة لشرب الماء، حلقي جاف. عندما تقشر الفاصولياء يثار الغبار قليلاً ولهذا السبب. هل ترغب حضرتك في

شرب الماء؟ لدي ماء جيد من بئري الخاصة. لا، هي كانت. طلبت تعميقها وتنظيفها فقط. لقد ركبت مضخة. ومددت الأنابيب منها إلى البيت. أوه، ومثلما ترى حضرتك، كل ما عليك فعله هو فتح صنبور الماء. مع ذلك ربما تريد حضرتك أن تجربه؟ تفضل. حسناً، هل هو جيد؟ ماء نبع. حفروا حتى وصلوا إلى المنبع. أقول لحضرتك، لا شيء يروي العطش مثله. حتى لو أردت شرب القهوة أو الشاي، لتوجب عليّ أن أشرب كأساً من الماء بغرض التذوق.

عندما أرادوا حفر هذه البئر أحضر أبي كاشفاً. لا أدري من أين، لقد جلبه بالعربة. فتش ثم فتش، وظلوا يدعون القضيب نحو الأرض، لكنه ما زال غير راضي. وأخيراً قال، إنه يشعر بالبرد، ولذلك طلب منهم أن يحفروا في تلك النقطة.

كثير من الأشخاص الساكنين هنا يأتون إليّ من أجل هذا الماء. يمدحونه، يا له من ماء، يا له من ماء. ليقبل لي حضرتك، من مدح الماء سابقاً. أكثر ما قالوه هو أنه خام أو عذب. أما ماء البئر فهو ثقيل دائماً. جمعوا مياه الأمطار لغسل الشعر والاستحمام. بينما سقوا حيواناتهم من مياه نهر روتكا. وغسلوا ملابسهم في روتكا. مياه النهر عذبة. عندما أرادوا المغادرة أتوا مع أوعيتهم لأخذ الماء على الأقل لشرب القهوة أو الشاي. كل شخص يحمل عدة أوعية. يقفون في الصف أمام البئر ولهذا عليّ الخروج والحفاظ على النظام حتى لا يأخذ الواحد مكان الذي قبله ولكي يكون الجميع متساوين. لأن بعضهم كان يأخذ الماء لجيرانه في المدينة حتى كهدية. إلى أين وصل الأمر، الماء كهدية. مياه عادية. هل اعتقد السيد ذات يوم أن يحدث مثل ذلك مع الماء؟ سأقول للسيد، هذا أدق مؤشر لما حدث للعالم. في بعض الأحيان، توجب عليّ أن أحدد لكل شخص وعاءين أو ثلاثة في أحسن الأحوال، لأن المنبع ليس بلا قاع. ستبدأ المضخة بامتصاص الرمل ويجب تنظيفها بعد ذلك. ويجب أن ينقضي يوم واحد على الأقل حتى يعود المنبع إلى وضعه مرة أخرى.

أوه، سيقر حضرتك بأنه ماء جيد. ربما تريد كأساً أخرى؟ أما أنا فساأشرب منه. هنا، حيث أقف الآن، كانت الأسطال مملوءة بالماء دائماً، وثمة لافتة

معلقة فوقها: «الماء الجيد يزيد الصحة». ها هنا حيث يجلس حضرتك، أو نحو ذلك، كما لو أنه جلس في دائرته، وقد وقفت أنا في دائرتي هنا، حيث أقف الآن. أقول لحضرتك، إن هذه الدوائر لم تقنعني كثيراً، بدت لي كأنها نوع من نزواته وقلت له ذات مرة:

يمكننا بدون هذه الدوائر. سيضحكون مني في موقع البناء. ثم ما علاقة الدائرة بالعزف.

- قال: لها علاقة، لها. ستكتشف ما هي العلاقة ذات يوم. قف. عود نفسك على ذلك. أعتقد أنه سيكون لديك مكان أكبر؟ لا يعيش الإنسان في الاتساع، بل في العمق. وكذلك لا ينبغي العزف في الاتساع بل في العمق.

قال، لو عزفت على الأكورديون لأمكنني الجلوس، وعلى التشيلو لأمكنني الجلوس وكذلك على بضع آلات أخرى، لكن ليس على الساكسفون. يتم العزف على الساكسفون من الرجلين وأعلى من الرأس. يتدفق الهواء حينئذ إلى الساكسفون ذاته وليس عليك أن تنفخ كثيراً. لا ينبغي عليك أن تملأ خديك بالهواء ولا توتر فكيك. أما أنت فمازلت توتر. استخدم شفيتك لترتيب الأصوات واستخدم لسانك لالتقاطها. وسيصير الساكسفون حساساً كالألم. ينبغي أن يكون هناك ألم بينك وبينه. وبالعكس ذلك ستظنان غريبين بعضكما عن بعض دائماً. هو ساكسفون، لكن من أنت؟

وسأقول للسيد، إنه صار أكثر كياسة. لم يعد يصحح لي كثيراً، لكنه استمع لي أكثر. في بعض الأحيان حدث أن انتهيت لكنه استمر كما لو واصل الاستماع. فقط لدى مغادرتي له قال لي، عليّ أن أصحح هذا أو ذاك، والانتباه إلى هذا أو ذاك.

في الحقيقة، أنا بذلت جهداً كما لم يحدث من قبل. ثمة إصرار نشأ في داخلي وشراسة للعزف. قال لي: لقد انتهينا لهذا اليوم، لكنني رجوته أن يستمع لهذا العزف أو ذاك، سأعزف هذا اللحن الآن وأرجوك أن تسمعه. أغلق عينه الوحيدة المبصرة، ربما سيعتقد حضرتك أنه نائم. وإذا به يفتحها على وسعها فجأة:

- اعزف مرة أخرى، لأن شيئاً ما قد فاتني.

في بعض الأحيان، جاء الحراس وطلبوا منا أن ننتهي، لأن المستودع لا يمكنه البقاء مفتوحاً إلى هذا الوقت. يجب عليهم أن يقوموا بختمه. ومع ذلك كانوا يغضون النظر. كنت أغادره في الليل والصمت مطبق في موقع البناء، حتى إنني لم أرد التصديق أحياناً أن موقع البناء هذا هو نفس موقع البناء كما كان في النهار.

كل يوم أحد، بعد عودتي من القداس، كان يعطيني الساكسفون للتدرب عليه. كلا، لم يسألني قط، هل حضرت القداس. سألني فقط: هل تمكنت من التدريب عليه؟ لم أتمكن من فعل ذلك في مكان السكن قط. كانوا يلعبون هناك منذ الصباح بالورق ويشربون الفودكا. حتى لو ذهب أحدهم للقداس أو لقداس احتفالي مع خضبة، لعاد وجلس على الفور وشرب الفودكا ولعب بالورق.

عندما كان الطقس صحوماً ذهبت إلى الحقل أو المروج. في يوم الأحد، لا يوجد أحد في الحقل، وفي أحسن الأحوال توجد الأبقار. العزف في الحقول الفارغة ليس جيداً. إذا عزف حضرتك سيبدو عزفك كما لو أنه يتلاشى. إنه أفضل في المروج. دخلت بين الأبقار في المروج. سأقول لحضرتك، إن الساكسفون اتخذ لحناً لم يتخذه في أي مكان آخر، لا أقول في المستودع، لكن في أي محل آخر، حتى لو في قاعة الحفلات الموسيقية. لن تصدق حضرتك، لقد توقفت الأبقار عن قطع العشب، لقد رفعت رؤوسها، سكنت وأنصت.

حاولت العزف في أماكن مختلفة لأرى إلى أي مدى يتغير الصوت وفقاً للمكان. لا أعرف كيف سيبدو الصوت عند البحيرة، في الغابة أو على روتكا، عندما كان لا يزال نهر روتكا متدفقاً، في القرية، إن كانت لا تزال هناك قرية. أوه، لقد أعطاني ذلك الكثير. الساكسفون نفسه، ومعبرته نفسها، وقصبته ذاتها، وأنا مازلت أنا، لكن الشيء مختلف هنا وهناك. على سبيل المثال، وقفت على ضفة النهر وكان الصوت مختلفاً أثناء جريان الماء بسرعة، ومختلفاً أيضاً عندما جرى الماء ببطء.

وكان الصوت أسوأ في الشتاء أو حينما يسقط المطر. ماذا فعلت

حينها؟ ذهبت إلى موقع البناء ووقفت تحت السقيفة. والحراس سمحوا لي بالدخول. قمت بإصلاح شيء ما هنا أو هناك للبعض. عندما أصبح المبنى مسقفاً صار الوضع أسهل. ذهبت إلى إحدى القاعات. مع ذلك، ففي الشتاء، خاصة في وقت الصقيع، كان من الصعب التمرن لفترة طويلة. كانت لدي قفازات قصبتها عند أطراف الأصابع، أي في المكان الذي سمح ببروز أطراف الأصابع فقط. مع ذلك اضطررتُ أن أنفخ يدي كل لحظة، لأنهما كانتا متصلبان.

لا أعرف من أين جاء إصراري. لن أدعي وجود شعور لديّ بأنه سيموت قريباً. ربما أثار هذا الساكسفون في داخلي شيئاً ما بأنه ملكي. وبدون ادخار ولا ضيق. قال لي ذات يوم:

- سألت نفسي تارة، لماذا أنا أحتفظ بهذا الساكسفون. أنا لا أعزف، وهو مطروح في الحقيقة. لدي حفيد لكنه يقبع في السجن. إذا مات سيبيعه بعد خروجه من السجن بثمان بخس. هو في عمر ك. حسناً، قف في دائرتك هذه.

وقفت كما أمرني. أما هو فجلس في مكانه. عزفت وكان يستمع بعينين مغمضتين. حينئذ انفتحت عينه تلك التي لا تبصر. وأقسم على قطع يميني، بأنه رأي بعينه تلك. حتى إن شيئاً ما قد ومض فيها لدرجة أنني توقفت عن العزف.

- اسأل القسيس إذا ذهبت إلى القديس في يوم الأحد. الكنيسة تبقى فارغة معظم اليوم، ربما سيسمح لك بالعزف فيها. لنكن صادقين، أي قيمة للعزف في المستودع. تحتاج إلى قاعة حقيقية. ماذا لديك هنا؟ محطة الإطفاء؟ حسناً، إنها أكثر سوءاً.

بعدما مات، وانتهى البناء، انتقلت إلى موقع بناء آخر، ومنه انتقلت إلى بناء آخر. أتذكر أننا بنينا مصنعاً للكابلات. وذات مرة، ذهبت إلى الدكان لشراء الخبز فسمعت أن الكنيسة في المنطقة من زمن الحرب، قد تعرضت للهدم، وأن الطقوس تقام في الثكنة. بعد الحرب، جلبت ألواح من المعسكرات والثكنات المفككة واستخدمت لبناء المنازل، الحظائر، زرائب الخنازير،

والدوائر والمدارس في المناطق المدمرة بفعل الحرب. نعم، وهذه الكنيسة بنيت من تلك الألواح وأنشئت في نهاية القرية، وأما الكنيسة المهدمة فتقع في الجهة الأخرى.

ذهبت في أحد أيام الأحد إلى الكنيسة وحملت معي الساكسفون في حقيته، على كل احتمال. لم يتم هدم الكنيسة بالكامل، يعني ليس إلى الأسس. لكن آثار الحرب بدت ظاهرة عليها. لم يكن لها برج. السقف مهدم إلى النصف. والنصف الثاني مثقب بالرصاص أيضاً. ثمة خروق في الجدران لإطلاق النار. لم يكن أي زجاج في النوافذ ولا بد أنه كان هناك زجاج ملون لأنه مازال بإمكانك رؤية بقايا ملونة على امتداد الحواشي. الباب الرئيس مقتلع. أما موضع الجوقة الموسيقية الكنسية فمنهار كما لو بفعل قنبلة. ولجت إليها من خلال الأنقاض، ومن بين تلك الأنقاض برزت قطع الأرغن المنهار ذي الأنابيب. صعدت عليها عن طريق الخطأ فتناهى إلى سمعي أنين أفرعني. لم يكن هناك سبيل آخر للدخول إلا من خلال تلك الأنقاض. لا توجد أي مصطبة، ولا أثر لمواضع الاعتراف، أين المذابح، الجانية والمذبح الرئيسي، أماكن فارغة. هناك آثار حرق على الأرضيات الحجرية. على ما يبدو لقد أحرق الجنود تلك المصاطب الخشبية وموضع الاعترافات والمذابح لطهي الأكل أو تدفئة أنفسهم. أطلقت النار على كل الجدران كما لو من الرشاشات وكانت تماثيل القديسين مهشمة. ثمة جزء هنا من رأس، ومرفق يد هناك، وقذعة قدم في صندل غريب. رفعت كفاً ما، أوه، كانت بلا هذا الإبهام. أجلت بنظري، لأرى ما إذا كان بوسعي العثور عليه في مكان ما. عثرت على الكف الثانية، كانت أصابعها كاملة وهي تشبث بجزء من مسبحة. ومع ذلك، اتضح أنها لا تشكل زوجاً مع تلك الكف، بالرغم من أنها يسرى وتلك يمنى. لن أتحدث عن الآثار الأخرى، أظن أن السيد سيخمن ذلك. كان عليك أن تكون حذراً من وضع قدمك. باختصار، الأنقاض والخراب في كل مكان. بالإضافة إلى ذلك، سقط المطر، عبر تلك السنوات المنصرمة بعد الحرب، وانهال الثلج، وتشكل الصقيع ولا يبدو أن أحداً ما قد حاول تأمينها من مواصلة الخراب أكثر.

بعض محطات آلام السيد المسيح كانت في مثل هذه الحالة. كانت

مرمية بالرصاص، مسودة، تقشر طلاء بعضها تقريباً، ولا يمكن للسيد أن يخمن هل المسيح يحمل الصليب أم أن الصليب يمشي وحده. وأما المنبر، فأقول للسيد، من الغريب أنه قد نجا. وهو مثقب بالرصاص أيضاً. لكن لم ينقصه أي درج. نعم إنه خشبي. ربما ألقوا الخطب منه لإذكاء نفوس الجنود. أو ربما كانت هناك ذكرى سنوية. يحتفل بالأعياد حتى في زمن الحرب.

صعدت على هذا المنبر الكنسي. لم تكن لدي نية في العزف، نعم، لقد أذهلني هذا الدمار. أردت فقط أن أنظر من الأعلى إلى كل شيء. لم أكن على المنبر من قبل مطلقاً. في صغري تصورت أن القسيس يرى من على كل شيء يدور في خلد الناس. حتى لو كان للشخص شعر كثيف والنساء يلففن رؤوسهن بأغطية شتوية، فإنه يرى كل شيء من خلال الشعر والأغطية. ولهذا اختبأت خلف أبي وأمي أثناء العظة حتى لا يستحضرني إلى أذهان من في الكنيسة بأكملها، بأن الشر يكمن في ذلك الرأس الصغير الأصفر - الرمادي والشر ينمو مع الإنسان، تذكروا، إخوتي وأخواتي. لأن كلمة الشر والشر ترددت في كل المواعظ. أكثر من مرة صرخ باسم ولقب هذا، وذلك، أو تلك.

وأنا أقف على المنبر وأنظر إلى هذه الأنقاض من الأعلى، وبعد لحظة، شعرت كأن شيئاً ما قد همس بي لأن أعزف. ربما تكون هذه الأنقاض. فتحت الحقيبة، أخرجت الساكسفون، وضعت معبرته بين الشفتين، لكن مازال لدي شك. وفجأة بدأ الساكسفون بالعزف كما لو من تلقاء نفسه. عزف وعزف، أما أنا فكما لو أصغيت فقط كيف يبدو عزفي في هذه الخرائب. في تلك الأثناء رأيت شخصاً ينزل من الباب عبر الأنقاض. شعره أبيض مشعث وهو يرفع عصا، يهزها باتجاهي ويصرخ بشيء ما. اهتز كما لو أراد الطيران. لكن رجله اليمنى لم تطاوعه، فلذلك كان بعد كل خطوة يقع عليها بعمق لدرجة بدا فيها أنه سيسقط قبل أن يصل. تكون لدي انطباع بأن أحد الأشخاص قد خرج من تحت هذه الأنقاض. كان يلهث، يتصبب عرقاً، يتعثر وأخيراً تقدم نحو المنبر وصرخ كما لو كان يلفظ أنفاسه الأخيرة:

- انزل! لا تثر الضوضاء! انزل! هل سمعت! ولج تحت المنبر وبدأ ينقر أسفله بعصاه. انزل! انزل!

لم أتوقف عن العزف. خرج من تحت المنبر، وقف، أدار رأسه نحوي وبدأ أنه يستمع. من الواضح أنه لم يتمكن من الإبقاء على رأسه بهذه الوضعية طويلاً، لأنه اتكأ على العصا بكلتا يديه خافضاً رأسه على هاتين اليدين. ثم وقف ساكناً، وأصغى. في إحدى اللحظات نظر إلى الأعلى مرة أخرى.

- سألني: أي نوع من الأنايب لديك؟ هذا الذي تعزف عليه؟

ساكسفون.

- لم أسمع بهذه الآلة قط. هل تعتقد أنها ستعجب يسوع؟ كان يستمع إلى الأرغن دائماً. لكن الأرغن كما ترى في حالة خراب. لو ساعدتني لسحبناه. لا أستطيع وحدي. أنا عجوز. وإذا وضعت العصا على الأرض فلن أتمكن من الوقوف على رجلي. عزفت على الأرغن هنا طوال حياتي. يا له من أرغن! هناك في الثكنة هم لا يحتاجونني. حتى ليس لديهم أرغن صغير، لذلك بقيت هنا. لن أنتقل إلى أي مكان لا توجد فيه موسيقى.

اقترب من الأنقاض وبدأ يدق عليها بالعصا.

- أوه، هل تسمع؟ انزل، وأزح قطعة الجدار هذه، سيكون السمع أفضل. ماذا سيُسمع أفضل؟

- إيه، أنت لا تفهم. آتي إلى هنا في بعض الأحيان، أجلس على هذه الأنقاض وأنصت. أوه، أسمع؟ لو كان بإمكانك إزاحة هذه القطعة من الجدار لي. انزل. أنت شاب يمكنك فعل ذلك.

كنت أجيء كل يوم أحد تقريباً إلى هنا لمساعدته في إزاحة هذا الأرغن. يعني، هو يجلس بجواري وأنا أقوم بالإزاحة. ينهض في بعض الأحيان، يحاول أن يرفع إحدى قطعه، لكنه بمجرد الانحناء يفقد توازنه. حتى طلبت منه أخيراً أن يجلس، لأنني سأزيحه بمفردي. لم يقل أي شيء تقريباً ولم يسألني عن أي شيء، ربما كان ينصت. لأنه كلما أزحت قطعة أكبر من الأنقاض ردد:

- أوه، الآن السماع أفضل. الآن أزح ما هو هنا. ذات مرة أزحت وأزحت حتى وصلت إلى لوحة المفاتيح وجلست من التعب، أما هو فقال:
- أوه، الآن بالقرب. اسمع.

غير أنني لم أسمع أي شيء، ليصدقني حضرتك، سألته:
ماذا بالقرب؟

- قال: الرب قريب. الرب موسيقى، وبعد ذلك هو كلي القدرة.
جئت في أحد أيام الأحد كالعادة، نظرت حولي لكنني لم أراه. وكان دائماً
يأتي قبلي ويجلس على تلك الأنقاض وينتظر. لم أراه في يوم الأحد التالي
أيضاً. تكرر الحال في الأحد الذي تلاه. لقد أزحت كل أجزاء الأرغن. كان،
كما يتخيل السيد، كومة من الأنقاض. التقطت أصغر القطع. لكنه لم يحضر.
ربما لحسن الحظ، مات قبل أن أزيح هذا الأرغن. لأنه لو رأى...

ماذا حدث بعد ذلك؟ بعد ذلك سقط الثلج. السيد يعرف ذلك. حسناً، من أين عرف السيد أنني اختبأت في القبو المخصص للبطاطس؟ لم أختبئ هناك بل أرسلتني أُمي في الصباح مع سلة لجلب البطاطس. كان الحساء الحامض [الجاودار] يغلي بالفعل، لقد وضعت البطاطس، وبالتأكيد كانت كمية البطاطس الموجودة في القدر كافية لهم. فجأة بدا لها أن الكمية لن تكفي. ولهذا قالت لي: خذ السلة، واذهب يا بني ثم أحضر المزيد منها وأنا سأقشرها. كانت تحب أن تطهو والقدر ممتلئة بكل شيء، فربما سيأتي شخص جائع غير متوقع. وإذا لم يكن جائعاً، فمع ذلك سيأكل.

جر جرت نفسي قبل أن ألتقط هذه السلة المدورة وأخرج معها إلى البويب. كان القبو عميقاً ولم يكن لدي ما يكفي من القوة لذلك توجب عليّ أن أنزل درجة بعد أخرى، أن أرفع السلة إلى درجة أعلى ثم أتبعها. صرت أمام البويب تقريباً ولم يبق أمامي سوى الدرجة الأخيرة من السلم عندما سمعت إطلاق الرصاص. وضعت عيني على شق في البويب فرأيت الجنود يركضون، يصرخون، ويرشون بمحتوى الأسطوانات المنزل والحظيرة وحظائر الخنازير. فلتت السلة من يديّ وسقطت على القاع بقرعة. جثوت على ركبتي بدلاً من القفز والعودة إلى المنزل، أغمضت عينيّ، ضغطت باليدين على أذنيّ وهكذا جلست، لا أسمع ولا أرى. أقول للسيد، لا يمكنني إلى اليوم فهم سلوكي. لا يمكنني مسامحة نفسي. لا، هذا ليس خوفاً كما يعتقد السيد. وإلا لأخرجني الخوف من القبو، لسمعت وجيب قلبي من الخوف، لكن قلبي تجمد. لم أشعر حتى بهمهمة في تينك الأذنين المسدودتين بيديّ. لقد تخدرت بالكامل.

لا أدري كم من الوقت استغرق جلوسي هناك، كأني تجمدت في تلك
الوضعية إلى الأبد، مرفصاً بعينين مغمضتين ويدين مطبقتين على أذني.
حتى إنني لا أعرف متى غفوت. هل يمكن للسيد تخيل أنني غفوت. هل
هذا طبيعي؟ صحيح أنني لم أحب الاستيقاظ مبكراً وكنت أستيقظ بصعوبة،
ولم أتمكن من الاستيقاظ حتى عندما سمعت صوت أمي منحنية فوقني وهي
تدعوني: استيقظ، انهض يا ولدي لقد حان الوقت. وفي أغلب الأحيان كان
يأتي والدي ليوقظني. كان ينزع اللحاف عني ويناديني: انهض، خلاص،
والا سأسكب عليك الماء البارد! بعد ذلك مشيت ناعساً لفترة طويلة.
غسلت نفسي وارتديت ملابسني ناعساً. تناولت الفطور لكنني مازلت أشعر
بالنعاس. كان عليهما أن يذكراني لكي أكل ولا أنام. ذهبت إلى المدرسة
لكنني مازلت نعسان. أحياناً، بالكاد أيقظتني المعلمة في الدرس الأول.
عندما قدت الأبقار إلى المرعى أثناء العطلة كانت هي التي تقودني في الواقع
ولست أنا، لقد جر جرت قدمي خلفها ناعساً.

حسناً، عندما استيقظت لاحقاً كان الثلج قد غطى كل شيء. لم أر مثل
هذا الثلج من قبل قط. لا يمكن للسيد أن يتخيل ذلك. غطى الثلج ثلث
الأشجار تقريباً. كانت هناك ليس بعيداً منحلة قديمة في البستان مكسوة
بالثلج تماماً، هجرها النحل وكان والدي ينوي صناعة منحلة جديدة، لقد
ظل يعد نفسه بذلك. ما زال الثلج يسقط سميكاً برقائق كبيرة لدرجة أنك لا
تستطيع رؤية الكثير. كان عليك أن تقطع هذا الثلج بنظرك كما لو اخترقت
الضباب. الثلج لم يكن طوال الشتاء. هناك صقيع، لكن الثلج صحيح جداً.
وعندما بدأ بالسقوط، لن أخبر السيد بذلك. لكن فقط عندما توقف تمكن
المرء من رؤية كيف غطى الأرض بكثافة. لقد غطى الثلج أكثر من نصف
بويب القبو. لحسن الحظ كان الشق الذي من خلاله يمكن رؤية المنظر
يوجد في الأعلى. كان من الصعب عليّ النظر لدى إلصاق عيني به لكون
الثلج مبهراً.

مثل هذا الثلج يغير العالم. على سبيل المثال، يمشي السيد في الغابة
بين الأشجار المكسوة بالثلج وإذا بك ترغب بالاستلقاء تحت إحدى تلك
الأشجار. وإذا سقط الثلج برقائق كبيرة فمع ذلك سترغب بالاستلقاء تحته

حتى لو طمرك. ولم لا؟ هل من الصعب تخيل أنك مستلق على سرير بشرشف، تحت لحاف رقيق، وفوق ذلك، لا أحد يوقظك ولنقل، ثمة فوق السيد شجرة تنوب سعيدة. أوه، يمكن الأشجار أن تكون سعيدة أو غير سعيدة أيضاً. مثل الإنسان، بالأحرى لا يوجد فرق كبير بينهما. أرى ذلك، لا يصدق السيد. سأقول لك، في طفولتي كان بمقدوري من النظرة الأولى معرفة الشجرة السعيدة من غير السعيدة. وإذا ذهبت مع والدتي من أجل التوت البري أو الفطر، هي ستبحث عن التوت أو الفطر وأنا سأبحث عن الأشجار، من منها السعيدة ومن هي غير السعيدة. مرة ناديت أمي لكي ترى، دعها تأتي لترى، فتركت التوت أو الفطر معتقدة أن شيئاً ما قد حدث لي. لكنها لم تقل لي قط: ثمة هراء في رأسي، لأنني أصرف انتباهها بلا معنى عن التوت أو الفطر. ليحاول السيد تخيل شجرتي بلوط متجاورتين، شجرة بلوط واحدة وشجرة بلوط ثانية، واحدة سعيدة والثانية كما لو أنها متجمدة في الهم، تهتز الأوراق على الأولى من الفرح لأنها على قيد الحياة، أما أوراق الثانية فكما لو أرادت أن تطير بعيداً.

اليوم لا يمكنني التفريق بين الاثنتين بناء على هذا الاعتبار. في بعض الأحيان، أقطع مسافة في الغابة وأفشل في مهمتي. كلها تبدو لي متشابهة لكن هل هي سعيدة أم غير سعيدة، لا أعرف. أخرج مع الكلبين أحياناً ثم أتتحقق مما إذا كانا نجحاً في ذلك. لكن، على الأقل، إلى أن يتشمم أحدهما إحدى الشجرات. وكيف أشجعهما على أن يشما ما ينبغي شمه؟ إذاً، من الضروري أن أشرح لهما ماذا يعني ذلك. وهذا ما لا يعرفه أحد. فضلاً عن ذلك، الغابة قد تعني للكلاب شيئاً مختلفاً. بالنسبة لي لم تعد الغابة نفسها.

عندما تجمدت أمام ذلك الشق، هبطت إلى قاع القبو. كان القاع أكثر دفئاً. نمت هناك، وهناك أكلت. أوه، كان هناك ما يمكن أكله. ليس البطاطس فحسب إنما هناك الجزر، البنجر، الملفوف واللفت. أما الشراب فشربت الثلج. تمكنت من تنحية البويب قليلاً بالقدر الذي مكنتني من إخراج يدي وجمع حفنة من الثلج.

لم أتوقع أن يجдени أحد هنا. سأقول لحضرتك، حتى إنني لم أرغب في أن يجдени أحد. وعلى أي حال، من؟ خلاء، صمت، وليس سوى هذا الثلج.

علاوة على ذلك، يمكن للسيد ألا يصدق أنني أخذت أشعر جيداً. انتابني الشعور ذاته عندما استلقيت في القارب وسط القصب، وإذا استدعاني أحد: والدي، أمي، أختاي، أظاهر بعدم السمع. تخيلت نفسي كيف سيوبخونني فيما بعد: أين كنت أنت يا ولد؟ إنه عقاب رباني. نصيح ونصيح.

لم يظهر أي حيوان، ولم يحلق أي طائر أو يحط في مكان ما على الشجرة. لم أر إلا أرنباً بعد مرور بعض الوقت، لكنه لاح لي فحسب كما لو كان فوق هذا الثلج. ومرة أخرى، بعد مرور بعض الوقت، لا أعرف كم من الوقت انقضى منذ ظهور ذلك الأرنب، لم أحسب الأيام. بطبيعة الحال يمكنني ادخار ولو حبة بطاطس واحدة في اليوم، لكن لماذا؟ عندما يعتمد الإنسان يعني أنه يعتمد على شيء ما. أما أنا، فكما ذكرت للسيد، لم أعتمد على أي شيء. بعد فترة، ظهر غزال. لم أصدق أنه حقيقي. نظرت ولم أصدق. ظننت أنني في حلم، وإلا كيف يمكن أن يكون في مكان مثل هذا حيث المطبخ. بالإضافة إلى أنه كان هادئاً، غير فزع، إذ من النادر أن ترى هكذا غزلان هادئة وغير فزعة. وقف وكأن لا شيء بإمكانه أن يفزعه. لا بد أنه كان جائعاً لأنه بدأ يفتش في الثلج. فكرت أليس من الأجدر بي أن أرمي له البطاطس فربما سيقرب مني. لكنني لم أستطع دفع البويب أكثر. وبساطة اختفى فجأة من دون أن يفزعه أي شيء. يعلم السيد أن الإنسان إذا نظر فقط هكذا إلى الثلج عبر الشق سيرى كل شيء بشكل مغاير. وحتى إن شيئاً مختلفاً يحدث عادة، عما يحصل عندما لا يكون هناك ثلج.

كانت عيني عالقة بهذا الشق، ومثلما في التصوير البلاستيكي المجسم، ظهرت أمامي كأنها بطاقات أعياد الميلاد. على سبيل المثال، هناك حيث وجدت الغرفة، ظهرت لي شجرة عيد الميلاد مزينة بالشموع. أضواء الشموع بشدة حتى صار حولنا ليل على الرغم من أن الوقت كان نهاراً. أو أن نجماً ضخماً، متوهجاً ذا ذنب مضيء بدأ فجأة بالسقوط من السماء في مكان ما خلف الغابة. توجب عليّ أن أرفع عيني من شق البويب لعدم تمكني من النظر إليه طويلاً. ومرة أخرى في أحد الأيام، رأيت الملوك الثلاثة قادمين. كيف عرفت أنهم ملوك؟ كانت على رؤوسهم تيجان. من الواضح أنهم ضلوا الطريق، لأنهم كلما ساروا قليلاً استداروا ومشوا في اتجاه مغاير.

ذات مرة ذهبت مع أبي إلى السوق ودخلنا إلى المتجر من أجل الدفاتر. كانت هناك بطاقات بريدية تحت الزجاج، من بينها: الملوك الثلاثة وهم يقطعون الثلج وثمة من يقودهم، ليس في ذاك الاتجاه بل في ذلك. لم أستطع إشاحة ناظري عنها. للمرة الأولى رأيت مثل هذه البطاقات البريدية. حتى إنني تجرأت على سؤال البائع: ماذا يُفعل بها.

- أجب: ترسل.

شرعت بتعذيب والدي:

أبي، دعنا نشترى واحدة منها لإرسالها.

- ولمن؟ سحبنى من يدي بغضب. لا يوجد لدينا أحد لإرسالها له. جميعهم هنا.

ذات مرة، ألصقت عيني على شق الباب، بمجرد أن دق الجرس في الزلاجة. صار كل مرة أعلى ثم أعلى ومن الواضح أنه اقترب في اتجاهي. فجأة بدأ بالابتعاد حتى صمت تماماً. ولم أشاهد الزلاجة ولا من كان عليها. وفي مرة أخرى، ظهر منشدو الترانيم الكنسية. ساروا في صف واحد، الواحد تلو الآخر وبالكاد تمكنوا من سحب أقدامهم من الثلج. سار أمامهم نجم، تبعه الملك هيرودس، والمارشال، واليهودي، والحارس، وكان الشيطان يمشي في النهاية. أدهشني عدم وجود الموت. فكرت، من سيقطع رأس هيرودس؟ لكن، ربما كان لكنه أبيض، والثلج أبيض ولا يمكن التمييز بينهما. مثلما لا يمكن التمييز بين الحلم واليقظة أحياناً.

أرسل لي السيد روبرت، منذ أن تعرفنا بعضنا على بعض، مثل هذه البطاقات البريدية، بمناسبة كل عيد من أعياد الميلاد، وأنا أرسلت له أيضاً. اخترنا مثل هذه البطاقات مع شجرة عيد الميلاد، ومنشدي الترانيم الكنسية والملوك الثلاثة وما شابه ذلك. غالباً ما اختار تلك البطاقات التي تحتوي على أمنيات وفي الوقت نفسه تسخر منهم. كتب لي: أرسل إلى السيد ما تبقى من براءتنا كما ستري على ظهر البطاقة.

أثناء اختياري بطاقة بريدية له في أحد أعياد الميلاد رأيت فجأة نفس تلك التي رأيتها من خلال شق البويب. ذاتها بالضبط. كان النجم يسقط خلف

الغابة والعالم مكسواً بالثلج. اشتريتها واشترت طابعاً بريدياً على الفور، وبردة فعل تقريباً، عنونها وأرسلتها. ليس إلى السيد روبرت. ها هنا. بدون أمنيات. ما هي التمنيات التي يمكنني إرسالها؟ ومن الآن فصاعداً أخذت أرسل البطاقات بمناسبة أعياد الميلاد بدون تمنيات. ترددت لمرة واحدة فقط، هل أوقع: مخلصكم. لكن، يعني مخلص من؟ لم تعد لي. لكن، كيف يمكنها العودة لي طالما أنني لم أعط عنواني الشخصي. أيعتقد السيد أن هذا بلا معنى؟ أنا اعتقدت هكذا أيضاً. لكن عندما حل عيد ميلاد آخر أرسلت مرة أخرى. قد لا يتفق السيد معي، لكن، في رأيي، العالم الذي نرغب فيه أن يكون هو فقط في البطاقات البريدية. لهذا السبب نرسلها بعضنا إلى بعض.

لا، لم أفكر فيما سيحدث عندما سيذوب الثلج. أكلت، نمت، نظرت من خلال هذا الشق في البويب ولم أكن متأكداً حقاً ما إذا كنت على قيد الحياة. وربما انتظرت فقط لأذوب معه. ولم لا أذوب مع الثلج؟ عندما لا يشعر الإنسان بأنه على قيد الحياة فإنه يرغب في الذوبان مع الثلج.

إلى أن ظهر ذات يوم رجال المقاومة هنا بشكل غير متوقع. أشرقت الشمس بقوة في ذلك الصباح، صارت الغابة شفافة والأشجار كما لو أنها انفصلت بعضها عن بعض بحيث رأيتهم قادمين من بعيد. قد لا يصدق السيد ذلك لكنني رغبت في أن يجتازوني. هل عليّ الصراخ بأنني هنا؟ أوه، لا. سأقول لحضرتك أكثر، اعتراني الخوف فقط حيثئذ. هبطت إلى أسفل السرداب وهناك تسلقت أيضاً على كومة من البطاطس المكسدة على الجانب. وجدت البطاطس في جانب وفي الجانب الآخر كان الجزر، البنجر، الملفوف واللفت. وفي الوسط هناك مساحة فارغة بحيث يمكنك الوقوف ووضع السلة وملئها.

لم أقصد أن كل ما جرى كان بسببهم. لم أرغب في أن يراني أحد كائناً من كان. طالما جاؤوا إلى القرية في الصيف والشتاء وفي أي وقت. عادة ما جلسوا في الشتاء أطول. لم يكن هناك منزل من دون أن يجلسوا فيه. في بعض الأحيان كان عددهم في المنزل الفلاني أكبر من ساكنيه. ناموا في العلية، في الحظائر وفي الغرف كذلك إذا كان لدى صاحبه أكثر من حجرة واحدة. نام الضباط في الغرف دائماً. توجب إطعامهم وهناك شفوا جراحاتهم. كان من

الضروري استدعاء الطبيب في بعض الأحيان. على الرغم من أنني لا أتذكر أن أحداً ما في القرية قد استدعى طبيباً في أي وقت من الأوقات. عالج الناس أنفسهم بالأعشاب والمراهم وشربوا المغليات، فركوا أجسامهم، وضعوا أوعية الحمامة، وكانوا يموتون إذا لم ينفع ذلك. كانت هناك طرق عديدة لمعالجة الأمراض. على سبيل المثال، هل يعرف السيد صدغ الأرنب؟ لا، إنه دهن. إنه الأفضل لمعالجة الجروح المتقيحة. وهناك الصبار للحروق. كما استخدم نبات القراص اللاذع لمعالجة الروماتيزم بوضعه على الأماكن المؤلمة. في بعض الأحيان، أذهب لأضع يدي على نبات القراص اللاذع. أو استخدمت خلايا النحل. وعرفوا كيف يعالجون حتى أسوأ الكسور، بدون وضع الجبس والألواح. أو هل يعرف السيد، معنى الطفل الجاف؟ الذي لديه خلع في الورك عند الولادة. لقد أصلحت الجدة كل نوع من هذه الأوراك. أحضروا لها الطفل لأنه يبكي ويبكي. قامت الجدة بوضع رجله الواحدة جنب الأخرى للتأكد من تطابق طياتهما. إذا لم تكن متطابقة يعني أن الطفل جاف. حيثئذ كان عليك الهرب من بيتها لأن الطفل كان يصرخ بين يديها. لكن لم يكن أحد يعرج في القرية. لم يكن هناك علاج لجميع الأمراض. بعد كل شيء، لا يعتمد العلاج على أن يكون هناك حل دائماً. يكفي أن يعرف الإنسان أنه لم يعد هناك علاج وبالتالي يجب أن يموت.

أوه، أن تستدعي طبيباً لم يكن أمراً هيناً. بسبب بعد المسافة، ولم يكن كل طبيب مستعداً للمخاطرة بنفسه. ذات مرة، طلبوا من والدي أن استدعي الطبيب، فصلينا جميعاً من أجله حتى عاد. وبعد ذلك كان عليه أن يوصله ومرة ثانية صلينا من أجل عودته. حتى سئم الناس منهم أحياناً. خاصة أنهم، بالإضافة إلى كل ذلك، يشربون ولا بد من تحضير الكحول المحلي لهم. حتى إنهم أقاموا حفلات الرقص. قلة منهم عرفوا العزف على الأرغن، كان لديهم هارمونيكا، جمعوا كل الفتيات وهنّ تحمسن كثيراً. وكانت النتيجة أن قادت هذه الرقصة بعضهن إلى الحمل.

كلما جاؤوا إلى القرية، يموت بعضهم في أعقاب ذلك. لم يمنعهم ذلك من الشرب والاستمتاع. عندما يشربون يقومون بإطلاق الرصاص في بعض الأحيان. تصور، لا أحد كان يسمعهم لأن القرية تقع في الغابة بعيداً عن

الطرق والسكك الحديدية. لكن دعني أخبر السيد، لقد أصبح الأمر ممتعاً عندما جاؤوا. كأن القرية تغيرت. ليس من الوهلة الأولى. جاؤوا، وجوههم منهارة، هزيلة ومسودة. عيونهم مؤرقة، محتقنة بالدم، بدا أنهم لا ينظرون بقدر ما هم لا يثقون. إذا ابتسم أحدهم فإن ابتسامته لا تكون شبيهة بابتسامة بشرية. لحاهم طويلة كأنهم لم يحلقوها منذ إقامتهم الأخيرة. كانت على رؤوس بعضهم ضمادات وأحياناً ما زال الدم ينضح من خلالها. بعض الأيدي بالحمالات. هذا أو ذاك كان يعرج. بعضهم مشى بفردة حذاء واحدة فقط أما الرجل الثانية فمربوطة بخرقة ملطخة بالدم. حملوا بعضهم، ولهؤلاء تم استدعاء الطبيب عادة. وسأقول لحضرتك: كانت روائحهم كريهة.

أول شيء بدؤوا به هو التقاط القمل. ربما لأن الوسخ لا يسبب الحكّة بقدر ما يفعل القمل. لا تحك الجروح كما تفعل لدغة القمل. لم يكن عندنا قمل لأن أمي اعتنت بهذا الجانب. عندما ظهرت قملة واحدة قامت على الفور بغسل كل شيء. وكانت تكوي الملابس بمكواة ساخنة جداً لدرجة الهسهسة. خاصة في مواضع الدرز. يميل القمل إلى التعشيش في مواضع الدرز. كان علينا جميعاً أن نستحم، نغسل رؤوسنا، نمشطها بالأمشاط الأكثر كثافة. كانت هناك أمشاط مخصصة للقمل فقط. كثيفة لدرجة أن الهواء بالكاد يمكنه أن يمر عبر أسنانها. وطبعاً رشتنا بمادة السابديلة العطاس. هل يعرف السيد معنى السابديلة؟ كانت العلاج الأكثر فعالية للقمل في ذلك الوقت.

تجول أمثال هؤلاء في القرى بأزرار ودبابيس أمان، بمشابك كبس، إبر ودبابيس وخيوط. كان عندهم مشابك للشعر وشرائط للتبطين، وعقد لربط شعر الفتيات. ماذا لديهم بعد؟ أشياء متنوعة. أربطة أحذية، ملمع للأحذية، مرهم لمسمار القدم ومسحوق ماركة الديك لعلاج الصداع. هكذا سموا هذه المساحيق بالديوك، لكن فقط للصداع. كان لديهم كل شيء مفيد تقريباً في المنزل. كانت ربات البيوت في انتظارهم. نادراً ما ذهب القرويون إلى السوق، ذهبوا فقط عندما كان لديهم المزيد لبيعه. وكانت هناك حاجة لمثل السابديلة دائماً. تقريباً مثل الماء المقدس.

ظهر القمل مع رجال المقاومة حال مجيئهم دائماً. ما زالوا لا يعرفون كيفية التقاط القمل. ليس الجميع، لأن أمي أو جدتي وضحتا لقسم منهم

كيفية التقاط القمل. لهذا أمسكوا به ورموه. ألم يكن عند السيد قمل قط؟ سأقول للسيد، من لم يكن عنده قمل لا يمكن أن يكون من هذا العالم. حرب تلو أخرى والسيد لم يكن عنده قمل، هذا غريب. أتحدث عموماً هكذا ولا أخص السيد. في هذا العالم لا بد من الإصابة بالقمل ولو لمرة واحدة ولا بد من معرفة كيفية التقاطه. حتى إن جدي تعجب، كيف يقاتلون طالما أنهم لا يعرفون التقاط القمل. قال: أول واجب من واجبات الجندي هو معرفة التعامل مع القمل بعد ذلك مع الجوع ثم مع المنزل الذي تركه وبعد ذلك يصير صالحاً للقتل، لقتل الجنود أو المدنيين. مع ذلك لم يزعج ذلك جدي في الجلوس معهم ومشاهدة كيف يلتقطون القمل. أوه، لقد أخبرهم بأن هناك قملة وهناك أخرى. ولهذا فلا عجب في نقله القمل إلى البيت فيما بعد. بعد ذلك استحموا، حلقوا ذقونهم، حلقوا شعر رؤوسهم، صففوها، حشوا وضمّدوا حتى صاروا مختلفين تماماً عما كانوا عليه عندما جاؤوا في البداية. جاؤوا كباراً وأصبحوا شباناً. وبعضهم صاروا صغاراً تقريباً. كان من الصعب في بعض الأحيان تصديق أن هذا أو ذاك هو نفسه. عندما جاؤوا بالكاد جرجروا أقدامهم لكن بعد ذلك أرادوا أن يرقصوا.

فجأة، طقطق الثلج في الأعلى، وصرّ البويب وثمة شريط من الضوء انسلّ حتى إلى القاع. لا يمكن رؤيتي فيه، لأنني كما ذكرت، جلست جانباً على كومة البطاطس. سمعت فقط صوت فتاة حاداً:

- مرحباً، هل من أحد هناك؟

فكرت للوهلة الأولى، هل يمكن أن تكون يا غودا أو لئونكا؟ كان لديهما صوت فتى أيضاً.

- مرحباً، هل من أحد هناك؟

وعرفت للتو أنها لم تكن أيّاً منهما. لا بد أنهم قد خمنوا، من خلال الثلج الذي جمعته للشرب أمام البويب، أن ثمة أحداً ما في الأسفل. ربما هي نزلت درجة واحدة نحو الأسفل، لأن صوتها أصبح أكثر رنيناً، على الرغم من أنه ما زال صوت فتاة، حتى بدا مروّعاً بعض الشيء:

- هل من أحد هناك؟ ليجنبي!

لم أخرج، أقسم لحضرتك. في هذه الأثناء، حدث شيء ما، من الصعب التنبؤ به. انزلت هذه الكومة من البطاطس التي جلست عليها محدثة قعقة وأنا معها. أي قدر هناك. ببساطة لقد استندت إليها مراراً فما كان عليها سوى الانزلاق ذات مرة. يكفي أن تكون هناك حبة بطاطس واحدة أكثر من اللازم. ولم تعد تتحمل. وهذا وحده يعطينا سبباً للتفكير، إذًا، لماذا في هذه اللحظة وليس في لحظة أخرى. قد يسقط الغصين من تلقاء نفسه، بالضبط في لحظة مرور شخص ما، فهل هذا قدر؟ سمعت في الأعلى صياحها:

- يا إلهي! لقد قفزت إلى الخارج وبدأت تنادي: ثمة شخص ما على قيد الحياة! شخص حيّ هنا!

ولم يكن أمامي حل سوى أن أظهر نفسي حيّاً. تسمع صوتاً شبه ملائكي فوقك عندما يترأى لك أن العالم لم يعد موجوداً وأنت غير موجود فيه ويبدو الحال كما لو أن هذا الصوت يستدعيك أنت والعالم للحياة. إذًا، ما الذي كان عليّ فعله، أن أصرخ بأنني غير موجود؟ بدأت أتسلق نحو الأعلى باتجاهها، غمر النور بصري هكذا بحيث إنني رأيت أولاً شارة الصليب الأحمر على كمّها وبعد لحظة رأيتها كاملة. لقد تفاجأت:

- يا إلهي، أنت مازلت طفلاً؟

سأقول للسيد، لقد أثارت حنفي بكلمة الطفل. اعتقدت أنها قاصرة. واتضح لي أنني كنت على حق. كانت يافعة وكاشفة اللون جداً على الرغم من أنها كانت ترتدي معطفاً عسكرياً، ويمكن أن تبدو أكبر سنّاً في السدارة مما كانت عليه. خاصة أن المعطف كان فضفاضاً بالنسبة لها والكمّان مطويان كثيراً، ومن المؤكد أن السدارة لولا شعرها لكانت كبيرة جداً. الصوت فقط هو الشيء الذي أشار إلى عمرها. مثلما يعرف السيد، المظهر يمكنه أن يخدع، أما الصوت فلا. خاصة بالزي الرسمي. في الزي الرسمي حتى أصغر جندي يمكن أن يبدو دائماً أكبر من سنه الفعلي. حتى الأطفال في الزي الرسمي يبدو كأن التدمير والقتل والحرق قضية عادية بالنسبة لهم. وبغض النظر عن الزي الرسمي، عندما يملك الشخص كل هذا القدر من السنوات كما كان لدي وقتئذ، فحتى لو كان أكبر سنّاً ببضع سنوات، فإنه

يبدو كبيراً في السن. ثم يتغير الأمر فيما بعد عندما تقترب السنوات بعضها من بعض، وكلما أصبحنا أكثر قرباً إلى الموت تساوى كل شيء. خاصة أن الموت لا يسلبنا الحياة وفقاً لعدد السنوات. لا أقول خبط عشواء. هناك حكمة للموت في هذا.

كانت مسعفة وفقاً لإشارة الصليب الأحمر التي حملتها على كمها. عندما خرجت من القبور رأيت أيضاً حقيبة معلقة على كتفها وعليها شارة الصليب الأحمر. كانت ثقيلة عليها لدرجة أنها ثنت ذراعها. حملت فيها الصيدلية بأكملها. علاوة على ذلك لم تكن لديها صعوبة مع الحقيبة فحسب. لقد كانت في القاطع وحدها، ليتخيل السيد ذلك. لم تشك مطلقاً، لكن ليس من الصعب تصور أن ذلك أكبر من طاقتها. واصلت غسل الضمادات، تضميد الجروح، إعطاء الجيوب ضد الألم، والصداع، مسحت العرق، ونظفت الأجساد من الدم والوسخ، وفي بعض الأحيان من الرأس حتى القدم إذا فقد الشخص القدرة على النهوض، وما زالوا ينادونها هنا، ونادوها هناك في النهار والليل.

حتى اليوم عندما أفكر فيها لا أستطيع تصديق أنه من الممكن أن تكون صغيرة وبدون أي راحة تلك التي يحتاجها كل واحد حينما يكون له من العمر الذي كانت فيه. لن أقول للسيد كم كان عمرها، لأنها لم تتطرق إلى سنوات عمرها قط ربما لشعورها بالخجل إلا أنها تحملت كل ذلك كما لو أنها كبيرة، أكبر سنّاً مما هي عليه. حتى إنني تمنيت في داخلي لو أنها أكبر سنّاً، أكبر بكثير. ليس، كما يعتقد السيد. تكون هذه الرغبة إلى سن معينة فقط وبعد ذلك تبدأ في التقهقر. أعتقد السيد أننا من الآن فصاعداً نصير أسوأ؟ لا أتفق مع السيد. نحن أسوأ بالفعل منذ مرحلة الصندوق الرملي.

هل لعب حضرتك بالصندوق الرملي عندما كنت طفلاً؟ أنا لم ألعب كذلك. ما المغزى من عمل الصندوق الرملي في الريف؟ الرمل في كل مكان. حيثما يدخل نهر روتكا في انحسار يكن هناك شاطئ رملي. كان بإمكان السيد أن يتدحرج على الرمل، يتدثر بالرمل، يبني شيئاً من الرمل، كل ما يرغب فيه السيد. وليس على شاطئ روتكا فحسب. علاوة على ذلك، لا ينجذب الناس إلى الرمل في القرية بقدر ما ينجذبون إليه في المدينة. ثمة

حقول، رواب، غابة مفتوحة من كل الاتجاهات، مفتوحة فوق السيد، مفتوحة في العمق، من سيرغب باللعب في الرمل! كان من الممكن اللعب في كل مكان. مثل السكن لقد سكن الناس في كل مكان. لم تكن هناك حاجة لبيوت كبيرة، لم يضطر أحد إلى الانفصال. سكنوا في الفناءات، في الحظائر، في حظائر الخنازير، في البساتين، الحقول، المروج، تحت السماء المكشوفة، وعلى نهر روتكا. العالم كله كان مسكناً، وكان المنزل فقط من أجل أن يجد الجميع أنفسهم مرة أخرى معاً بعد نهاية اليوم. كل واحد أراد أن يكون أقرب ما يكون من الآخر. في بعض البيوت لم تكن هناك حتى غرفة بل حجرة فقط وحينئذ كانوا أقرب ما يكون بعضهم من بعض. فقط في الأماكن الضيقة يمكن الشعور حقاً بالقرب. إذًا، فمن ذا الذي يعمل للأطفال صندوق رمل طالما أراد الأطفال الشعور بأنهم مع الجميع. لو خطر على بال أحد بناء صندوق رمل كهذا الذي في المدن فهل يظن السيد أن أحد الأطفال سيكون راغباً باللعب فيه؟ حتى لو ربطوه بسلسلة لقام بقطعها. ولعشش الدجاج، الإوز والبط في صندوق الرمل، لعبت به طالما أنها تحب التدرج على الرمل، أوه، وسيخرب صندوق الرمل.

رأيت صناديق الرمل خارج الحدود. حيثما عشت وجدت صناديق الرمل للأطفال بين البيوت. أحب الأطفال، أخبرت السيد، كلما توفر لي بعض الوقت جلست على المصطبة بالقرب من صندوق الرمل، وسط المربيات والأمهات والجندات. وسأقول للسيد، عندما نظرت إلى الأطفال وهم يلعبون في صندوق الرمل خامرني شعور بالعاطفة ولكن بالخوف أحياناً.

أوه، صدّقي، صندوق الرمل هو العالم. بضعة أمتار في بضعة أمتار لكنه عالم، بشرية وحروب مستقبلية. وجوه لطيفة، متوردة، تبدو بريئة ظاهرياً لكنك تستطيع الإشارة إلى أي منهم قد طُمر في هذا الرمل وأيهم قد اختبأ في هذا الرمل هرباً من أحد. من منهم لن يسعه هذا الرمل يوماً ما ومن سيضيع ذات يوم فيه. أياكون صندوق الرمل مذنباً؟ يعتقد بعض الناس كذلك. لكن عندما أفكر في هذا الأمر يترأى لي أحياناً، بغض النظر عن العمر، كما لو كنا جميعاً منفيين من صندوق الرمل.

ويعرف السيد، أنني، بطبيعة الحال، قابلت خارج الحدود صناديق رمل

ذات رمال ملونة، مخضرة، مزرقّة، وردية. أعتقد أنها مصبوغة. وإلا فأين يوجد مثل هذا الرمل الملون. لكن، هل يمكننا أن نصبح مختلفين بفعل الرمال الملونة؟ صحيح أننا نعتمد على الرمال الملونة أيضاً. لكن، لسنا متساوين بالقدر ذاته في اعتمادنا على نفس الشيء. ونحن لا نعرف من منا أكثر اعتماداً من الآخر. نحن لا نعرف، ما اللون الذي يتلاشى في هذا الشخص وما اللون الذي يصير أكثر إشراقاً في الشخص الآخر. وهل هذه الألوان التي نراها هي نفسها فينا؟ وإلى جانب ذلك، ليقبل لي السيد، هل يمكننا ابتكار لون للرمل أكثر حكمة من لون الشمس. أكثر حكمة للأوراق من اللون الأخضر؟ وللسماء من اللون الأزرق؟ وللثلج من اللون الأبيض؟ بالطبع، هناك ألوان معقولة. ألم يعرف السيد ذلك؟ لولا ذلك اللون الأبيض للثلج وقتئذ لكان...

ما اللون الذي أحبه أكثر؟ يسألني السيد، كما لو أنك صحافي. والسيد ليس كذلك. أعرف هذا الشيء بالتأكيد. حتى لا يبدو السيد كصحافي. أي لون؟ حسناً، لا أعرف. لقد فاجأني السيد. لا يوجد لون مفضل لدي. وإن قلت على سبيل المثال: اللون الأخضر فهل سيعني هذا أي شيء؟ كل شجرة في الغابة، كل شجيرة، كل وريقة، حتى الطحالب هي مختلفة في خضرتها. وكل ذلك يتحول في داخل السيد إلى خضرة أخرى. وعليه، فهل يمكننا القول إن هناك شيئاً أخضر؟ اللون الأخضر هو ما لا نهاية. كل لون لا نهاية له. عندما نظرت عبر ذلك الشق في البويب أذهلني كيف يتحول البياض الواحد إلى بياض آخر، وبعد لحظة إلى آخر ولا يعود إلى ما كان عليه مطلقاً. كما لو أن موجات البياض تدفقت على هذا الثلج. وعليه فما هو اللون الذي يكون عليه اللون الأبيض، في رأي السيد؟ السيد يلعب معي. يرغب السيد أن يراني في صندوق الرمل طوال حياتي. أنا بودي أن أكون كذلك. لكن، لا يوجد أي لون دائم. اللون حركة شأنه مثل كل شيء.

زرت صالات العرض والمتاحف خارج الحدود أحياناً. هل زار السيد أيضاً؟ لا بد أن السيد قد لاحظ أن أصعب لون لدى كل رسام هو جسد المرأة. حتى عند الرسام ذاته في هذه اللوحة وتلك. لا أقصد أن اللون تغير، بل إن العجز قد انكشف إزاء ذلك اللون. فهل يمكن القول إن جسد المرأة

له هذا اللون أو ذاك؟ طالما أن هذا اللون، دعنا نقول، قد يعتمد على شك الرسام في نفسه؟ أو على خوفه، معاناته وبأسه. نعم، وعلى رغبته كذلك. تولد انطباع لدي أحياناً وأنا أنظر إلى هذه اللوحات أن كل هذه الألوان لم تكن قادرة على التعامل مع شيء ما. لا، ليس النمذجة، كما يعتقد السيد. لماذا؟ يجب على السيد أن يكمل ذلك بنفسه إن كان لدى السيد نساء.

الأخت [المُسعفة الطبية] لم تخجل مني على الإطلاق، استحمت عارية بجواري. ناداها الجميع بالأخت هكذا وأنا كذلك. كانت هذه هي الكلمة الأولى التي نظقت بها. يا أختي. لأنني لم أتكلم طويلاً منذ وقت طويل. أنا ببساطة لم أتكلم. كما لو أنني لا أعرف. كما لو أنني لا أعرف الكلمات. ببساطة كنت صموتاً. على أي حال هي علمتني الكلمة الأولى. قالت: نادني يا أختي. هكذا يقول الجميع عني. هيا، قلْ يا أختي. قلْ، يا أختي. أخ - تي. وضعتني في الحراسة عندما أرادت الاستحمام.

- قالت: أنت يمكنك أن تنظر إليّ. لكن، راقب الآخرين لئلا يختلسوا النظر إليّ.

استحمت دائماً حيثما كان هناك جدول، مجرى أو نبع ماء. توقفنا حيث كان الماء هناك فقط. بعد كل شيء، كان علينا أن نشرب شيئاً ما، نغتسل بشيء وثمة الكثير من الملابس لغسلها. حتى لو كانت ضمادات. لقد ساعدتها في كل شيء. حملت عنها إلى الماء ما كان عليها أن تغسله، وبعد ذلك علقتها على الأغصان. لم أتكلم إلا أنني فهمت ما كانت تقوله لي هي والآخرين. أو إذا قامت بتضميد أحد الجرحى كنت أمسك بشيء ما دائماً، أخرجته من الحقيبة، قصصته، وساعدتها في ربطه. أو إذا أرادت غسل أحدهم لأنه استلقى كالجثة قمت بإسناد رأسه أو بقلبه على جنبه. خلعت حذاءه، لأنها غسلت رجليه دائماً حتى لو لم تكن رجلاه مجروحتين إلا أنها كانت تقول: سيشعر بارتياح برجلين نظيفتين. ليس لدى السيد فكرة كيف كانت أرجلهم منهكة، كلها بثور وجروح وخدوش ونخر، ومسلوخة حتى العظم في بعض الأحيان، وفيها صديد.

ذات مرة، صادفنا بحيرة صغيرة في الغابة حتى إنها لم تكن صغيرة. حينئذ

توقفنا هناك طويلاً. قيل: لم تطلها قدم بشرية حتى الآن ولن يعثر علينا أحد هناك. صحيح، حتى بدا ذلك من منظر الأشجار التي انقصفت من قدمها ومن تلقاء نفسها. حيث الفطر والعليق والفراولة البرية والعنب البري في انتظار من يجمعها لكثرتها. أقول للسيد، أما كثرة الطيور فحدث ولا حرج. ومثلما ترغب. منذ الصباح الباكر دوت الغابة بالغناء. وفي البحيرة سبح دجاج الماء، البط والبط. إنه مكان مثالي للراحة بعد كل هذا المشي المتواصل، وأخيراً لأخذ قسط من النوم ولعق الجراح بل حتى نسيان الحرب في الوقت المذكور. دعني أكون صادقاً، لم أعرف هل مازالت متواصلة أم أنها وضعت أوزارها. لم يقل أحد أي شيء. مازلنا نطوف في الغابات متجنين القرى. أتذكر، عبرنا خطوط السكك الحديدية ذات مرة، واجتزنا أحد الجسور مرة، وكنا لمرة في الطاحونة ليلاً. رأيت فقط أكياساً ممتلئة بشيء ما قد حملوها ووضعوها في العربة. طلبوا مني الجلوس على تلك الأكياس. كنت راكباً وهم يمشون على الأقدام. لقد غفوت أخيراً وعندما أزاخني أحد الأشخاص عن تلك الأكياس كنا قد أصبحنا في الغابة فعلاً. ذات مرة، كنا في قصر ما، لكن في الحديقة فقط. جلبوا لنا شيئاً لنأكله، أكلنا ثم واصلنا سيرنا. قادني الأخت من يدي دائماً. وكانت تسألني كل لحظة، هل أنا متعب. أحياناً يأخذني أحدهم على ظهره ويحملني قليلاً. حفروا مخابئ البطاطس في الشتاء، وعشنا في تلك المخابئ إلى أن تنتهي الحرب. ظلوا يحدثونا في البيت عن أن الحرب ستنتهي بحلول عيد الميلاد أو قل الفصح. أما هنا فلم يقل أحد أي شيء، على أي حال، بحضوري. إذا تحدثوا عن شيء ما يصمتون عندما أقرب منهم. في أحد المرات، لم يلاحظوني، كان الوقت مساءً، جلس عدد منهم أمام موقد النار وحينئذ تمكنت فقط من سماع: حتى النصر المؤزر. ربما كنت سأسمع أكثر لولا أنني دسست على غصن يابس فلاذوا بالصمت.

دعني أكون صادقاً، لم أرغب في أن تنتهي. كنت بخير معهم. الأخت كانت بالنسبة لي أختاً حقيقية تعلقت بها ولم أتخيل أننا يمكن أن نفترق. كان بإمكانني تخمين هذا وذلك بيد أنني لم أرغب في التخمين. حدث على سبيل المثال، أن قفز بضعة منهم أو عشرات فجأة، امتشقوا سلاحهم وذهبوا

إلى مكان ما. عادوا أدراجهم في الصباح أو في الليلة التالية أي في الوقت الذي كنت لا أزال فيه نائماً. لا أعرف أين كانوا. كيف يمكنني أن أسألهم طالما أنني لم أتكلم؟ دائماً كان تناول الطعام بعد رحيلهم أفضل. كان ثمة خبز وشرائح من لحم الخنزير وأحياناً قطعة لحم في الحساء. والحساء ليس نفسه دائماً، كما لو كان معمولاً من كل شيء، فقط حساء البازلاء على السبيل المثال. كان الجميع يفركون أيديهم لمرأى حساء البازلاء. وكان الأكل أفضل إذا تمكنوا من الإمساك بصيد من خلال كمين أو أنشودة. كان إطلاق النار ممنوعاً. نعم، عادة ما كنا نأكل جريش الدخن. يعرف السيد ما هو جريش الدخن؟ لن أشرح للسيد بعد الآن، لأنني منذ ذلك الحين لم أعد أطيق جريش الدخن. لا أعرف من أين حصلوا على هذا الجريش. مثلما لا أعرف أين زرعوا الدخن طالما أنهم حملوا أسلحتهم معهم.

ذات مرة جلبوا صندوقاً من الحلوى الصلبة، وكرة قدم في مرة أخرى، وفي مرة تالية، لعبة الداما وقد علمني أحدهم كيفية اللعب. بعد ذلك أخذت ألعب معه دائماً. وفي إحدى المرات جلبوا معهم كتاباً. حكايات أندرسن. هل يعرفها السيد؟ قالوا لي: إذا بدأت بتعلم القراءة فربما يمكنني الشروع بالتكلم. بيد أنهم لم يأخذوا السلاح من أجل الحلوى والكرة ولعبة الداما أو حكايات أندرسن. حاولت أن أقرأ ما في أفكارهم، لأنني لم أتمكن من فعل ذلك من خلال فمي. اجتزت صفحة بعد كدح بالكاد، حتى إنني فضلت تقشير الفاصولياء بدلاً من ذلك. على الرغم من أنني، كما أخبرت السيد سابقاً، لم أطق تقشير الفاصولياء.

ببساطة، لم أعرف القراءة، على الرغم من أنني كنت أفضل من يقرأ في المدرسة. قرأت بطلاقة تقريباً. في بعض الأحيان، قرأت في المنزل على أسماع الجميع بصوت عالٍ. ياغودا ولثونكا أكبر مني سنًا، إحداهما سبقني بصفين والأخرى بثلاثة صفوف، لكنهما قرأتا أسوأ مني. ذات مرة، لاحظت الأخت أنني أشعر بالتعب.

- قالت: أعطني، أنا سأقرأ لك.

ومنذ ذلك الوقت، ليس كل يوم، لم يكن لديها وقت أثناء النهار، أخذت
تقرأ لي في المساءات ولم يكن هناك ضوء. على الأقل صفحة أو صفحتين.
على الرغم من التصاق عينيها من التعب أحياناً. انضم إلينا في بعض الأحيان
هذا أو ذاك. كبار في السن، لكنهم استمعوا إلى الحكايات الخيالية، هل
يمكن حضرتك أن تتخيل ذلك. كانوا من رجال المقاومة.

كانت الأخت تضع دائماً ورقة جافة في المكان الذي تتوقف فيه عن
القراءة. بعد ذلك لم ترم تلك الورقة معللة ذلك بقولها: من المؤسف رمي
هذه الورقة البديعة. ثم وضعت ورقة أخرى في المكان الذي توقفت فيه عن
القراءة. أنا جمعت تلك الأوراق بانتقاء أجملها. قطعت مسافة من الغابة
أحياناً. بعد ذلك، قمنا نحن الاثنين بانتقاء الأجمل من بين تلك الأوراق التي
جمعتها بنفسي.

- هل تريد أن نتراهن عليها؟

وكنتم أرغب في ذلك دائماً.

- كانت تتعجب في كل مرة: أين أنت تعثر على مثل هذه الأوراق البديعة؟
سأقول للسيد، إنني من أجل تعجبها هذا كنت مستعداً لتسلق الأشجار
وليس البحث فقط وسط الأوراق الساقطة تحت الأشجار. نمت هناك أشجار
مختلفة من البلوط، الزان، القيقب، الدردار والجميز. لقد حشت الكتاب كله
بهذه الأوراق تقريباً. لم تزل أمامنا عدة حكايات للقراءة، لكنها لم تلحق.
سأجلب الكتاب لحضرتك فيما بعد وأريك ما هي. أحفظ به في غرفتي. لا
تقلق، لن أقرأ لك. دع الحكايات غير المقروءة تبقى على هذا النحو. لا، لقد
ضاع ذلك الكتاب المحشو بالأوراق. اشتريت هذه النسخة بنفسي.

ذات مرة، ذهبت إلى المتجر من أجل النوتات الموسيقية وكانت لديهم
كتب أيضاً. انتهيت من شراء النوتات الموسيقية غير أنني لا إرادياً ألقيت
نظرة على رفوف الكتب. فجأة، رأيت حكايات أندرسن. أخذ قلبي ينبض
بقوة أكبر. اشتريتها، جلبتها إلى المنزل ووضعتها على منضدة قوية جنب
السرير. عشت بمفردي، زوجتي توفيت مؤخراً. قرأت قبل النوم دائماً.
سواء كنت متعباً أو غير متعب، دائماً كان عليّ قراءة صفحة أو صفحتين

على الأقل. شعرت بعد قراءة تلك الصفحة بأن الهدوء ينزل عليّ وكل شيء يعود إلى مكانه، وبعد عدة صفحات أو عشر بدأت عيناى تنبها نى إلى أنهما ستغلقان قريباً. لم أكن مضطراً لأخذ الحبوب المنومة. على أننى بطريقة أو بأخرى لم أتمكن من قراءة تلك الحكايات التى لم تقرأها لى.

الآن لى وقت أطول بكثير من ذى قبل كما هو الحال بعد الموسم. لست مضطراً للنوم لأننى لست مجبراً على الاستيقاظ مبكراً ومرتاح جداً، ومع ذلك لم ألمس تلك الحكايات أيضاً. أقرأ، طبعاً لكن ليس كثيراً. حتى الكتب ليس بوسعها أن تجبرنى على النوم. علاوة على ذلك، يبدو لى أن الكتب لن تساعدنى بعد الآن فى فهم ما بوى بعدُ فى النهاية أن أفهمه.

عندما عملت فى كهربة القرى لاحظت ذات مرة حكايات أندرسن مطروحة جنب النافذة فى أحد المنازل حيث كنا نقوم بتأسيس الكهرباء. سألت صاحب المنزل هل يمكنى استعارتها؟

فكان جوابه:

- خذها. نحن لا نحتاجها. هى تعود لولدنا. لقد قتل. داس على لغم. جلبتها معى إلى المسكن، وكان عددنا فىه أربعة أشخاص، وفى المساءات كانت لى رغبة فى القراءة. رأى أحدهم من السرير المجاور ذلك وراح يضحك:

- ماذا، أنت تقرأ الحكايات؟

وقال الآخر من السرير الثانى:

- أنت بحاجة إلى فتاة. واحدة هكذا، لديها قيمة، فى هذا المكان هنا وهنا. فشعرت بالخجل، سحبت الحقيبة من تحت السرير وخبأت الحكايات فىها تحت القميص والجوارب وأشياء أخرى فى القاع تماماً. ثم ذهبت بعد ذلك إلى موقع البناء، لكننى لم أقرب من حقيبتى قط لإخراج الكتاب وقراءتها. أخيراً أعطيتها إلى أحد الأشخاص كهدية لطفله. أراد السفر إلى منزله فى يوم الأحد وكان قلقاً، لأنه لم يشتر أى شيء لطفله. سألته:

كم عمره؟ وأخرجت له هذه الحكايات. قلت: خذها. إنها مناسبة تماماً لعمره. أنا كنت فى سنه.

لكن، لماذا لم تخجل الأخت المسعفة مني؟ لا أعرف؟ هل لأنني كنت صموتاً؟ أم لسبب آخر؟

ذات مرة عندما حרستها كي لا يتلصصوا عليها، وقفت وظهري في جهة البحيرة الصغيرة وكانت تخلع ملابسها على الشاطئ. صاحت فجأة:

- أدر ظهرك! أتخجل مني؟ تعال إلى هنا! متى استحمت آخر مرة؟ لم أعرف كيف عليّ أن أجيبها، هل بأني استحمت مؤخراً. قالت: أكيد منذ وقت طويل. كلكم هنا تحبون الوساحة. اخلع ثيابك. ستستحم معي. لقد صدمت. لماذا تنظر إليّ هكذا؟ ألم تشبع من النظر إليّ بعد؟ أشحت وجهي جانباً. لا تقف. اخلع ثيابك. أعطني، سأساعدك. ربما لم أكن قادراً حتى على فك أزرار قميصي. ارفع رأسك. أعطني هنا يدك. ارفع رجلك. انظر إلى نفسك، انظر. ماذا أنت تعرف في هذا السن. أوه، أنت لا تملك حتى شعراً. هل ينتصب عندك؟ لكن، لم يحن الوقت، لم يحن الوقت. وربما لن نكون على قيد الحياة. على كل حال، أنا لن أكون بالتأكيد. هيا، اقفز معي.

وقفزت إلى الماء. كأنها شريط ملون، هكذا تذكرتها. كانت فيها كل الألوان. لم أجدها في أي لوحة قط. لقد انمحي وجهها لكنني مازلت أرى ذلك الشريط من جسدها.

- صاحت وهي تنبثق من الماء: هيا، اقفز! سنسبح إلى الضفة الأخرى! لا تخف، سأسبح بجانبك!

لم أخف، كان بوسعي السباحة جيداً. لقد قطعت نهر روتكا مراراً وتكراراً، مع التيار وعكسه. سبحت بجواري وعندما بلغنا الضفة الأخرى سألتني:

- هل تعبت؟ دعنا نخرج، ونجلس قليلاً.

خرجنا من الماء، جلسنا على الشاطئ ونظرنا إلى البحيرة من تلك الجهة.

- قالت: تبدو البحيرة أكثر جمالاً من هذه الضفة. وحتى الموت سيكون جميلاً عليها. سرحت في فكرها للحظة ثم قالت مرة أخرى: انظر إليّ. لا تنظر بعيداً. أريد منك أن تتذكرني. هل ستتذكرني؟ قل إنك سوف تتذكرني. أنت ستتنجو بالتأكيد. لأننا... لم تواصل. نظرتُ إليها. ظننت أنه يترأى لي، لكن لا، سألت الدموع على خديها. أنكرت: لا، أنا لا أبكي، بالرغم من

أنني لم أقل أي شيء. لقد خرجنا من الماء للتو ووجهانا مبللان. أنت أيضاً،
يمكنني القول عنك، إنك تبكي.

لكنني بكيت بالفعل. ليس ظاهرياً. شعرت بشيء من هذا القبيل كما لو
أن دموعي سالت إلى الداخل من الجهة الثانية. هل واجه السيد مثل هذا
البكاء؟ فيما يتعلق بي، لقد عشته مرة واحدة فقط حينئذ. وللمرة الأولى
عندما عثرت عليّ في هذا القبو، أحسست بالكلمات في فمي.

- قلت: أنا... وعلقت كلماتي. فيما بعد: - دائماً... فيما بعد. قلت:
يا أختي...

لم تدعني أكمل. انفجرت فرحاً:

- أنت تتكلم! أنت تتكلم! مسحت دموعها من على خديها. سنعود من
حيث أتينا. سنخبر الجميع بأنك تتكلم.

ماذا أردت أن أقول وقتئذ؟ لا أتذكر. ربما لم يكن بالشيء المهم. أما بالنسبة
لي فكانت تلك أهم الكلمات التي أردت قولها في حياتي والتي لم أقلها. إذا
فكرنا في الأمر هكذا، فكم عدد الكلمات التي سقطت إلى الأبد ولم يتم التلفظ
بها. وربما هي كانت أهم من جميع تلك التي قيلت. ألا يعتقد السيد؟

الشيء الوحيد الذي لم أفهمه هو لماذا لم ترد الاعتراف بأنها كانت
تبكي. وقد بكت، يمكنني أن أقسم بأنها كانت تبكي. في هذا العمر قد لا
تفهم كثيراً من الأشياء إلا أنك تشعر أعظم مما تفهم. ناهيك عن أنك ترى
كل شيء، ترى الأشياء بلمح البصر. لا يمكنك أن تحجب الحياة عن أحد،
وعلى وجه الخصوص عن الطفل. لا توجد مثل هذه الستارة لكي تحجب
بها. الطفل يرى حتى من خلال الستارة. أتساءل أحياناً، عما إذا كان الأطفال
هم ضمائنا. بعد ذلك مع تقدم العمر نرى كل مرة أقل مما سبق. ولم يعد
العالم يرغب في أن ينعكس هكذا في العيون. أما الطفل فليس مضطراً إلى
النظر. العالم يحشر نفسه بنفسه أمام جفونه. حينئذ يكون العالم شفافاً. لسوء
الحظ أننا نترفع عن ذلك. اليوم، من الصعب عليّ تصديق أنني أنا كنت طفلاً
أيضاً. رعيت الأبقار لكن أي دليل هذا. قبل ذلك رعيت الإوز. بعد ذلك
استلمها مني جدي وأنا استلمت الأبقار من جدي. وتخيلت أننا أنا وجدي

ستبادل العمل على هذا النحو باستمرار. سيأخذ جدي الأبقار مني مرة أخرى، أما أنا فسأتولى الإوز بعد جدي. بعدها سيأخذ جدي مرة أخرى الإوز وأنا الأبقار. وهكذا دواليك سيكون الأمر دائماً من الأبقار إلى الإوز ومن الإوز إلى الأبقار. كنت مقتنعاً تماماً بأن جدي كان جدي منذ البداية دائماً وأنا سأبقى طفلاً دائماً.

سأقول لحضرتك، حسب اعتقادي، وبغض النظر عن الكيفية، إن إطعام الإوز أصعب. يختلط إوزك مع إوز الآخرين، كلها بيضاء، وبعد ذلك عليك أن تتعرف على ما هي لك، وعلى تلك التي هي للآخرين. ناهيك عن كونها تتقاتل في بعض الأحيان، تنزف، تشبك الواحدة بالأخرى بحيث لا يمكنك الفصل بينها، خاصة ذكر الإوز.

كان لدينا كثير من الإوز من أجل ريشها، لعمل وسائل لكل من ياغودا ولثونكا عندما ستتزوجان. وفوق ذلك أرادت أمي أن يكون لهما ألحفة دافئة مليئة بالريش وهذه تتطلب كثيراً من الإوز. ولا تكفي سنة أو سنتان لتنف الريش. إنها بحاجة إلى كثير من الريش للحاف الواحد ولا يوجد لدى الإوزة ريش كثير.

لذلك فضلت أن أرفع الأبقار. بيد أنني لا أعرف هل حضرتك تعرف معنى المرعى؟ نعم، إنها مروج مخصصة لرعي الأبقار. لكن هذا ليس كل شيء. حتى لا أظيل في الحديث، سأخبر حضرتك بشيء واحد. لقد شعرت أمي باليأس مني أحياناً:

- كنت طفلاً حسناً عندما رعيت الإوز يوماً ما.

دخل فرد من خلال المرعى يدخل في فترة البلوغ مباشرة. كل من أنهى المرعى لم يعد طفلاً حتى لو قالوا إنه ما زال طفلاً. أما الأخت فعاملتي كالطفل طوال الوقت. منذ دهشتها الأولى عندما خرجت من القبو. يا إلهي، أنت مازلت طفلاً؟ وهكذا استمر الحال حتى النهاية. من المحتمل أنها لهذا السبب سمحت لي بالنظر إليها أثناء استحمامها، بينما خافت من الآخرين جميعاً؟ لا أدري، هذا ما لا يمكنني فهمه، خصوصاً بعد الذي حدث في إحدى الليالي. ولذلك، وقفت وحرستها حتى لا يختلسوا النظر إليها.

أوه، نعم، جميعهم تقريباً. بمجرد أن يلاحظ أحدهم أنها ذاهبة إلى البحيرة يتسلل على الفور خلفها ويتنظر في مكان ما خلف شجيرة، خلف شجرة أو حتى يتسلق الشجرة إن كانت مظلة على الشاطئ مباشرة. أحياناً حتى الجرحى تلكؤوا وزحفوا بصعوبة صوب البحيرة. لكن ليس جميعهم. خاف بعضهم عندما رأوا أنني أسهر على حراستها. وأكثر من شخص قلل من أهمية وجودي. أكثر من شخص شتمني. أو طلب مني غلق فمي والجلوس بهدوء. كان لدى أحد الأشخاص منظار استلقى بجوارى جنب الشجيرة أو الشجرة، أما أنا فكنت هواء بالنسبة له. كلما تحركت قال لي: كن هادئاً وإلا سأطلق النار. كان شخصاً ضخماً ذا نظرات شريرة كأنه لا يحب حتى نفسه. إن إطلاق النار على أحد بالنسبة لشخص مثله يشبه أكل كسرة من الخبز. خفت منه بشدة. ولهذا تجمدت كالعمود عندما جاء لاستراق النظر.

في إحدى المرات، أمرني بالوقوف هكذا بدون أدنى تذمر، وكانت تقف عارية على الشاطئ، كما لو أنها لا تنوي ولوج الماء، بقدر ما تعرض نفسها للشمس فقط. انطرح، وضع المنظار على عينيه وحدث، حدث، دق قلبي كما لو أنه لم يدق من قبل قط، وفجأة ضرب الأرض بقبضته، حضن الأرض برأسه وتأوه:

يا يسوع المسيح، يا يسوع المسيح! استدار بوجهه نحو الأعلى، كي يجد نفسه بين ساقها. كان الرجل يعرف ما الذي يكافح من أجله. مسح عينيه بعد رفعهما من المنظار. ما الذي سيضيرها، سوف يقتلوننا جميعاً في كل الأحوال. وجه المنظار باتجاهي متسائلاً: أتريد المشاهدة؟ هزرتُ كتفي. - وربما هذا سيكون أفضل.

حدث بعد بضعة أيام، في منتصف الليل، أن وضعوهم في صفيين ثم ساروا باتجاه ما وهم يمتشقون سلاحهم والأخت معهم. بقي من يعمل في الصباح، الحارس وأنا. لم يعد أولئك إلا بعد بضعة أيام عند الفجر. بدوا كأنهم ذئاب مطاردة، حملوا جريحين منهم على نقالة منسوجة من الأغصان. أما ذلك الذي خفت منه فكان يحمل الأخت بين ذراعيه. كانت ميتة. هو نفسه كان مصاباً في رأسه وشعره ملطخاً بالدماء والدم يسيل خلف ياقته. لم يرد أن يسلمها خلال الطريق لأي شخص. أرادوا عمل نقالة لحمل الأخت،

لكنه لم يسلمها. قتل أربعة أشخاص أيضاً، لكنهم بقوا هناك. لقد ألقى بنفسه تحت الرصاص وحمل الأخت. وقد أصيب آنذاك. قتلت الأخت أثناء معالجتها لأحد أولئك القتلى. بلا داع. لحق بأن يفتح عينيه فقط وقال: لا داعي يا أختي. وقد مات. من سمع؟ تسأل حضرتك كما لو كنت لا تعرف أن هناك من سيسمع دائماً. لا يوجد موقف لا يسمع به أحد ما.

سأقول للسيد، هي أحست بأنها ستموت. أو ربما لأنها لم ترد أن تعيش؟ لقد ساعدتها ذات مرة في حمل الملابس إلى البحيرة لغسلها. كانت كثيرة. كل ما غسلته وشطفته قمت بنشره على الأغصان. لم يكن اليوم كبقية الأيام. السماء زرقاء صافية بدون أدنى سحابة. أزهار الزيزفون مزهرة والغسل يمكن الشعور به في الهواء، طن النحل، وازدادت الحرارة جفافاً، طقس مثالي للغسيل والتجفيف. فجأة تركت خرقها خلفها، جلست على الشاطئ، كورت رجلها تحت ذقنها، تلفعت بذراعيها، ثم حدقت وحدقت في البحيرة.

- قالت: لا أرغب اليوم في غسل الملابس. أعرف، بودي أن أستلقي على تلك البحيرة. أن أستلقي هكذا. هل تعتقد بأنني سأغرق؟ نهضت وبدأت بخلع ملابسها.

-- سأذهب لأستحمّ. أما أنت فراقب. ثم قفزت في الماء. شاهدها كيف تسبح حتى بدأ الخوف بخنقي خوفاً من أنها ستستلقي بعد لحظة على الماء وستتوقف عن الحركة. لحسن الحظ، سبحت قليلاً وعادت. ارتدت ملابسها.

- أثبتت نفسها بقولها: حسناً، والآن اشرعي بغسل الملابس أيتها الأخت المُسعفة. وقالت لي بين قطعة قماش وأخرى أثناء المناولة: اسمع، هل تريد أن تنتقل للعيش معي؟ يا إلهي، هل يمكن العيش في هذه الأكواخ، الجحور؟ وعندما أخذت الخرق التالية منها لكي أنشرها، قالت: ألم يتقدم إليك أحد ما؟ لم أفهم قصدها. حسناً، لماذا تنظر إليّ هكذا؟ لهذا السبب ستسكن معي. للأسف، لم أفكر في ذلك مسبقاً. ربما لتمكنت أنا من النوم أيضاً. ولم أفهم كذلك، لماذا لا يمكنها أن تنام.

جمعت النثار العضوي، وعملت لي فراشاً مقابل فراشها. كان عليها أن تضيق فراشها من أجل أن يتوفر مكان لفراشي. اختارت من هذا النثار جميع المخاريط وثمار شجرة البلوط والأعواد، وضعتها على العشب اليابس وقالت: من أجل أن يكون مكانك وثيراً ثم وضعت عليه بعض الخرق. في بعض الأحيان، عندما كان الليل أكثر برودة، وضعت معطفها على البطانية التي تغطيت بها. مع ذلك، لم أنم أفضل عندها. على الرغم من أن أحدنا لم يشخر، لم يدخن السجائر، لم يتلفظ بألفاظ نابية ولم يصرخ أثناء النوم. نامت بهدوء، حتى إنني لم أسمعها على الإطلاق أحياناً. سوى أن هذا الصمت كان من الصعب عليّ أن أتحمّله. بالضبط هذا الصمت أحياناً، هو الذي أيقظني عدة مرات في الليل. استيقظت وأنصتُ بقلق لأرى ما إذا كانت نائمة. وإذا لم أسمع تنفسها رفعت نفسي من الفراش وأصغيت السمع نحوها. وعلى الرغم من كوني مطمئناً إلى أنها نائمة فإنني غالباً لا أعود قادراً على النوم بعد ذلك.

استيقظت مرعوباً في إحدى الليالي، لا أدري لماذا، رفعت نفسي ولمست جبينها برفق لأرى ما إذا كانت هناك حرارة. أفاقت مرعوبة بالقدر نفسه: - أوه، هذا أنت. يا إلهي، كم فزعت. لا تلمسني أبداً أثناء نومي. تذكر، لا تلمس. أردت فقط...

- قالت: أعرف. اضطجع، نم.

حدث في بعض الأحيان أن رفعت نفسها من الفراش، أصغت وهي تحبس أنفاسها لترى ما إذا كنت نائماً. وعندما اقتنعت بأنني نائم، على الرغم من تظاهري بالنوم، التقطت معطفها إذا لم تكن تغطيني به، وخرجت إلى مكان ما. حينئذ، دارت كل أنواع الأفكار في رأسي، وانتظرتها حتى تعود. وعندما عادت تظاهرت أحياناً بأنني استيقظت للتو.

- هل أيقظتك؟ المَعذرة. خرجت للاستحمام. عللت ذلك قائلة: على الأقل لا أحد يتلصص في الليل. الماء دافئ. القمر مكتمل. البحيرة أجمل مما هي عليه أثناء النهار.

وهكذا كان الحال في كل مرة. لذلك قررت أنني لن أستيقظ أكثر عندما تعود. وذات مرة تظاهرت بالنوم عندما عادت. استلقت في فراشها وفجأة سمعتها تبكي.

- قالت: أعرف أنك مستيقظ. لا يمكنني التحمل بعد الآن. هم مساكين حقاً. لكن، لا يمكنني التحمل بعد الآن.

مكتبة

t.me/soramnqraa

سرح السيد بأفكاره، أليس كذلك؟ وفي أي شيء إذا جاز لي أن أسأل؟ حقاً، هناك ما يستحق التفكير فيه. ولا ضرورة لوجود سبب لذلك حالاً. عموماً، نعم، هناك ما يستحق التأمل فيه. لقد رأيت ذات مرة تمثالاً خارج الحدود: متأملاً. رأى السيد؟ نعم، بالضبط. وقفت أمامه وبدأت بالتفكير. وددت لو سألته، في أي شيء يتأمل الآن هكذا. لكن كيف يمكنني أن أسأل تمثالاً؟ إذا أراد الإنسان التفكير بهذه الطريقة فمن المحتمل أن يصبح تمثالاً أيضاً. لكن في هذه الحالة أرجو أن يقول السيد لي: هل بوسع التماثيل، اللوحات، الكتب والموسيقى فقط أن تتأمل فينا، أما نحن أنفسنا فلم نعد بعد الآن؟

لا أقصد أي شيء. سألت السيد بهذه الطريقة كما لو سألت هذا التمثال. أعلم أن السيد مثلها لن يجيبني. يسأل الإنسان عن شيء أحياناً لكنه لا يتوقع الإجابة. يتفق السيد معي، توجد أسئلة مكتفية بنفسها. خاصة أن أي جواب لن يرضيها على أي حال. وحسب اعتقادي، هذا لا يعتمد بتاتاً على ما نسأل عنه. بل، على مَنْ يسأل من. حتى عندما نسأل أنفسنا فهناك سائل ومسؤول دائماً. يمكن أن يبدو فقط أن السائل هو من يجيب نفسه. وإذا فكرنا في ذلك اتضح أن هناك دائماً من يسأل، وثمة شخص آخر يجيب. أو أنه لا يجيب، دعنا نقول، لكونه مستغرقاً في التفكير. كل سؤال يختار لنفسه شخصاً مناسباً فينا. حتى لو كان السؤال أكثر تفاهة وجد شخصاً آخر. ليس ذلك الذي عليه أن يجيب فحسب بل ذلك الذي ينبغي عليه أن يسأل. وخلف كل سؤال سيكون كل من هذا وذاك الآخر. بعد كل شيء، يوجد فينا الطفل والشيخ والشاب، وثمة من يموت، من يشك، ومن عنده أمل، ومن لا أمل لديه. وهلم جرا، وهلم جرا.

لو كان الأمر بخلاف ذلك لما اضطر أحد إلى أن يسأل نفسه، ولما اضطر إلى الإجابة عن أي شيء. في غضون ذلك، لا أحد يمكنه أن يقول عن نفسه: إنه هو، كيف كان هو وكيف هو سيكون. لا أحد يمكنه أن يضع حدوداً لنفسه ولا أن يثبت نفسه على أنه نفسه. لذلك ما زال علينا أن نطرح أسئلة على أنفسنا، أحياناً من خلال هذا، ومرة من خلال ذاك، وفي مرة أخرى، من خلال شخص آخر، مرة تطرح على ذاك ومرة على ذلك، وفي مرة أخرى على شخص آخر، على الرغم من أن كل الأسئلة ستبقى بدون أجوبة.

أوه، نحن نقشر الفاصولياء، يمكننا أن نقول: حضرتك موجود، وأنا موجود، وبعد كل شيء، نحن نحس بكل سنبلة في أيدينا، بكل حبة نستخرجها من هذه السنبلة. ومع ذلك، فالأهم هو كيف نحن، السيد وأنا، نتخيل نفسينا بعضنا أمام بعض، كيف أتخيل نفسي أمام السيد، ويتخيل السيد نفسه أمامي. أما أن نرى بعضنا بعضاً ونحن نقشر الفاصولياء فهذا ليس دليلاً على أي شيء. لن يكون كافياً إذا قشرنا الفاصولياء فقط كي نستطيع اختبار أننا نقشر. أفكارنا المتبادلة بعضنا عن بعض فقط هي التي تعطي بعداً لحقيقة أننا نقشر. حتى إنني سأقول للسيد - حسب اعتقادي: إن المُتَخَيِّل فقط هو الحقيقي.

لماذا يستغرب السيد؟ في هذه الحالة، أنا لا أفهم مجيء السيد إليّ من أجل الفاصولياء. بعد كل ذلك، لم يعرف السيد أنني أزرع الفاصولياء. كما أسلفت، ليس كثيراً، لكن فقط ما يكفيني. لذلك وعلى وجه الخصوص، لم يكن السيد يتوقع أنني أبيعها. ومن يمكنه المجيء إليّ في هذا الوقت؟ على الأرجح، أحدهما من الموتى. لذلك أنا نفسي لم أكن أتوقع السيد أيضاً. بعد ذلك كان عليّ أن آوي إلى الفراش قريباً. لم يبق أمامي سوى الطواف حول المنازل. أستلقي في فراشي في هذا الوقت تقريباً. في وقت مبكر، لأن الليل الآن يبدأ مبكراً. بعد ذلك أنا أقرأ في السرير وأستمع إلى الموسيقى سواء نمت أو لم أنم، إنه يحدث بشكل مختلف. إذا نمت فبعد ساعة أو ساعتين سأستيقظ، أقرأ مرة أخرى، أستمع إلى الموسيقى حتى أغفو من جديد. ثم أستيقظ مرة أخرى، أنهض وأطوف حول المنازل. لكن، في بعض الأحيان، يحل الليل مثل النهار، أستلقي وأعلم أنني لن أغفو. حينئذ أنهض وأصبغ

هذه الألواح. أنا بطيء في ذلك كما لاحظ السيد، ويحدوني الأمل في أن الحق. لو كانت لدي يداي السابقتان عندما كنت لا أزال أعزف...

طرق متكرر على الباب، تساءلت، ومن الذي أحضره. إليّ هنا؟ وها هو السيد وإذا بك تسأل عن الفاصولياء. لو سألت حضرتك عن الطريق وكيف يمكنك الخروج من هنا وفي أي اتجاه لفهمت. أو أي منزل هو منزل السيد روبرت لأن السيد يريد البقاء هناك، حسناً، لقلت للسيد إنه هناك وأين يوجد المفتاح. أما أن يريد السيد شراء الفاصولياء، ليعترف السيد، هذا يمكن أن يثير الشك في داخلي. طيب، ماذا لو لم تكن لديّ؟ بعد ذلك، كان السيد مقتنعاً بأنني لا أملكها. اعتقد حضرتك أنه سوف يكون لديك بعض المتعة قريباً. على السيد ألا ينكر ذلك. حتى إنني تساءلت، هل لديّ [فاصولياء] أم لا، فربما ستكون هذه الحياة بالفعل. لكن، لفت انتباهي أن السيد يذكرني بشخص ما. خاصة في مثل هذا المعطف والقبعة، كان يجب علينا أن نلتقي في مكان ما، ولو بمحض الصدفة. لديّ، ليس لديّ، ليس لديّ، فتشت في ذاكرتي على عجل، أين، متى؟ بيد أن الذاكرة كالبئر، كلما كانت عميقة أصبحت أكثر ظلاماً. واسمح لي بأن أسأل: كيف يحدد السيد ما هي الصدفة؟ لماذا أسأل؟ لأنني، عندما كنت خارج الحدود فيما مضى، ذهبت قبل الظهر إلى البروفة، فرأيت من الاتجاه المعاكس شخصاً ما قادماً، وعندما أنظر إلى حضرتك الآن أراه شبيهاً بك قليلاً. لم نتقابل وجهاً لوجه، لقد كنا على مسافة أكثر من عشر خطوات أو نحو ذلك بعضنا عن بعض. ربما ما كنت سأنتبه إليه لو لا أنه أمال قبعته وانحنى لي. أو ربما انحنيت له أولاً رغبة مني في أن أكون البادئ، لأنني لاحظت أنه رفع يده أعلى قبعته ليخلعها وهو يتسم لي. على أي حال، لا أهمية لذلك سواء أكان هو أم أنا. وهكذا اجتزنا بعضنا بعضاً مبتسمين، هو ممسك بقبعته على رأسه وأنا بقبعتي على رأسي. لكن، بمجرد أن اجتاز بعضنا بعضاً، تلفت للخلف فرأيت أنه أيضاً ملتفتاً وينظر إليّ. لا أستطيع أن أتذكر أين التقينا ومتى. وهو على ما يبدو لم يتذكر أيضاً، وإلا فلماذا التفت للخلف ونظر إليّ، لو تذكر أين ومتى. مشيت عدة خطوات والتفت للخلف مرة أخرى. قد لا يصدق السيد أنه كان ينظر إليّ أيضاً. فكرت في أن أذهب إليه لأسأله من أين نعرف بعضنا. وفي اللحظة

ذاتها هو أيضاً تحرك بالمثل في اتجاهي، بنفس النية كما اتضح فيما بعد. اقتربنا بعضنا من بعض ورفع كل واحد منا من جديد قبعته للآخر، بيد أنني رأيته مرتبكاً قليلاً وأنا شاعر بخيبة أمل، لأن كلينا لا نعرف بعضنا بعضاً.

قلت له: أرجو المَعذرة يا سيدي. ربما نحن لا نعرف بعضنا بعضاً؟
- أجب: حقاً. وأنا لا أتذكر السيد أيضاً.

حسناً، إنها صدفة مؤسفة. هذا يحدث. مرة أخرى أعذر إلى السيد بصدق. أردت الانصراف وأنا أحنى قبعتي، إلا أنه أوقفني.

- قال: أوه، هذه ليست صدفة يا سيدي العزيز. لا يوجد شيء هكذا من قبيل الصدفة. حسناً، ما هي الصدفة؟ هذا مجرد تبرير لما لا نفهمه. لذلك لا ينبغي علينا أن نفترق هكذا. على الأقل دعنا نذهب لتناول القهوة. أدعوك. رجاء انظر، نحن نقف أمام المقهى. يقدمون قهوة جيدة هنا. أرتاده في بعض الأحيان.

القهوة كانت جيدة حقاً. لكن المحادثة كانت هشة. خاصة في البداية. أنا لم أتكلم تقريباً، لأنه عن أي شيء يمكنني التحدث مع شخص أخطأت فيه. لهذا أجلت النظر في المقهى على الرغم من أنه لم يكن هناك ما ينظر إليه. المقهى كأى مقهى. ليس بالكبير، بالكاد فيه دزينة طاولات وهو مظلم جداً. لم أحب المقاهي المظلمة. جدرانها مكسوة بألواح خشبية حتى النصف ومغطاة بورق حائط مذهب من المنتصف إلى الأعلى. بدت لي الطاولات ضخمة جداً بالنسبة لمقهى. بلغت مساند الكراسي الرأس تقريباً ولم تكن الكراسي مريحة على الإطلاق. أعجبتني مصابيح الجدران والشمعدان على السقف فقط. كل مصباح تألف من هيئتي امرأتين تمسكان بيديهما الممدودتين شمعدانين وفيهما شموع كما لو لم تكن هناك كهرباء. والمرأتان في كلا المصباحين جاءتا من عصور أخرى. ونفس الشيء بالنسبة إلى الشمعدان فهو ليس مكهرباً بل مرصع بالشموع ومزين بكريستال غني بأشكال متنوعة.

لاحظ أنني أجيل النظر في المقهى ولذلك بدأ يحدثني عن المقهى. حسبما قال، لم يتغير أي شيء فيه منذ تأسيسه تقريباً. ذكر السنة، لا أتذكرها

بالضبط، لكن عمره ينوف على القرنين. الطاولات نفسها، الكراسي، الشمعدان، الألواح الخشبية وورق الحائط كذلك ما زال في نفس الألوان والأنماط التي كان عليها قبل أكثر من قرنين من الزمان. وكالسابق توقد الشموع عند الغسق. وقال: هذا لا ينجم من المواصفات فحسب، بل توجد صور فوتوغرافية أيضاً وأنشئت عدة صور لداخلها. جمع أحد الرسامين كل الشخصيات الأكثر شهرة التي ارتادت المقهى خلال أكثر من قرنين كما لو أنهم جاؤوا إلى هنا دفعة واحدة وفي يوم واحد ووقت واحد وجلسوا خلف الطاولات. ذكر بعضها بالاسم واللقب دون أن يخبرني من يكون كل واحد منهم. من الواضح، أعتقد أنه يجدر بي أن أعرف الشخصيات بنفسي. لكن أي منها لم تفصح عن نفسها.

تحمس أمام بعضهم كما لو أنه التقى بهم ها هنا، على الرغم من أنهم عاشوا قبل نصف قرن أو قرن مضى أو قبل ذلك. لقد عرف عنهم الشيء الكثير. غالباً ما عرف الشخص والطاولة التي اعتاد الجلوس عليها. ثم هل كان وحده أم مع شخص ما. هل شرب القهوة أو الشاي أو أنه كان مغرمًا بالنبيذ وبأي نوع. وأي نوع من الكعك أحبه أكثر أو أنه لم يأكل الكعك على الإطلاق.

وكذلك من جلس على طاولتنا، على الطاولة التي كنا نجلس عليها. سمعت بهذا اللقب لأول مرة. هل عرفه السيد؟ إذاً، يعرف السيد ماذا كان يعمل. هذا هو اللقب الوحيد الذي علق في ذاكرتي من بين الألقاب التي ذكرها حيثُذ. وربما لهذا السبب كما قال السيد قبل لحظة: كان مشغولاً بالأحلام أيضاً.

بعد ذلك، اشتريت كتاباً يضم أحلامه. نحن يمكننا أن نجد نفسينا فيها أيضاً. السيد وأنا. وكل واحد. من المفترض أنها أحلامه، لكنها في الحقيقة أحلام عن الإنسان. يبدو أنه كان يرتاد هذا المقهى يومياً. وفي نفس التوقيت دائماً. قبل دقيقة أو بعد دقيقة. كان بالإمكان ضبط الساعة عند دخوله. عادة ما كان يسحب ساعته من جيبه ليتأكد مما إذا وصل في الوقت المحدد. وعندئذ يقوم الجميع في المقهى بإخراج ساعاتهم والتحقق من دقتها. أحياناً كان يشرب القهوة تلو الأخرى، خاصة عندما كان يكتب شيئاً ما

على المندبل الورقي. وأحياناً يطلب كوباً من الماء فقط، عندما كان يفكر ويجلس هكذا.

لأنك ربما توافق حضرتك، على أنه عندما لا يحدد شخص موعداً مع شخص ما، وأراد مقابله، فإنه سيأتي كل يوم، في نفس الوقت والمكان الذي سبق أن التقيا فيه. كما لو أن المكان ذاته بإمكانه أن يستدعي الشخص للمجيء. ثمة اعتقاد وهمي في أن الأماكن أكثر ديمومة من الزمن والموت.

- قال: لا أعرف ذلك. الانتظار في داخلنا شيء دائم. كما يعرف السيد، نحن غالباً ما لا ندرك أننا نعيش منذ الولادة حتى الموت في حالة انتظار. أما بالنسبة له، فمن المحتمل أنه ارتبط بالمقهى وبهذه الطاولة. إنه تعلق أقوى أحياناً من التعلق بشخص آخر.

لم أقل شيئاً. ببساطة لم أفهم إمكانية التعلق بالمقهى ناهيك عن التعلق بالطاولة.

لذلك، لو أنه رأى عندما يدخل أن طاولته مشغولة، لخرج على الفور حتى لو كانت الطاولات الأخرى خالية. ولتوجب على صاحب المقهى أن يقدم اعتذاراً له متعهداً بعدم تكرار ما حدث. حصل أن أثار شجاراً مع الشخص الجالس على طاولته. حتى إنه، ذات مرة، ضرب بعصاه على تلك الطاولة. كان يجلس هناك شاب وشابة، لم يعرفا أنها طاولته وربما هذه هي المرة الأولى لهما في هذا المقهى. عدا ذلك، هما شابان، وما زال العالم ملكاً لهما، وخاصة إذا تعلق الأمر بإحدى الطاولات في هذا المقهى أو سواه. وليس عليهما أن يوافقا على تغيير الطاولة بطاولة أخرى، لأنه ما الداعي لذلك. المقهى، كما تعلمون، للجميع وجميع الطاولات للجميع. من يجلس أولاً بالطاولة له. وهنا قد يأتي شخص ويقول: إنها أخذت طاولته. شخصياً، لم أكن لأنتقل إلى طاولة أخرى. ربما إذا رجاني بأدب قائلاً: إنه لا يستطيع الجلوس على طاولة أخرى، لأنه حتى القهوة أو الشاي سيكون لهما مذاق مختلف بالنسبة له. نعم، سأفهم ذلك. لكنه، طلب منهما المغادرة كما لو أنها مسكنه الخاص.

رُغم ذات مرة، أنه صفع أحد الأشخاص على وجهه بالقفاز، لأنه تجرأ

على أخذ طاولته. وانتهى الأمر حتماً بمبارزة لأن ذلك الشخص رد عليه برمي قفازه عليه مما يعني أنه يطالب بترضية دموية. لحسن الحظ، رفع صاحب المقهى هذا القفاز وسهل الوضع بطريقة ما.

بعد هذا الحادث تم وضع ورقة في حامل المناديل الورقية كتب عليها: الطاولة محجوزة. لكنه لم يأت مرة أخرى قط.

وفجأة، قال شيئاً ما الأمر الذي جعلني أتساءل:

- لقد مات مالك المقهى واستلمه ابنه من بعده. مازالت تلك الورقة قائمة على الطاولة في حامل المناديل الورقية: الطاولة محجوزة. ربما لو عرف أنها محجوزة ومازالت في انتظاره... بعد ذلك نشبت الحرب واستولى الجنود على المقهى والحرب لم تضع أوزارها بعد. وليس مهماً بالنسبة لهم، هل هذه الطاولة تعود لهذا أو ذاك، محجوزة أو غير محجوزة، لأن الطاولات جميعاً كانت لهم. جلسوا هناك حيث ألقى كل واحد منهم نفسه، وبالإضافة إلى ذلك، مدوا أرجلهم على تلك الطاولات.

سألني بشكل غير متوقع: أيمن أن أكل كعكة؟

- قلت: بكل سرور، على الرغم من أنني تجنبت الكعك، ولا ينبغي عليّ أن أشرب القهوة. كنت مريضاً في ذلك الوقت بقرحة الاثني عشر. أو ما برأسه إلى النادلة. جاءت إلينا بصينية فيها أنواع كثيرة من الكعك والابتسامات تعلقو محياها، من الواضح، كانت تعرفه، لأن ابتسامتها لم تكن ابتسامات نادل. حذق في تلك الصينية ثم قال:

- تفضّل، خذْ هذه. هم الوحيدون فقط ممن لديهم مثل هذا الكعك هنا. أو مات برأسي فليكن. أما هو فطلب الشيء ذاته أيضاً. وعندما أرادت النادلة وضع الكعكة بالملقط على طبقه أولاً، وجّه يدها إلى طبقي وبعد ذلك سمح لها بأن تضعها على طبقه.

- أليست هي لذيدة فعلاً؟

قلت: بالفعل، على الرغم من أن مذاقها لم يعجبني بسبب كثرة الكريم فيها. ولكن ماذا يمكن أن نقول أكثر عن الكعك. لذلك وقعنا في الصمت. حان الوقت لأقول شيئاً ما بدوري. حدثني عن هذا المقهى كثيراً لكنني

لم أفل أي شيء. على كل حال، لم أعرف ماذا. لم أكن مستعداً بما يكفي للتحديث. ربما تغلب عليّ كوننا انحنينا في الشارع بعضنا لبعض نتيجة خطأ وجلسنا هنا كصديقين جديدين بينما لم نكن نعرف بعضنا بعضاً. علاوة على ذلك، بدأت أشعر بالألم خفيف في الجانب الأيمن تحت الأضلاع كنتيجة واضحة للقهوة التي شربتها وربما بسبب تلك الكعكة. خشيت أن يتفاقم هذا الألم ويتواصل لأنني لن أتمكن حتى التفكير فيما سأقوله حينئذ. في العادة، عندما يصبح الألم لا يطاق أكون قادراً على الصمت فقط. ومع ذلك فحتى هذا الصمت كلّفني الكثير. صحيح كانت معي حبوب لكن، لن آخذ الحبوب أمام شخص غريب. قد يسألني ما خطبي. وحينها قد ينتقل الحديث إلى قرحة الاثني عشر. وإذا كان هو مريضاً أيضاً فسيكون بوسعنا التحدث عن الأمراض إلى ما لا نهاية. الأمراض، كما يعرف السيد، هي التي نتحدث. لكن هل انحنى بعضنا لبعض عن طريق الخطأ في الشارع لتحدث عن الأمراض؟ وفوق ذلك، لم أعتبرها مصادفة. فضلت ألا أقول أي شيء. تدخلت بكلمة ما من وقت إلى آخر لكن ذلك بالأحرى لتأكيد كلماته، كما حصل بالنسبة للكعكة عندما قال هي لذيذة، وأنا أكدت قائلاً: بالفعل.

أيعرف السيد، قال بعد أن كسر حاجز الصمت: إنهم يعملون الكعك هنا وفقاً لوصفة قديمة قدم هذا المقهى؟ ويحضرون القهوة كذلك. ألا يشعر السيد بأن للقهوة مذاقاً مختلفاً هنا عن أي مكان آخر؟ أكدت قائلاً: بالفعل.

- أوه، كما لو أن الطعم القديم للقهوة أعطى تنفيساً عن بعض الشوق. لم أعرف معنى المذاق القديم للقهوة، لأنني تذكرت منذ طفولتي قهوة الحنطة مع الحليب فقط. وطبعاً بعد ذلك، بعد الحرب، في هذه المدرسة، بدون حليب ولا سكر، كان لها طعم كالماء المرّ.

- قال، لهذا آتي إلى هنا في بعض الأحيان. كلي فضول لمعرفة كيف هم يحضّرونها؟ سألت صاحب المقهى ذات مرة فقال لي فقط: إنه سعيد لأنها تروق لي. أعتقد أنه حتى المقاهي لديها أسرارها. طعم القهوة القديم... - وسرح بأفكاره. لكنه قال فجأة وهو يخرج من استغراقه: هل تساءل السيد

يوماً ما عن مدى قوة ارتباطنا بالماضي؟ ليس بالضرورة بماضيها. حسناً، ما هو ماضيها؟ أين هي حدوده؟ إنه شيء كحنين غير محدد، لكن إلى ماذا؟ أهو حنين إلى ما لم يكن قط، لكنه انقضى؟ الماضي ما هو إلا خيالنا والخيال يحتاج إلى حنين، إنه يتغذى على الحنين. الماضي، يا سيدي العزيز، لا علاقة له بالوقت كما يُعتقد. وعلى أي حال، ما هو الوقت؟ هل يوجد هناك شيء مثل الوقت باستثناء التقاويم والساعات؟ نحن نبلى فحسب، هذا كل شيء. مثل كل شيء حولنا. الحياة طاقة وليست بقاء والطاقة تنفذ. وبالعودة إلى الماضي فهو لن يختفي أبداً، لأننا نواصل إعادة خلقه من جديد. يخلقه خيالنا وهو يشكل ذاكرتنا، يمنحها سمات، يملي عليه خياراته وليس العكس. الخيال هو أرض وجودنا. الذاكرة ليست سوى وظيفة من وظائف الخيال. الخيال هو المكان الوحيد الذي نشعر بالارتباط به، حيث يمكننا التأكد من أن هذا هو المكان الذي نعيش فيه فعلاً. وأيضاً عندما نموت، نموت فيه أيضاً. جنباً إلى جنب مع جميع من ماتوا على الإطلاق والذين يساعدوننا على الموت أيضاً.

مدّ يده فجأة إلى جيب سترته الداخلي وأخرج محفظته.

- هل يمانع السيد في السماح لي بأن أتدبر الأمر؟ لقد سبقته، ظناً مني بأنه ينوي دفع الفاتورة وفي الوقت نفسه يعطيني إشارة إلى أن لقاءنا قد شارف على الانتهاء.

- اعترض قائلاً: لا، على الإطلاق. أنا الذي دعا السيد. أنت ضيفي. من فضلك لا تنس. الآن مع ذلك بودي أن أري السيد شيئاً ما.

بدأ بالتفتيش في ثنايا محفظته ثم سحب صوراً فوتوغرافية، بطاقات عمل، بطاقات نصف مطوية وتذاكر. رمى كل ذلك على الطاولة، سقط شيء ما منه على الأرضية، لكن قبل أن أتمكن من الانحناء اندفع، كما ينقض الصقر على فريسته، وسبقني.

- هل من الممكن ألا يكون لدي؟ كيف حدث هذا؟ أحمل معي دائماً. عاتب نفسه بقليل من القلق. ليس عندي. على أي حال، ليس عندي. لا أفهم. أعذر منك جداً يا سيدي. بعد ذلك أعاد المحفظة إلى ذلك الجيب

الكائن هنا على صدره. هل يريد السيد تناول بعض المشروبات؟ سألني فجأة كأنه نسي ما أراد أن يريني إياه. لديهم هنا مشروب كحولي رائع من اللوز. ربما تفضل النبيذ؟ يؤسفني. ليس وحدي. لو كنت وحيداً لكان الأمر مختلفاً. على الرغم من أنني بعد ذلك، لا أعرف ما إذا كانت لدي حيثئذ رغبة في شرب أي شيء. يجب أن يكون هناك هدف ما دائماً للشعور بالرغبة. هذا ينطبق بنفس القدر على الرغبة في الحياة. من أين أنت يا سيدي؟ سألني بشكل غير متوقع.

لقد فاجأني لأنني ظننت أنه لن يسألني مرة أخرى عن ذلك طالما أنه لم يسألني حتى الآن. جلسنا لفترة طويلة جداً، لم تبق قهوة في أكوابنا وعلى أطباقنا فتات الكعك فقط. عادة ما سئلت في حالات مماثلة في البداية: من أين أنا. وهذا مفهوم لأنه من خلال كلامي كان يمكن التخمين على الفور. ومن المفروض أن يسألني من خلال كلماتي الأولى: من أين أنت؟

- قال: هكذا اعتقدت. حتى إنني كنت متأكداً. هناك حينما كنا في الشارع بالفعل، عندما اعتذر السيد مني. لكنني أنا من قام بتحية السيد أولاً. من يدري لو لم أكن متأكداً من ذلك حالما لمحت السيد وهو يبلغ قبعته. وجهي لا يمكنه أن يبدو معروفاً للسيد ولا وجه حضرتك بالنسبة لي. بدأت أذكر نفسي على الفور: أين ومتى. وإذا بإشراقة مفاجئة، بلى!

هل سبق أن كان السيد؟ سألته وربما بوقاحة من جانبي لأنني قاطعته. مع ذلك، تراءى لي أنه من المناسب أن أسأله، وربما قصد أن أسأله عن ذلك.

- قال بقوة: لا، أبداً، مسقطاً عن نفسه سؤالي تقريباً. قال: من المؤسف أن التدخين ممنوع هنا. أنا لا أدخن لكن هناك أوقات أرغب فيها بالتدخين. هل السيد يدخن؟

قلت: لا. تركت التدخين. دخت سابقاً.

- هذا جيد. هذا جيد جداً. التدخين مضر بالصحة. وحدق في مكان ما بنظرة ثابتة وعالقة هناك.

خطر ببالي، ربما رأى أحد أولئك الأشخاص الذين كانوا يجيئون إلى هنا خلال أكثر من ذينك القرنين. ربما لمح في الباب ذلك الذي جلس على

طاولتنا. وانتظرت حتى يفيق بعد لحظة ليقول: معذرة يا سيدي. حان موعد المغادرة. ثم قال: بصوت خفيض وعديم اللون:
- كان والدي.

أوه، كان يمكن أن يكون السيد مع الوالد في وقت ما، اندفعت برغبة تقريباً، مسروراً لأن فرصة أتاحت لي كي أقول أكثر.
- قاطعني بقوله: أثناء الحرب.

لقد تسرب ذلك إلى داخلي بغرابة. ربما لأنني كنت مستغرقاً فيما أردت قوله له فعلاً، طالما أتاحت لي الفرصة، وقلت كما لو أعلى من كلماته: إنه دائماً أكثر متعة مع شخص كان فعلاً. خاصة إذا كان هذا والده.
- قاطع اندفاعي: والدي ميت.

آه، أنا آسف. لم أعرف. أرجو تقبل تعازي القلبية.

- لم يعرف السيد والدي، وكاد ينتفض. مع ذلك شكراً لك.

شعرت بعدم الارتياح. شعرت بضغط طفيف تحت الأضلاع من الجانب الأيمن، إنه ألم الاثني عشر مرة أخرى أعطاني علامة على أن الأمر سيزداد سوءاً. عادة ما بدأ هكذا، في البداية ضغط طفيف تحت الأضلاع على الجانب الأيمن. كان يتراجع في الأحيان، مثل الذي حدث بعد القهوة والكعك. لكن الآن بدالي أنه أوسع، حيث أخذ يشع حول الجانب حتى الظهر. استحوذ علي قلق من أنه إذا استمر في النمو فسيصبح عما قريب أمراً لا يطاق. سأشحب، وسيتصبب العرق على جبھتي وسيكون من الصعب ألا يلاحظ هو ذلك.

سيسألني: هل يشعر السيد بأنه ليس على ما يرام؟ وبماذا سأجيبه حينئذ؟ إن هذا بسبب القهوة والكعك؟ سأؤكد له على أن القهوة ممتازة والكعك لذيذ. وليس من اللائق أن أقول: لا، لا، أرجو مواصلة الحديث، لأنه من غير اللائق الاعتراف بأنني أعاني من شيء ما. خصوصاً في هذه اللحظة عندما يقول: إن والده، أما أنا فماذا سأقول، إنني أعاني من قرحة في الاثني عشر؟ يقر السيد بأن ذلك سيكون على أقل تقدير محرّجاً. لا ينبغي أن يوضع الألم في مواجهة الألم. لأن كل ألم فريد في حد ذاته.

فكرت في وضع يدي بشكل لا يلفت الانتباه تحت سترتي وإسناد نفسي في هذا الألم المتزايد ولقد أراحني ذلك في بعض الأحيان. أنقذت نفسي مراراً بهذه الطريقة وأنا في محضر الآخرين، أو في الليل على سبيل المثال. عادة ما يأتي الألم الأسوأ في الليل. عندما لا أستطيع التحمل أنهض من السرير، أقرفص كما لو أنني أدفع بيدي هذا الألم إلى الداخل، وأضغط عليه بكامل قوتي أيضاً، ثم أحنى ذقني حتى ركبتني. وفي بعض الأحيان أكون في هذه الوضعية طوال الليل حتى الصباح، لأنه بهذه الطريقة فقط يمكنني تحمله. وهكذا عشت مع هذا الألم. منذ متى؟ لقد بدأ ذلك في أحد مواقع البناء. في البداية كان ذلك في الربيع والخريف فقط. أحياناً، كانت لدي نية في الذهاب إلى الطبيب، لكن، مَرَّ الأمر في الصيف والشتاء ونسيت. أصبت بالهزال. كان الجميع يسألونني: ما خطبك بحيث تبدو سيئاً إلى هذا الحد؟ هل تعاني من مرض ما؟ لا أعاني من أي مرض، هكذا أنا أبدو ببساطة.

لم أعد أتحمل تعاطف أي شخص بعد الآن. لم أشعر بالألم لكن إذا تعاطف أحدهم معي فحينئذ يبدأ الألم على الفور. بالطبع، شربت نقيع بذور الكتان. فعلت مثلما قال السيد تماماً. سكبت في المساء ماء دافئاً على ملعقة كبيرة منها وشربته على الريق كل صباح. ساعدني ذلك قليلاً. توقفت عن شرب الفودكا تقريباً. أما الأكل فحاولت تناول الأطعمة المطبوخة فقط وغير الدسمة. وبعد ذلك انتقلت إلى حمية غذائية صارمة. هذا ما نصحني به زميلي عازف البيانو في الفرقة الموسيقية. هو ذاته أصيب بنفس المرض. إلا أنه ذهب إلى الطبيب.

لن يصدق السيد أنني لم أشعر بالألم قط عندما عزفت. عزفت حتى وقت متأخر في الليل وأحياناً حتى الصباح ولم يؤلمني. ليتخيل السيد، كان وزني بالنسبة لطولي هذا أقل بعشرين كيلو غراماً مما ينبغي. أوه، لقد برز فكي من وجهي كما لو كان منزوعاً من وجهي وبدلاً من الخدين كان لدي منخفضان وأصبح أنفي أطول. في أعقاب ذلك بكثير، لاحقاً، عندما خرجت من تلك الحالة وازداد وزني قليلاً، اعترفت زوجتي، ذات مرة، وهي تنظر إليّ، بأنها كانت تعتقد بمجيء مثل هذا الوقت الذي سيتساوى فيه الفكأن مع الخدين.

خطت لنفسي بدلة توكسيدو بمناسبة حفل زواجنا وأثناء قياس الخياط لي قال في لحظة ما:

- معذرة، لكن السيد نحيف. لا يهم، سأضع طيات أكبر في أماكن اللحامات [الدرز] إذا أراد السيد أن يوسعها ذات يوم. البدلة الرسمية لا تخاط لمرة واحدة. مكتبة سر من قرأ

شعرت بكلمة نحيف على طرف لسانه، لكنه قال رشيق من قبيل المجاملة المهينة. كيف لي ألا أكون نحيفاً طالما أنني أكل قليلاً. إذا أكلت أي شيء أشعر بالألم على الفور. لم أعد أشرب النبيذ ولا البيرة. في الحفلات على سبيل المثال، كان الجميع يأكلون ويشربون أما أنا فأطلب كوباً من الحليب. المزيد من الحليب فقط. لا أحد استطاع أن يفهم، شخصاً سليماً، لا يعاني من أي شيء، ويطلب الحليب. أغروني، نصحوني، مزحوا، شربوا بصحتي وأنا شربت الحليب بصحتهم. وكل ما أردته هو أن يتركوني وشأني وينسوا وجودي.

بفضل كوب الحليب هذا تعرفت على زوجتي المستقبلية. أثناء احتفال زميلي عازف الباس في الفرقة الموسيقية التي عزفت فيها، بعيد ميلاده، طلبت أيضاً كوباً من الحليب كالمعتاد. وقد لفت كوب الحليب هذا انتباهها إليّ. لم ألاحظها بعد. على أي حال، إذا ألم الإنسان شيء ما، فإنه لن يكون حساساً حتى تجاه جمال المرأة. والقضية الأخرى هي وجود كثير من الضيوف هناك. وقفت جانباً وإذا بها تخرج من بين الحشد وتقترب مني.

- هل يحب السيد الحليب؟ أنا أحبه كذلك.

قلت: يمكنني أن أطلب كوباً إضافياً منه.

- قالت: لا. سأشرب من كوب السيد. هل أستطيع؟ وبعد ذلك رقصنا معاً.

بعد ذلك، ذهبت إلى الطبيب وبقيت في المستشفى لستة أسابيع، قاموا بفحصي وأخيراً قرروا أن هناك حاجة لإجراء عملية فقط. لم أوافق. حسناً، أعطوني حقناً وحبوباً. أتذكر حتى يومنا هذه الأمبولات «روبودين». شعرت بتحسن لمدة عام. حدثت انتكاسة بعد سنة، وشعرت بأنني أسوأ من ذي قبل.

اعتقدت أن الأمر انتهى بالنسبة لي. كانت زوجتي تبكي في الخفاء، ولكن كان واضحاً من عينيها أنها بكت. هناك عيون لا يعرف السيد منها أنها بكت. يكفي أن تكفكف. لكن هناك عيون يبقى البكاء فيها لمدة طويلة حتى لو بكت منذ زمن طويل. وهي كانت لديها مثل هذه العيون.

تظاهرت بعدم رؤية أي شيء. لكنني عدت متأخراً من المحل ذات مرة وإذا بها لا تزال مستيقظة. نظرت إليّ فشعرت بأن شيئاً مسني!

قلت: هل بكيت؟

- قالت: لا، لماذا؟ بعد كل ذلك ليس لدي سبب.

قلت: سيكون لديك معي سبب دائماً. اخترت الشخص الخطأ. لقد خدعك كوب الحليب هذا.

- لا تسخر. وانفجرت بالبكاء. وبعد فترة أخذتني إلى الطبيب. والطبيب كان يعالج بالأعشاب فقط. ما زال الأطباء في ذلك الوقت لا يؤمنون بالأعشاب. لا أعرف كيف عثرت عليه. حجزت لي موعداً معه وذهبت معي. كان رجلاً عجوزاً، خرخر وخرخر، عندما أخبرته بالأعراض التي لدي ومنذ متى، ثم أعطاني كيس أعشاب كبيراً. قامت زوجتي بتحضير النقيع وسهرت على تناولي إياه بانتظام ثلاث مرات في اليوم وفي نفس التوقيت، قبل تناول الطعام بعشرين دقيقة في الصباح والظهيرة، وبعد عشرين دقيقة من تناول الطعام في المساء. وسكنت لي نقيع الأعشاب في الترمس لدى ذهابي للعزف مساءً.

وماذا ستقول حضرتك، إنني شعرت بتحسن بعد الشهر الأول، كان لدي ألم أقل بكثير، تمكنت من الأكل أكثر، وبدأ وزني في ازدياد. وبعد أربعة أشهر عدت إلى كامل وزني. أكلت كل شيء حتى إنني كنت أتناول قدحاً من الكحول من وقت إلى آخر ولا شيء. شربت نقيع الأعشاب طوال عام، وبعد ذلك شربته في الربيع والخريف فقط، ولا شيء حتى الآن.

هل ترغب حضرتك في كتابة الوصفة لنفسك؟ لكن يجب إيجاد قصاصة ورق وقلم للكتابة لا غير. وربما في وقت لاحق. أتذكر، أنني لم أنس ذلك. يا ليتني تذكرت كل شيء هكذا. ولكن هل من الممكن العيش بعد ذلك؟ وأشك فيما إذا كانت هذه الذاكرة أكثر صدقاً.

لا، لقد انفصلنا أنا وزوجتي لسبب آخر. أنا لم أرغب في أن يكون لي أطفال، كما ذكرت لحضرتك، لكنها أرادت بشدة. أحببت الأطفال ومازلت أحبهم، قلت ذلك لحضرتك أيضاً. إلا أنني لا أريد أن يكون لدي أطفال. لماذا؟ سأترك ذلك لتقدير حضرتك. شخصياً، قد لا أقول الحقيقة بنفسى. هل أنا نادم اليوم؟ ربما نعم، ربما لا. انفصلنا عندما شعرت بأن صحتى جيدة، نسيت تقريباً أنني كنت مريضاً. الزوجات لا يهجرن أثناء المرض. خاصة هي، ما كانت لتتركني لهذا السبب أبداً. صحيح أنني لم أعترف لها لفترة طويلة بأنني مريض. حتى إنها قالت لي عندما اكتشفت ذلك:

- سأهجرك إذا لم تعالج نفسك.

لم أرغب في تعذيبها بمرضى الخاص. لا أجرؤ على تعذيب أي شخص بمرضى وعلى وجه الخصوص زوجتي. تألمت، نعم تألمت. يعتاد المرء على كل ألم إذا كان مزمناً. مثلما كان الحال في المقهى حيثُذ، كنت أتألم وأستمع إليه. وربما تحت تأثير ذلك الألم المتزايد تحت الأضلاع على الجانب الأيمن سألته:

هل كان مريضاً بشيء؟

لا يجوز تحت تأثير الألم الخاص بك أن تطرح أسئلة على أي شخص. اكتشفت ذلك على الفور.

- قال: لا. لقد انتحر. قال: كان من الممكن أن يبدو هادئاً، لكنه رفع في الوقت نفسه نفسه فنجان القهوة إلى فمه، رغم عدم وجود قهوة فيه. وأضاف قائلاً: لقد مرت سنوات عديدة ولا يزال هذا الأمر مؤلماً بالنسبة لي. ويصير كل مرة أكثر إيلاماً. لذلك أشكر السيد على السماح لي بدعوتك لتناول القهوة معي. دعني أقول لحضرتك: أنا لم أفهم ذلك. انحنى بعضنا لبعض عن طريق الخطأ وهو يشكرني. وسألني بشكل غير متوقع:

- من أين أنت يا سيد؟ هذا ما اعتقدته. كنت في نفس عمر السيد، عندما عاد والدي من الحرب. لحسن الحظ أو لسوء الحظ، لم يقع في الأسر. اختبأ لفترة لذلك لم يعد مباشرة. لم نكن نتوقع ذلك. وإذا به عاد بشكل غير متوقع، بملابس مدنية، ملتحيًا ومنهكاً. وهذا سبب إضافي للاعتقاد أنه

لا شيء يمكن أن يحدث أكثر بهجة. هكذا يعتقد الناس عندما يعود أحد ما من الحرب... وهم محقون في ذلك. كل عودة من الحرب لها هذا الفرح المكتوب في طبيعتها. إلا إذا عاد الشخص إلى بيت فارغ أو مهدم. ليلاحظ السيد ماذا كانت تعني العودة من الحرب. ثمة من عاد وثمة من لم يعد وهذا يحدد بالفعل حجم تجربتنا. الشخص الذي لم يعد يرقى إلى مستوى تمزقنا. كما لو أن المصير البشري يتأرجح بين الفرح والألم. إذا نظرنا إلى الحرب من هذا المنظور فقد يبدو أن الحروب تخاض فقط لمثل هذه العودات. كما لو لم يكن هناك معيار أعلى لفرح الإنسان. أو لألم أكبر إذا لم يعد الواحد من الحرب. إن العودة من الحرب يمكنها أن تشكل أوضح دليل على انتصار الحياة على الموت. إلا أنه الانتصار الذي علينا أن نثبته لأنفسنا باستمرار. لأنه بمنزلة عودة من العالم الآخر. حتى لو عاد الشخص معاقاً بلا يدين وساقين وعينين لنجم من طبيعة العودة نفسها أنه ينبغي الترحيب به بفرح. إنه يجلب هذا الفرح إلى عتبة الدار بجلبه حياته الناجية.

للأسف، إن فرحنا بعودة الأب لم يكن لها حتى الوقت للتعبير عنها. عندما عاد نظر إلينا بعينين باردتين. وعندما أرادت أمي وهي تنفجر بالبكاء أن تلقي بنفسها بين ذراعيه أوقفها. وبنفس الطريقة تصرف معي ومع أخي الأصغر عندما تشبثنا به حيث قام بإبعادنا عنه. وكان عليه أن يرفع أخي بين يديه ويقول له، لقد كبرت يا بني.

بعد كل ذلك، هذه هي القاعدة الأولى لعودة الشخص. خاصة أن أخي كان يتعلم المشي عندما ذهب والذي إلى الحرب. طلب كأساً من الماء من أمي. عندما كان يشرب الماء نظرنا أنا وأخي إليه بشره تقريباً كما لو كنا ظمأين. كانت حرقته تتحرك بشكل مضحك جداً. ضحكنا من حرقته تلك للتنفيس عن فرحتنا المطفأة بسببه. استغلت أمنا ضحكنا، يبدو أنها استشعرت شيئاً ما، وقالت:

- ترى مدى سعادة الأولاد. لم يقل أي شيء. فقط نظر إلينا بتينك العينين الباردتين فماتت ضحكتنا. أعاد الكأس لأمي ثم ذهب إلى الصالون بدون أن ينبس ببنت شفة. رمى نفسه بشدة في المقعد. أخذت أمي تسأله، إذا كان متعباً فيمكنه أن ينطرح وربما يستحم ويغير ملابسه. كل شيء جاهز

له. حتى موسى الحلاقة، لقد طلبت من جارنا شحذها وبإمكانه أن يحلق ذقنه. حتى صابونة الحلاقة تمكنت من الحصول عليها. أو ربما بودّ أنه يأكل شيئاً ما أولاً. هناك بضع بيضات حصلت عليها بشق الأنف. سألتها، هل يفضلها مقلية أم مسلوقة؟

مع ذلك، لم تكن قادرة على تحريك عينيه الباردتين. جلس صامتاً غارقاً بمكان ما في أعماق نفسه. أو ربما لم يصدق أنه قد عاد وهو في منزله. كانت أمي عاجزة ولم تعد تعرف ماذا تفعل وماذا تقول. فرحت وبكت بالتناوب. هرعت إلى مكان ما كما لو أنها تذكرت شيئاً ما، بعد ذلك عادت بلا شيء. حزنت لما حدث لها. فكرت، سأجلس أمام البيانو وأعزف له فربما سيقنعه هذا بأنه في المنزل وقد عاد.

دائماً، كلما سمع أنني أعزف، ومهما كان مشغولاً، يأتي إلى الصالون ليجلس ويستمع. لم يطلب مني البتة أن أعزف له هذا أو ذاك، لقد استمع. علمت أنه يرغب في أن أحقق رغبته التي لم تتحقق. أراد أيضاً أن يصبح عازف بيانو ويفترض أنه كان موهوباً لكن كل شيء انهار عندما توفي والده وجدي قد قتل في الحرب السابقة. كل جيل يجب أن تكون له حربه، كما يرى السيد. لم أعرف ما إذا توقع مني تأكيداً أو رأياً آخر، لأنه توقف، استغرق في التفكير، وحدث في مكان ما. على الرغم من أنني لم أكن السبب في استغراقه، شعرت كما لو أنني تسلفت إلى حياته بمكر. وأخذت أشعر مع ذلك بتدهور متزايد. لذلك اعتقدت أن الفرصة قد حانت للنظر إلى الساعة وقول: أنا آسف يا سيدي أشد الأسف، ينبغي عليّ الذهاب للبروفة بالفعل، وهذا سيكون صحيحاً، ربما في المرة القادمة إذا توفرت الرغبة لدى السيد. هذه المرة، سيكون الدور دوري لدعوة السيد على القهوة. يمكننا هنا في هذا المقهى غداً أو بعد غد؟ في نفس الوقت؟ تفضل، هذه بطاقة عملي.

سبقني بشكل غير متوقع:

- وعلى أي آلة موسيقية يعزف السيد؟

لقد أدهشني، حتى إنني لم ألحق كي أقول له، ينبغي عليّ أن أكون في البروفة.

قلت له: على الساكسفون. ومستغلاً سؤاله عن ذلك أردت أن أقول له، يجب أن أذهب إلى البروفة لأنني متأخر بالفعل. وأعتذر منه بقوة.

عندما كرر، هكذا بدا لي، بلمحة من عدم الاكتراث:

- على الساكسفون. ثم كرر ذلك مرة أخرى: على الساكسفون. ثم استغرق في التفكير. لا يهم على أي آلة يعزف المرء. الشيء غير المشبع سيبقى غير مشبع. لذلك كان من حقي في الاعتقاد بأنني لو عزفت له... ولنا أيضاً. لأنه لم يكن من السهل علينا تصديق كونه معنا، لقد عاد. ذرفت والدتي الدموع طوال الحرب. صلينا من أجله طوال فترة الحرب. لكن الأمل تضاعف بقدر استمرار الحرب. أصبح مجيء الرسائل في كل مرة أقل ثم أقل، وفي النهاية توقفت عن المجيء. كتبت له أمني لكن بدون جواب. شرعت بتعويدنا على حقيقة أننا سنضطر إلى العيش بدون والدنا. انتهت الحرب ولم يعد بعد، لذلك كان أملنا بالكاد يومض. وها هو عاد بشكل غير متوقع تقريباً. يعترف السيد، في مثل هذه الحالات، من الأسهل على المرء القبول بأن شخصاً ما لن يعود أبداً أكثر من الاعتقاد بأنه هنا، لقد عاد. إذًا، قد يكون البكاء أنسب من الفرح وقتئذ. يبدو البكاء أكثر ملاءمة للموقف الذي لا تعرف فيه ماذا تفعل مع نفسك. مع ذلك امتنعنا عن البكاء ومن الصعب أن نتخيل إمكانية ظهور الدموع في عينيهِ الباردتين. وإذا لم تحضر الدموع، فحسب الموسيقى أن تكون. عندما تنكسر القلوب، فليس سوى الموسيقى.

كنت على وشك وضع يدي على المفاتيح الموسيقية، حينما رفع نفسه من المقعد، قال:

- سأذهب للنوم.

حاولت أمني منعه، لينتظر، حتى تبسط الفراش وفي هذه الأثناء سيأكل شيئاً ما ويستحم. كما لو أنه لم يسمعها، سحب نفسه بصعوبة تقريباً، بخطوات متثاقلة، مجرداً نفسه إلى مكتبه وليس إلى غرفة النوم. أخرجت أمني بطانية ووسادة ثم تبعته. لم تعد لوقت طويل. انتظرناها أنا وأخي أمام باب المكتب مباشرة. أخذتنا من هناك عند خروجها، بعد ذلك أمرتنا، لا

قدر الله، بالأنا نذهب إلى والدنا، بل حتى أن نقرب من باب، وعلينا التصرف بصمت. وعلينا ألا أحاول العزف تحت أي ظرف من الظروف.

نام منذ ذلك الحين على الأريكة في المكتب. خرج إلى الحمام أو المرحاض فقط. وذلك بفتح الباب موارباً في البداية، ومتى ما رأي أو أخي في مكان قريب يغلق الباب على الفور. إلى جانب ذلك، راقبتنا أنا كي لا نكون أمام الغرفة بلا داع. سألت أمي ذات مرة: لماذا لا يريد أبي أن يرانا؟

- فأجابني: يا ولدي ليس الآن. دعه يرتاح. أنت تعرف، يجب عليه أن يكون متعباً. لم يأكل معنا أيضاً. حملت والدتي له الطعام إلى مكتبه، ثلاث مرات في اليوم. على صينية فضية دائماً. نفس الصينية التي كانت الخادمة تقدم لنا وجبات الطعام عليها. نحن تعلمنا أثناء الحرب أن نأكل بشكل رديء، حتى إننا نسينا هذه الصينية الفضية. لم تكن عندنا خادمة لفترة طويلة أيضاً. وما أكلناه لا يستحق صينية فضية ولا خادمة. في كثير من الأحيان لم يكن هناك شيء نأكله على الإطلاق. استبدلت أنا أشياء مختلفة بالطعام. حتى إنها ترددت في استبدال هذه الصينية الفضية بشيء آخر، لأننا إذا لم يعد والدنا لن نكون في حاجة إليها. ذات مرة أخرجت هذه الصينية من الخزانة بنية استبدالها إلا أنها لها جس ما قالت فجأة:

- وإذا عاد فبماذا سأقدم له الطعام؟ واستبدلت الصينية بخاتمي زواجهما. عندما ذهبت إليه مع الطعام وكانت تحمل الصينية بكلتا يديها، لم تسمح لي أو لأخي قط بفتح الباب لها. حملت له الغداء وكانت الصينية ممتلئة حتى حوافها لأن عليها سلطانة الحساء وطبق فيه الوجبة الرئيسة وصحن غير عميق وآخر عميق وإبريق شاي وفنجان قهوة مع صحنه ووعاء سكر ثم أدوات المائدة. حينئذ وضعت الصينية على الأرضية، نظرت حولها لترى ما إذا كان أحداً بالقرب منها، بعد ذلك طرقت باب. أحضرت له الطعام لكنها طرقت. باب زوجها. من الصعب تخيل موقف أكثر غرابية من هذا. مع ذلك لم يأت لفتح الباب لها قط. كانت تفتح الباب بنفسها. رفعت الصينية من على الأرضية أولاً ودخلت بعد ذلك. عادة ما كانت تجلس عنده حتى ينتهي من الأكل. في بعض الأحيان يستغرق

ذلك وقتاً أطول. أغرتني أكثر من مرة فكرة التسلسل إلى الباب للتنصت عن أي شيء يتحدثان، وعموماً هل هما يتحدثان أم أنهما هكذا يلتزمان الصمت لفترة طويلة. ومع ذلك تربينا على عدم التنصت. لكن كما يعرف السيد لقد علمتنا الحرب التخلص من أشياء كثيرة تعلمناها سابقاً. ولم يكن هذا ما أعاقني، بل بالأحرى الخوف مما سوف أسمعه. خاصة عندما كان يرفض الأكل، حدث ذلك على أي حال، خرجت أمي منه وعيناها مغرورتان بالدموع. وهكذا بدأت الكراهية تجاه أبي تنمو في داخلي. أوه، كم كرهته أحياناً بسبب دموع أمي. اليوم نعم، أخمن ما حدث بينهما. أهم شيء، بالنسبة لي مع كل وجبة تحملها له، هو هل ستخرج أمي منه والدموع في عينيها مرة أخرى، أم سيكون وجهها منشراحاً هذه المرة. حتى عندما جلست في أبعد غرفة استمعت لأرى ما إذا خرجت أمي من مكتبه، عندها هرعت إلى مقابلتها للتأكد ما إذا كانت عيناها ممتلئتين بالدموع أو ربما بابتسامة مهما كانت باهتة، قد ازدهرت على محياها. حتى إنني حاولت تخمين ما إذا كان يحدث ذلك عندما تحضر له الفطور أو الغداء أو العشاء. حينئذ أدركت وللمرة الأولى كم أحب أمي. أما أبي فأخذت أكرهه أكثر فأكثر، كل مرة بكت فيها بعد خروجها منه ومع كل يأس لديها، على الرغم من عودته. شعرت كأني مكلف بحماية أمي منه. تراءى لي أنه يأخذها مني في كل مرة تجلب له الطعام. إن حبي لأمي قد حمانني منه. وإلى اليوم يحميني، أعترف للسيد، رغم أن والدتي ليست على قيد الحياة. لولا ذلك، لا أدري ما إذا كان سيأخذني معه. لأنني ورثت عنه تأنيب الضمير. كدت أشعر بالكرب الذي شعر به. يستغرب السيد من أن تأنيب الضمير يمكن وراثته. مثل كل شيء، مثل كل شيء، يا سيدي العزيز. يجب أن نرث وبالعكس ذلك فإن ما حدث سيظل يكرر نفسه في المستقبل. لا يمكننا أن نختار من الإرث ما لا يثقل علينا فقط. وإلا لكذبنا بالكامل. ومع ذلك، نحن غارقون في الكذب. ألم يلاحظ السيد أن الكذب اتخذ وجه الحقيقة؟ لقد أصبح خبزنا اليومي. أسلوب حياة، وعقيدة تقريباً. نبرئ أنفسنا بالكذب وبالكذب نقنع، بالكذب نبرر الحقائق المزعومة. ليلق السيد نظرة على العالم. أنا أرث عنه على أي

حال. وأريد أن أرت. وبخلاف ذلك، ربما، لما كنت قادراً على الشعور بحبي غير المتلاشي لأمي.

ذات يوم، خرجت أُمي منه حاملة صينية عليها غداء لم يأكله للمرة الأخرى، وبعينين ممتلئتين بالدموع وجهت لي كلاماً:

- أبوك يسألك المجيء إليه.

لم أشعر بالفرح، صدقني. حتى بالرضا. طرقت الباب بقلب واجف. كان جالساً على الأريكة، بالبيجاما، والملاءات والشباشب، محدودباً، كما لو كان الجلوس بحد ذاته عذاباً له.

قال: تعال إلى هنا.

بدا صوته غريباً بالنسبة لي. لم أتعرف عليه من صوته.

- قال: اقترب أكثر. حينئذ لاحظت أن وجهه أصبح أكثر هزالاً واصفراراً منذ عودته. وبدت عيناه الباردتان بالنسبة لي ميتين تقريباً.

نظر بهما إليّ غير أنني لم أكن متأكداً من أنه يراني. دق قلبي كل مرة أقوى على الرغم من أنني كنت أقف أمام والدي. كان أباً طيباً، صدقني رجاء. كان لطيفاً للغاية ولم يفقد أعصابه قط. لم يضربني ولو بصفعة على عكس أُمي. وإذا فعلت شيئاً خاطئاً أحياناً يتقبله مني بتفهم. لكنني للمرة الأولى شعرت حينئذ بالخوف أمامه.

- قال لي: أردت أن أعترف أمامك يا بني. - أمامك لا أمام الله. اخترقتني رجفة على الرغم من أنني لم أفهم الكثير من كلماته الأولى تلك. - الله يغفر بسهولة جداً. بالكاد سلخ الكلمات من داخله. كان لدي انطباع بأنه لا يتحدث بفمه إنما يتحدث بكامل جسده المنهك بالحرب بجسده الهزيل للغاية لدرجة أن أضلاعه بانّت من خلال بيجامته. تراءى لي أنني أسمع كيف هي تفرك بعضها بعضاً في داخله عند كل كلمة. - ينبغي على الآباء الاعتراف أمام أبنائهم إذا أرادوا للذاكرة أن تدوم. لا أريد منك أن تسامحني. أريد منك أن تتذكر. لتكن ذاكرتك كفّارتي. لقد تعب، خفض رأسه وبقينا هكذا لفترة طويلة، أنا واقف أمامه متجمداً كما لو كنت في حالة استعداد، وهو على تلك الأريكة كما لو أنه سيطيّر برأسه نحو الأسفل. رفع عينيه

باتجاهي بجهد. لم تعودا باردتين، ميتين، كما لو أنهما لم تصدقا أنني أقف أمامه. نظر إليّ لفترة طويلة. حذق كأنه لا يزال غير مصدق أنني أنا، وقال: - حصلت على أمر لمعرفة ما إذا كان أي شخص ما زال مختبئاً في أحد الأمكنة هناك. كانت في البستان حفرة للبساطس تقع بين المنزل والحظيرة. هم يحفرون هناك حفراً، شيئاً يشبه القبو. هرعت، سحبت البويب الصغير فرأيتك. عندما تقف الآن أمامي فأنا أصبحت متأكداً أكثر من أنك كنت أنت. لقد رأيت عينيك المرتعبتين. اقترب أكثر. حذق في عينيّ طويلاً وكان قريباً للغاية لدرجة كدت أشعر بتلامس أعيننا. - نعم، إنهما نفس العينين، ولم تصدقا أن هذا الجندي الذي مازالت فوهة بندقيته تدخن والذي لا يعلم هل سيضغط على الزناد بعد لحظة، هو أبوك. لقد ترددت للحظة. هذه اللحظة جعلتني أدرك أنه لا حق لي في العيش. أنا أبوك، شعرت بخيبة أمل لكونك أنت. أغلقت البويب الصغير بعنف وصرخت: لا أحدها هنا. لقد تعب ومن الواضح أنه عانى من ضيق التنفس لكنه في لحظة ما أخذ رأسي بكلتا يديه ووضعته على كتفه. كان جسده يرتجف. سمعته يهمس في أذني: - كان من الأفضل بالنسبة لنا جميعاً لو مت. مع ذلك رغبت جداً في أن أراكم جميعاً قبل الموت. أحبك حباً جماً يا بني. لكن هذا لا يكفي لكي أعيش. أما الآن فاذهب. ونحاني بعيداً عنه.

جلسنا غارقين في صمت في أعقاب كلمات أبي الأخيرة لأنه ماذا يمكننا أن نقول بعد كل ذلك، يدرك السيد هذا. أخذ المقهى يمتلئ ببطء بالناس وأصبح أكثر ضيقاً وضوضاء. وفي لحظة من اللحظات انحنى شخص لشخص آخر أو رد عليه بانحناءة. لم أنظر إليه، لأنني قررت أنه ليس من المناسب النظر بل حتى إظهار الفضول في مثل هذه اللحظة. ومرة أخرى وهو ينحني لشخص ما أو يرد عليه بانحناءة قال:

- ومع ذلك، لا شيء ينذر بما سيحدث قريباً، أثناء الحلاقة بموسى الحلاقة. بدا كأنه انطفأ بعد تلك الكلمات. أو ربما اعتقد أن لقاءنا هذا، بعد الذي قاله، يمكنه العودة إلى بُعد الصدف. ولهذا لم يرغب بالتحدث بعد الآن. أما أنا فلم أستطع التفكير في أي شيء يمكنه الحفاظ على مجرى الحديث. لقد وجدت، لفرط دهشتي، أن الألم توقف على الجانب الأيمن

تحت الأضلاع. حتى إنني لم ألاحظ متى اختفى هذا الألم. وكأنه أبعد بهديه عني. لدرجة أنني رغبت في تناول قطعة أخرى من الحلوى، وشرب فنجان ثانٍ من القهوة. كنت على وشك أن أسأله عما إذا كان راغباً في تناول كعكة أخرى وشرب فنجان آخر من القهوة، لكنه نظر إلى ساعته وقال:

- أوه، أعتقد أن الوقت قد حان بالفعل. أنا ممتن جداً للسيد. للأسف لقد داهمني الوقت.

مدّ يده إلى محفظته، عدّ النقود ووضعها تحت السكرية. تردد وهو يعيد المحفظة إلى جيبه وأخرجها من جديد.

- لحظة، ربما تكون في مكان ما هنا.

بدأ بالبحث من جديد في حجيرات محفظته كما فعل من قبل. اعتقدت، ربما أراد أن يعطيني بطاقة عمله هذه المرة. ولهذا دسست يدي داخل سترتي أيضاً، لإخراج محفظتي وإعطائه بطاقة عملي.

- لا، أرجوك لا تبحث، لن يجدها السيد هنا. يجب أن تكون لدي في مكان ما هنا. أنا متأكد من ذلك. قام بفرز حجيرات محفظته بعصبية متزايدة. - أردتُ أن أريك صورة مثيرة للاهتمام جداً. غير عادية حقاً. الشخص الذي عمل هذه الصورة التقط تلك اللحظة التي كان أبي فيها واقفاً أمامي. أين هي؟ هذا غير ممكن ألا تكون معي. الشيء غير العادي فيها هو أن أعيننا تنظر بعضها إلى بعض وجهاً لوجه: عيناى المرتعبتان اللتان أنظر بهما إلى أبي، ووجه أبي المقطوع بتقطيب، وعيناه المحدقتان فيّ. وفي الوقت نفسه يبدو كلا وجهينا شاخصين ومرئيين. تبدو النقطة التي تم التقاط الصورة منها مستحيلة جسدياً، لأن يكون كلا الوجهين مرئيين وهما في مواجهة أحدهما للآخر. أحاول حتى الآن عبثاً أن أنقب في التقطيب والإجفال، أين يمكن أن تكون هذه النقطة. لأنها في مكان ما والدليل على ذلك هو هذه الصورة. إذا أفلحت فسيكون ذلك اكتشافاً. من يدري، ربما اكتشاف بُعد جديد للحيز، عصي، حتى الآن، على حواسنا، تخيلاتنا وضمائرنا.

ارتجفت يده، بدأ في إفراغ محتويات محفظته مرة أخرى، لقد أفرغ حجيراتهما حتى من أصغر خرقة.

- انظر من فضلك. سلمني صورة ما. افكرت بأنها تلك الصورة التي بحث عنها. هذه أمي.

قلت، إنها امرأة جميلة. كانت جميلة بالفعل. لكنه لم يكن شبيهاً بها. ربما قليلاً من العينين والفم.

- قال: هذا ما كانت تبدو عليه قبل عودة أبي من الحرب، كأنه لا إرادياً مشغول بالبحث عن تلك الصورة. فتش الآن عنه بين كل ما ألقاه من محفظته على الطاولة. قد يكون من غير الممكن العثور على هذه النقطة في فضائنا اليومي. خاصة أننا اعتدنا عليه جداً بحيث أصبحنا أحد أبعاده. والفضاء هو الذي يقرر من نحن في الحقيقة. كما يقرر كل شيء. ليس بالمعنى المادي لهذه الكلمة. إذا حكمنا من خلال هذه الصورة، فلن يكون فضاء مادياً. هذا ما أحاول اكتشافه فعلاً. في بعض الأحيان، يمكن تخمين علامات هذا الفضاء عند أعظم الأساتذة في لوحاتهم المثالية. إن قوانين الفيزياء العادية لا تسمح بمثل هذا الفضاء. لكن الفن العظيم يعتمد على ذلك بالضبط. أعني الفن كعالم ومع الإنسان، لسوء الحظ. أوه، يا ليتني عثرت على هذه النقطة. قال مستسلماً: للأسف، لا توجد لدي هذه الصورة كأنه محبط من نفسه. - أنا آسف يا سيدي. بدأ بالتقاط كل ما رماه ميكانيكياً وبدون تفكير من ثانياً محفظته وإعادته إلى داخلها. ثم كرر قائلاً: أنا آسف للغاية.

قلت: لا تقلق بشأن ذلك. سيريني السيد إياها في المرة القادمة.

- وهل يرغب السيد في أن نلتقي مرة أخرى؟ - تعجب.

بطبيعة الحال. يمكننا الالتقاء أيضاً هنا في هذا المقهى.

وإذا كانت هذه الطاولة فارغة أيضاً... سارعت إلى التأكيد، لئلا يظن، أنني أتكلم من منطلق اللطف.

- قال: لكن لينظر السيد، وهو يخفي محفظته في جيبه، لا أعرف ما إذا كان ذلك ممكناً. كرر مركزاً، بالأحرى هذا غير ممكن. يتوجب علينا ألا نعرف بعضنا بعضاً مرة أخرى، ثم أن ننحي مرة أخرى بعضنا لبعض عن طريق الخطأ في الشارع اعتقاداً منا أننا قد التقينا سابقاً في مكان ما. لكن، أين، ومتى؟ وبخلاف ذلك سيكون السيد على حق في أنها مجرد صدفة غير موفقة.

وكما يعلم السيد، أني أتساءل، ألم يخبرني هو، عما إذا أخبره والده عندما هرع إلى ذلك البويب الصغير بأن خنزيرة وقفت أمامهما بالفعل. تدرجت من الحظيرة حالما بدأت الحظائر بالاحتراق. كانت الحظائر تقع على الجانب قليلاً، لكنها كانت جزئياً تقع بالشق الذي نظرت أنا من خلاله. مشيت ببطء، كانت كبيرة في السن. عادة ما لا يحتفظ بمثل هذه الخنازير الكبيرة في العمر، سوى أنها لم تكن خنزيرة عادية. سمينه وكانت بالكاد تحمل نفسها على أرجلها غير الكاملة. بالكاد ترى قوائمها من تحت جانبيها المتدليين. شعرت كأنها تدب على الأرض على جانبيها. توجهت مباشرة نحو هذا القبو حيث كنت جالساً. بدأت بالنخر وتميرير أنفها على البويب. ربما لأنها شعرت بي. كانت أكثر تعلقاً بي. شهقت ونخرت ثم انهارت عند ذلك البويب. لقد ركلها وكانت تكافح من أجل النهوض. وعندما صفق البويب خلفه وصاح مرة أخرى في مكان ما: لا أحد هنا، أطلق عليها، في حالة من الغضب، سلسلة كاملة من الطلقات. خرمها رغم أنها لم تعد على قيد الحياة، وصولاً إلى آخر خرطوشة حتى تنائر لحمها. كيف لي أن أعرف حتى آخر خرطوشة؟ لأنه غير حجيرة الذخيرة.

ليس لدى السيد فكرة عن نوع هذه الخنزيرة التي كانت عليها. ناديناها منذ صغرها باسم (زوزا الصغيرة)⁽⁹⁾. ومنذ صغرها كأنها لم تكن خنزيرة. لا أدري، هل يعرف السيد أن الخنازير أذكى المخلوقات. كانت لا تزال ترضع

9- زوزا: تصغير لاسم زوزانا (سوزان) باللغة البولندية وتعني زهرة اللوتوس، ومن صفاتها أنها تمتلك حساً فطرياً وتمتاز بالشجاعة والثقة في النفس والتفاؤل.

أملها وقد تميزت بالفعل من بين كل صغار الخنازير. إذا جئت إلى الحظيرة قفزت في الحال ووقفت أمامك بأنفها الأفتس لتأخذها بين يديك. كانت تشعر بأحسن حال بين الناس. أحضرناها أحياناً إلى المنزل لقضاء بعض الوقت معنا. كانت وهي صغيرة تميز بين الأب والأم والجدة والعم (يان) الذي كان لا يزال على قيد الحياة آنذاك، فهذه يا غودا وتلك لثونكا وهذا أنا. بالنسبة لي كانت ترفسني بخطمها دائماً. لم تخطئ في التفريق بيني وبين الآخرين قط. لم يكن من الصعب إدراك أنها أحببني أكثر من سواي. لقد تبعثني في كل مكان. لم أعرف كيف يمكنني التخلص منها في بعض الأحيان. كلما قدت الأبقار إلى المرعى تبعثني. وعندما ذهبت إلى المدرسة وتطلعت حولي ألفتيتها تمشي خلفي. فتوجب عليّ أن أعود أدراجي لأضعها في الحظيرة ثم أغلق الباب خلفي. تأخرت عن الدرس الأول لعدة مرات بسببها، وعندما سألتني المعلم: لماذا تأخرت، لم أقل له بسبب الخنزيرة. ولذلك وضع لي صفراً في دفتره على السلوك. لقد حصلت على كثير من تلك الأصفار بسببها حتى إنني أخذت في نهاية العام الدراسي أدنى درجة على السلوك في الصف.

على سبيل المثال، عندما أرسلتني أمي إلى الدكان لشراء شيء ما، دخلت وحاولت أن أغلق الباب ورائي وإذا بزوزا في الباب. حيثذ كانت صاحبة الدكان تصرخ في وجهي: ما هذا، أنت تحضر الخنزيرة إلى الدكان. انصرف من هنا! أرايتموه! يا لهم من أولاد! ضحك الناس وأنا شعرت بالخجل. وأحياناً لم أشتري شيء. لا المناشدات ولا التهديدات معها قد نفعتني. ارجعي يا زوزا، هيا، عجّلي. ارجعي وإلا فعلت كذا وكذا. لكنها ترفع خطمها وتنظر إليّ كما لو بتوبيخ. أو إذا ذهبت لقطف الفطر لا يمكن أن تشرح لها بأي شكل من الأشكال، بأنها بعد كل ذلك لن تجمع الفطر. إنها لا تعرف الفطر بالإضافة إلى ذلك، لا سمح الله، قد تضيع في الغابة وحيثذ ما العمل؟ يجب أن تأخذها بيدك وإعادتها مرة أخرى إلى الحظيرة. كان هذا ممكناً قبل أن تصبح ثقيلة. لقد كبرت بحيث لم يعد من الممكن حملها على اليدين. دعنا نقول: لا يمكن للسيد أن يحمل بين ذراعيه خنزيرة تزن خمسين كيلو غراماً ووزنها يزداد كل أسبوع. وإذا حبسها السيد في الحظيرة تمكنت

من الخروج منها بطريقة ما. وإذا أردت أن تأكل وهي في الخارج بالفعل ستجدها بجوار رجلك. علاوة على ذلك، عادة ما بقيت حظائر الخنازير مفتوحة من الربيع إلى الخريف للتهوية حتى تحصل هذه المخلوقات على الهواء النقي خاصة عندما تأتي الحرارة. لقد سرحت في الخارج طوال الأيام. وإذا أراد السيد الذهاب إلى مكان وأغلق البوابة الصغيرة وراءه فمع ذلك ستتبع السيد. لم تكن مضطرة إلى الخروج من البوابة الصغيرة، كانت هناك فتحة في مكان ما في السياج. هي بنفسها عملت هذه الفتحات. كلما سدّ أبي فتحة قامت على الفور بعمل أخرى. ناهيك عن كل هذا، هل رأى حضرتك سياجاً بدون ثقب؟ هذه هي طبيعة السياج.

اعتقدت أمي أن أبي قام بغلق كل الفتحات. كانت ذاهبة إلى قداس شهر مايو/ أيار، وأغلقت البوابة خلفها ووضعت عليها خطافاً. عادة ما كانت تقام قداديس مايو أمام المصلى الذي كان يقع في شجرة بلوط منخورة، وكانت شجرة البلوط قائمة في الغابة تقريباً. قيل، إنها أقدم شجرة بلوط تتذكر جميع الناس الذين عاشوا هنا في أي وقت من الأوقات. لا تموت لأن فيها هذا المصلى، وكل شجرة بلوط في عمرها كان عليها السقوط منذ زمن بعيد. ثمة حشد من النساء بالقرب من شجرة البلوط، عادة ما كان معظم الحضور عندنا في قداس شهر مايو من النساء. كنّ يترنمن ويترنمن، وفي هذه الأثناء شعرت أمي بشيء ما يشتبك بتنورتها نظرت وإذا بها زوزا. اضطرت إلى حملها على يديها طوال وقت القداس، ترنمت وهي بصحبتها. كانت لا تزال صغيرة في ذلك الوقت.

غازل أحد سكان المدينة ابنة الجيران. أوه، قمت قبل فترة بإعادة طلاء لوحها الخاص. كان يزورها في يوم الأحد دائماً، وكانا يذهبان للنزهة بعد الظهر. كانت لديه كاميرا تتدلى على صدره دائماً. أوه، لم تكن الكاميرا شائعة آنذاك كما هي اليوم. لا يمكن للأعزب من مالكي الهكتارات أن يقارن نفسه في تلك الأوقات بذلك الأعزب صاحب آلة التصوير الفوتوغرافي.

في أحد أيام الأحد، سارت (زوزا) ورائي في مكان ما، مما دفعني لأن أحملها بين ذراعي وأعيدها إلى الحظيرة، وقد مرّ أبي أثناء ذلك. انفجرت بنت الجيران بالضحك أما هو فطلب مني أن أتوقف. في تلك الأثناء خرج الجميع

من منزلنا بسبب ضحك بنت الجيران الشديد. توقفت فقام بوضعنا جميعاً أمام المنزل، وطلب من أمي أن تأخذ زوزا بين ذراعيها ثم قام بتصوير الأسرة بأكملها. وأحضر لنا هذه الصورة في أحد أيام الأحد التالية. نقف فيها: أبي، جدي، جدتي، ياغودا، لئونكا، أنا، والعم يان، كان لا يزال على قيد الحياة، وأمي تقف في المقدمة حاملة زوزا بين ذراعيها كما لو أنها تحمل طفلاً.

من المحتمل أنه أراد التقاط صورة مضحكة. لكنها الصورة الوحيدة التي تجمعنا كلنا معاً. لا، ليست بحوزتي، إلا أنني أتذكرها جيداً. سأخبر السيد، على الرغم من تذكري لها مراراً فإنها لم تضحكني مطلقاً لأنها مع الخنزيرة. حتى إنني أشعر بنوع من الامتنان تجاه زوزا. بفضلهما لدينا هذه الصورة العائلية الفريدة، وما الضير بأن تكون في ذاكرتي فقط؟ يترأى للجميع أن مثل هذه الخنزيرة للذبح. بماذا نحن نختلف عنها. هل نحن أذكى؟ أفضل؟ ناهيك عن كون الحيوانات لها نفس الحقوق في العالم طالما أنها تعيش فيه. العالم ينتمي إليها كذلك. لم يأخذ نوح في فلكه الناس فحسب. وعلى سبيل المثال، ألم يلاحظ السيد أن الحيوانات في الشيخوخة تصبح شبيهة بكبار السن؟ ربما، طالما أنها شابة والإنسان شاب أيضاً، لا نرى أوجهاً للشبه بينهما. مع ذلك، هي تصبح عاجزة في فترة الشيخوخة كبني البشر. تمرض بنفس الأمراض التي يمرض بها الناس. أما أنها لا تتكلم ولا تشكو، وربما لأن الكلمات لا تعينها في أي حال طالما أنها غير قادرة على مساعدة الناس على الرغم من أنهم يتكلمون ويشكون. وهي، في رأيي، مثل البشر تخشى الموت. من أين أعرف؟

عفواً، كم هو عمر حضرتك؟ كم سنة أعطيك؟ من الصعب القيام بذلك من خلال المظهر. لا أعلم، حسناً، لا أعلم. عندما دخل حضرتك بدا لي أنك في مثل عمري تقريباً. ربما لأنك في المعطف والقبعة. أما الآن فيبدو حضرتك أصغر من ذلك بكثير. أو ربما أكبر سنّاً؟ شخصياً لا أعلم. أحياناً يبدو المرء كأن ليس لديه كل هذه السنوات. ربما الزمن لم يمسّ حضرتك. هل أنا على صواب؟ أقصد، أنني لم أخطئ. يقال: لا مفرّ، جميعنا نواجه هذا المصير. على أي حال، كان يمكنني توقع ذلك بمجرد أن قال حضرتك: لقد جئت لشراء الفاصولياء، كان يمكنني أن أتوقع ذلك.

على الرغم من ذلك، دعني أخبر حضرتك، بأن السنوات لا تعني الكثير أيضاً. أيعرف حضرتك كم سنة تعيش مثل هذه الخنزيرة؟ ثماني أو عشر سنوات هي قمة حياتها، بالطبع إذا تركها الإنسان تعيش لفترة كافية. لكنه لا يتركها. لذلك كان يجب أن يكلفها كثيراً مثل هذا الانتقال من الحظيرة إلى هذه الحفرة. لم تكن بعيدة عنها، لكن في هذا العمر... لم تعد تستيقظ بعد الآن تقريباً، ويكاد أكلها يكون معدوماً. كنت أحضر لها الحليب بعد غليه مع نخالة الحبوب لأنها كانت تأكل من يدي على أي حال. على الرغم من أنني كنت دائماً مضطراً إلى التوصل إليها وتمسيدها. هيا، كلي، يا زوزا، إذا لم تأكلي ستموتين. وحينئذ فقط وهي تجهد في إدخال فمها في الوعاء تبتلع قليلاً. كان من الصعب النظر إلى شيخوختها. لم أرد تصديق تعودي سابقاً على حملها بين ذراعيّ وأخذها إلى المنزل. الجميع نادوها: زوزا، زوزا، زوزا. بدأ اليوم بزوزا تقريباً. كيف هي زوزا، زوزا كذا، وزوزا كذا. أما زوزا فتقربت من الجميع، ناهيك عن أنها تتبعت الجميع. كانت مصدر إزعاج أحياناً، لكن كان يحدونا الأمل في أن تتغير مع تقدمها في السن. إلا أنها كبرت ولم تتغير. سوى أنها عملت ثقباً أكبر فأكبر في السياج. وما زالت تتبع كل فرد من أفراد العائلة حيثما يذهب، لأنها اكتسبت مثل هذه الثقة بالأشخاص الذين كلما مر أحدهم بمنزلنا خرجت إلى الطريق وسارت في أثره. جاءنا، في بعض الأحيان، أحدهم مسرعاً ومتوتراً وهو يصيح: خذوا هذه ألزوزوها [زوزا الواثقة]، هكذا أطلقوا عليها في حالة من الغضب، لأنها أنى تذهب تتبعك. من رأى أحداً يفسد خنزيرة بهذه الطريقة. اقتلوها، حان الوقت لأن شحمها متورم بالفعل.

مع ذلك، لم يشر أحد في المنزل إلى قتل زوزا قط. على الرغم من أنه من المستحيل عدم رؤية أنها كبرت إلى حد لقاء مصيرها. وحتى إنها تجاوزت هذا المصير بعد ذلك. وأنت تعرف ما هو مصير الخنزير. ذات مرة، بمجرد أن لمّح أبي إلى قرب عيد الميلاد، وأنه ربما حان وقت ذبحها. خفض الجميع رؤوسهم، عند هذا شعر أبي بعدم الارتياح وقال:

- أنا أشرت إلى ذلك فحسب.

فرد جدي بالقول:

- حتى لو كانت ثمة حرب فمن الأفضل تركها وشأنها.

أما زوزا فواصلت نموها وتبعها للجميع. لكنها ازدادت ثقلًا في كل مرة. ولم يعد يُسمح لها بالدخول إلى المنزل، إلا أنها استلقت أمام الباب وانطرحت هكذا. وإذا خرج أحد لطردها نهضت بصعوبة. حتى إن أبي غضب ذات مرة قائلاً:

- إذا كان من المفترض ألا نذبحها إذًا، فلنبعها. ذهب إلى المدينة وجلب معه وسيطاً تجارياً. كان معظم الوسطاء من اليهود. إذا كان لديك خنزير، بقرة، عجل، أوز، أو ريش فقط، يكفي الذهاب إلى الوسيط وهو سيجد لك مشترياً. وحالما تمكن من دخول الفناء، كانت زوزا منطرحة أمام المنزل، حملت نفسها وتوجهت نحوه، رفعت خطمها ونظر كل منهما للحظة إلى الآخر هكذا. بعد ذلك استلقت عند قدميه. وماذا ستقول حضرتك، ما الذي يعني الوسيط أكثر من اللحم والدهن في الخنزير، حتى إنه حك رأسه وقال:

- أنتم تدعوني هنا إلى الخنزيرة، فهل هي خنزيرة، أنا لا أعرف. لا أعرف ما هي. ربما من حيث المظهر هي كذلك، لكنني لا أعلم.

حتى إنه لم يرغب في مسها للتأكد من شحمها. ويجب أن يعترف السيد، أن كل وسيط يبدأ من ذلك. يتلمس ويتملس قبل أن يعطي السعر ويشتكى دائماً:

- لديها شحم، أوه، بقدر إصبعي هذه، انظروا أنتم بأنفسكم، إصبعي هذه تدخل ولن أقول كيف وفي ماذا. ضحالة. ماذا أطعمتموها؟ أنتم جوعتموها ولم تطعموها. وماذا سينفع تلمس خنزيرة تم تجويعها في تسعيرها؟ إنه لن يعطي قرشاً واحداً أكثر. وإذا لم ينفع فأنا لن أكسب. وهل أنا أريد الكسب، أنا أريد ألا أخسر فقط.

حتى إنه لم يرد أن يتلمسها.

- إنها لا تصلح للحم المقدد ولا للدهن. تستلقي عند قدمي، ثم ماذا؟ ربما تفكر بي بشكل سيئ، ثم ماذا؟

بدا الأمر كأن هذه طريقته في التعامل بأن يبدأ من أدنى سعر. توسل أبي به وأقسم بأنها خنزيرة مثل أي خنزيرة أخرى، تأكل كأي خنزير، وتبعت كل

شخص أتى ذهب والآن أصبحت كبيرة جداً للقيام بذلك. لم يعجبه، لكنه بدأ بتلمسها أخيراً. الحيلة تعتمد على تلمس شُحم الخنزير. أوه، لينظر السيد هنا، إلى فخذي. عليك أن تبسط كفك هنا، وتلمس بكل إصبع على حدة، دون فقدان نقطة واحدة على السطح، ثم تلمس بإبهامك للتأكد. سيخبرك الوسيط الجيد بالضبط إذا كان لدى الخنزير شحم بسمك إصبعين، إصبعين ونصف أو ثلاث أصابع. ونفس الشيء فيما إذا كان لديه لحم سميك.

- لديها شحم الخنزير، لديها لحم الخنزير. قال: نعم، كل شيء على ما يرام. لكنها تريد أن تبقى على قيد الحياة. وعليكم أن تصلوا من أجل أن تكون لديها الرغبة في العيش لأطول فترة. ربما هذه علامة لكن يجب أن يكون هناك (رابين). أنا مجرد وسيط.

سأقول للسيد: لا أستطيع أن أفهم حتى يومنا هذا. ماذا تدين له زوزا؟ لقد حشا مخزن سلاحه بأكمله فيها. تفتكر حضرتك أن أبي لم يخبره بذلك؟ ولماذا؟ أنا لا أعرف أيضاً، يمكنني تخمين ذلك في أحسن الأحوال. لكن لم تكن لدي نية في أن أسأله في المرة المقبلة. ومع ذلك، لم نلتق. لم يحدث ذلك مطلقاً. غالباً ما مررت على هذا المقهى حتى في نفس الوقت الذي التقينا فيه من قبل. على الأقل ألقى نظرة أثناء مروري قبل الظهر للتجريب. جلست أحياناً، شربت قهوة وأكلت كعكة. سألت النادلة إن كانت هي نفس النادلة التي خدمتنا في ذلك الوقت. لقد عرفته، يتذكر السيد، ابتسمت له حينئذ لا كما يتسم النادل. تذكرت لقاءنا المذكور، تذكرني بشكل غائم، لكنها تذكرته جيداً. قالت: إنها لا تخطئ بينه وبين شخص آخر إلا أنه لم يظهر منذ ذلك الوقت.

لقد عذبتني هذه الصورة وكنت أسأله عنها. لقد قُصّت مضجعي، أين يمكن أن تكون هذه النقطة التي التقط هذا الشخص الصورة منها. ومازلت أفكر فيها حتى اليوم أحياناً. لم أر الصورة حقاً. لكن ألا يمكنني التفكير بدون صورة؟ لنفترض أن أحد الأشخاص التقط لنا صورة ونحن نقشر الفاصولياء. نحن نجلس في هذه الصورة بعضنا في مواجهة بعض كما نفعل الآن وقد بان وجهانا في الصورة. وجه السيد كما لو نظر إلى المصور ووجهي كما لو نظر إليه أيضاً وفي الوقت نفسه نحن كلانا نجلس بعضنا في مواجهة بعض.

المسافة بيني وبينه لم تكن أكبر مما هي عليه بيننا الآن. بطول السبطانة، أوه، كيف رأيت عيني السيد. إذاً، أين يمكن أن تكون هذه النقطة؟ نعم ها هنا، وأين يعتقد السيد؟ أين يمكن أن يقف المصور هنا؟ والمساحة ليست كبيرة، إنها بقدر هذه الحجرة تقريباً. ولا توجد حرب، الكلبان نائمان، ونحن نقشر الفاصولياء ونتحدث. يجب أن يكون الأمر أسهل بكثير، ألا يعتقد السيد؟

وربما يمكننا الخروج إلى الباحة؟ صحيح الوقت ليل، لكن يمكنني أن أشعل المصباح أمام المنزل. وسأري حضرتك في أي مكان يقع. لقد انهار القبو ونما فيه نبات القراص وعلته الشجيرات الصغيرة ولم يعد البويب المنخور قائماً، لكن الإطار لا يزال موجوداً، إنه من شجر البلوط والبلوط يدوم طويلاً. ربما تمكنت من حشر نفسي بطريقة ما، لكن لا، يمكننا أن نتخيل ذلك بأنفسنا. سأركع على الأرض وسيقف السيد أمامي. على السيد أن يأخذ جزءاً من العصا فقط. حسناً، وإلا بأي شيء سيسدد السيد إليّ؟ الأطفال يلعبون ويطلقون النار هكذا. يقول السيد إن هذا لا يناسب خيالنا حتى لو كنا أطفالاً. وخيال من؟ لا أحد سيضمننا. لا أحد يعيش من أجل أحد، ولا أحد بوسعه أن يتخيل نفسه في ذلك. ربما في المكان الذي حدث فيه ذلك سيكون من الأسهل علينا العثور على تلك النقطة التي ستكون أقرب نقطة إلينا. ولما اضطر السيد إلى البحث عني في جميع أنحاء العالم. لما اضطر السيد إلى المجيء إليّ من أجل الفاصولياء.

ولما اضطررنا إلى التساؤل عن أين ومتى. أوه، خاصة أن الفاصولياء تنفد عندنا ببطء. لا يزال لدى حضرتك قرن فاصولياء بجوار رجلك. وثمة آخر، أوه، وهناك آخر. ها هو ذا، تفضل. لتتقب حضرتك وأنا متأكد من أنك ستجد المزيد.

ربما يريد السيد المزيد من هذه الفاصولياء؟ تركت قليلاً منها لنفسني لكن يمكنني إحضار حزمتين منها أو ثلاث أخرى. بعد كل شيء السيد لديه سيارة ولن يكون هناك فرق بالنسبة للسيارة إذا كان أكثر بقليل. ولا أعتقد أن السيد سيغادر الآن. وبعد ذلك، أين سيذهب السيد بسيارته في الليل. أنصحك بالبقاء حتى الصباح. بعد ذلك سنشرب الشاي أو القهوة. هل السيد في عجلة من أمره؟ قد لا يجдени السيد في المرة القادمة. ولولا دواعي

الفاصولياء لا أعرف ما إذا كان السيد سيعثر عليّ الآن. لماذا؟ وهل بوسع الإنسان أن يكون متأكداً، أين ومتى يوجد في هذا العالم؟ يقول السيد دائماً: الآن وهنا. سوى أن هذا لا يعني شيئاً. يمكنك القول: لا توجد حدود الآن، تماماً مثلما هو الحال في أي مكان هنا. حسب رأيي، كل عالم هو ماضي، كل إنسان هو ماضي، لأن الوقت ماضي فقط. الآن، هنا إنها مجرد كلمات، كلمة واحدة وثانية غير مادية، مثل كل تلك التي تحدثنا عنها. الآن لا أعرف حتى أن أقول للسيد، كيف هو هذا العالم. وهل يوجد على الإطلاق. أو ربما نحن فقط نتخيل أنه موجود. أكيد، هذا ليس مهماً بالنسبة لحضرتك طالما أنك أتيت إليّ من أجل الفاصولياء...

ربما يرغب السيد في شراء منزل هنا؟ ولماذا؟ أوه، أنا لا أدري. لقد اعتقدت فقط، أن حضرتك ربما تبحث عن مكان ما أيضاً. بحيث لن تكون مضطراً إلى المجيء في كل أيام السبت والأحد. حتى إنني لا أنصحك بذلك. خاصة بقضاء العطل هنا. مرة أو مرتين كل سنة في أحسن الأحوال. والأفضل، مثلما الآن بعد الموسم. سأعطني بمنزل حضرتك كما أفعل مع الجميع ها هنا. ولا داعي لأن تقلق حضرتك بخصوص أي شيء.

توجد عدة منازل للبيع. رقم اثنان وعشرون، واحد وثلاثون، وربما ستة وأربعون أو سبعة وأربعون، لم أعد أتذكر. هناك بالتأكيد منازل أخرى لكن يجب عليّ أن أتأكد. أوه، كثير من الأشخاص باعوا منازلهم بالفعل منذ وجودي هنا. في الآونة الأخيرة، لا يوجد هناك كثير من الناس على استعداد للشراء. يظهر أحد الأشخاص من حين إلى آخر، يجيل النظر حوله، وينظر ولا يعرف ما إذا أراد الشراء أو أنه جاء من أجل المشاهدة فقط. في البداية، غالباً ما جاؤا إليّ وتركوا عناوينهم وأرقام تلفوناتهم في حال وجود أحد راغب في بيع منزله. لا أحد أيضاً يبني منازل جديدة. على الرغم من توفر الأماكن، مثلما رأى السيد، ثمة بحيرة وغابة وهواء نقي.

والحيوانات اعتادت على الناس هنا، لدرجة أن الغزلان تأتي إلى المنازل أحياناً. ليس من أجل الطعام. لديها ما يكفي من الطعام في الغابة. والسناجب تقفز على الشرفات وتتطلع إلى المنازل. أما أن الناس يفسدونها فهذه قضية أخرى. يجلبون لها أكياساً مليئة بالمكسرات. أكثر مما تحتاجه للأكل أو

تدفنه في الأرض لفترة الشتاء. يمشي السيد وإذا بالمكسرات تتشقق تحت قدميك. حتى إنني فكرت، ألا يجدر بي إضافة عبارة على اللافتات: ممنوع إطعام السناجب. ثم ماذا لو أكلت من أيدي الناس في الموسم؟ الموسم لا يدوم إلى الأبد. في بعض الأحيان يتسلل خنزير بري إلى هنا. أحياناً يمر أرنب بين المنازل. يمكن للسيد أن يقابل ابن عرس وحيوان الدلق هنا. مقابلتها في الغابة تكون أكثر صعوبة أحياناً.

وأحياناً ظهر غزال الموظ. ولم يكتف بالوقوف في مكان ما على حافة المنحدر، بل مشى بين المنازل، متوقفاً قليلاً هنا، وقليلاً هناك. - وإذا ما لعلت صرخته اندلعت حالة من الذعر. هرب البعض إلى منازلهم وقفز البعض الآخر إلى القوارب، والزوارق الصغيرة، أو ألغوا بأنفسهم إلى الماء، وكاد البعض يغرق لأنه لم يعرف السباحة، ثمة من أغمي عليه، لحسن الحظ توجد لديهم هنا منازل وأطباء. - عرج على البحيرة، روى نفسه بالماء، زأر ثم غادر بهدوء. يشتاق الموظ إلى الناس في بعض الأحيان. أو إذا استيقظ حضرتك قبل طلوع الشمس عندما تستيقظ الطيور. أو إذا تنشق حضرتك هذا الهواء في الصباح، ستشعر بأن رثيتك تفتحان ويأله من هواء. في الأماكن الأخرى، غالباً ما لا يعرف المرء أنه يتنفس وماذا يتنفس. إذا فكرت في هذا الأمر فقد لا ترغب في التنفس على الإطلاق. لقد أخبرت حضرتك بالفعل عن الفطر، الثوت البري، الفراولة البرية والثوت البري الأحمر. لكن من الأفضل أن تذهب إلى الغابة بدون أن تقطف أي شيء ولا أن تفكر في أي شيء. السيد والغابة.

أنا لا أحب المشي حتى مع الكلبين. مجرد حفيف يمكن أن يغريهما للانطلاق في اتجاهه. بعد ذلك عليك أن تناديهما، ريكس! وابس! ذات مرة ركضا وراء غزال. ناديتهما، نقبت عنهما. الأشجار في الغابة تكبح الصوت. أخيراً غضبت وعدت إلى المنزل بدونهما. ولم يعودا إلا في المساء. خطماهما غارقان في الدم. أوه، إنني أشعر بالذنب بسبب الغزالة. هل رأى السيد عيني الغزالة عندما تموت؟ نعم، على سبيل المثال، في الفخ، بالمصيدة. لن يرى السيد مثل هذا الرعب في أي عين.

سأقول لحضرتك إنه عندما يفد الناس إلى هنا في ذروة الموسم، يتكون لدي انطباع أحياناً بأنني لا أعيش في نفس العالم الذي يعيشون فيه. لن أقول،

إن عالمهم ربما هو ممتع ومبهج وسعيد، لا أعرف ذلك، لكنني ربما لن أستطيع العيش فيه. هل السيد متأكد من أنني أعيش فيه؟ لكن كيف لي أن أستدل على ذلك؟ بعد كل شيء، حتى بالنسبة لمثل هذه الشمس لا بد أن يكون لكل واحد مشارق شمس ومغاربها. أقمت لسنوات طويلة في الخارج وحيثما سكنت، عندما أردت إيجاد الشروق والغروب، توجب علي أن أجد نفسي طبقاً لمشارق الشمس ومغاربها عندنا هنا. وكان هذا معياراً لكل المشارق والمغارب. كان هذا هو المعيار الوحيد في كل مكان.

القضية مختلفة، خاصة في المدن الكبرى، عندما يكون بإمكانك أن تعيش حياتك كلها ولا ترى شروق الشمس ولا غروبها. كيف يقوم اليوم؟ ببساطة عندما يصبح كاشفاً. وعندما يحل الليل تضئ مالايسن المصابيح. وعليه، أي ليل هذا؟ يقال إنه ليل فقط. الآن، هذا صحيح، حتى إنني لا أعرف أين أشرقت الشمس وأين غربت. ولا أنها لم تعد تشرق في هذا المكان نفسه ولا تغرب. أقوم معها ولست متأكداً، لكنها لم تشرق هنا. لهذا لا أعرف كيف وجدني السيد ها هنا طالما أنا نفسي لا أستطيع أن أجد نفسي. صحيح أن عبث الواحد على نفسه ليس بالأمر الهين. من يدري إن لم تكن هي أصعب القضايا على الإطلاق هذه التي على الإنسان أن يسهلها في هذا العالم.

لا، منزل السيد (روبرت) ليس للبيع، لقد أخبرت حضرتك بذلك. على أي حال، حتى يعطيني السيد روبرت إشارة. أنصح السيد بالمنزل رقم واحد وثلاثون. قلة من المنازل يمكنها مضاهاة منزل رقم واحد وثلاثون. مدفأة، تدفئة كهربائية، زجاج مزدوج في النوافذ، الجدران معزولة، يمكنك العيش فيه حتى في الشتاء. يوجد فيه حمامان، أحدهما في الطابق العلوي والآخر في السفلي، وتوجد فيهما غلايات وبلاط. فضلاً عن أن كل شيء من خشب البلوط. هناك سجاد على الأرضيات. كانت هناك قرون أيضاً، لكنه أخذها معه لحسن الحظ.

لا أنصح السيد بالقرون. لن يكون بوسع حضرتك العيش. كانت القرون معلقة على كل الجدران. أتى التفت حضرتك فثمة قرن هناك. في الغرف، والمطبخ والحمامين. كان رأس خنزير بري معلقاً أعلى المدخل، أوه، له أنياب كبيرة. لم يكن هناك جدار واحد فارغ. دخلت هناك للتأكد من أن

كل شيء على ما يرام وكان عليّ أن أحذر من الاصطدام بأحد القرون لأنها كانت أكثر بروزاً في المنتصف. سأقول لحضرتك، جلست لأكثر من مرة على مقعد ذي ذراعين، لأنني أحب الجلوس هكذا أحياناً، في هذا المنزل أو سواه ولو للحظة، كانت لديه مقاعد جلدية، لكن شيئاً ما قد دفعني على الفور بعيداً. لقد بنى هذا المنزل من أجل تلك القرون. على ما يبدو، طردته زوجته من المنزل، لأنه لم يعد هناك مكان لتعليق أي شيء. لا، هي لم تأت إلى هنا مطلقاً. إلا أنه جاء في كل يوم سبت وكل يوم أحد. لم يتشمس ولم يسبح، حتى إنه نادراً ما كان يخرج للتنزه، ظل في المنزل طوال تلك الأيام. اعتاد على المجيء في كثير من الأحيان في الشتاء. وأغرب شيء، ليتخيل حضرتك، أنه لم يخرج للصيد على الإطلاق. ولم تكن هذه جوائز نجاحاته في الصيد. مع ذلك كان لديه اندماج. لا أعرف، ما هي حاجته إليه. لكن، كيف يقترب من نفس الواحد بهذه القرون؟

وفجأة، يصعب عليّ القول، ما الذي حدث، عندما جاء في أحد الأيام، في شاحنة برفقة عاملين وأخذ تلك القرون ثم عرض منزله للبيع. قال البعض: لقد وجد مشترياً جيداً لشراء هذه القرون، بينما قال الآخرون، إنه نقلها إلى القمامة. بيد أن الحقيقة يمكن أن تكون مغايرة، على الرغم من أنني لا أتكهن. بودي أن أحتّ السيد. هو لا يطلب كثيراً. يكاد يكون السعر على النصف مقابل منزل كهذا. حسناً، وماذا سأفعل أنا؟ إذا جاء حضرتك بطريقة ما، مرة أو مرتين في السنة بعد الموسم، لأمكنني حتى زراعة المزيد من الفاصولياء. وإذا لم تكن لدينا رغبة في التقشير فيمكننا الذهاب إلى الغابة للتنزه. يمكننا الاستماع إلى الموسيقى، لقد جلبت كثيراً من الأسطوانات. لا، لا أَلعب الشطرنج. وهل بود السيد أن يلعب؟ بطريقة ما، لم أعلم. لم يكن لدي صبر بالنسبة للعبة الشطرنج. لعبت بالبريدج خارج الحدود أحياناً، لكن لعبة البريدج تتطلب أربعة أشخاص. عندما عملت في مواقع البناء، حدث لكن نادراً، عندما لم نشرب الفودكا لعبنا بالورق. بلعبة الألف، والأحمق، والست والستين، ولعبة البلاك جاك، وبالبوكر أيضاً.

ولعبنا، في وقت مبكر في المدرسة، بعلب ثقاب الكبريت. لم يلعب السيد بها قط؟ ألم تسمع حضرتك حتى بمثل هذه اللعبة؟ إنها لعبة بسيطة.

تعتمد على وضع علبة أعواد الثقاب، يجب أن تكون ممثلة فقط، على حافة الطاولة بشكل مسطح بحيث لا يبرز أكثر من نصفها خارج الحافة وإلا فسوف تسقط. ثم تضربها نحو الأعلى، أوه، بهذه السبابة. وبناء على كيفية سقوطها على الطاولة تحصل على عدد النقاط. فإذا سقطت على الحافة رأساً على عقب أي على جانبها الأقصر حيث يتم إخراج أعواد الثقاب، تحصل على أعلى النقاط. نحن اتفقنا على عشر نقاط. لكن يمكن الاتفاق بشكل آخر. إذا سقطت العلبة على ذراعها، الأول أو الثاني، هل يعرف السيد معنى دراسكا؟ حيث يمرر عود الثقاب لإشعاله، ستحصل على خمس نقاط حينئذ. وإذا سقطت على الجزء المسطح، فسوف تحصل على صفر.

أوه، لم تكن لعبة بريئة كما يعتقد السيد. لا توجد ألعاب بريئة. كل هذا لا يعتمد على نوع ما تلعب به، ولكن من أجل ماذا. لعبنا ببراءة عندما حضر المربي. لم نقم بتسجيل النقاط حينئذ. كان يجمع علب الثقاب ويأتي كل مساء تقريباً، ليرى ما إذا كنا قد أحرقنا أعواد الثقاب من علبة البارحة. وسأخبر السيد فيما بعد، لماذا كان يجمعها. تارة، كان يجلس طويلاً. لذلك اضطررنا أحياناً إلى التظاهر بأننا نستعد للنوم وإلا فلن يخرج. هذا يقوم بفتح أزرار قميصه، وذاك يفك قيطان حذائه، والآخر يفرش سريره. وأخيراً عندما غادر واثقاً من أننا سنأوي إلى أسرتنا قريباً قمنا بفحص الممر لمعرفة ما إذا كان قد غادر الثكنة أيضاً، وعندئذ نبدأ باللعب حقاً.

لكن، ليس من أجل المال. لم يكن لدينا مال. أحياناً، كان لدى أولئك الذين تمكنوا من سحب محافظاتهم من جيوبهم. ليس من أجل السجائر. لقد دخنا أوراق الكرز، والبرسيم وأشياء حقيرة أخرى. كانت اللعبة من أجل ألا تكون في النهاية. يتعجب حضرتك من أننا لعبنا من أجل هذا فقط. سأقول للسيد، هذا كل ما في الأمر. الخاسر، بغض النظر عن عدد الذين لعبوا، هو من حصل على أقل النقاط. وأصبح ضحية لجميع اللاعبين. أمكننا فعل كل شيء معه وكان يجب عليه أن ينفذ كل ما نطلبه منه. لذا فإن اللعبة لم تتعلق بالفوز كما هو الحال في جميع الألعاب الأخرى وبقاعدة اللعبة التي تحكمها. اللعبة، مثلما أسلفت، من أجل ألا تكون في النهاية. وما يعنيه ألا

تكون في النهاية هو أفضل دليل على أن بعض الأشخاص انفجروا بالبكاء على الفور. حاول بعضهم الهرب، لكن كيف سيهربون في ظل الانتصارات الكثيرة. حاول البعض أن يرشوا البقية بوعود مختلفة. ومع ذلك لم ينجحوا في رشوة أحد. حتى إن بعضهم هددوا بالسكاكين. لكن حتى هذا لم يساعد كثيراً. عندما يكون عدد الفائزين كثيراً لا ينفع البكاء ولا السكاكين. تمكن شخص واحد فقط من الفرار مرة. لكنه أيضاً لم يعد إلى المدرسة قط. توقع أن يكون في النهاية، وقبل أن تنتهي اللعبة، هرع باتجاه النافذة، كانت النافذة مغلقة، قفز كما لو إلى الماء فضرب رأسه بزجاج النافذة.

مع ذلك يجب القول إن كل شيء تم بشكل عادل. حتى إنه لم يسجل أي من اللاعبين النقاط. تم تعيين أحد الأولاد، أعطوه قطعة من الورق، قلم رصاص ولا يمكن لأحد النظر إلى تلك الورقة. لذلك يمكن للسيد أن يتخيل مدى الإثارة التي سادت الأجواء عندما انتهت اللعبة. ليس من هو الرابع، بل من هو الذي في النهاية.

ومرة سقط أحدهم فوجد نفسه في النهاية، أخذ الأمر بهدوء، وذكر أنه مضطر للذهاب إلى المرحاض أولاً. وإذا لم نصدقه يمكننا الذهاب معه إلى المرحاض. كان المرحاض يقع في زاوية الساحة، خلف الثكنات بقليل. لا أعرف، هل يعرف السيد كيف كان شكل هذا المرحاض؟ حفرة عميقة بطول الإنسان وربما أعمق. لا أتذكر أنهم قد أفرغوه فيما مضى، ولهذا يمكن أن يكون أكثر عمقاً. عريضاً، أوه، كالمسافة من السيد إلى الحائط، وطويل بحيث يمكن، لعشرات أو نحو ذلك، الجلوس فيه في وقت واحد. قضيبان ممتدان طويلاً، وكان الجلوس على العمود الأسفل، ويتم إسناد الظهر على الأعلى. عمودان سميكان على دعائمين حتى لا تتشينا. هناك سياج مرتفع من الألواح المحكمة حول المرحاض. وقفت على رؤوس أصابعي ومددت يدي لكنني لم أبلغ السقف. بطبيعة الحال، كنت أقصر بكثير في ذلك الوقت مما أنا عليه الآن. كان السقف أعلى بـ متر ونصف من السياج من أجل التهوية. لكن إذا سقط المطر كان من الصعب أن تجد مكاناً على القضيب لم يتسرب إليه الماء. وإذا هطل المطر بكثافة، وكما يقال، لم يسلم الشخص، في أي حال، من البلبل حتى لو تغوط مسرعاً.

هذا المرحاض كان المكان الوحيد الذي يمكن المجيء إليه للتحدث، الشكوى، الشتم، فتح الواحد قلبه للآخر، التأسي، والبكاء في بعض الأحيان. إذا اجتمع عدة أشخاص في أي مكان آخر وحتى لو تكلموا بأصوات خافتة أو، لا قدر الله، همسوا، فإن الحديث سينقل فوراً. كانت الهمسات هي الأكثر إثارة للريبة. وسيجري استدعاؤهم على الفور:

- حسناً، ما هي الأسرار التي لديكم؟ يجب ألا تكون أسرار هنا. السر شيء أناني عفا عليه الزمن. والمدرسة ليس عليها أن تعلمكم المهنة فحسب وإنما التربية. هيا تكلموا.

وكان علينا أن نخلق شيئاً ما. بطبيعة الحال، لقد كان بيننا مخبرون. لكن كيف كان بإمكاننا التعرف عليهم؟ لم يكتب على جباههم أنهم ينقلون الأخبار. حتى إذا اشتبهت بهذا أو ذاك فقد يكون بريئاً. ومع ذلك، ففي أكثر التخمينات جرأة، لا يخطر على بالك أنه ذلك الشخص الذي ينام على السرير الكائن فوق السيد أو تحته. وحتى عندما يودعك فهو يغطي نفسه ورأسه بالبطانية.

بالطبع، كان عليك توخي الحذر حتى لو كنت في المرحاض. كل شخص كان يخفض سرواله، سواء أراد التغوط أو لا، كلنا جلسنا على القضيبي، وكان أحدها يقف هناك أمام المرحاض للحراسة وسحاب سرواله مفتوح كما لو أنه نزل للتو من على القضيبي. السحابات، ينبغي على السيد أن يعلم، اعتمدت على الأزرار حينئذ، ولهذا فتزير ثلاثة أو أربعة أزرار لم يسر بسرعة كما هو الحال مع السحاب اليوم. إذا جاء شخص غير مرحب به فحينئذ يقوم بإعطائنا إشارة عن طريق الصفير أو السعال ثم يياشر بزر سحابه. لذلك عندما دخل مثل هذا الشخص إلى المرحاض لم يتعرف على أي شيء، لأن الجميع كانوا يجلسون على القضيبي ويتأوهون، أكثر من اللازم، في كثير من الأحيان.

حسناً، وهذا الذي أراد الذهاب إلى المرحاض ذهبنا معه. لقد فك سحاب سرواله وجلس على القضيبي، لكن من كان يتوقع أن تكون مجرد خدعة. فجأة، انزلق من على القضيبي وبدأ بالسقوط. لم يصرخ طلباً للمساعدة لأنه

لم تكن لديه نية في إغراق نفسه. بل أراد أن يدخل نفسه حتى يتتن. لقد كان يأمل بحق أن يتتعد الجميع عن مثل هذا الشخص التن وبالتالي فلن يأمره أي من الفائزين بفعل أي شيء. حتى لو استحم. ليس من السهل عدم ظهور رائحة كريهة بعد شيء كهذا حتى لو استحم كل يوم. خاصة أنه كان بملابسه وحذائه. أوه، يجب أن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً لكي يزول.

لكنه لم يعتقد أن الحفرة بهذا العمق. لقد بلغت صدره ولما تصل رجلاه إلى القاع بعد. عندها بدأ في الرجاء والتوسل لإنقاذه وأنه سيوافق على كل ما نأمره به. ما الذي أمكننا أن نأمره به؟ ماذا يمكننا تخيله في هذا العمر وفي مثل هذه المدرسة. لن أقول للسيد حتى بماذا. قمت أنا وزميلي بخلع قضيب إسناد الظهر في المرحاض بغية مده له. لكن الأكبر منا سناً منعونا من فعل ذلك! قالوا: فيما بعد، دعه يصل إلى لحيته. دعه يشبع من هذا وذاك. وما زالوا يستهزئون به. اعتقدت أنك يمكن أن تنقذ نفسك بالغاائط. وفي النهاية غاص حتى جبهته وكان لا بد من سحبه من شعره. هكذا كانت هي اللعبة.

ظاهرياً هي علبة ثقاب تُضرب بنقرة لتسقط رأساً على عقب، على حافتها الحادة أو على الجهة ذات الأثر الكبريتي أو المسطحة. لكن من يجد نفسه في النهاية، يمكن القول، يخسر نفسه. لقد وجدت نفسي أحياناً في النهاية أيضاً. لم يسلم أحد من مغبة المرور عبر هذه النهاية. وإلا لفقدت اللعبة المعيار الذي يدل على حدود الخسارة. إذا خسر أحد الأشخاص الأكبر سناً فإننا نحن الأصغر سناً منه لم نكن أرحم. لقد جعلناه يفعل أشياء، لا أريد أن أتذكرها.

إذاً، فلماذا كنا نلعب؟ ومن يبدأ اللعبة ويعتقد أنه سيخسر؟ ومع ذلك، كان يخسر شخص واحد فقط في هذه اللعبة، ذلك الذي وجد نفسه في النهاية. على العموم، في أي لعبة أخرى، يخسر الجميع بلا استثناء. أما في هذه اللعبة فالكل يفوزون باستثناء شخص واحد. قل لي، هل يعرف السيد لعبة أكثر لطفاً؟ وأبسط؟ بالضبط. علبة الثقاب على الحافة، أو رأساً على عقب، أو على الجهة ذات الأثر الكبريتي أو على الجهة المسطحة.

ماذا لو أخذنا استراحة صغيرة من تقشير الفاصولياء، وسأري حضرتك؟

ينبغي أن تكون علب الثقاب ها هنا في مكان ما. أوه، لديّ منها رزمة. سأخبر السيد، يحدث أحياناً أنني ألعب مع نفسي. آخذ علبة ثقاب لكن يجب أن تكون علبة كاملة، ثمانية وأربعون عوداً، على الأقل هذا ما كان في العلبة في ذلك الوقت، ثم أجلس، أوه، هنا، أمام الطاولة وأضربها بنقرة. على الحافة، على الجهة ذات الأثر، وعلى الجهة المسطحة. لن أسجل النقاط، لأنه ما الداعي لذلك؟ أنا لا ألعب من أجل شيء. ما الذي يمكنني أن ألعب لأجله أيضاً، ومع نفسي؟ إلا إذا أراد السيد أن نلعب من أجل شيء ما. قلّ لي من فضلك. في عمرنا من الصعب أن نلعب على ما لعبنا من أجله في المدرسة. أوه، لا أدري، لا أدري. حضرتك ضيف هنا والخيار يعود لك. وأنا سأتكيف مع ذلك.

نعم، العلبة ممتلئة. لا أستخدم أعواد الثقاب. أحياناً أشتريها من أجل اللعب فقط. لدي ولاعات. بخلاف ذلك كل شيء لدي كهربائي. بعد كل شيء أنا كهربائي. المطبخ كهربائي أيضاً. لنجلس على الطاولة. ليكن السيد في الجهة الأخرى وأنا من هذه الجهة. ربما يفضل السيد العكس؟ أوه، هكذا توضع العلبة خارج حافة الطاولة بهذا القدر، وإلا ستسقط من السيد. وهكذا عليك أن تضربها بهذه الإصبع، لكن عليها أن تكون منحنية قليلاً.

ليفضل حضرتك أولاً. حسناً، كما ترى حضرتك وقعت على الحافة مباشرة في المحاولة الأولى. ستحصل على عشر نقاط وفقاً لما اتفقنا عليه في المدرسة. الآن دوري. لينظر حضرتك، بالنسبة لي وقعت على الجهة المسطحة. لم تعد لدي هذه المهارة في أصابعي. إذا أصاب الروماتيزم الإنسان فإنه لن يتركه. مع ذلك، هي الآن، كما أخبرت حضرتك، أفضل بكثير. لا أشعر بالكثير عند تقشير الفاصولياء. هذه الإصبع التي أضرب بها العلبة، يرى السيد كيف أنها ملتوية. لا، لن تعود إلى ما كانت عليه سابقاً. يجب عليّ إجراء عملية. وهذا لا طائل فيه. الآن دور حضرتك. مرة أخرى على الحافة رأساً على عقب. ما هذا، ما هذا. أرى أنها جذبت حضرتك. وتعجب حضرتك لماذا نحن نلعب. كل لعبة تجذب الإنسان وإلا فلن يلعبها. وأنا على الجهة المسطحة مرة أخرى. ربما يود حضرتك في أن نسجل. حتى عندما لا تلعب من أجل أي شيء فقد يتبين أنك لعبت من أجل

شيء ما، وأنت لم تكن على علم به. خاصة إذا فزت. هل ستتذكر حضرتك؟ حسناً. لا أريد أن تستاء حضرتك مني لاحقاً، لأنك فزت وأنا لعبنا من أجل لا شيء. ومرة أخرى أوقع السيد العلبة على الحافة. لا بد أن يكون السيد قد لعب من قبل. لا أصدق. يمكن رؤية ذلك من خلال كيفية ضرب السيد للعلبة. تقوم بجعلها تدور نصف دورة في الهواء ولذلك فهي تسقط على الحافة دائماً. لكن حضرتك لا تريد الاعتراف بذلك.

كان ثمة واحد في المدرسة، أتذكره، في كل مرة بعد كل نقرة ينقرها كانت العلبة تسقط على حافتها. لم يرغب أحد في اللعب معه. كان معروفاً من البداية بأنه لن يكون في النهاية. سيعترف السيد، كيف يمكن اللعب مع هكذا شخص. يجب أن يكون لدى الإنسان مخاوف بقدر الآمال حتى عندما يتقدم إلى لعبة مثل اللعب بعلبة أعواد الثقاب.

والسيد ما كان ليرغب بأن يكون في مثل هذه المدرسة. أفهم ذلك. لكن هذا لم يعتمد على أن الشخص يريد. الآن دور السيد. ومرة أخرى، رأساً على عقب [على الحافة]. الآن دوري. ومرة أخرى (نفس الشيء) كما يرى السيد. في المدرسة، لم أكن محسوباً على الأسوأ إطلاقاً. بل على العكس. أما أنني تمرنت على هذا الضرب كل مساء تقريباً عندما بقيت لفترة أطول في القاعة العامة، فهذه مسألة أخرى. غالباً ما قطعت التمرين على الساكسفون أو على آلة أخرى وقمت بضرب العلبة بضع مرات. نعم، ذهبت إلى القاعة كل مساء تقريباً. وعلى الأغلب تم ذلك في وقت متأخر عادة عندما لم يكن أي أحد في القاعة. في بعض الأحيان، كان يأتي معلم الموسيقى لا غير. لم يزعجني كونه في حالة سكر. عندما جلس علمت بأنه يستمع إليّ. حضرتك مرة أخرى، رأساً على عقب على الحافة، أرى ذلك. يجدر بالسيد أن يلعب بهذه العلب فقط. لو لعب السيد من أجل المال لجنى ثروة.

كيف وصلت إلى المدرسة؟ يتذكر السيد أن الأخت المسعفة قد ماتت، قلت ذلك. لقد مرضت بعد ذلك بفترة وجيزة. ارتفعت درجة حرارتي جداً، فأعطوني حبوباً، تعرقت، لكن كلما انخفضت درجة الحرارة عادت لترتفع مرة أخرى. لقد شحبت حينها وضعفت. حتى إنني نهضت، لكنني لم أكن في وضع يسمح لي بالوقوف على رجليّ. أما هم فكان عليهم أن

يهربوا من تلك البحيرة، لأنهم بدأوا بمحاصرتهم. حملني اثنان، وسلمني أحدهما إلى الآخر بالتناوب بين الفترة والأخرى. سرنا طوال الليل وطوال النهار مع استراحات متقطعة، يعني هما حملاني. وعند المساء خرجا من الغابة وكانا على وشك الولوج إلى الغابة الأخرى، لكنهما رأيا فجأة كوخاً في الغابة. انتظرا حتى يحل الظلام. بعدما لاح ضوء في إحدى النوافذ، آنذاك ذهب الاثنان للاستكشاف. اتضح أنه لا يوجد في الكوخ الغابي سوى الزوجة. حملاني وتركاني تحت رعايتها. طوت يديها فوقى وبدأت بالنذب:

- يا مريم العذراء، لو علمت بأنك مريض جداً. أوه، لديك جبهة ساخنة، أنت متوهج بالكامل. يا مريم العذراء، لا تمت، لأنني دفنت زوجي للتو. وغسلت هذا المحموم في الطشت. وأعولت مراراً أثناء ذلك من جديد:

- يا مريم العذراء، كم أنت نحيل. جلد وعظم، يا أمنا المقدسة. لا يهم، سأطعمك، فقط اخرج من هذه الحالة. بعد ذلك عملت لي فقاعات. بعد الفقاعات قامت بتدليكى من الأسفل إلى الأعلى لدرجة أنني كنت مشتعلاً كلياً.

- قالت وهي تدلكني: لكن فقاعاتك سوداء، لكن لديك فقاعات سوداء. لم أر مثلاً سوداء من قبل. من الأجدر أن أعطيك علقات لكنني لا أملكها. أعطتني شيئاً لأشربه. أتذكر أنه شراب مر للغاية. اشرب، اشرب هذا جيد للصحة. بعد ذلك لفتني بلحاف من الريش.

على ما يبدو، لقد نمت يومين وثلاث ليالٍ. أيقظتني فقط لشرب هذا الشراب المر. ثم واصلت نومي. استيقظت بدون قوة تماماً، غير قادر على إخراج يدي من تحت اللحاف، لكن بدون حمى.

- قالت، كما لو أنها ترحب بي في هذا العالم، لقد ذبحت لك دجاجة، لكي يكون لديك حساء دجاج. أفضل شيء بعد هذا المرض هو حساء الدجاج. مع ذلك، لم تسمح لي بالنهوض. استلق، استلق، يجب عليك أن تستلقي قليلاً. لا أسمح لك بالنهوض الآن. وأطعمتني وأنا في الفراش، صبت في فمي ملعقة بعد ملعقة. قليلاً من الحساء، بعض الفطائر وقليلاً من

اللحم. - هيا، كلْ أكثر، كلْ. ولو هذه الملعقة فقط. يجب عليك أن تزيد وزنك وبخلاف ذلك فلن تعود لك قوتك. كم أنت نحيل، يا مريم العذراء، كم أنت نحيل.

رفعت اللحاف عني ونظرت إليّ. لم تكن لدي القوة حتى أشعر بالخجل. كانت ما تزال شابة كما أتذكرها اليوم. بدت لي بدينة. ربما وجميلة أيضاً، لست متأكداً من ذلك. بدا وجهها باهتاً بعض الشيء، عيناها حزيتان لكنهما طيبتان. شعرها أسود، حلّته أثناء تمشيّطه ولذلك اختبأت كلها فيه. نهداها مكتنزان لدرجة أنهما اندلقا على السطح أحياناً من تحت قميصها الليلي، عندما نهضت من الفراش.

لم يكن لديها أطفال أما زوجها الحراج فتوفي مؤخراً. كان الوقت فجراً عندما هرع خارج المنزل لطرد الخنازير البرية لأنها كانت تعزق مكان البطاطس، وفي تلك الأثناء حدثت هناك مطاردة لرجال المقاومة. واعتقدوا أن شخصاً ما هرب من الكوخ فأطلقوا النار عليه. هي هربت أيضاً أما هو فسقط صريعاً أمام الكوخ الغابي على ضفة الحقل. كثيراً ما كانت تبكي عليه. إذا قشرت البطاطس أو عجنت العجين لعمل الفطائر تبدأ بالبكاء فجأة. لقد واسيتها وخففت عنها قدر ما استطعت:

يا حراجة لا تبكي. قد يكون الحراج الآن في الجنة ويرى أن الحراجة تبكي.

- من أين لك هذا الذكاء؟ وتوقفت. - أأكل شيئاً؟ سأرى ما إذا باضت الدجاجات حتى أتمكن من قلي البيض لك. يجب أن تأكل. ولا يزال الوقت مبكراً جداً لتناول الغداء. لقد دلتني لدرجة أن لمعت عيناى. أوه، أنت تبدو الآن أفضل بالفعل. الحمد لله، أفضل. هل تأكل شيئاً؟ واستمر الحال على هذا المنوال. على الأقل، كل قطعة خبز مع الزبدة. ربما تأكلها مع الجبن؟ عملت الزبدة وعملت الجبن.

كانت لديها بقرتان. حينما شعرت بعودة قوتي قدتهما إلى المرعى بالقرب من الغابة. في بعض الأحيان، كانت تأتي إليّ والشمس لم تبلغ الظهر بعد، حاملة الخبز مع الزبدة والجبن مع بيضتين أو ثلاث بيضات مسلوقة.

- الوقت ما زال مبكراً على الغداء. لا بد أنك جائع. كل. في بعض الأحيان تجلس معي لفترة. وتقول وهي تنظر إليّ وأنا أكل:
- كل، كل. أوه، أنت تبدو بالفعل أكثر امتلاء اليوم من الأمس.

و ذات مرة وبينما نحن نستلقي في الفراش، هي في سريرها وأنا في سريرى، حينئذ سمعت أنها تبكي. بهدوء لكن لدي سمع جيد منذ الطفولة. اعتقدت، ربما هي تحلم في شيء سيئ. رفعت رأسي، أصخت سمعي، سمعت أنها تبكي. سألتها: أتبكي الحراجة؟ لماذا؟

- إيه، لا شيء. ما الذي سأقوله لك. لو كنت أكبر سنّاً، لو كنت أكبر سنّاً. عليك أن تنام.

حل الشتاء. كانت لا تزال تدللني بالطعام، وأنا ساعدتها في كل شيء سواء أطلبت مني ذلك أم لا. قالت في بعض الأحيان: إن الله قد أرسلني إليها وإلا فكيف ستتدبر أمورها بنفسها بعد رحيله. كانت تعني زوجها الحراج. وعلى خزانة الملابس في الغرفة انطرحت قبعة الحراج. مخضرة اللون، ذات حافة ضيقة مطوقة بحبل بني اللون فوق الحافة، ومربوطة من الجانب على شكل رقم ثمانية. ربما ما كنت سأنتبه إلى هذه القبعة لولا أنها أنزلتها من على الخزانة، وقامت بتنظيفها بالفرشاة ثم علقتها على المسمار فوق صورة زفافهما.

- قالت: دعها معلقة هنا. ولا تحركها أبداً. إنها مقدسة.

لكن في القداسة، كما تعلم، يكمن إغراء أعظم مما هو في الخطيئة. وبمجرد أن ذهبت إلى الدكان في القرية خلعت تلك القبعة ونظرت إلى صورة زفافهما. لم تكن أكبر سنّاً بكثير مما كانت عليه في صورة الزفاف تلك، أما الحراج فهو كأبي حراج. ظننت طالما أنها في الدكان فلا أحد سيراني إذا جربت القبعة. وجربتها.

كانت هناك غرفة أخرى مغلقة بالمفتاح. وقد أخفت المفتاح وراء لوحة مريم العذراء مع السيد المسيح وهو طفل. لكن طالما أنها أغلقتها فهذا يعني أنها لا تريدني أن أدخل إلى هناك. ولم أدخل. لكن بمجرد أن تركت هذا المفتاح في الباب ولم تدره، دفعني شيء ما للدخول للحظة. تمكنت من

رؤية سرير ممتلئ مغطى بغطاء مزخرف وثمة مهد بجوار السرير ومراة كبيرة على الحائط. كنت أعلم بوجود المراة هناك. عندما أرادت غسل رأسها كانت تطلب مني دائماً أن أفعل شيئاً، أراقب شيئاً، وتقول أما أنا فسوف أذهب لتمشيط شعري أمام المراة. وذهبت إلى تلك الغرفة، أغلقت الباب وراءها ومشطت شعرها لفترة طويلة.

نظرت إلى نفسي في المراة، وسأقول للسيد، لقد خفت للوهلة الأولى من أن هذا هو أنا. كأنني رأيت نفسي للمرة الأولى. يبدو الأمر كما لو أنني جئت لأرى أنني موجود على الإطلاق. في المنزل لم أنظر إلى نفسي في المراة قط، لأنه من ينظر إلى نفسه في ذلك العمر. عندما ذهبت إلى المدرسة صباحاً، كانت والدتي تراقبني دائماً: دعني أمشط شعرك، وإلا فلن تمشط شعرك. وقفت ووقفت أمام تلك المراة، ولم أصدق أن هذا أنا. ربما لأنني كنت بقبة الحراج التي سقطت على أذني. أو ربما تراءى لي أنني أكبر بكثير مما رأيته في المراة فأثار دهشتي. وجه محمر، ممتلئ ومغذى بشكل جيد. مررت يدي على خدي ولم أحس حتى بانبثاق الزغب. وهذا الذي في المراة مرريده أيضاً، كان لدي انطباع بأنه أحس بالزغب فعلاً. وقفت ثم وقفت وترددت في تصديق أنني أنا. خاصة أنني لم أعجب بنفسي. أعجبتني قبة الحراج لا غير. وحتى خطرت على بالي فكرة، ماذا لو كنت حراجاً هكذا؟ في هذه الأثناء لم ألاحظ أن الحراجة قد عادت. دخلت ممتعضة، غاضبة، كيف وجدت المفتاح؟! ما الذي أتيت من أجله هنا، لماذا دخلت، هل المكان غير كاف في تلك الغرفة، في المطبخ وفي الفناء؟! خلعت القبة عن رأسي، وشرعت تقول، إنها تطعمني وتدللني بقدر ما تستطيع لكنني ناكر للجميل، مثل هذا الجاحد، وأشياء أخرى، وعموماً، حتى تقطعت أنفاسها. لم أرها في مثل هذا الحال من قبل. ارتج ثدياها وتنفست بصعوبة. أخيراً جلست متعبة وهدأت قليلاً.

- انظر، انظر، ماذا فعلت. اعتقدت أنه عندما انتهت الحرب، فالآن...

لم أفهم قصدها، لكنني علمت على الأقل أن الحرب قد انتهت. في بعض الأحيان كان من الممكن، خاصة عندما تندر السماء بالمطر، أن تسمع هناك في مكان ما بعيداً، بعيداً، كيف يقرقر القطار ويصفّر. أو عندما تضع أذنك على الأرض كيف تمر القعقة أيضاً مثل التيار الكهربائي. سألتها ذات مرة:

أين يسمع صوت القطار هكذا؟

- أشارت لي بيدها: هناك.

وأين المحطة؟

- هناك لكنها بعيدة من هنا.

مر الشتاء والربيع وجاء الصيف. وقلت ذات مرة، سأذهب إلى الغابة من أجل الفراولة البرية، لكنني نويت الذهاب إلى هذه المحطة. ذهبت هكذا بدون قصد، فقط لأرى ما إذا كان القطار سيأتي. عندما أتذكرها اليوم كان لا بد أنها كانت على مسافة كيلومترين. المحطة ليست كبيرة، إلا أن عدداً غفيراً من الناس كانوا في الانتظار. سألت عامل السكك الحديدية متى سيصل القطار؟

- سألني: وفي أي اتجاه؟

هذا ليس مهماً.

كيف هذا لا يهم؟ لا تعرف في أي اتجاه أنت ذاهب؟ ولكن إذا كنت لا تعرف فهو سيأتي قريباً.

وبالفعل وصل في وقت قريب جداً، ممتلئاً بالناس، تعلق الناس به، وجلسوا حتى على الأسطح. أما أولئك الذين انتظروا فبدأ أنه لن يسعهم. خاصة أنهم كانوا مع حقائبهم وصناديقهم وسلالهم وصرر وطرود مختلفة. أخرجوهم من العربات ودفعوهم من الرصيف. نسيت أن أذكر أنه بمجرد أن توقف القطار قفز، من بدايته ومن نهايته، صبيان في نفس عمري تقريباً حاملين سلتين بأيديهما، صاح أحدهما وهو يركض:

إجاص! تفاح! برقوق! وصاح الثاني: طماطم! خيار! ملفوف! لفت!

واشترى الناس من خلال نوافذ القطار بعد مد الأيدي لهم. تحرك القطار وقد باعاً وهما مازالا يركضان. قفزا في آخر لحظة على الدرجات وبلغا الدرابزين بالكاد. اكتسب القطار زخماً وغادر أما أنا فاعتراني شعور غريب لأنني بقيت. شعرت كما لو أن هذا القطار مع جميع الأشخاص الذين فيه قد تركوني. بدا مندهشاً عامل السكك الحديدية الذي سبق أن سأله عن موعد وصول القطار:

- لماذا لم تذهب إذا كنت لا تهتم بأي قطار؟ وضحك.

دخل إلى مبنى المحطة وأنا عدت أدراجي من حيث أتيت. سرت ببطء، عذبتني أفكار مختلفة، وعندما أصبحت قريباً من منزل الحراجة قررت الهرب منها. خاصة أنها أخذت تعاتبني للتو: أين كنت هذه الفترة الطويلة، أوه، ولم أقطف الفراولة البرية. وعموماً، كنت أكثر رغبة لفعل كل شيء من قبل، على الرغم من أنني كنت أنحف ولم أملك القوة التي أملكها الآن.

أخذت سلتها وكوبها القصديري ذا نصف اللتر لاستخدامه كوحدة قياس عندما سأبيع الفراولة البرية والعنب البري، والعليق أو أي شيء صغير آخر. وقبل أن تستيقظ في الصباح انسللت بهدوء من تحت غطاء الريش ثم هربت. بدأت مثل هذين الولدين بركوب القطارات. بعث كل ما جمعته في الغابة أو ما كان لدى الناس في البساتين وما سرقته من الحقول. هذا كان في البداية، لأنني اشتريت من أصحاب المنازل لاحقاً، بعد أن جمعت قليلاً من المال. غالباً ما كانوا يشفقون عليّ لذلك باعوني مقابل مبلغ زهيد جداً، وفي بعض الأحيان أعطوني بدون مقابل. أما أنا فكنت أبيعها بالقطعة أو حسب الكوب. نعم، كان ينبغي أن تكون لدى كل شخص حقيبة أو قطعة جريدة على الأقل بالنسبة للبيع حسب الكوب. نمت في المحطات، لكنني ركبت في الغالب. لقد غيرت القطارات حيثما وجدت محطات لتجاوز القطارات بعضها بعضاً، ثم واصلت طريقي وهكذا طوال الوقت. تعرفت على شباب آخرين كانوا يسافرون مثلي أيضاً بهذا القطار وذاك. لقد علموني الكثير، ما هو الشيء الأكثر ربحاً أو الأقل ربحاً، ومتى سيكون الطلب عليه أكبر، وفي أي القطارات يكون البيع أفضل، في القطارات الصباحية أو المسائية، أوه، هناك فرق كبير. هل في القطارات البطيئة أو في المسرّعة. كان البيع في المسرّعة هو الأسوأ. كانت للمسرّع رحلة واحدة في اليوم. أو على سبيل المثال، ماذا يفضل الناس في القطارات المزدحمة أكثر، وماذا في الأقل زحمة وفي الدرجة الثانية والثالثة. آنذاك كانت الدرجة الثانية بمنزلة الدرجة الأولى في أيامنا الراهنة، والثالثة كالثانية. ثم متى يدفعون سعراً أعلى ومتى لا يدفعون هذا القدر. كان البيع أفضل في القطارات المزدحمة، حيث الحرارة مرتفعة والناس عطشى. لكن لم يكن من السهل التحرك في داخل قطار كهذا. حتى

قاطعوا التذاكر لم يفحصوا التذاكر في كثير من الأحيان. لكنني كنت في مثل هذا العمر بنصف حجمي الآن وكنت رشيق الحركة. وعندما تحسنت مهاراتي بعث عصير الليمون أيضاً. وكان مردوده هو الأفضل. ناهيك عن كونه لا يفسد.

ذات مرة ناديت أثناء اجتيازي الدرجة الثانية، وعادة ما كانت الدرجة الثانية أقل ازدحاماً:

عصير الليمون! عصير الليمون! كمثرى! كمثرى! تفاح! تفاح! وإذا برجل مسن يناديني:

- أعطني إجازة واحدة. لكن ناضجة جيداً. كم تطلب مقابل هذه الكمثرى؟

ودفع لي ما يقابل ثلاثاً على هذه الكمثرى ولم يأخذ الباقي. طلب مني أن أجلس بجواره قليلاً. ثم بدأ يسألني، من أين أنا، أين أسكن، وهل والداي على قيد الحياة. ولم أتفوه بشيء، لأنه ماذا كان عليّ أن أقول له؟ كنت لا أزال خائفاً من تغريمي بسبب سفري بدون تذكرة.

وقال: هل ترغب في الذهاب إلى المدرسة؟ لم أقل شيئاً أيضاً، لأنني لم أكن أعرف ما إذا كنت راغباً في ذلك. قال: ستتعلم مهنة ما. لن تظل متنقلاً بين القطارات طوال الوقت. ما الذي ستبيعه في الشتاء؟ لا توجد فواكه. ستبيع عصير الليمون؟ في الغالب لا توجد تدفئة في القطارات، من سيرغب في شرب عصير ليمونك؟

سأقول للسيد، لقد أخافني بهذا الشتاء. ما كنت أعرف أن الناس لا يحبذون الشرب في القطارات شتاء. والأنكى من ذلك، أنه فاجأني بقوله: هناك كثيرون من أمثالي بعد الحرب الآن. لقد توقف القطار في إحدى المحطات وبدون أن يسألني أكثر، أريد أو لا أريد، قال:

- سننزل.

ونزلت معه. كانت هناك عربات تجرها الخيول واقفة أمام المحطة. اقتربنا من إحداها. لا بد أن سائق العربة يعرفه لأنه كان مسروراً:

- أوه، حضرة القَيِّم. مرحباً، مرحباً. منذ فترة طويلة لم أنقل حضرة القَيِّم. ثم سأله: إلى نفس المكان المعهود؟ سرنا لفترة طويلة وتوقفنا

أمام مبنى في الطابق الأرضي بنوافذ ذات قضبان حديدية. وهناك سلمني لشخص ما. أخذوني وحلقوا شعر رأسي تماماً. بعد ذلك أعطوني منشفة وصابونة وقادوني إلى الحمام وطلبوا مني تنظيف جسمي جيداً. أعطوني بعض الملابس وحذاء. أتذكر كان الحذاء كبيراً جداً. لقد تركت حذائي عند الحراجة، لأنني لم أرد إيقاظها أثناء هروبي. سرت حافياً والصيف قد قارب على الانتهاء. صوروني من الأمام والجانبين. بعد ذلك أخذوني إلى المطعم. كان بضعة أولاد يأكلون هناك. الخبز مع المرملاذ وقهوة من الحبوب السوداء، لم يرق لي الطعام على الرغم من كوني جائعاً. بعدها قادنا الحارس جميعنا إلى الزنزانة. نافذة ذات قضبان وفي زاويتها دلو وبضعة أسرة حديدية على شكل طوابق، وقال:

- سيكون هنا أفضل لكم مما لدى أمهاتكم. ناموا. وأغلق الباب بالمزلاج من جهته الخارجية. ومع ذلك لم ينم أي منا، إذ بمجرد أن أطفأنا الضوء بدأ بق الفراش بقرصنا. هل سبق أن تعرض السيد لقرص البق من قبل؟ لا أتمنى للسيد ذلك. قرصنا طوال الليل. كان عدده كبيراً. ضربناه لكنه استمر في الخروج من حيث لا ندري. لقد واجهت البق لأول مرة حيثئذ. ودعني أقول للسيد، لا يمكن مقارنة القمل والبراغيث ببق الفراش. أصبحت كل أجسادنا مليئة بالبثور مصحوبة بحكة كافية لسلخ الجلد. كنا نحك أنفسنا حتى خروج الدم. وكلما حكنا أقوى صارت الحكة أسوأ. وهكذا ليلة بعد ليلة. اشتكيننا لذلك الحارس الذي أغلق الباب في الليل علينا فقال:

- عليكم أن تستغرقوا في نومكم عميقاً.

بعد أيام قليلة جاءت إلينا سيارة لتنقلنا. لم تكن سيارة شحن عادية. سقيفة من الصفيح بنوافذ ذات قضبان، وثمة رجل بزي عسكري قام بغلق الباب علينا. ركب إلى جانب السائق وكان يلقي نظرة علينا من خلال نافذة الكابينة وكانت ذات قضبان أيضاً، ماذا نفعل. وما الذي كان بوسعنا أن نفعله؟ هزتنا السيارة وهذا كل ما في الأمر. كان الطريق عبارة عن مرتفعات ومنخفضات بحيث سرنا بشكل متعرج أكثر مما لو بخط مستقيم وعلاوة على ذلك كانت ترمينا على جانبيها. فكرت طوال الطريق، ما الذي قد فعلته أنا بحق الجحيم. هل لأنني هربت من الحراجة؟ أم لأنني كنت أبيع في

القطارات؟ أم لأنني سافرت بدون تذكرة؟ أوه، مع ذلك انتهى بي المطاف في هذه المدرسة.

آها، لم نتفق على عدد الضربات التي نعتمدها في اللعب. مثلما يجذب السيد. اعتدنا في المدرسة على تحديد عدد الضربات من هذا العدد إلى ذاك. واعتمد هذا على عددنا في اللعب. وكذلك على الوقت، هل بدأنا مبكراً أم متأخراً. وارتبط ذلك بالوقت الذي يغادرنا فيه المربي. أردت أن أقول للسيد، لماذا كان المربي يجمع علب الكبريت الفارغة بعد كل مباراة. لن يخمن السيد ذلك. حسناً، لينظر السيد إلى هذه العلبة التي نلعب بها. ماذا يرى السيد؟ حسناً، هنا توجد جهة الكبريت، ومن هناك يتم إخراج أعواد الثقاب سواء من هذه الجهة أو تلك. وهنا لصقة البضاعة. على سبيل المثال، نجد في هذه العلبة الكتابة التالية: دعونا نطعم الأطفال الجوع. صادرة من إحدى المؤسسات. كانت اللصقات مختلفة في السابق. وقد تغيرت قليلاً. بعد حرق أعواد الثقاب كان يذهب أحدها ليشتري علبة جديدة أخرى أو أنه يخرجها من جيوب البعض، وهناك لصقة جديدة على العلبة. كان في اللصقة السابقة: نظّف أسنانك، وهنا يوجد: عاش الأول من أيار، أو: إلى الأمام يا شباب العالم، أو: الأمة كلها تعيد بناء عاصمتها. إذا لم يعرف السيد الحقبة التي عاش فيها فبإمكان السيد معرفة ذلك من خلال هذه اللصقات. لا أعرف ما الذي يتم تغييره ولا بأي شيء. قلت للسيد، إنني لا أستخدم أعواد الثقاب تقريباً، كل ما لدي يعمل بالكهرباء. لا أدخن السجائر أيضاً. لكن، في رأيي، إن أي وقت يمكن أن يرتب من هذه الملصقات [المسميات]. وكانت الأمور تترتب منذ أن وجدت علب الثقاب.

ومعلمنا المربي هكذا كان يعتقد. حتى إنه طلب منا أن نعمل في محل النجارة لوحة من الخشب الرقائقي. كم حجمها؟ حسناً، بدون مبالغة، كانت أصغر بقليل من سبورة المدرسة. لقد ثبت عليها علب الثقاب على شكل صفوف. ولم يزل هناك كثير من المساحة الفارغة ولهذا كان يأتي إلينا كل مساء ليزكرنا بتلك العلب عندما نحرق أعواد الثقاب. لقد أحضرنا هذه اللوحة إلى الفصل في كل درس من دروس التربية. حملها تلميذان أو ثلاثة لأنها كانت ثقيلة جداً ثم تبعهم المربي وهو يصرخ:

- بحر ص، بحر ص!

كانت العلب مثبتة بشكل ضعيف، لأن بعضها سقط في الطريق أحياناً. أوه، لقد غضب المربي حينها، مطلقاً شتى الأوصاف على التلاميذ الذين حملوها من قبيل: حمير، حمقى، جهلة. وقام بتربيتنا بناء على تلك اللوحة، علبة تلو علبة. ربما اعتقد أنه طالما لعبنا بهذه العلب فكان من الأسهل تهذيبنا. إذا دعاك إلى اللوحة أشار بعصاه إلى هذه العلبة أو تلك وسألك ماذا ترى عليها. لكن ما تراه ليس كل شيء، لأنه طلب منك التوسع بعد ذلك. كان الأمر أسوأ مع التوسع. حتى لو تمكن الشخص من التوسع فإنه سيستمر في إرهاقه، طيب، ربما أعمق قليلاً، فكّر، كيف كان ينبغي فهم ذلك بشكل صحيح. وإذا خطر ببال أحدهم فهم الأمر بشكل خاطئ تراه يزيد ويرعد، ويصرخ بنا، خاصة أننا نلعب بالعلب طوال المساءات، حتى حينما غادرنا معتقدين أنه لا يعرف، فإنه يعرف كل شيء. كان يعرف ما هي هذه اللعبة. وما الذي لعبنا من أجله.

سأقول للسيد: في رأيي، لم يكن الأمر غيباً على الإطلاق، عندما نفكر في ذلك. وإلا فليقل لي السيد، كيف يمكن تربية الإنسان كي لا تكون لديه شكوك في طبيعة الأوقات التي يعيش فيها. ما يهم الإنسان فقط هو أن يعيش من الولادة حتى الموت. ومن يحتاج إلى مثل هذا الإنسان الذي همه أن يعيش من الولادة حتى الموت لا غير. ومع ذلك يتراءى له في بعض الأحيان أن هذا كثير. الأهم من ذلك، إذا كان بإمكانه أن يقرر بنفسه الأوقات التي يود أن يعيش فيها، فمن المحتمل أن قلة من الناس يرغبون في العيش في أوقاتهم. أن يعيش في أوقاته. يعترف السيد بأن أصعب شيء هو العيش في هذه الأوقات. كان أسهل بكثير فيما مضى وفيما بعد، لكن ليس في أوقاتنا. أوه، إن تربية الإنسان ليس بالأمر الهين. ومن غير المعروف أبداً، ما هي الطريقة التي قد تكون هي الأفضل. وإذا، فلماذا على علب الثقاب أن تكون أسوأ؟

حسناً، الآن دور السيد.

ألم أخبر السيد؟ تراءى لي أنني حكيت للسيد. لقد ذهبتُ واشتريته. ليس إلى المكان الأقرب. المدن الأقرب عبارة عن ثقوب وقد لا يكون فيها شيء من هذا القبيل. أردت قبعة بنية من اللباد. بحثت إلى أن وجدت متجرّاً لبيع القبعات. كان من الممكن أن أغفله لأن واجهته لم تكن أوسع من نافذة محلي هذا، ولم تكن فيها سوى قبعات، وبيريهات [كُمّات مستديرة] وقبعة واحدة رمادية. لحسن الحظ، رأيت في آخرها تقريباً، خلف تلك القبعات والبيريهات قبعة بنية من اللباد كما لو أنها مخفية. ففرحت بها ودخلت. المتجر معتم، طويل مثل ممر، الضوء بقدر نافذة العرض هذه وفي نهايته خلف المنضدة كان البائع. لا بد أنه أخذ قيلولة، لأنه عندما دخلت رفع رأسه عن الطاولة، وقال متثائباً:

- تفضل.

أجبت بنبرة اعتذار لأنني أيقظته: أريد قبعة.

- أي قبعة؟

بنية من اللباد.

لا توجد لدي قبعات بنية من اللباد. لا توجد أي قبعات بظلال بنية اللون. هذا هو كل ما تراه أيها الشاب. وأشار إلى الرفوف الكائنة خلف ظهره. كانت هناك قبعات مسطحة وبيريّات وأنواع أخرى من القبعات، وثمة بضع قبعات فقط ومعظمها من نفس اللون الرمادي الداكن، كذلك التي في واجهة العرض، وليس أكثر من اثنتين أو ثلاث مخضرة اللون، بقدر ما يمكن رؤيته في نصف العتمة التي عمّت في النهاية. - تعتقد أيها الشاب أنك أتيت إلى

متجبر، أليس كذلك؟! حتى إنه رفع نفسه من الكرسي. كان قصير القامة، وفجأة بدالي أنه أكبر. - لكن هذا ليس متجبراً. وبالتأكيد هو ليس متجبر قبعات. أوه، فقط لو أتاني السيد قبل الحرب.

قاطعت: وهذه التي في واجهة العرض؟

- لا يمكنني إخراجها من العرض.

لماذا؟

- يمكنني أن أخرجها من واجهة العرض فقط عندما يحين موعد تغيير المعروض.

ومتى سيحين هذا الموعد؟

- ومن بإمكانه أن يعرف ذلك. من يمكنه أن يعرف أيها الشاب. يجب أن تأتي البضاعة حتى يكون هناك ما يمكن استبداله. وكما لو أنه لا يستطيع أن يغفر لي لأنني قطعت قيلولته. - على أي حال، هذه القبة المعروضة في واجهة العرض كبيرة جداً بالنسبة للسيد. يحتاج السيد إلى رقم أصغر حجماً، أنا أرى ذلك. أو رقمين فيما لو حلق السيد رأسه. من أين جاءت هذه الموضة لمثل هذا النوع من تصفيفة الشعر؟⁽¹⁰⁾ كل شيء يبدو ليس كما ينبغي. كل شيء بالعكس.

اعتقدت أن شعري الطويل قد وضعه، على ما يبدو، في موقف متردد إزائي، لأنه نفسه كان أصلع. حينئذ، حملت على رأسي سقيفة من الشعر حتى إني شعرت بغباء شديد، بالنسبة لصلعته هذه.

- قال بشكل غير متوقع بنبرة أكثر ليونة: على أي حال، حتى أَرْضِي السيد. وأخذ شريط القياس، خرج من وراء الطاولة وطلب مني الانحناء لكي يقيس رأسي. - مثلما قلت لك إنها أكبر حجماً من رأسك. سنوات طويلة وأنا في هذه المهنة، لا أحتاج حتى إلى القياس. أنظر إلى الزبون وأعرف على الفور، أن القياس كذا وكذا سيكون مناسباً. وكذلك ما هو النمط المناسب وما هو اللون المناسب. أعرف كل شيء قبل أن يقيس الزبون. تحتاج إلى

10- تسريحة أو تصفيفة شعر، تتميز بالحلاقة على ارتفاع متساوٍ، وعادة ما يكون الشعر كثاً.

معرفة كل شيء كي تقدم المشورة. في بعض الأحيان يمكن أن يكون النمط النموذج أو اللون مختلفاً، لكنني أنظر وأعرف أيهما سيعجب الزبون أكثر، وحينئذ أنصح به بالمناسب. وبأي واحد سيعجب الزبون، أوه، أنت بحاجة إلى معرفة أكثر من مجرد القياس والنمط واللون. وللمقارنة، كل زبون هو جبل وعلى قمة هذا الجبل أنت بحاجة إلى أن تحدث القبعة المناسبة. على أي حال، لماذا أنا أخبر السيد بهذا. القبعات، أوه، هي بهذا القدر المتوفر، ولكن لا يوجد زبائن أيضاً. نحن جميعنا قوم عاملون في المدن والقرى. أما القبعات البنية من اللباد فلا أتذكر متى كانت.

وهل يتوقع السيد أنها ستكون متوفرة؟

وهل هذا معلوم أيها السيد؟ وما هو المعروف اليوم؟ أن الشمس ستشرق غداً، هذا لا يزال معروفاً. لقد قدمت طلبية. ومتى ستصل إلى هناك. على القبعة اللبادية، البنية اللون. أنا نفسي أحب البنية أكثر ومن اللباد. ما زالت لدي واحدة من فترة ما قبل الحرب، سأتحقق بطريقة ما. إن الطلبية اليوم تعني أنك سترسلها وتنتظر حتى يشفق عليك أحد. وعندما يجلبونها لك أخيراً فهي ليست بتلك الأنماط، ولا الألوان ولا القياسات. أما أن سوق القبعات اليوم غير رائع فهذه قضية أخرى. هذه الأوقات ليست جيدة بالنسبة للقبعات. كما لو أن الناس يخافون من أن يصبحوا طويلي القامة. لأن القبعة ترفع. إنها تضيف خمسة أو عشرة سنتيمترات وهذا يعتمد على النمط. كل شخص أراد أن يكون أطول في السابق. وكانت هناك أنماط لقصار القامة أيضاً. لقد عملت طوال حياتي في القبعات وفي سن الشيخوخة لا أفهم منها شيئاً. تراءى لي، طالما أن شخصاً مثلي كان يملك متجراً قبل الحرب، ويا له من متجر، ويجلب القبعات حتى من خارج الحدود، فإنه ينبغي أن يقرأ من القبعات كما لو من سفر الحكم. من الواضح أن هذا السفر لا يغطي أوقاتنا الراهنة. أوه، لو جاءني السيد قبل الحرب لكانت لديّ بنمط مناسب ولون ونوعية وعلى مقاس السيد. معذرة، ما هي القبعة التي أراها السيد؟

بُنية، من اللباد.

- بالطبع، ستكون لدي بنية اللون ومن اللباد. أريد السيد قبعة أكثر

دكنة أم كاشفة أكثر؟ بحافة أضيق أم أعرض؟ تفضل، هي ذي. أكثر أم أقل ارتفاعاً؟ السيد طويل القامة جداً ولذلك أنصحك أن تأخذ واحدة بحافة أقصر. تفضل، ها هي. الزبون كان زبوناً. والقبعة، حدث ولا حرج، يا حضرة السيد. كان الرجل يُعرف بقبعته. واليوم الأولوية هي للصناعة الثقيلة في المقام الأول، أما القبعات فهي إنتاج ثانوي. أوه، يمكن أن يأخذ السيد هذه. إنها على مقاس السيد. وأخرج من الرف الكائن خلفه واحدة من تلك القبعات الباهتة اللون.

- ليضعها السيد على رأسه ويقترب من المرأة لتجربها.
أجبتة: لا، شكرًا.

ربما هذه المخضرة اللون. ثم أخرج إحدى القبعات المخضرة. حتى إنها أكثر ملاءمة للوجه الشاب. وهي على مقاس السيد. أنصح بعدم استخدام اللون البني. اللون البني يجعلك أكبر سنًا. خاصة أنه من اللباد. ولا يوجد داعٍ للاندفاع نحو الشيخوخة حتى في هذه الأوقات. سوف تأتي بنفسها. هي، هي، ستأتي محلفة بجناحين. يتوقعها الإنسان ومع ذلك يحس بالمفاجأة. لا يوجد اتفاق لدى الإنسان على الشيخوخة. السيد ما زال شاباً وليس عليك بعد أن تفهم كيف تؤلم الشيخوخة. ومع ذلك، فإن الشباب يؤلم في بعض الأحيان. هذه هي الحياة، في كل سن هناك شيء يؤلم. الإنسان يؤذي نفسه بنفسه. هناك أحد الزبائن اعتدت على أن أجلب له قبل الحرب قبعات من الأنواع الفاخرة... أوه، لن يكون لدي مثل هذا الزبون مرة أخرى. وفجأة، بدا كأنه يتذكر شيئاً ما. انتظر لحظة، لدي شيء هنا مناسب للسيد تماماً. بالتأكيد سيكون مناسباً. بدأ بوضع جميع القبعات، البيريات والقبعات المدورة على الرفوف، ثم سحب قبعة بلون الكريم من مكان ما في الأسفل. أعاد إليها شكلها وقال بصوت مفتخر: من متجري أيضاً. ليجربها السيد. وعندما شكرته بقولي: لا، ليس هذا ما أريده، بدأ يرجوني علناً: بماذا سيضر السيد. أرجوك جربها. ربما كانت بانتظارك فقط. يحدث أحياناً أن القبعة تنتظر الزبون. وعندما يصدف الزبون يتحقق ذلك وإذا جاز التعبير نقول: هذا قدر. لكن ليس قدر القبعة فحسب. لسوء الحظ، ربما هو بالفعل لا ينتظر ذلك الزبون. آه، يا له من زبون. كان مفعماً بالحياة. إذا جاز التعبير، لقد غير القبعات كما

النساء. لطالما عرفت أنه قد غير امرأة بمجرد مجيئه من أجل قبعة جديدة. وفي المرة الأخيرة رغب في الحصول على قبعة شبابية وذات لون كريمي. قال: بلون رمال الصحراء تحت الشمس الساطعة. وأضاف هامساً: ستكون هناك حرب. من الضروري الاستمتاع بالحياة قبل أن تنشب الحرب، حتى في اللحظة الأخيرة لأنها قد تكون آخر فرصة. وعدت ذلك الزبون ودعوته أن يأتي بعد شهر. لكنه لم يأت قط. وهذه هي القبعة. بلون رمال الصحراء تحت الشمس الساطعة. تفضل، ليجربها السيد. لا يمكنني الانتظار أطول... خاصة أنني أخفيها تحت أغطية أخرى. المتجر حكومي وأنا أبيع فيه بضاعتي الخاصة، علاوة على أنها من زمن ما قبل الحرب. ويكفي أن تكتشفها الرقابة. لحسن الحظ لا يوجد هنا ما يراقبونه. في العادة، يطلبون التوقيع على التقرير بأن الرقابة كانت هنا، والحالة كذا وكذا ولم يتم العثور على أوجه قصور. في بعض الأحيان عندما يشيرون إلى أن طلباتي قليلة وليس على كل الأنواع، أقول، لأن خططي تتوزع على جميع الأنواع ويجب أن يكون لدي الكثير من السلع. أحياناً يسألونني عما أريد وما هي رغباتي. وأي رغبات يمكن الإنسان أن يحصل عليها أساساً في متجر حكومي، وإذا جاز القول، طالما أن الرغبات مؤمنة أيضاً. لقد ذكرت لهم حاجتي إلى مزيد من القبعات. وبالتأكيد سجلوا ذلك. وسألوني أن أعطيهم مزيداً من الأنماط، والألوان والأحجام وقد سجلوا ذلك. والآن أنا أنتظر تحقيق رغباتي. أوه، وكانت لدي رغبة في أن يصلحوا لي الضوء. بعد شهر سيحل الغسق ويجب عليّ أن أضيء المحل بالشمعة، لأنني لا أستطيع إغلاق المحل مبكراً. مكتوب على الباب أن المحل مفتوح من هذه الساعة إلى هذه الساعة ويجب أن يكون مفتوحاً. وعندما يدخل الزبون يجب عليّ الاقتراب منه والشمعة بيدي لأسأله، ماذا يريد، لأنني لا أعرف ما إذا كان يراني هنا خلف الطاولة.

سألته وأنا متجه بالفعل إلى الخروج، وماذا حدث للضوء؟ خاصة أنه لم يمنحني أملاً في رفع هذه القبعة من واجهة العرض لكي أجربها، هل هي كبيرة جداً عليّ حقاً.

- وماذا كان يمكن أن يحدث؟ انظراً المصباح ولم يعد يضيء. تأكدت من المصباح ومقابس الكهرباء. كلها على ما يرام. لا أعرف أكثر من ذلك.

هل حدث هذا لدى السيد فقط؟

- ونكاية، إنه يوجد في المحلات المجاورة. يوجد فوقى. وفي الطوابق العليا. وفي جميع أنحاء البناية. لكنه لا يوجد عندي.

وهل يملك السيد أي أدوات؟ على الأقل، مفك البراغي والكماشة؟ لكي أتأكد. ربما يمكنني فعل شيء ما.

- قال مندهشاً: السيد؟

أنا كهربائي.

- كهربائي؟ زاد اندهاشه أكثر. ومن كان يمكنه أن يخمن ذلك؟ من كان يمكنه أن يخمن ذلك؟ وكنت مقتنعاً بأنه يمكنني التعرف على كل زبون من خلال مهنتي. وكل مهنة هي شخصية وكل شخصية مكتوبة على وجه كل واحد. مكتوبة في الحركات، في المشية، في الموقف، في التعامل. كنت مقتنعاً... يرى السيد ماذا يحدث للشخص الذي يعمل في متجر حكومي. أوه، أصبح التعرف على الإنسان أكثر صعوبة هذه الأيام.

لقد ذكرت: هل لدى السيد كماشة على الأقل؟ يمكن أن تكون كماشة عادية على أي حال. - للأسف. نشر يديه بلا حول ولا قوة، كأنه اعترف بذنب ما. لكن، لحظة من فضلك، يوجد دكان غير بعيد من هنا فيه مختلف الأدوات.

خرج مسرعاً تقريباً. وقبل أن ألقى نظرة على المتجر، على الرغم من أنه لم يكن هناك الكثير للقيام به، حسناً، ربما المرأة جلبت انتباهي فقط، لأنها غطت أكثر من نصف الجدار وصولاً إلى الأرضية، عاد في تلك الأثناء يدين ممتلئين بالمعدات. مفكات البراغي، بنهايات ذات نجوم ومسطحة الرأس، كماشات قاطعة صغيرة وكبيرة، كماشات عادية، قواطع سلكية، مبرد، مطرقة، مفتاح ما، بكرة مع شريط عازل، وحتى قفازات مطاطية.

ضحكت: لماذا جلب السيد هذا الكم من المعدات؟ لن تكون هناك حاجة لها. قبل كل شيء ينبغي عليّ أن أتأكد.

- قال بحماس واضح: على كل احتمال. قالوا لي في الدكان: لا مزاح مع الكهرباء.

قلت له: لحسن الحظ، أنا أعرف ذلك. وضع كل شيء على الطاولة ورفع جميع القبعات التي شجعني عليها إلى حد أنه فرك يديه.

- حسناً، ومن كان ليُخمن. كيف لا يمكن أن تؤمن بترتيب الصدف. وترتيب الصدف هو القدر بالضبط. حتى في المتجر الحكومي. طيب، لأنه لو كانت لدي قبة بنية ولبادية وعلى مقاس السيد لبقيت بدون ضوء.

حاولت أن أهدئه: سيتضح الأمر. لكنه لم يأخذ كلامي في الاعتبار.

- ولجرب السيد واشترى، أما أنا فأبقى جالساً على ضوء الشمعة.

قلت له وأنا أشد عروتيه اللتين تثبتانه بالحائط: هذا المخرج الكهربائي على ما يرام. لكن من الأفضل استبداله الآن. إنه من فترة ما قبل الحرب. علبة متهرئة. سأفحص المصباح الآن. فقط يجب أن نحرك الطاولة إلى المنتصف، لأنني لن أصل إليه بواسطة الكرسي.

- طبعاً. لقد قمت بلف الحامل بشريط عازل كي لا ينهار تماماً، ثم قصصت قطعة من السلك. وكان يجب عليّ بنفس الطريقة أن أقطع قطعة من السلك في الوردة أسفل السقف، لأن عازل السلك الموجود خلف الملمس قد انقطع. كان العمل دقيقاً ومضنياً وسار ببطء. في غضون ذلك كما لو أنه لم يتمكن من إيجاد مكان لنفسه، جلس على الكرسي، إلا أنه لا يكاد يجلس لحظة حتى يقفز مرة أخرى. حك رأسه وشاهدني كيف أصلح. وفجأة راودته الشكوك:

- ربما أنا أفرح قبل الأوان؟

قلت: لا، لا، ستتدبر أمرنا، إذا كانت الأسلاك في الجدران صالحة. لكنها كلها تحتاج إلى استبدال. ولا يجوز التأخر. جلس مرة أخرى، وقفز مرة أخرى، وذهب إلى الغرفة الخلفية ثم عاد. بدأ بإعادة ترتيب جميع القبعات، البيريات والقبعات المدورة على الرفوف.

- أبحث عن مكان أخفي فيه هذه القبة، طالما أن السيد لا يرغب بها. وإذا جاز القول، إنني رأيت السيد فيها تماماً. تخيل، يسير السيد في الشارع مع حبيبة قلبه، ينحني السيد، ويتسّم. والجميع يلتفتون إلى الوراء وهم ينظرون إلى السيد ويسألون: من أين حصل السيد على هذه القبة؟

بلون الرمل في الصحراء تحت شمسها الساطعة. وهذه من متجري من فترة ما قبل الحرب. هل يمكن تحديد لون القبعة بشكل أعمق؟ إنها بلون الرمل في الصحراء. وهي مناسبة على مقاس السيد تماماً. مقاس، إذا جاز التعبير، مرفوع من رأس السيد، سأضمن لك أنها ستلتصق برأسك. لأن القبعة ينبغي أن تلتصق بالرأس مثل الروح بالجسد. لا أن تلتصق كثيراً لأنها ستترك حزاً على الجبهة بعد رفعها. ولا، ألا تلتصق، لأن ذلك أسوأ، حيث يكون الرأس لحاله والقبعة لحالها. ينبغي على القبعة أن تمثل للرأس، فعندما تديره إلى اليسار أو اليمين فهي ستستدير معه، نحو اليسار ونحو اليمين. عندما يرفع السيد رأسه نحو الشمس فهي لن تنزلق، وعندما تنحني فلن تسقط. وينبغي ألا يشعر السيد على الإطلاق بأن لديه أي شيء على رأسه. وهذا هو ما يعنيه المقاس المناسب. اكتسبت خبرة كبيرة، إذا جاز التعبير، في مجال القبعات. لقد قضيت حياتي مع القبعات. أرجو أن تشق ببائع القبعات القديم. بمن سيصدق السيد، أوه، القبعات هي بهذا القدر المتوفر، وربما قريباً ستختفي تماماً. ولن يكون هناك من سيخبر السيد كيف كانت القبعة سابقاً. وهذه معرفة عظيمة. في أغطية الرأس الأخرى يتقلص الرجل، يختفي، ويفقد تفرد. خرجت في يوم الأحد إلى المدينة، إذا جاز القول، حيثما نظرت كانت ثمة قبعات من متجري. بطبيعة الحال، كانت لدي إكسسوارات مناسبة للقبعات كالأوشحة، وأربطة العنق، وأربطة العنق ذات الأقواس، والقفازات وحتى المظلات. وكان الزبون يختار مثلما نصحته. بالطبع، بلطف ولباقة حتى لا يساوره شك في أن ذوقه هو الذي قرر. كما هو معلوم، ليس كل شخص لديه أفضل ذوق. والذوق قضية مهمة. وإذا جاز التعبير، الذوق هو أكثر من كونه ذوقاً. الإنسان، على قدر ذوقه، يفكر، يشعر، هكذا يتخيل ويتصرف.

فكرت بوجوب إبقائه مشغولاً بشيء ما، لأن يدي بدأت بالارتجاف فعلاً. حتى من خلال هذه الطاولة، بالكاد تمكنت من الوصول إلى الوردة أسفل السقف، لأن المبنى من فترة ما قبل الحرب والسقف مرتفع والعمل لم يسر مثلما أردت له في ظل يدي الممدودتين باستمرار. بالإضافة إلى ثرثرته في الأسفل. من الواضح أنه كان متفائلاً للغاية بأن يكون لديه ضوء وربما بسبب امتنانه لي لم يقاطع نفسه تقريباً.

- أليست الحياة، إذا جاز التعبير، هي مسألة ذوق؟ ظننت أنه يخاطبني فقلت له:

من فضل السيد، أعطني ذلك المفك المسطح الرأس. ناولني إياه بطريقة آلية، دون أن يتوقف حتى ليلتقط أنفاسه.

- بعض الناس يعجبهم ويسعدون بالعيش، والبعض الآخر مضطرون لذلك. ما كنت لأعرف الناس بهذا الشكل لو لم يكونوا زبائني. في الواقع، كل واحد منا يتمتع بروح الزبون. وفي هذا تتشابه كل النفوس. ولا يهم من يشتري أو لا يشتري. سواء أكان هناك ما يرغب في شرائه أم لا. الزيادة أو النقص تكشف، بنفس الطريقة، عن الزبون في الشخص. للأسف، ليس هناك الكثير عدا ذلك.

طلبت منه أن يأخذ الغطاء - عاكس المصباح ويهب لغسله، لأنني أعتقد أنه غير مغسول منذ ما قبل الحرب وهو يمنع الضوء. أخذه لكنه لم يذهب حالاً. لقد أدار هذا العاكس بيديه مثل القبة. توجب عليّ تذكيره بأنه ليس قبة وسيكسره. عندها فقط تحرك إلى الفناء الخلفي. وعندما عاد أثبت عليه: حسناً، كما يرى حضرتك، هذا ليس نفس عاكس الضوء. وبدأت أتحدث عن عاكس الضوء [أباجورة]، وبأن مثل هذا الذي يوجد عنده في المتجر لم يعد موجوداً، وما هي الأنواع التي توضع مكانها اليوم. بيد أنه استغل حقيقة أنني اضطررت إلى الإمساك بالبرغي بين شفتي وبدأ بمواصلة كلامه:

- بشكل عام، إذا جاز القول، القبة غطاء الرأس. لكنها شيء آخر عندما تكون على رأس زبون بحد ذاته. دع هذا الزبون يقف وهو يرتديها أمام المرأة، أوه، هذا شيء مختلف تماماً. لأنه من يرى نفسه حقاً وهو يرتدي هذه القبة. لا أحد، أقول لحضرتك، لا أحد. وتساءل، من يرى؟ بالضبط، من يرى؟ ربما هو نفسه لا يعرف من يرى، مهما وقف أمام نفسه. وهذا، إذا جاز القول، هو اللغز المذهل الذي يجدر من أجله بيع القبعات طوال الحياة لكي تنال سعادة التواصل معها.

قلت له: أعطني المبرد من فضلك. أنا لا أستطيع الانحناء ويجب عليّ الصمود هنا. راح يبحث على المنضدة ليختار بين الأدوات.

قلت له: إنه بيد السيد. فناولني إياه لا إرادياً.

ليعطني السيد هذه الكماشة الآن. اتبعت طريقة لكي أشغله كي يناولني هذا الشيء أو ذاك فربما سيتوقف عن الكلام. ليأخذ السيد مني مفك البراغي هذا. والآن ليعطني السيد إياه. ليأخذه السيد. يعطي، يأخذ. يأخذ، يعطي. لكنني بدلاً من التصليح كررت مراراً وتكراراً، كما لو استسلمت له: ليأخذ، ليعطي، ليعطي، ليأخذ.

وأخيراً طلبت منه أن يصعد على الطاولة ويقف إلى جانبي ويناولني الأدوات أو يأخذها مني لأنني بالكاد أصل إلى يده الممدودة عندما يكون واقفاً على الأرضية ولا أتمكن من الانحناء دائماً. أخذ كرسيّاً ووقف إلى جانبي، لكن حتى هذا لم يمنعه من مواصلة الحديث.

- أحياناً، كان من الواضح للوهلة الأولى، أن القبعة لا تتطابق مع الوجه، لكن الزبون يقول: أعتقد أن هذه القبعة أجدها الأفضل لي. لذلك، يتساءل السيد من هو رأي، وتعرف أن ما رآه هو هذا بالضبط. وللأسف، لن يقول له السيد: بالعكس، هذه القبعة لا تناسب وجهك يا سيدي، خوفاً من أن يفهم كلامك بأنك تعترض على الوجه وليس القبعة. ما أقوله، إن كان الوجه فكما لو أنك شككت بصورته الخاصة في داخله. بعد ذلك، كل فرد له حق مقدس في القيام بذلك، كل شخص يحمل صورته الخاصة داخل نفسه...

أوه، لقد سقط مني البرغي. لينزل السيد ويبحث عنه - لقد حاولت مقاطعته عدة مرات.

نزل مثل النابض، كان رشيقيّاً على الرغم من عمره. ولا تصدق أنه عثر عليه مباشرة. أما أنا أو أنت فكان يتوجب علينا البحث في الأرضية. بينما هو، بمجرد أن نزل من الكرسي، انحنى وإذا بالبرغي بين أصابعه. وصعد على الطاولة بنفس السرعة.

- كما لو دحض السيد في داخله، ربما، قلة رضا نفسه، توق نفسه، شوقه لنفسه، لأن كل شخص يهب نفسه مثل ذلك، وهذا يعيننا على العيش. ولا يمكن للسيد بالفعل عدم احترام ذلك في الزبون. ليس الربح هو الأهم عندما يتعامل الإنسان مع القبعات ولفترة طويلة كما هو الحال معي. على أي حال، ينمو المرء من شغف الربح، خصوصاً عندما يصير أقرب مما هو أبعد

من هذه اللانهاية حيث أي ربح لم يعد أمراً ذا بال. عندما يبدأ المرء بقياس حياته من خلال جميع تلك القبعات التي باعها. عندما يطارده الشك أكثر فأكثر فيما إذا كان الجميع راضين بهذه القبعات. لو كنت متأكداً من ذلك لقلت: المجد للقبعة. للأسف، لست متأكداً.

على الرغم من أنني، وأنا في عمر السيد بأقل أو أكثر، عملت قبل الحرب بائعاً في محل للقبعات. لقد بدأت حياتي من القبعات وبها، إذا جاز القول، سأنهاها. بما في ذلك حربان عالميتان. لذلك فمن المفترض أنني أعرف كل شيء فيما يتعلق بالقبعات. واتضح أنني لا أعرف. ولتصدقني يا حضرة الشاب لم أبدأ بتعلم الدرس الحكيم في جهلي إلا عندما أمموا متجري. مهما كان، يوجد، أوه، كما يرى السيد ما هو موجود. لقد عوقبت بطريقة جعلتني أتجراً على الاعتقاد بأنني أعرف. واتضح ماذا أنا أعرف حقاً. علاوة على ذلك، إذا قبل المرء أعلى معيار للمعرفة، فإنه لا يعرف حتى إنه لا يعرف، كما لو أنه لم يعرف.

لقد خدعته هذه المرة بالاعتقاد أن البرغي قد سقط مرة أخرى. وماذا يعتقد السيد، لقد نزل والتقطه، صعد وسلمني إياه. وهكذا منحت نفسي الهدوء. ليناولني السيد المصباح وغطاء المصباح وخلاص لينزل السيد الآن. وضعت الغطاء وشدت المصباح.

قلت له: لا يوجد ما يمكن القيام به أكثر هنا. كل شيء يعتمد الآن على الأسلاك في داخل الجدران. ليشغل السيد القابس الكهربائي.

لقد شغله واشتعل الضوء. لا، لم ينفجر فرحاً. قال فقط:

- أوه، يوجد ضوء. وأشعل الضوء مرة أخرى، بعد أن أطفأه بالضغط على القابس. فاشتعل الضوء من جديد، أطفأه، أشعله، ثم أطفأه. كما لو استحوذ القلق عليه:

- وهل سيكون هناك ضوء بعد أن يذهب السيد؟

سيكون، سيكون، أكدت له ذلك. لكن كل هذا يعمل مؤقتاً. يجب استبدال تأسيس الكهرباء والأسلاك في الجدران، كل شيء. ولا تؤجل ذلك.

- سألني وهو يستوقفني لأني هممت بالخروج: بكم أنا مدين للسيد؟

لا شيء.

- ولكن عليّ أن أرد الجميل لك بطريقة ما؟ انتظر لحظة، لحظة، وبدأ يفكر. فجأة، ذهب إلى واجهة العرض وأخذ تلك القبعة من اللباد ذات اللون البني. لا يمكنني أن أبيع السيد من المعرض. لكن لي تجربها السيد على الأقل. انظر بنفسك للتأكد من أنها كبيرة جداً بالنسبة لحضرتك. لا أريد أن يخرج السيد غير مقتنع من هنا.

وضعتها على رأسي ووقفت أمام المرأة، أما هو فوضع مكانها في واجهة العرض واحدة من تلك القبعات الباهتة اللون.

- وماذا؟ قلت لك: إنها كبيرة جداً. خاصة أنها بنية اللون ومن اللباد فتبدو كبيرة جداً على وجه السيد الشاب.

لقد سقطت القبعة على أذني. علاوة على ذلك، وأنا أنظر إلى انعكاس صورتني في المرأة بدأت أشك فيما إذا كان هذا الذي يضع القبعة على رأسه هناك هو أنا. ربما يطارد عدم اليقين السيد أحياناً: هل أنت هو أنت؟ لقد تلبسني عدم اليقين هذا طوال حياتي. تملكني شعور كما لو كنت منقسماً داخل نفسي على ذلك الشخص الذي يعرف أنه هو، والآخر الذي لا يشهد أي علاقة حميمة مع نفسه. لنفترض، على الشخص الذي لا يعرف بأنه سيموت، والآخر الذي لا يسمح لنفسه أن يعتقد بأنه هو، بل أن شخصاً آخر سيموت من أجله. ولم أتمكن قط من أن أكون معاً بما يكفي لأشعر بالاتحاد، على الأقل، بالتعاطف معي نفسي. سأقول للسيد، إنه لا ينبغي على الإنسان أن يتفكر في نفسه، ناهيك عن الخوض داخل نفسه. فهو ما هو عليه، وهذا ينبغي أن يكون كافياً بالنسبة له. أما أنه هو أو ليس هو، فلتحل القضية نفسها بنفسها.

وحينئذ بالضبط وأنا أمام المرأة، مرتد تلك القبعة الكبيرة جداً، عندما نظرت إلى انعكاس صورتني، واجهت هذا الانقسام في داخلي بشكل مؤلم.

- أضاف بشكل غير متوقع: هل السيد يحلق بالفعل؟ لقد أذهلني، حتى تحول لون وجهي، هناك في المرأة، إلى لون الشمندر الأحمر.

قلت: بالطبع، لكن على ما أعتقد لم يكن وقع الأمر مؤكداً.

- كم مرة تحلق في الأسبوع؟ لم تبد علامات الاستسلام عليه كما لو أن لديه هدفاً ما.

قلت: هذا يعتمد.

- أرجو ألا تزعل أيها الرجل الشاب. في رأيي، مرة واحدة على الأكثر وفي يوم الأحد. لماذا أنا أسأل، لأن القبعة اللبادية البنية غير مناسبة للوجه الذي بدأ يحلق مرة واحدة في الأسبوع فقط. بل دعني أقول للسيد، إنها الأقل ملاءمة. ناهيك عن كون هذه القبعة كبيرة جداً.

كما لو أنه أفزعني بذلك فقمتم بسحب القبعة أكثر إلى جهة الجبين فربما لن تبدو هذه المرة كبيرة إلى هذا الحد.

- ليس هكذا. لماذا يحجب السيد وجهه؟ اقترب مني وأمال القبعة إلى الخلف. مادام الوجه شاباً فينبغي كشفه، دعه يشرق شاباً. متى سيشرق، هل عندما تحرثه الأخاديد؟ كان المسؤولون الحكوميون هم أكثر من يشترون القبعات اللباد البنية قبل الحرب. وإلى اليوم لم يتغير شيء في هذا الصدد. وكلما أتوا إليّ لتقييم حالتي سألني هذا أو ذاك مستغلاً المناسبة دائماً، عما إذا كان لدي قبعة بنية من اللباد؟ لا توجد لدي، لأنه من أين لي؟ قال، لا يهم، واختار لنفسه غيرها أو قبعة ذات شكل آخر وعادة ما يتناسى الدفع. ويعتمد الفرق على ذلك. لأنني لا أذكره بقضية الدفع. ويجب عليّ أن أدفع ثمنها من جيبي الخاص. ومن أين لي ذلك، طالما أن أجري مقابل شهر لا يكفيني للعيش شهراً. ولا يكثر أي منهم بكون هذا المتجر حكومياً وليس لدي أي شيء بذمتي. وكما يرى السيد، ماذا يمكن أن يكون بذمة الواحد هنا. أوه، هذا هو واقع الحال. لكن لسوء الحظ، يعتمد الأمر عليهم فيما إذا كان لديك شيء بذمتك. لقد قاموا بتأميم الضمير أيضاً. لم يعد الله في حاجة إلى تذكيرنا بالضمير. انتظر لحظة، ربما تحتاج إلى سحبها أكثر إلى الوراء حتى يبرز الشعر من الأمام قليلاً.

دفع القبعة الموجودة على رأسي حتى ارتفعت حافتها إلى الأعلى. وقال: على الرغم من أنه لا يبدو لي أنني سأحملها بهذه الطريقة:

- أوه، هكذا أفضل. أفضل بكثير. ليقرب السيد من المرأة. - دفعها

قليلاً إلى الأمام. مع ذلك فهي أكبر من اللازم. ولا توجد أي طريقة لترتيبها بحيث لا يكون كبر الحجم مرئياً. وهو يبتعد عني كما لو كان محبطاً قال: وعموماً، ما الذي يدفع السيد للتسرع نحو القبعة. ما زال أمام السيد وقت للخروج في القبعات. السيد شاب ويمكنك الانتظار حتى تتوفر القبعات بأحجام وأشكال وألوان مختلفة. يجب على الشخص أن يكون لديه أمل حتى يظفر، ومن يملك ذلك إذا لم تكونوا أنتم الشباب. أنا كبير في السن على الأمل، على هذا العالم الجديد. هكذا قالوا لي في الدائرة الرسمية إن هذا عالم جديد وأنا لا أفهم شيئاً لأنني كبير في السن. ذهبت للاستفسار منهم لماذا يريدون تأميم متجري، ولماذا لا يشترونه مني. أبيعه ولو على مضض. أخبرني أحدهم بأنني لا أفهم شيئاً. هذه ثورة أيها المواطن. سألته ماذا يعني ذلك؟ الثورة هي ثورة تعني أن عليك الوثوق بها. وعليك أيها المواطن ألا تسأل أكثر. أطلب منك أيها المواطن التوقيع هنا. لا يجب عليك أن تعرف القراءة. لقد وقعت بطبيعة الحال. حتى إنني شكرته لأنه كان لطيفاً حيث نبهني إلى أنني لا أفهم. ربما يشتري السيد قبعة من نوع كاب؟ دخل خلف الطاولة وبدأ بإخراجها من الرفوف واحدة، اثنتين، ثلاثاً. أوه، ربما هذه. إنها على مقاس السيد. أو هذه. وربما هذه. هذه مناسبة لوجه السيد أكثر. هذا النوع من أغطية الرأس يبرز الشباب أكثر من سواه. ربما لا تريد يا سيدي أن تكون شاباً؟ وفي هذه الحالة، متى ستكون؟ إنها الفرصة الوحيدة في عمرك لتكون شاباً. لا يوجد هناك كثير من الفتوة مرة أخرى في حياة الإنسان. خاصة عندما تستمر هذه الحياة وتطول. ولا يمكن أيضاً أن تدخرها لما بعد. أما لأن هذا الوقت ليس جيداً جداً للشباب فهذه مسألة أخرى. حتى الشباب اليوم لا يعرفون أنهم شباب.

آه، ليس الأمر بهذا السوء - تجرأت على معارضي له، لأنني وأنا أقف أمام المرأة لم يكن لدي أدنى شك في أنني شاب على الأقل من حيث المظهر.

- مظاهر، مظاهر، أيها الإنسان الشاب. لا يجب على السيد أن يثق بنفسه بهذه السهولة، خاصة عندما يرى السيد نفسه في المرأة فقط. هذه القبعة اللباد البنية يجدر بها أن تستوقف السيد، خاصة لأنها كبيرة جداً.

بمجرد أن دخل السيد أحسست على الفور بشيء أقلقني في وجه السيد. أعرف الوجوه فعلاً. لقد اخترت من القبعات ما يناسب هذه الوجوه طوال حياتي. وهذا يتطلب خبرة كبيرة بقدر عدم الثقة. أولاً يجب الكشف عن كل وجه، بغض النظر عن وهنه، وعلى أفراد، عن عينيه، جبهته، حاجبيه، فمه، خديه، وبشكل عام، إذا جاز القول، عن أدق تفاصيله. ثم من جديد ينبغي دمجها بكل ما فيها من لامحدودية أو تشويه، وإيصالها حتى إلى الغفلة كي لا يقف أي شيء حائلاً أمام رؤية وشمها الخفي، ذلك الوسم الغائر في العمق حيث يوجد شيء من هذا القبيل في كل وجه. أوه، الوجه يتوغل عميقاً في الإنسان. وكل وجه مناسب لقبعة مختلفة. وحينئذ يصبح اختيار القبعة أسهل بكثير. ومع ذلك لا ينبغي في هذه الأثناء أن ننسى أننا، في خضم هذا الانتقاء، نتعامل مع طرف آخر، لأن القبعات يحدث أن تكون مزاجية أيضاً وبعضها عنيدة بصراحة. في بعض الأحيان تستطيع أن تخذلك لدرجة أنك تفقد الإحساس بما تختاره، هل تختار القبعة للوجه أو الوجه للقبعة. سأقول لك: لقد عانيت من ذلك حينما كانت القبعة ترفض وجهاً ما، في حين كان صاحبه الزبون يشعر بالارتياح منها. شعرت بالأسى على كل وجه مرفوض بينما ينبغي عليّ أن أكون إلى جانب القبعة. لا، لأن حياتي كلها بفضل القبعات، وكل شيء دار حولها. كل يوم من أيامي، إذا جاز القول، أشرق من وراء القبعات وغرب وراء القبعات. لقد احتشدت القبعات في أفكاري، رغباتي، أشواقِي وخيالاتي. بحيث إذا حاولت تخيل البشرية تخيلتها كعدد لانهائي من القبعات. حتى إنني أحياناً فقدت اليقين بأنني نفسي لست بقبعة. لكن، على رأس من؟ على أي رأس؟ أعترف لك سيدي الشاب بأنني شعرت بالارتياح عندما أمموا متجري. شعرت بالارتياح. كما لو أن أحداً ما قد حررني من حتمية ما. حسناً، إذًا، لقد أعتقني أسفي، لا أنكر وربما حزني، ومع ذلك شعرت بالارتياح قبل كل شيء. من فضلك اخلع عن رأسك هذه القبعة للحظة. خلعتها فأخذها من يدي وذهب معها خلف الطاولة. انحنى، اختفى كما لو أنه بحث عميقاً عن شيء ما هناك. سمعت صوته من تحت الطاولة فقط:

- لا بد أن تكون جريدة في مكان ما هنا، سبق أن تركها أحد الزبائن.

أنا لا أقرأ الصحف. أوه، هي ذي. رجاء، اقترُب من هنا. من فضلك، انظرْ بعناية. سنطوي الجريدة بعرض هذه البطانة الداخلية تقريباً. ليس بشكل سميك جداً وإلا ستكون صغيرة جداً بالنسبة للسيد. دس هذه الجريدة خلف البطانة حول القبعة ودلكها في كل مكان لمرة واحدة على امتداد محيط القبعة. - تفضل، ليرتدها السيد الآن. على الأقل لن تتمايل بعد الآن على رأسك. أوه، ولن تسقط على أذنك. لكن، إذا خلعتها فلا تضعها بالمقلوب أبداً. وافعل الشيء نفسه إذا علقتها على الشماعة، رجاء علقها بحيث لا يكون الجزء الداخلي من القبعة مرئياً. والأهم من ذلك، عندما يريد السيد أن ينحني. رجاء، لا تنحني عن بعد، فربما ستسقط منك الجريدة قبل أن تجتاز الشخص الذي انحنيت له. ولا سمح الله، من فضلك، لا ترفع القبعة عالياً جداً. يكفي أن ترفعها قليلاً جداً أو تجعلها مواربة قليلاً. قد تكون الإيماءة واسعة لكن يجب أن تبقى القبعة مواربة. لنجرب. سأعطي السيد إحدى القبعات وسأريك في هذه الأثناء. أعطاني واحدة من القبعات ذات اللون الرمادي الغامق وطلب مني التراجع حتى واجهة العرض. أما هو فارتدى قبعة بنية من اللباد وتراجع إلى الخلف حتى الطاولة.

- حسناً، سنشعل الضوء طالما يوجد لدينا ضوء. سيكون أكثر إشراقاً. من فضلك، دعنا نمشي الآن بعضنا باتجاه بعض. ببطء كما لو في الفيلم البطيء. لا ينبغي علينا أن نسرع. السيد في اتجاهي وأنا في اتجاه السيد. أنت الشخص الذي عليّ الانحناء له أولاً وأنت السيد الذي سيرد الانحناء لي بالمثل مباشرة. يعني أنت لست نفسك، أنا السيد، لأن لدي هذه القبعة المبطنة بالجريدة. لذلك من فضلك انظرْ إليّ بعناية. دعنا نمشي. أنا لا أنحني للسيد الآن، لأنني مازلت بعيداً عنك. الآن حان الوقت عندما نكون على وشك تجاوز بعضنا بعضاً. السيد لا ينحني لي، بل أنا من سينحني. عليك أن ترد على انحناءتي بانحناءة مقابلة منك. على السيد ألا يخلع القبعة هكذا بعنف فقد تسقط الجريدة. لا يهم أن تكون على رأسي في هذا اللون البني من اللباد بل المهم أن يتعلم السيد. ليرفع السيد يده، أوه، هكذا أعلى القبعة. بهدوء. أو هكذا بإيماءة عريضة، متحمسة، بناء على من تنحني إليه. كما لو أراد السيد رفعها تقريباً بمستوى ارتفاع ذراعك الممدودة وفي هذه الأثناء

تجتازان بعضكما بعضاً وعموماً لا تخلعها وفي أحسن الأحوال تحنيها قليلاً. وأحياناً ستكون البادرة وحدها كافية بدلاً من الانحناء. على السيد ألا ينسى التطلع إلى الوراء بعد مروركما ببعض. لأنه إذا اتضح أن هذا الشخص قد التفت إلى الوراء، مازال من الممكن القيام بحركة باليد، كما لو وضعت القبعة بعد الانحناء في مكانها على الرأس. لنجرب مرة أخرى. سيأخذ السيد الآن القبعة مع الجريدة وأنا سأخذ قبعة السيد. وسنقوم بتبادل الأدوار. سنرى كيف ستقوم بدورك. وأرجو أن تأتي إلى مكاني هنا، وأنا سأذهب إلى مكانك عند واجهة العرض.

مشينا عدة مرات هكذا وفي كل مرة صحح لي شيئاً ما في انحناءتي. وفي إحدى المرات قبل أن ننحني، توقف في منتصف الطريق كما لو أنه استذكر فجأة، نظر إلي نظرة خجل تقريباً وقال:

- أعطني هذه القبعة من فضلك. نزع الجريدة من داخلها. - يا إلهي، ماذا تراني أعلم السيد! وأعادها من جديد إلى مكانها في واجهة العرض وأخذ تلك القبعة ذات اللون الرمادي الغامق التي وضعها كبديل عنها. أنا تغيرت نحو الأسوأ. أنا لا أعرف نفسي. أشعر بالخجل حتى أن أقول لك ماذا أنا أعلمك. القبعة مبطنة بالجريدة هذا لا يمكن تصوره ذات مرة. الانحناءة هي انحناءة، إذا جاز التعبير، هي عرف. كأنني أردت حرمانك من كل لذة للبس القبعة. ولا يمكنني أن أتخيل السيد وهو ينحني لسيدة بقبعة مبطنة بالجريدة. أما أن زمن السيدات ولّى فهذه قضية أخرى. لقد رحلن بعيداً أو اندثرن. إذا أمكن القول، الوقت ليس مناسباً للسيدات أيضاً. يمشي السيد في الشارع ويرى ماذا حدث للشارع. إنهم يكدمونك، يدوسون عليك تقريباً ولا أحد يعتذر لك. أنا بالكاد أخرج من منزلي. فقط إلى الدكان ومن الدكان. ناهيك عما هو على الرؤوس. أحاول ألا أنظر. هل لاحظ السيد كيف أصبح العالم قبيحاً؟ ثم ماذا إذا كان موجوداً؟ جذبني الجمال دائماً وليس مجرد وجود العالم. إنها كبيرة جداً بالنسبة للسيد، إنها كبيرة جداً. ناهيك عن كونها ترفض وجهك.

فتح درجاً كائناً أسفل الطاولة وسحب سجلاً سميكاً ودفعه باتجاهي تقريباً حتى نهاية الطاولة.

- تفضل، يمكنك تسجيل أنك تريد قبعة بنية من اللباد وبمقاسك.

ما هذا؟

- هذا كتاب الطلبات والشكاوى. أنصحك فقط بعدم التوقيع باسمك. ليوقع السيد باسم: زبون. أنصح الجميع بهذه الطريقة. أخذ هذا السجل مرة أخرى وبدأ بتقليب صفحاته بتوتر. تم توقيعها كلها تقريباً. ما الشيء الذي لم يكتبه هنا. أوه، هنا ثمة قصيدة ما. وهنا رسم، لكنه قبيح جداً، قبيح للغاية، أرجوك لا تنظر إلى هذه الصفحة. أوه، هنا توجد صفحة فارغة أخرى. تفضل، تفضل. من الضروري.

ماذا يمكنني أن أكتب هنا؟

- كل ما ترغب فيه يا سيدي. إذا كنت لا تحبذ الكتابة عن القبعة، اكتب ما يحلو لك. يكتب الزبائن هنا حول كل شيء. ليس عن القبعات فحسب. أنا لا أقول لأحد ماذا عليه أن يكتب. ومع كل ذلك فأنا لا أظهره للرقابة. لدي سجل آخر للرقابة. أوه، هو ذا. وأخرج سجلاً آخر من الدرج الثاني. تصفحه ثم قدمه أمام ناظري. هذا نظيف كما يرى السيد. يحتاج فقط إلى اختتام وتوقعات تشير إلى أنه قد فُحص. يمكن لكل واحد في هذا أن يكتب ما يشاء. وإلا فأين بوسع الزبائن أن يكتبوا؟ هل إلى الله؟ وإذا كان الله لا يعرف لغتنا؟ لأنه، لو عرف، لو عرف... - أخرج منديلاً من جيبه ومسح به عينيه، أنفه وجبهته. أنا آسف جداً. لقد نسيت في خضم كل هذا أنني مدين لك بالضوء. رمى أحد السجلين في درج، ورمى الآخر في الدرج الثاني. أعتقد ذلك... لكن لا، لا. قطعاً، هذه كبيرة جداً عليك. عرفت على الفور بمجرد أن دخل السيد بأن هذا ليس مقاسك. حتى إنني قلقْتُ أيضاً، ليس لأن القبعة في واجهة العرض فحسب إنما لأن السيد سيرغب بها حالاً، بذات اللون البني من اللباد. إذا جاز القول، من النظرة الأولى. عادة ما نعرف عن الشخص أكثر بكثير من النظرة الأولى. عندما يصادم وجه شخص ما فجأة، على حين غرة، من خلال النظرة الأولى، يصبح الوجه للحظة، إذا جاز القول، مشرعاً على مصراعيه. وعليه فبمجرد أن دخل السيد قالت لي نظرتي الأولى كل شيء عنك. سيسأل السيد: ماذا قالت؟ قالت، إن مجيء

السيد كان صدفة تتخابث وتتحول في بعض الأحيان إلى قدر. نعم، نعم، أيها الشاب، القدر ما هو إلا صدفة خبيثة للغاية لا رجعة منها. جاء السيد بالرغم من عدم وجود قبعة بنية من اللباد بمقاس السيد لدي. قد لا يعرف السيد أنه ليس لدي مثل هذه القبعة. بيد أن السيد لا يدرك سبب رغبتك الملحة في الحصول على قبعة بنية من اللباد. وليس القصد أن السيد يريد ما هو غير موجود. الشباب من حقه أن يحصل على شيء غير متوفر بل حتى على ما هو مستحيل. ولا يهم إن كانت القبعة البنية من اللباد غير مناسبة لوجه السيد الشاب. القضية لا تكمن في ذلك. بل تكمن، إذا صح القول، في أن السيد ونفسه يتجاوز كل منهما الآخر. تمر يا سيدي جنب نفسك ولا تدرك أنها أنت. كان يحدوني الأمل على الأقل بهذه القبعة ذات اللون الكريمي، لكن السيد احتقرها. على العكس من نفسه. في الخلاف مع نفسه. إذًا، من تكون أنت يا سيدي؟ تقول إنك كهربائي. تعمل في البناء. أصلح لي السيد الإضاءة التي هي بنفسها تؤكد ذلك. وليبق الأمر هكذا. أرى لدى السيد وجهًا شابًا، إذا جاز القول، حتى إنه لم يفقس بالكامل. من المسلم به أن الوجوه الشابة هي الأصعب عادة. بما أنه وجه فتي فبطبيعته ما زال في صيرورة مستمرة. ثمة شيء يستمر في القدوم إليه، وآخر يغادر، يتألق، وينطفئ. يترأى للمرء أنه التقط فيه شيئاً دائماً ما ثم فجأة يهرب منه، يختفي، يتلاشى، ما زال السيد يرى وجهاً مختلفاً أمامه. لكنني تمكنت من التقاط شيء ما في وجه السيد، أنا متأكد من ذلك تماماً. إذا جاز القول، كل شيء في وجه السيد لا مقاس له. وأن السيد لنفسه، لا، السيد ككل قائم بذاته لا مقاس له. والسيد نفسه ليس مناسباً لمقاس هذه القبعة الوحيدة البنية من اللباد في هذا المتجر وليس العكس. و«ليس على المقاس» هي دعوتك، وإذا جاز القول، السمة المميزة لوجودك التي كشفت عن نفسها في هذه الصدفة السيئة للغاية، لأنه لا يوجد سوى قبعة واحدة من اللباد بنية اللون وهي موجودة في واجهة العرض ولا يمكنني تنحيتها من هناك. بالإضافة إلى أنها كبيرة جداً بالنسبة للسيد. كل شيء، كل شيء في السيد هو خارج المقاس، فقط كل ما يمكن أن يكون خارج المقاس في الإنسان. يعني كبير جداً. السيد ببساطة يشعر بغربة داخل نفسه، السيد يرتطم بنفسه، إذا جاز القول، لا يناسب نفسه. بيد أن النفس، يا

سيدي الشاب، لا يمكن صفها بالجريدة. ومع ذلك، من يدري، ومن يدري، أن ما هو مستحيل يصبح اليوم ممكناً. أقول باختصار، السيد على ما يبدو يشعر كهذه القبة على رأسه، لكن بالمقلوب. كما لو أن شيئاً ما حملك تماماً وأعطاك شكلاً لا يزال مختلفاً، وأحياناً كما لو أذهل السيد بالكامل. لا أعرف لماذا أخبر السيد بهذا. لطالما حرك الزبائن الشباب مشاعري. وخصوصاً، منذ أن أمموا متجري ولدي كثير من الوقت للتفكير. ليصدقني السيد أنني أستطيع التحديق في الوجه الشاب كما في اللوحة. وحتى إذا لم يأت الشاب إلى هنا لأسابيع، لأنه ما الداعي لمجيئه، يمكنني أن أتخيل وجهه وتلك السمات المميزة التي تريد أن تترسخ بالكاد ولو بالقدر الذي يمكن القبض على هذا الظل البعيد ظل الموت الذي ما زال بعيداً. لأن الموت على وجه التحديد هو أدق معيار للشباب، والشيخوخة لم تعد بحاجة إلى أي معيار. الشباب، إذا جاز القول، هو حالة انعدام الوزن الوحيدة في الحياة كلها. إذاً، بماذا يمكننا قياسه إذا لم يكن بالموت. لا يوجد مقياس آخر لأن الإنسان لا يحتاج حتى إلى الوعي بأنه شاب. صحيح، الوعي يأتي بعد فوات الأوان دائماً، بغض النظر عن العمر. إن قدرنا البشري يعتمد على بعد فوات الأوان دائماً. دائماً بعد انتهاء كل شيء. لأن الوعي هو قدرنا أيضاً وليست الحياة. هل حياتنا كانت تستحق الحياة أم ليس بالضرورة، فقط القدر هو الذي يقرر ليس بالضرورة. الحياة هي ما يجري بدون رابط، بدون هدف، يوماً بعد يوم، على الغالب بإرادة الصدفة، فطالما نحن موجودون إذاً يجب علينا أن نكون. أما القدر فأنشأ الإنسان كنوع من الاعتراف بالحياة. وفقط هذه الفترة القصيرة فترة الشباب تجعلنا ندرك كيف يمكن أن تبدو الأبدية السعيدة. كل هذه السنوات، كل هذه السنوات في هذه القبعات وما زال الشباب يخرجني أنا أبا القبعات العجوز. خاصة عندما يشتري مني أحد الشباب لنفسه أول قبة في حياته. السيد أيضاً لأول مرة، أليس كذلك؟ هذا ما اعتقدته. اعتقدت هكذا عندما دخل السيد المتجر مباشرة. معذرة على السؤال، منذ متى والسيد يعمل كهربائياً؟ بعد المدرسة مباشرة. عملت في كهربة الريف أولاً. أعددت نفسي للخروج حتى إنني وضعت يدي على مقبض الباب، لكن أوقفني سؤاله الآنف الذكر.

- قال: نعم، أفهم.

لم أجروا على السؤال عما يعنيه، فبالنسبة لي، لم يكن هناك شيء يحتاج إلى الفهم.

- سألني مرة أخرى: ولماذا ترك السيد ذلك العمل؟ قلت: لأنهم دفعوا قليلاً. لكن ثمة شيء مخفي في سؤاله. كما لو أنه عرف أنني تركت العمل بسبب ذلك الساكسفون. ولكي أوهمه واصلت الكلام: سواء أكان مطر أم لا، صقيع أم لا، كان ينبغي عليّ الجلوس على أعمدة الكهرباء...

بيد أنه لم يسمح لي بإكمال حديثي:

- وهل السيد يعمل في موقع هذا البناء طويلاً؟

لقد استلمت راتبي الأول.

- نعم، الآن أفهم كل شيء. بدا صوته مكتئباً بشكل واضح. قبعة بنية من اللباد، في مثل هذا العمر الشاب، في مثل هذا العمر الشاب... مشى نحو واجهة العرض، انتزع منها قبعة وهو يناولني إياها قال:

- ليجربها السيد مرة أخرى. بعدها ذهب خلف الطاولة، جلس، أسند رأسه إلى يديه ولم يقل كلمة أخرى.

من الواضح أن القبعة كبيرة جداً عليّ. حتى كما لو أنها سقطت على أذني أكثر من ذي قبل، عندما جربتتها في المرة السابقة. حركت رأسي فتمايلت، اقتربت من المرأة أكثر، إنها كبيرة جداً. ابتعدت عن المرأة ومع ذلك فهي كبيرة جداً. ومع ذلك وقفت أمام المرأة ليقول بغرض التأكيد: حسناً، كما يرى السيد إنها كبيرة جداً. نعم، كبيرة جداً. أعتقد أن السيد قد تفهم ذلك أخيراً.

وبما أنني لست قادراً على انتظار كلمة منه خلعت القبعة ثم وضعتها أمامه مباشرة على الطاولة. وحينئذ سألني بشكل غير متوقع:

- هل سيضعها السيد في مكانها أم أحزمها لك؟

لا، لم أفرح كما يعتقد السيد. لقد أدركت أنه لا خيار أمامي، فقلت: احزمها رجاء.

سأخبر السيد، كانت هذه أطول رحلة لي. نعم، من أجل الحصول على القبة، أخذاً بنظر الاعتبار كلاً من الذهاب والإياب. أحياناً أشعر كما لو أنها ما زالت مستمرة. ثم سافرت بالطائرات والسفن والقطارات السريعة، وأحياناً بطائرة هليكوبتر، لكن يترأى لي أنني لم أسافر هكذا لمدة طويلة قط. في الواقع بالقطار العادي البطيء ولست أدري ما إذا عرف السيد كيف كان السفر بمثل هذا القطار في تلك الأوقات. لا يكفي أنه كان يتوقف في كل محطة وفي كل موقف، حيث لم يكن هناك حتى مبنى صغير يوحى بالمحطة، وغالباً ما يتوقف أيضاً أمام جهاز إشارات السكك الحديدية، لكنه يتوقف فجأة في الحقول الفارغة ولا يعرف السبب. وفي بعض الأحيان لم يلحق بأن يصل إلى السرعة بعد، لكنه توقف.

كم بلغ عدد الكيلومترات؟ أكيد لم تكن كثيرة. كل هذا يتوقف على طريقة القياس. أنا قست بهذه القبة التي سافرت من أجلها. غادرت فجراً، وفي اليوم الذي سبقه شربنا حتى وقت متأخر، لأنني اضطررت إلى كسب رضا جماعتي في العمل، خاصة الزملاء الجدد، ورؤساء ومراقبي العمل. لذلك لم أنم جيداً وكان يحدوني الأمل بأن أنام في القطار. بيد أن التفكير في هذه القبة وهل بإمكانني شراء تلك التي أريدها لم يسمح لي بالنوم. لذلك كان لدي أمل بأن أنام في طريق عودتي.

نصحتني حينما كنت في المتجر بأن أذهب إلى المحطة الفرعية حيث يقف القطار وسأجد مكاناً فارغاً بكل تأكيد. تمكنت من العثور على مقصورة كاملة فارغة. جلست في الزاوية بجانب النافذة ووضعت القبة على الرف

الكائن فوقى. وعلى الفور بدأ النوم يغمرني. لا أعرف هل نمت، لأنني شعرت بالإنهاك بسبب كل ما سمعته منه في المتجر. أكثر ما حيرني هو، لماذا ناولني البرغي الذي لم يسقط مني على الإطلاق، ومثلما أخبرت حضرتك، لقد سألني بشكل غير متوقع:

- هل السيد يعزف على آلة ما؟

أجبت: لا.

- إذاً، أنت يا سيدي في وضع لا تفهم كل ذلك. أنا تعلمت العزف على التشيلو قليلاً عندما كنت صغيراً. بعد ذلك أنشأت متجري وبلعتني القبعات. ولم أعد إلى العزف إلا بعد وفاة زوجتي. أما اليوم فلن أكون قادراً على عيش يومي بدون أمل العودة إلى المنزل مساءً والتقاط آلة التشيلو هذه. من الصعب القول إنني أعزف بل أنا أعزف من وقت إلى آخر. - أوه، آلة التشيلو، وتنهّد. يمكنها الوصول إلى أكثر الأوتار حساسية عند الإنسان. كما لو أن ما هو أكثر عمقاً وغموضاً كان يختبئ في الأصوات. أعزف كل مساءً إذا تطلب الأمر ولا يوجد شيء يزعجني. ولو أنه، إذا جاز القول، لم يعد هناك ما يزعجني. أنا أعيش لهذه الأمسيات فحسب. أجيء إلى هنا وأجلس، أظاهر بالبيع، لكنني في كل لحظة أسحب ساعة الجيب وأعد عدد الساعات المتبقية إلى المساء. حتى إنه سحب من جيب صدرتي «بصلة» كبيرة مربوطة بسلسلة. وسألني: هل يتذكر السيد «البصلة» الاسم الذي أطلقوه على ساعات الجيب. أوه، قال بخيبة أمل: ما زال أمامك الكثير، الكثير. الأسوأ هو في الشتاء. أنت تخرج نفخة بخار مع كل جرة نفس. لأنه ما هو مقدار الحصص المقررة من الفحم. مع ذلك فأنا لا أشكو. ألبس قفازات صوفية قصصتها عند أطراف الأصابع، ألف رجليّ بالبطانية وأضع على رأسي قبعة صوفية للمرشدين، على الرغم من أن ارتداء القبعة في المنزل ليس مناسباً، لكنني أعزف مرتدياً القبعة. حاولت ألا أفوت أي مساء بدون عزف، وإلا لما كنت سأسامح نفسي. إذا كانت الكلمات والأفكار عديمة الفائدة والخيال لا يريد أن يتخيل، فثمة الموسيقى. الموسيقى وحدها لهذا العالم، لهذه الحياة. وهكذا نمت أو لم أنم بين تلك الليلة التي سهرت فيها بعد جلسة سكر

وبين سؤاله عما إذا كنت أعزف على آلة موسيقية ما. وهذا ليس نوماً، كما يتخيل السيد. بمجرد أن تطبق عينيك أعمق تستيقظ.

بعد ما يزيد على العشر دقائق، من النوم وعدم النوم، واصل القطار طريقه إلى المحطة الرئيسية حيث بدأ للتو مساره. اندفع حشد كبير من الناس للركوب، وربما يعرف السيد، كان هناك بابان يقودان آنذاك إلى كل مقصورة، واحد من طرف والثاني من الطرف الآخر. كان النوم غير وارد. حتى لا يمكن التفكير في أي شيء بعد الآن. فضلاً عن ذلك، يجب عليّ مراقبة قبعتي الآن. بالإضافة إلى ذلك، حضرتك تعرف، كيف هو الحال مع الأفكار في القطار. إنها تتقطع بسبب قعقة العجلات. وعندما يطير القطار في التقاطعات يمزق كل فكرة فيك إلى أشلاء. إنها تتمزق أيضاً في المحطات، إما لأنك تنظر من النافذة أو لأن أحد الأشخاص يسألك: ما اسم هذه المحطة. ناهيك عن أنه من النادر جداً ألا يتحدث الناس في القطار.

في هذه الأثناء ازداد عدد الركاب لأنهم يأتون ويأتون، ولم ينزل أحد منهم تقريباً. بدأ الأمر أنهم فقط يصعدون إلى القطار في كل محطة. لقد ركبوا القطار وهذا أقل ما يقال اليوم. حشروا أنفسهم جميعاً دفعة واحدة وتجمهروا الواحد جنب الآخر. بالإضافة إلى ذلك صعدوا مع صرر كبيرة وصغيرة، مع حقائب السفر، والسلال، والرزم والحقائب الصغيرة حتى كادوا ينسفون المقصورة. توجب على مفتشي التذاكر أن يدفعوا الناس إلى الداخل عبر الأبواب حتى يمكنهم غلقها. وهكذا الحال في كل محطة. بدا أن القطار لم تعد لديه القوة الكافية للتعامل مع هذا الحشد ولهذا كان يجرجر نفسه ويتوقف في البرية أحياناً. أما في المحطات فحدث ولا حرج فقد توقف وتوقف ولهذا دائماً ما كان يتأخر أكثر وأكثر، واضطر في بعض الأحيان إلى الانتظار حتى يمر القطار من الاتجاه المعاكس وتصبح السكة الحديدية فارغة. سأخبر السيد، حتى إنني شعرت بنوع من التعاطف مع هذا القطار لأنه مكره على حمل هذه الأثقال التي تفوق طاقة تحمله.

لكن، عندما سافرت في تلك الجهة من أجل شراء القبعة، عذبني عدم اليقين فيما إذا كنت سأتمكن من شراء القبعة التي أردتها، قبعة بنية من اللباد، وقد تملكني غضب حتى حينما توقف القطار في المحطات. أما الآن والقبعة

تستلقي على الرف فوقى فلا فرق بالنسبة لى سواء أبطأ القطار أو أسرع. شعرت، قليلاً، كما لو أنني لم أذهب إلى أى مكان ولم يجب عليّ الوصول إلى مكان. فى بعض الأحيان فقدت الإحساس بأننى أسافر بالقطار. نظرت عبر النافذة إلى ما نجتازه من حقول، غابات، أنهار، وديان، مبانٍ، عربات تجرها الخيول، خيول، أبقار، أناس، كل ذلك تلاشى فى رمادية رتيبة، وحدها الأسلاك الصاعدة والهابطة، المعلقة على الأعمدة على امتداد سكة القطار، أعطت هذه الرمادية إيقاعاً يؤكد أن هذا عالم حى. عموماً كنت خارج نفسى. يقول السيد: لا يمكن أن تكون خارج نفسك. أولاً يمكن للإنسان ولو لفترة قصيرة أن يترك نفسه على الأقل؟ لماذا؟ أين سيكون حينئذ؟ أوه، لا أعرف. لكن، ربما السيد على حق. خاصة، كيف تترك نفسك، عندما تكون القبة على الرف فوقك.

فى إحدى المحطات، نقلت القبة إلى الرف المقابل كى تكون بمستوى النظر. وحسناً فعلت. لأنه وبعد لحظات اندفع ناس كثيرون إلى المقصورة حتى وقف الواحد جنب الآخر بين مقاعد الجلوس. كان الهواء بالكاد يصلنى عندما جلست هكذا فى الزاوية. وقفت أمامى وفى الحقيقة فوقى امرأة ضخمة، حصرتنى لدرجة أنني أجبرت على حشر نفسى فى مقعد الجلوس. ولم تكن هناك طريقة أمامى مطلقاً كى أتمكن من رفع رأسى من تحتها لو أردت معرفة ما إذا كانت القبة فوقى. أما وهى فى الجهة المعاكسة فهذا يسمح لى برؤيتها عبر الفجوات بين الأجساد وبأنها موجودة.

كان القطار مكتظاً حقاً، وبدأ أنه لم يكن هناك متسع لأى شخص آخر فيه. وهنا فى المحطة التالية، كانت صرر كبيرة وصغيرة، حقائب، سلال وما إلى ذلك. أوه، ومعها الناس. قد يكون من الصعب على السيد أن يفهم ذلك إذا لم يركب فى مثل هذا القطار قط. هل القطارات هى التى امتدت طويلاً أم أن الناس هكذا قد تضاءلوا. أوه، الرجل يمكنه أن يكون، والله أعلم، ضئيلاً إذا كان مجبراً. كان عليّ أن أدافع عن نفسى بيديّ ضد أولئك الذين ركبوا القطار. لم أتمكن من كبس نفسى فى المقعد أعمق. على الرغم من أنني قمت بدس قدميّ بعمق أكبر لكنهم داسوا عليهما حتى هسهست فى بعض الأحيان. فضلاً عن ذلك لقد دخلت الشتائم مع الركاب إلى القطار، وكأنها

وقعت عليّ لأنني جلست قرب الباب المحاذي للممر. بالإضافة إلى ذلك فإن القطار كما لو نكّاه بي توقف بمحاذاة الأرصفة من جهتي.

وأخيراً سحقاً لكل هذا! أول من فتح الباب من الركاب اندفع في اتجاهي بالفعل.

والبقية خلفه بلا استثناء، نساء ورجالاً، اتجهوا من الباب مباشرة في اتجاهي [وارتفعت تعليقاتهم]:

- يا يسوع الرحيم، أن يعذب الناس إلى هذا الحد! ألا يكفي أن الحرب أرهقتنا، والآن جاءت القطارات!

- لكنه أمرنا بأن ننتظره. لكن، نحن!...

- نحن ننتظر كل شيء، كل شيء، ولم لا ننتظر القطارات؟!

- لحظة، ولماذا هو متأخر إلى هذه الحد؟!

- ومتى كان يأتي في الوقت المحدد؟ أسافر كل يوم تقريباً ولا مرة، ولا حتى مرة واحدة، جاء في ميعاده. اللعنة عليه!

- لا تسبّ، الله يسمع كل شيء. كأنه هجرنا أيضاً...

- ما دخل الله بذلك؟ الله ليس بمدير محطة ولا بمراقب حركة المرور. هذا فعل أبناء العاهرة هؤلاء بالقبعات الحمراء والمجارف!

وحسبت كل ذلك كأنه موجه لي لأنه لم يكن لدي لوم للقطار. القبة على الرف، لم أكن في عجلة من أمري ولذا فما الداعي لأن ألوم؟ علاوة على ذلك، فهؤلاء الذين دخلوا القطار مؤخراً لم يسبوا فقط، إنما شجعوا على السباب أيضاً، أولئك الركاب الذين ركبوا القطار في المحطات السابقة وبدأ أنهم متصلحون مع القطار بالفعل.

في إحدى المحطات، كان ثمة رجل غير طويل لديه حقيبة ليست بالكبيرة، ساعدته على الجلوس لأنه انحصر جداً في مقصورة مزدحمة فعلاً، سألتني فجأة:

- ألا يعرف السيد ما إذا حدث شيء ما؟ هزرت كتفي. - وأنتم أيها السادة ألا تعرفون؟ لكن لم يجبه أحد، فالتفت إليّ مرة أخرى قائلاً:

- أنت الأصغر سنًا هنا، أليس كذلك؟

- اتركه وشأنه - قالت المرأة الضخمة الواقفة فوقى. - لماذا يضايقني السيد برأسه هنا؟

- لا، لا شيء، أنا آسف. بدأ بالتبرير، كنت أقصد فقط ما إذا قاموا بإصلاح السكة الحديدية في مكان ما، أو ربما الجسر.

لا، لم يصلحوا، القطار يسير طوال الوقت.

- يسير وهو متأخر إلى هذا الحد؟ لم يرد أن يصدق ذلك. القطارات حتى في وقت الحرب...

- قاطعه أحدهم: عليك أن تسأل الشخص الذي يستقل القطار منذ البداية. لقد التقط هذه الفكرة:

- من منكم سيداتي، سادتي المحترمين يستقل القطار منذ بداية الرحلة؟ بدأ الناس ينظرون بعضهم إلى بعض كما لو أنهم يبحثون عن مذنب. لم أعترف. لذلك حاولوا أن يتذكروا من منهم ركب القطار وفي أي محطة ومن كان جالساً في المقصورة من قبل. هل السيد؟ أو السيدة؟ أنا متأكد من أنه هذا السيد. ربما هذه السيدة. كيف لا تكون أنت يا سيد؟ لقد تذكرتك. والسيدة، أوه، لقد جلست هنا حيث تجلس السيدة الآن. لا، هذا السيد كان هنا واقفاً بالفعل. عندما دخلت كان واقفاً. أوه، تلك السيدة كانت أيضاً. أنا؟ وقح. لقد كان السيد هنا فعلاً. حتى إنني تساءلت إذا كنت ستعطيني مكانك. لكن من يتنحى اليوم من مكانه للآخر، حتى لو كانت امرأة. يا إلهي، ما الذي جرى للناس بعد هذه الحرب. يا إلهي، ما الذي حدث.

أصبح الوضع متهيباً للتشاجر.

لحسن الحظ، أن القطار توقف في المحطة التالية وفي الحقيقة دخل إلى المقصورة راكب واحد فقط لكنه محمل بعبء حزم. أولاً، ألقى هذه الحزم على الناس مباشرة، وبعدئذ جلس خلف تلك الحزم. في الواقع لقد دفع جميع الواقفين إلى الجانب الثاني من المقصورة وإلا لما تمكن من إيجاد موطئ قدم لنفسه. لم يشتم، ولم يلعن، لكنه ألقى على المقصورة نظرة مستاءة كما لو أنه ألقى اللوم على جميع المسافرين لتأخر القطار. على الرغم

من تكدر الأمتعة على الرفوف حتى السقف وبدون اكتراث بدأ بوضع أمتعته عليها، ضاغطاً على تلك وناقلاً هذه ثم رامياً بعضها فوق بعض، حتى إنه هز المقصورة في الوقت نفسه. ومع ذلك لم يلفت نظره أحد ولم يقل له أحد حتى: لا يجوز وضع ذلك على هذا. تواضع الجميع، وبطبيعة الحال، توقفوا عن تبادل الاتهامات حول من ركب القطار قبل الآخر، ولم يهمس أحد ولو بكلمة واحدة. ربما عرفوا أنه من ركاب هذا الطريق. من الصعب أن أقول ذلك. لا أعرف، كيف اكتشفوا أن الحزمة الملفوفة بالورق والمربوطة بالحبل هي قبة.

- سأل بتهديد: لمن هذه القبة؟

اعترفت بعد لحظة بأنها لي.

- إذًا، لماذا هي هنا؟ ينبغي أن يضعها الواحد حيث يجلس، وهناك أيضاً مكان مخصص للأمتعة.

قام بنقل القبة من مكانها إلى جهتي واضعاً إياها تحت السقف على حقيبة أحد الأشخاص. تخلص أخيراً من حزمه، وأمر الناس برص أنفسهم أكثر على المقعد لأنه لا ينوي الوقوف طوال الطريق. وبصعوبة، لأنه بصعوبة فعلاً، تراص الناس دون أن ينبسوا بكلمة واحدة. وعندما جلس قام بتوسيع مكانه بجنبه. لقد ضغط على جارته من جهة اليمين وضغط على جاره من اليسار وهما قاما بالضغط على جاريهما، ومع ذلك لم ينبس أحد منهم بأدنى كلمة. تحرك القطار في تلك اللحظة. وقال: إذًا، نحن نسير. وإذا سرنا سنصل. بعد ذلك سند نفسه في المقعد بشكل أقوى وكما لو أنه قال لنفسه مرة أخرى: أنا أيضاً كانت لدي قبة قبل الحرب، بنية اللون من اللباد. أوه، لقد كلفتني. ذهبت إلى صفوف المقاومة وطيرها مني مدفع رشاش ثقيل. نحن رميناهم وهم رمونا وانتهت القبة. ثم أنعم قليلاً على الحضور بنظرة أكثر لطفاً، كما لو أنه رفع عنهم جميعاً اللوم لتأخر هذا القطار.

وضع رأسه على مسند ظهر المقعد، أغمض عينيه، وبعد لحظة أصبح تنفسه أعمق قليلاً. اهتز القطار، أطلق صريراً، قعقع على مفاصل السكك الحديدية كما لو سار على أخاديد، أحدث قعقعة عند اجتياز القطارات

بحيث لم تتم ملاحظة تنفسه هذا بعد. لم تنفرج شفتاه بعد لكنهما كما لو انفتقتا كل مرة بضغطة من هواء الزفير فحسب. أما أنا فعرفت ما سيأتي. كل شخير كبير يبدأ ببراءة هكذا، حتى إنني قرفصتُ.

كما أخبرت السيد من قبل، لا أطيق الشخير منذ طفولتي. في الحقيقة، لا أحد يتحمله. لكن، أن تكره ولا تتحمل، أوه، هناك فرق. يمكنك ألا تطيقه، لأنه عندما يشخر شخص ما لا يسمح لحضرتك بالنوم. أو لنفترض أن السيد نائم وبمجرد أن يوقظك شخير شخص ما فيمكنك ألا تعود إلى النوم حتى الصباح. هذه أدواء طبيعية للنوم مع شخص آخر في غرفة واحدة. الأزواج والزوجات، بطبيعة الحال، يتحملونها طوال حياتهم طالما أنهم معاً. على أي حال، فإن تغيير الزوجة أو الزوج ليس حلاً إذا تعلق الأمر بذلك، لأنك لا تعرف بمن ستلتقي مرة أخرى. أما بالنسبة لي، فإنه لا يتعلق الأمر بأنني لم أستطع النوم فحسب كلما شخر أحد ما. أو لأنني عندما أستيقظ لا أتمكن بعد ذلك من غلق عيني حتى الصباح. شعرت كما لو أن أَلَمَ العمر كله قد اندفع إلى حلقه وهو لا يتمكن من الصراخ بما يؤلمه. قد لا يوافقني السيد الرأي، ولكنني أعتقد أن هناك آلاماً تظهر أثناء الشخير فقط. أوه، هناك آلام في الإنسان لا حصر لها وبأنواع مختلفة. أنا على كل حال، أحسست بعجزه كما لو أنه عجزي. كما لو أنني اختنقت بهذا العجز بحيث لا أستطيع أن أساعد هذا الألم على الصراخ من داخلي. كما لو أنني لم أتمكن من التخلص من ربة نومته وفي الوقت نفسه دافعت عن نفسي أمام يقظتي الخاصة. بعد كل شيء لا يمكنك سماع شخيرك الخاص فلذلك لا توجد مشكلة مع شخيرك الخاص. في بعض الأحيان جعلني شخير الشخص أشعر بالاختناق إلى درجة اضطراري إلى النهوض والخروج إلى الفناء لالتقاط الهواء.

في المدرسة، وعلى أي حال، فإن البعض كان يبدأ بالشخير بشكل طفيف. حتى لو كانت حياة الشخص مؤلمة حقاً فإن الألم ينتشر في النوم ولا يدفع نفسه إلى الحلق. وكان النوم أصعب بكثير، لكن كل واحد ما زال يكتسب الألم. على الرغم من أنني استيقظت في بعض الأحيان أكثر من مرة بمجرد أن أحدهم قد شخر قليلاً.

بعد ذلك عندما بدأت بالعمل والسكن في الغالب مع كبار السن، أوه،

أصبح الشيخير كربى الليلى. صدقنى، لقد خفت من كل ليلة آتية. كلما قمنا فى الاستعداد إلى النوم يعترينى الخوف بدلاً من أن يغلبنى النوم. بطبيعة الحال، كان يمكننى أن أوقظ هذا أو ذاك عندما يشخر بشكل لا يمكن تحمله. لكنه كان يقلب نفسه من النوم على الظهر، إلى هذا الجانب أو ذاك، وسرعان ما يعود إلى الشيخير مرة أخرى. حاولت التفكير فى شيء ما قد يعينى كي لا أسمع لكن الأفكار هربت كلها. واستلقيت كأني تحت التعذيب. الجحيم يمكنه أن يبدو هكذا وليس كما يخيفنا به القساوسة، ما على السيد سوى الاستلقاء فحسب ليعذبك شيخير شخص ما فوقك، فى أذنك، رتيك، فى حلقك وفى عجزك الذى لا يسمح لك بالصراخ بكلمة. علاوة على ذلك، يبدو الأمر كما لو أنت الذى يشخر على الرغم من أنك لا تشخر. أى أن ألم الآخرين، فى بعض الأحيان، يكون أكثر إيلاًماً من ألمك.

بعد ذلك يمكن القول إننى سكنت أحياناً مع أساطين حقيقية فى الشيخير. الإنسان الصغير فى اليقظة مثل الكمثرى الجافة، كان لابد من رفع الأشياء الثقيلة، وحملها نيابة عنه. إذا علق البرغى ينبغى فكه من أجله لأنه لم يستطع القيام بذلك، لكنه من الأساطين فى الشيخير. بدا أنه سيرفع السقف، ويهدم الجدران وبعد لحظة، سيسقط كل شيء علينا نحن النائمين. وفى مرة أخرى، كان الأمر كما لو أن عباباً فى الآخرين قد غلى، وفى هذا العُباب كنت أنا أغلى. على أى حال، كانوا يشخرون بشكل مختلف. انتحبوا، صاحوا، قرقروا، همهموا وفى بعض الأحيان انفجر أحدهم مرة تلو الأخرى كالرصاصة. لقد فرّ السيد من نومه وكان الحرب نشبت من جديد.

فى كل أماكن سكنا المشتركة، مثلما أسلفت، كانوا أكبر منى سناً. كانوا فى بعض الأحيان أكبر منى سناً بكثير، وينقصهم النوم بسبب الحرب، ممثّلين بالحرب، ولا عجب فى ذلك. أحياناً كان أحدهم يتحدث أثناء شرب الفودكا، وبسببه لم أتمكن من النوم، فضلاً عن شيخير الآخرين. حاولت أن أسدّ أذنىّ بالقطن، بالبلاستيسين أو بوضع الوسادة على رأسى بدلاً من أن تكون تحته. لا، لم ينفعنى ذلك فى شيء، كما لو أن ذلك الشيخير لم يتدفق عبر أذنىّ وإنما من نوم شخص آخر إلى نومى مباشرة. كما لو أن إيقاع نوم شخص ما قد غير إيقاع نومى إلى إيقاعه. ألم يكن السيد يعلم أن للأحلام

إيقاعاً؟ لكل شخص إيقاعه المختلف. مع ذلك فنحن جميعاً ننام في إيقاع ونعيش في إيقاع. لا يمكن فصل الإيقاع عن الحياة. أوه، سيكون الأمر أسهل بكثير إذا كان ذلك ممكناً، هنا الحياة، هنا النوم. هنا الحياة، هنا النوم.

عذراً، هل حضرتك تشخر؟ حضرتك لا تعرف؟ ألم تنم حضرتك مع أحد آخر ليخبرك بذلك؟ أرجو أن تغفر لي ذلك، لأنني أسألك عن هذه الأشياء، لكنها أمور بشرية طبيعية. يمكن للمرأة أن تخبرك بذلك أفضل من سواها. النساء ينمن بشكل آخر ولهن نوم مختلف. ناهيك عن أنهن يسمعن خلال النوم.

ذات مرة، سكنت مع أربعة مسنين عند أرملة، أضافوني إليهم كساكن خامس. كان من الممكن أن يفوق عمر الأكبر سنّاً بأكثر من ثلاثة أضعاف عمري أنا، هكذا تراءى لي آنذاك. أشيب مثل الحمامة. من المسلم به أن الشباب خرجوا من الحرب بشعر رمادي وشابوا. في بعض الأحيان، نظرت أثناء اجتماع طاقم العمل أكثر من مرة إلى الرؤوس البشرية فرأيت كأنها حقول من الكرب المتخثر بفعل الصقيع. لتخبرني حضرتك، لماذا الشعر على الأغلب هو من يعلمنا بماذا مرّ به الواحد. أنا أنظر إلى حضرتك بيد أنني لا أرى حتى شعرة واحدة بيضاء. أتساءل متعجباً كيف عاش السيد حياته. لينظر السيد ماذا حل بي. علاوة على أنهم يشييون الآن. ولا أعلم أيضاً لماذا. وهم شباب تماماً. لا يعرف السيد كم من الشباب الصلعاء أو الذين يعانون من الصلع هنا، في هذه المنازل. والحرب قد انتهت منذ زمن بعيد، ولا يكاد أحد يتذكرها.

جميع أولئك الأربعة الساكنين عند الأرملة كان لهم شعر لكنه رمادي لديهم جميعاً، أما الأكبر سنّاً فهو أشيب تماماً. وكان الأربعة جميعاً يشخرون بصوت عالٍ وعندما اجتمعوا أحياناً في الوقت نفسه فحتى الأرملة ضربت حائط غرفتها بقبضتها. خاصة عندما كانوا مخمورين.

حتى إنني أصبت بالدوار ذات مرة، لدرجة التفكير في أنه لا سبيل سوى خنقهم. إلا أنني نهضت وخرجت إلى الفناء. جلست على عتبة المنزل ثم دخلت سيجارة. الصيف دافئ والفجر بدأ بالانكشاف. كانت لدي نية في

الجلوس حتى يحين وقت الذهاب إلى العمل. خرجت الأرملة ورائي. هي لم تستطع النوم أيضاً على الرغم من أن الحائط الفاصل بين غرفتها وغرفتنا سميك، وليس بجدار فاصل داخلي، كما أنه مكسو من كلا الجانبين بالجبص جيداً.

- سألتني: ماذا، هم يشخرون؟ أنت، كما ترى، لقد أيقظوني أنا أيضاً ولدي كليم على الحائط الفاصل بيننا. كنت أنام أثناء الحرب رغم تطاير القنابل. إلا أنني حساسة إزاء الشخير. هل أنت تشخر؟

قلت لها: لا أعلم. لم يقل لي ذلك أحد بعد.

- أوه، أنت مازلت فتياً، ربما تشخر بشكل طفيف، إذا كنت تحلم في شيء. أعطني سيجارة. أنا لا أدخن عادة لكن، جاءني رغبة.

لقد تركت سجائري في الداخل.

- للأسف. هذه الليلة مشبعة بالبخار لدرجة أن رغبة اعترتني. وذرت نفسها بالقميص، لأنها كانت ترتدي ثوب نوم وملحفة.

قلت لها: ربما يمكن للسيدة أن تكمل تدخين سيجارتي؟ إذا كانت السيدة لا تشعر بالاشمئزاز، من المفترض أن يكون فيها ثلاثة أنفاس.

- ولماذا أشعر بالاشمئزاز؟ - لقد عبرت عن امتعاضها. يقبل الإنسان رجلاً ولا يشعر بالاشمئزاز. سحبت نفساً وسعلت حتى كاد ثدياها يخرجان من تحت قميصها. أوه، هذه السجائر مقرزة. كيف يمكنك تدخينها؟ ألا تهتم بصحتك؟ أنت مازلت فتياً، وتعمل كثيراً. أستطيع أن أرى ذلك عندما تذهب إلى العمل ومتى تعود. ولا يمكنك النوم كما ينبغي، طالما هم يشخرون.

أنت في عمرك هذا بحاجة إلى مزيد من النوم. بعد ذلك لن تحتاج إلى هذا القدر. اليوم أرى أنك ستذهب إلى العمل أيضاً وأنت نعسان. وأنت تعمل مع الكهرباء. على الأقل، كن حذراً كي لا يضربك التيار الكهربائي. لن أقول، إن هذا التيار غير مريح، لكنني أخاف دائماً عندما أقوم بتشغيله.

قلت لها: عليك ألا تخافي.

- قالت: بالتأكيد هكذا هو الأمر.

لقد دسْتُ على عقب السيجارة وكنت على وشك النهوض، عندما وقفت فوقى وقامت بتمسيد شعري. قالت: تعال ونم عندي. لا داعي لأن تذهب إليهم. أنا لا أشخر. وعلى أي حال، يجب عليك أن تستيقظ وتذهب إلى العمل قريباً، ولكن سيكون جيداً لمدة ساعة أو ساعتين. لدي سرير واسع. لقد وسعني مع أزواجى حتى إننا لم نكن نحتك بعضنا ببعض. لن تبقى هنا حتى الصباح. لا تخف، لن تتأخر، سأوقظك.

قادتني من يدي، ساعدتني على النهوض من العتبة. ربما تغلبت عليّ كل تلك الليالي الطوال التي لم أنم فيها، فشلتني فجأة لدرجة أنني لم أستطع المقاومة. تماكنت نفسي طالما كنت أدخن تلك السيجارة، لكن عندما انتهيت بدأت عيناى تنغلغان من تلقاء نفسيهما. ربما لو كانت لدي سيجارة أخرى لدخنت...

- قالت: أوه، عيناك ملتصقتان. أنت بلا نوم، بلا نوم. ولذلك سيكون جيداً لك فيما لو حصلت على قسط من النوم لساعة أو ساعتين.

كانت أكبر منى بكثير أما اليوم فيمكننى القول كانت لا تزال شابة. السيد يعرف كيف هي الحال. مع تقدم الإنسان في العمر كل شيء يصير حوله أصغر سناً. وعلى وجه الخصوص في الذاكرة. أحياناً، تفكر بأن شخصاً ما قد بدا لك في بعض الأيام كبيراً في السن ولكنه كان حينئذ أصغر منك سناً بكثير. وربما بدت لي أنها أكبر منى سناً بكثير، لأنها تزوجت من رجلين. طردت الأول بعد وقت قصير من زفافهما بسبب شرب الكحول، أما الثاني فقضى نحبه بسبب الشرب. ثم أخذت تفكر في الزواج من شخص ثالث. كان أرملاً ويشرب الكحول أيضاً وله طفلان صغيران. قالت: على الأقل سيكون لديها أطفال. كانت قلقة من أنها، لا قدر الله، ستحمل من رجل سكير، وقد قررت ألا تحمل من رجل سكير أبداً، لأنها لن تتحمل إذا أنجبت أطفالاً في ظل انعدام السعادة. لقد رأت مثل هؤلاء. كان لديها هدف في الحياة لأنه من الصعب عليها التعايش مع فكرة أن الحياة تتوقف على إنسان. أما طفلك، أو الطفل الغريب، لا من هذا الزوج ولا من ذاك الزوج، فلا يعرف ما الذي سينجم عنه [كيف سينمو]. ربما سيكون الطفل الغريب حتى أكثر رعاية لك فيما بعد إذا ما أظهرت له قلباً حنوناً في الوقت

الذي مات قلب أمه. من يدري، ربما سيكون زوجاً صالحاً؟ أخذ يسكر فقط عندما تركته زوجته مع طفلين، ولم يعرف ماذا عليه أن يفعل. ومثل ذلك يدفع الرجل دائماً إلى شرب الكحول. إذا سكر كان يبكي في بعض الأحيان أمامها. ويسألها: أرجوك ساعديني، رجاء ساعديني، لدرجة أنها تشاطره البكاء أحياناً.

إنه مختلف في سكره عن الاثنين الآخرين. الأول إذا سكر نام كالصخرة. ولأنه كان يسكر كل يوم تقريباً، فلماذا كانت لديها صخرة في سريرها كل يوم، في الواقع كل ليلة. أما الزوج الثاني فقام بضربها أولاً بعد عودته إلى منزله في حالة سكر. وبعد ذلك تودد إليها. أحبّ مضاجعتها باكية ومضروبة. والرجل الثالث... هل ستزوج منه أم لا.

- ماذا تعتقد؟ تساءلت عندما كنا مستلقين في السرير. على أي حال، عليك أن تنام. أنا لا يمكنني النوم بعد الآن. ولا أريد أن تتأخر عن العمل بسببي. أنا نفسي لا أعلم، كل ليلة تتقاذفني الأفكار. فيما لو تركت الثالث، قد أكون كبيرة في السن بالنسبة إلى الرابع. وكلما تقدمت المرأة في السن تعرضت لإزعاج السيئين أكثر فأكثر. وأما الرابع فربما سأضطر إلى تسليمه لإعادة التأهيل، أو سأقتله. وأنت ماذا تعتقد، لا توجد طريقة أخرى في بعض الأحيان. لا أقول إنه لا يمكن مصادفة رجل محترم في عمر متقدم وهو لا يشرب. لكنه قد يقع في السكر بعد الزواج أو كلما اقترب من الموت أكثر وأنا معه. وعليك أن تموت مع سكير، أو أن تعاني بسبب سكره. وقد يكون الأوان قد فات للتفكير في زوج جديد وقتئذ. أوه، وأنت ترى أن الحال هي هكذا، أن تنزوج من شخص، وفيما بعد يجب أن تعيش مع شخص آخر. لقد تنهدت حتى إنها نفخت موجة ساخنة نحوي. لكن، نم، نم. يجب عليك أن تستيقظ للعمل قريباً.

رغبت في النوم حتى إنني لا أعرف ما إذا كنت قد نمت على النصف. على الرغم من ذلك استمعت إليها خاصة أنها انتظرتني لأقول شيئاً عما يؤرقها من مشاكل. لكن ماذا عساي أن أقول لها وقد أرعبتني رغبتها في العيش، وأزواجها، اثنان منهما أصبحا وراءها، ووصلت بخيالها إلى الرابع إذا تبين أن ذلك الثالث أصبح سكيراً بعد الزواج، وإلى عدد آخر حتى الموت، وربما

بعد الموت. بعد كل شيء، لا أعرف، لأنه من أين لي ذلك، كيف هو شعور الزوج الثالث ولا كيف تشعر المرأة عندما تكون مع الزوج الثالث. قلت لها: لا أعرف ماذا أقول للسيدة.

- لماذا تقول لي، سيدة؟ انزعجت حتى إن موجة ساخنة جديدة انفجرت في وجهي. أنت تستلقي معي في السرير وتقول: سيدة. قل لي يا سيدتي فقط أمامهما. أما أنا فلم أسألك عن أي شيء. يجب علي أن أتدبر أمري بنفسي. ماذا يمكنك أن تعرف. ثم دست يدها تحت رأسي وحضنتني. - هل هذه هي المرة الأولى لك مع امرأة؟ هكذا اعتقدت لأنك تنطرح كالأرنب وأنت متوتر. لكن، نعم، نعم. مع ذلك، لن يحدث مثل هذا الأمر اليوم. يجب عليك أن تنام ولو قليلاً قبل الذهاب إلى العمل. أوه، لقد بدأ الفجر. أما زال الصباح بعيداً؟ يا إلهي، كيف يمكن ألا تنام الليلة تلو الأخرى. هل كنت حساساً إزاء الشخير دائماً؟ مثلي أنا. يا إلهي. إذا أردت فيمكنني أن أضع لك فراشاً محشواً بالقش في المطبخ وسيكون بوسعك أن تنتقل منهم في الليل، لأنك لا تستطيع النوم بسبب شخيرهم. ويمكنك أن تأتي إليّ أحياناً. لم يكن لدي شاب مثلك من قبل. إيه، أيها اللطيف البريء - هزتني وقد غلبني النوم. فجأة، رفعت رأسها بقلق وانحنت عليّ. - هل تقول الحقيقة: هذه هي المرة الأولى؟ وألقت رأسها على الوسادة بارتياح. - أوه، يا له من نصيب. يبدو أن الله قد جازاني على أزواج السكارى. وضغطت رأسي بقوة على صدرها. - قالت: لا أعرف حتى كيف سيكون الأمر مع هكذا شخص للمرة الأولى. مع نفسي أعرف لأنني مررت بذلك. لكن ذكرياتي عن ذلك ليست جيدة. أكيد أنك لا تعرف أي شيء. لكن لا تقلق سأعلمك كل شيء. لكن، لا تسمح لهم - لا قدر الله - أن يقنعوك بالشرب. يمكنك كأس أو كأسان. لن تؤذيك الكأس والكأسان. لكن ليس أكثر. الشرب الكثير لا يخدم الرجل! ولا يخدم المرأة كذلك. وإن لم يكن الأمر بهذا الشكل بالنسبة للمرأة. كان لدي مثل هؤلاء السكيرين، وأنا أعلم ذلك. أفكر، أين سأضع لك هذا الفراش؟ ربما سأزيح الطاولة نحو الحائط. وأخيراً ستنام. ليس عليك أن تأتي إليّ كل ليلة. بل إذا لم تكن مشغولاً. أنا لا يغريني ذلك كل ليلة أيضاً. لكن، عليك أن تنام الآن. اليوم كما في العائلة.

الأخ مع أخته. يمكنني أن أكون أختك الكبرى. ولم لا؟ قد تحدث مثل هذه الفوارق وسواها. على الرغم من أننا نسمع أحياناً أن الأخ مع أخته! لم يعد هناك شيء مقدس في هذا العالم. - مسدتي، قبلتني على جيبني وضممتني إليها حتى انبعج أنفي بين نهديها. - إيه، أنت، أنت.

- سأقول للسيد إنني بدأت أخاف منها. ربما لأنني لم أكن أعرف شيئاً عن النساء آنذاك. ولو لم أكن نعسان إلى هذا الحد لنهضت بحجة وجود رغبة لدي بالتدخين ولا بد من جلب سجائري. غير أنه لم تكن لدي الشجاعة ولا الرغبة بالنهوض.

- نم، نم. وقامت بضمي إليها مرة أخرى. ليست أمانا هذه الليلة الوحيدة فحسب. سيكون لدينا ليال وليال! سألت مدير كم فقال لي، إنكم ستبقون لفترة طويلة هنا. سنكشف بعضنا لبعض. سأدفع باب المطبخ إلى جهتي حتى لا تكون مضطراً لتحريك مقبضه. وسأطلب أن يدهنوا مفاصل الباب غداً. أما الآن فنم. لن أتقلب في السرير، سأسمع كيف تنام. عندما ينام الشخص يمكنك أحياناً معرفة ما هو. واحد مثل الطفل والثاني، لا قدر الله، يبدو على حقيقته أثناء النوم. يمكنك أن تعرف هل هو يتقلب من جانب إلى آخر، أم ينام على جانب واحد طوال النوم أم على الجانب المقابل لك. هل ينام ملتقاً مثل الكرة كما لو تشبث بأمه. أسوأهم أولئك الذين ينامون على الظهر مثل سكيرٍ. كلاهما، الأول والثاني، ينامان على الظهر. كنت مجبرة على قلبهما على جانبيهما كي لا يشخرا. عندما أفكر فيهما أشعر حالاً بعدم الرغبة في النوم حتى لو شعرت بنعاس شديد. يجدر بالمرء أن يفكر في شيء لطيف عندما يريد أن ينام. لكن من أين تأخذ كثرة هذا اللطف بحيث يكفي لكل نومة. في الغالب، تضغط على الذهن الأشياء غير السارة، لأنه يوجد ما يكفي منها. أوه، أعتقد أن الشمس تشرق، لأن الستارة في الغرفة أصبحت أكثر شفافية. ويمكن رؤية السيد المسيح. إنه دائماً أول من يُرى عندما تشرق الشمس. لكنك ستلحق بأخذ قسط من النوم. سأوقظك بحيث تستيقظ قبلهم. ستذهب لتغيير ملابسك وكأنك تركت الغرفة لقضاء الحاجة ثم عدت. وعلى أي حال، لن تنام طويلاً، لكنك لن تكون منهكاً مثلما لو لم تنم. وفوق ذلك، أنت ما زلت تتعامل مع التيار الكهربائي. يا مريم العذراء،

وإذا مسك التيار الكهربائي. يا مريم العذراء. لقد مسني التيار بالمكواة ذات مرة. أردت فقط معرفة ما إذا كانت ساخنة أو لا. وإذا برجفة تعتريني في الذراع. شبت خوفاً. لقد أحرقت البطانة. يشاع أن التيار يخلف أمراضاً. هل هذه حقيقة؟

مع ذلك، لا أعلم هل أنكرت أن ذلك غير صحيح أم أنني حلمت بالفعل في أنني أنكرت ذلك.

لن أقول: لا توجد هناك راحة مع مثل هذه المكواة. كم مرة لوّح الإنسان بيديه سابقاً ونفخ من أجل توقد الفحم. لقد حرقت حاجبيّ فيما مضى واضطرت لتسويدهما. ومنذ ذلك الحين فصاعداً وأنا أسودهما. ولم يكونا أفضل أيضاً أثناء التعامل مع قطعة التسخين الحديدية في المكواة. لأنها ثقيلة وكانت تبرد كل لحظة، وتعين علينا مواصلة وضعها في النار وإخراجها من جديد. وظلت تتوهج تحت الطباخ. ذات مرة، سقطت على رجلي وهي متوهجة. لحسن الحظ، كنت في حذاء عمل سميك. أما اليوم فتحْتَاج المكواة إلى ربطها بالكهرباء ليس إلا. أوه، يا لها من راحة. ويا ليت الأمراض تكون هكذا... لا قدر الله. لكن لماذا ينبغي علينا التفكير في هذه الأمراض مسبقاً. إذا أتت فستحملها حينئذ، بشكل أفضل أو أسوأ، أو سنموت على الفور. سيكون من المفضل الموت على الفور. وبدون الكهرباء هناك وقت للأمراض أيضاً. هكذا هي الحياة مرتبة. أفضل أن أفكر، في الوقت الحالي، كيف سيكون الحال معك. وللمرة الأولى! يا مريم العذراء. حتى إنني خائفة. هل توقع هذا السرير ذلك من قبل. يجب عليّ فقط أن أفرش الشرف، اللحاف والوسادتين. لقد طررتها بنفسني. انتظرت في المساءات سكيريّ، ماذا كان عليّ أن أفعل؟ طررت. لكن، ليس لهما. هذا غير وارد. أن أسمح لهما بأغطية مطرزة. سأشتري لنا شرشفاً جديداً. ما عليك سوى أن تستحم لا غير. قال لي مديركم: لديكم دش هناك. أنا لا أوجه الكلام لك، لكنني أعرف كيف يستحم الأولاد. يجب مراقبتكم. وأنا سأستحم بكاملني أيضاً. سوف أستلقي في الحوض. سأصنع رغوة وأسكب العطر في الماء. هل يمكنك وضع قابس الكهرباء بجانب سريرتي؟ أود شراء مصباح ليلي بجانب السرير. يمكننا أن نشعله أحياناً. من غير المعقول، في

الظلام، في الظلام دائماً. أود أن يكون في الضوء مرة. قرأت في مكان ما أنه أجمل بكثير. أحب أحياناً أن أقرأ. عندما لا تكون معي يمكنني أن أقرأ وأنا في السرير. أو أن أفكر على ضوء المصباح ومن المؤكد أن الأفكار ألطف. أما أنت فلا تفكر، عليك أن تنام. أعرف بماذا أنت تفكر، لكن لم يتبق أمامك الكثير من الوقت. لن يكفيك ما تبقى. لهذا فمن الأفضل عدم البدء. ستنهض أسوأ حالاً من قلة النوم. في بعض الأحيان، تريد الرجلان أن تقفا بالكاد، غير أن الرأس مشوش. إنه النهار الآن، لكن يبدو أن الليل لا يريد أن ينجلي. تطبخ وتغسل، وفي الليل. كل شيء تفعله كما لو في الظلام. وستغضب مني. وأنا لا أريدك أن تغضب. إذا كان الشخص غاضباً فهذا يعني هناك شيء. وهذه هي الحال، دائماً ما تكون المرأة هي المذنبه. وإذا لم تلحق أن تفعل ذلك فسأكون أنا المذنبه أيضاً. لكن، لا تقلق سأعلمك وسترى بنفسك. دائماً هناك تلك المرة الأولى. لا تعرف أي شيء، على السريع لمرة واحدة، مرتين، وأنا لا أريد مرة واحدة أو اثنتين هكذا. سئمت من هذا الواحد والاثنين. لقد اغتصبني الجنود وأعرف ما معنى واحد، اثنين. رفرت الميداليات فوقى فقط، وكان عددهم خمسة. حتى لم تكن لدي رغبة في البكاء. على أي حال ما الداعي لأخبرك بذلك. أنت لست بحاجة إلى معرفة ما كان عليه العالم في الأمس. ربما أنت أتيت لعالم أفضل. ينبغي أن تكون لديك رغبة بأن تكون في عالم أفضل. وإذا أراد الرجال أن يتقاتلوا فليفعلوا، لكن بشرط ألا تدفع النساء والأطفال ثمن حروبهم. على الرغم من أن سكيرى ليسا جنديين لكنهما لم يكونا أفضل أيضاً. عادوا إلى المنزل سكارى، بلا مشاعر ونفس الشيء، من أجل مرة واحدة أو مرتين، ثم ناموا. ولمرة، مرتين يبدو الأمر كما لو أنه انتقام منك. سواء أكان جندياً أم زوجاً. ولماذا؟ هل لأن العالم مخلوق هكذا بحيث يجب أن يكون هناك زوجان؟ ألم يخلق من أجل الحب. بدون الحب لا معنى للحياة. نوم وأكل فقط، من أجل ماذا؟ والعمل، ما الداعي له؟ من ستكون لديه الرغبة في العمل بعد ذلك؟ قرأت كتاباً ذات مرة، جاء فيه أن شخصاً قد مات أثناء ممارسة الحب مع امرأة. لم يتحمل قلبه. هل تصدق ذلك، بالقلب. كل شيء يتجمع في القلب. يتراكم فيه الكثير فلا يتحمل. أنت لا تنام؟

كنت نائماً وأيقظتني. الظاهر أنني لم أُنم عميقاً، كما يقول المثل، كنوم الأرنب. لأنني لم أكن متأكداً من أنها سوف توقظني للعمل في الوقت المناسب. ربما يكون الحال هكذا عندما أكون مضطراً للنهوض بينما هي نائمة. ومن المفترض أنني كنت نائماً، لكنني مستيقظ.

- دعني أرى كيف ينبض قلبك. ووضعت يدها على قلبي، ومن لا يستيقظ حينئذ. - قالت: إنه نافذ الصبر، كأنه في عجلة من أمره. أما الآن فضع يدك على صدري. وأخذت يدي ثم وضعتها على نهديهما وعندئذ، فقط الحجر لا يستيقظ. - أشعر كم تراكم فيه؟ لكن، أتعرف، هل المرأة يمكن أن تموت بهذا الشكل أيضاً؟ من أين لك أن تعرف. العالم ليس عادلاً مع النساء. ارفع عني هذه اليد. وقامت هي بتنحية يدي جانباً. لقد قلت لك: اليوم لا. لقد فات الأوان ويجب عليك أن تأخذ قسطاً قليلاً من النوم. يجب البدء عندما يبدأ الليل وإياك أن تفكر في ضرورة الاستيقاظ غداً. كما لو أن الليل تواصل وتواصل وأن النهار لن يأتي أبداً. يتوجب على الجسدين أن ينظر حاً بعضهما جنب بعض لفترة أطول قبل أن... وعليهما أن يتألفا ويعتادا بعضهما على بعض. لأنهما ممتلئان بالخوف. أعتقد أن قلبي خالٍ منه؟ أوه، ربما أكثر مما في قلبك. بعد أولئك الجنود وهؤلاء السكارى أخذت أشعر بالخوف في كل مرة. اعتقدت أنني لن أكون امرأة مرة أخرى. حتى إنني لم أرغب في أن أكون. اعتقدت أنني سأطرز، أقرأ، أغني وفي بعض الأحيان سأبكي. أريد أن أشتري راديو، هل قلت لك؟ سجلت نفسي في المتجر. من المفترض أن يعلموني حال وصول أجهزة الراديو. سأستمع إليه. والإنسان مجرد إنسان. لم تنته فترة الحداد بعد موت الزوج الثاني. ما زلت أرثدي اللباس الأسود والآن أشعر بأن قلبي أخذ يغلي من جديد. ذهبت إلى الكنيسة ولاحظت الرجال ينظرون إليّ، ليس الكبار فحسب وإنما الأصغر مني سنّاً أيضاً. أشعر أثناء صلاتي بأنهم يخلعون ملابسهم بنظراتهم. أشعر بالخجل لأنه كيف يحدث هذا في الكنيسة والرب يراقب لكنني سعيدة. أحد الخبازين ممن أشتري الخبز منهم كل يوم، بشكل أو بآخر، لم ألاحظه في المخبز قط، أما هنا فأنا أرى أنه يترنم، وبين الفينة والأخرى، يحدجني بنظرة فأصاب بقشعريرة. وأشعر بقلبي يدق ويدق. سامحني أيها الرب

لكنك أنت من أعطاني جسداً. بعد ذلك، كنت أبدو جميلة باللون الأسود. قال الجميع لي: عليّ أن أخرج بملابس الحزن فقط. حتى إنني دفعت أثناء القداس على زوجي السكير. ليكن له ذلك. لقد ترك لي بعض الأشياء وهذا البيت. لم ينفق كل شيء على الشرب. ربما لا يجدر بي أن أقرأ الكتب، ما هو رأيك؟ أحياناً أقرأ شيئاً كهذا ثم أعتقد أن حياتي ستكون مختلفة أيضاً... لأنه حتى لو كانت أكثر حزناً من حياتك، فإن الإنسان قد يتبادل حياته مع شخص آخر. أوه، كيف يدق قلبي. كما لو أنه لا يريد التحمل. أنت لست نائماً؟ لأنه يمكنك التأكد مما إذا تراءى لي ذلك فقط. أوه، كما لو أنه أراد القفز إلى الليلة التالية وربما إليك الآن. لكن، اليوم، لا، لا. الليلة انتهت تقريباً. يجب عليك أن تأخذ قسطاً من النوم. نعم، مرة، مرتين، وبعد ذلك قد أصبح كريهة بالنسبة لك. فكرت مراراً، بأنهم يشخرون بشكل فظيع، أنت لست نائماً بالتأكيد. بيد أنني لم أجروّ على سؤالك حول ما إذا كنت تفضل النوم في المطبخ. وشعرت مثلك بالتعب، لأنهم أيقظوني أيضاً. لكنني لا أسمعهم الآن نوعاً ما، فهل أنت تسمعهم؟ بمجرد أن انتقلت إلى هنا عرفت على الفور أنك لم تكن مع امرأة من قبل. لقد قبلت يدي، هل تتذكر ذلك؟ حتى جعل ذلك قلبي رقيقاً. افكرت، أين كان هذا الشخص البريء مختبئاً من قبل. لذلك فالمرّة الأولى لا يمكنها أن تكون مرة، مرتين، هكذا [على الماشي]. المرّة الأولى تترك بصماتها وسيكون كل شيء لاحقاً كالمرّة الأولى، ما عدا الموت. لأنه لا ذكريات بعده. لكن طالما عشت في إمكانك أن تتذكرني بشكل سيئ. ويمكنك أن تتذكر الأشياء الأخرى جميعها بشكل سيئ. لأنك ستشعر بالسوء مع الجميع. وربما ستبدأ بشرب الخمرة ومع ذلك ستشعر بالسوء. ستشعر بالسوء مع نفسك أيضاً. ستعيش طوال حياتك بشكل سيئ. حتى لو بردت ستشعر بشكل سيئ وسأكون أنا المذنب. من أجل القادم من الأيام، هذه الليلة تستحق أن تُؤجّل. لن تندم. سأكافئك. أوه، ينبلع النهار بالفعل. نم، نم.

وأخيراً ربما غفوت فعلاً، لأنني شعرت فجأة بأنها تجذبني.

- استيقظ، ستتأخر على العمل. استيقظ. يالك من نَوَام. وأكثر ما أثار دهشتي هو قولها:

- أنت تشخر أيضاً. لكن من الجميل أن أسمعك. يبدو أنه تراكم فيك أيضاً. منذ متى؟ يا مريم العذراء، منذ متى؟ وعوداً على بدء، إلى هذه الرحلة التي لم أكملها. سار القطار وأنا في القطار، والقبعة على الرف المقابل بحيث كنت أراها مباشرة. قال السيد: إنها لم تعد موجودة هناك؟ بالفعل، لقد نقلها إلى جهتي على الرف. لقد توقف القطار في إحدى المحطات ولم يركب أحد، لكن أحد الركاب ألقى نظرة على المقصورة، ورأى أنها ممتلئة فصفق الباب خلفه حتى جحظت عينا ذلك الشخص. رفع رأسه عن مسند الظهر، ونظر إلى الركاب حوله، ليتأكد مما إذا كانوا هم أنفسهم، وإلى الحقائق وهل هي موجودة، ثم مد رأسه نحو النافذة وقال:

- أوه، نحن هنا بالفعل.

ترأى لي أن النعاس قد تجاوزه. ومع ذلك بمجرد أن تحرك القطار بالكاد، حتى بدأت عيناه بالتراخي، لكنه ما زال متردداً، هل ينام أم لا ينام. فقط عندما انطلق القطار بسرعة، تأرجح رأسه وبدأ كأنه يسقط من تلقاء نفسه على المسند، وانفتح فمه، ومن ذلك الفم أخذ يخرج بدرجة أقل أو أكثر صدى عربية لا تزال تتدحرج بعيداً في مكان ما على إطارات حديدية عبر كتلة صلبة من الأرض.

في لحظة ما انزلق رأسه من المسند إلى كتف جاره من جهة اليسار. على الرغم من أن الجار حافظ على وضع رأسه على كتفه بدون اعتراض، إلا أنه بمجرد أن دخل القطار في تقاطع آخر للسكك الحديدية وبدأ يهز المقصورة، قام بنقل رأسه بنفسه من كتف الجار إلى كتف جارته من جهة اليمين دون أن يقطع سلسلة نومه. وجارته هي الأخرى تقبلت وضع رأسه على كتفها بخنوع. مع ذلك فإن القطار المهتز كالمهد جعله ينام بعمق لدرجة أن رأسه انزلق من كتف جارته على ثدييها. كان لديها ثديان تقريباً كراسين من رأسه. ليسا كبيرين فحسب، لكن كما لو أنهما مستقلان، ومستقلان عن البقية كلها. هناك نساء يبدو أنهن مخلوقات من أجل حمل أئدائهن ليس إلا. حتى بدا كأن ثدييها هما اللذان يهزان القطار، خاصة عندما دخل القطار في تقاطع آخر للسكك الحديدية. إذًا، فماذا سيحدث لو نام على هذين الثديين؟ ومع ذلك، استنشقت هذه المرأة أكبر قدر ممكن من الهواء وزفرته، ثم استنشقت

مرة أخرى وزفرت، معتقدة أن رأسه سيستيقظ أيضاً بمجرد صعود وهبوط ثدييها. لكن على ما يبدو، كان نائماً بعمق، وإذا بها تصيح فجأة، كما لو كانت مذهولة:

- أيها السيد، ماذا أنت تفعل؟

ربما سمعها. صحيح أنه لم يفتح عينيه وما يزال فمه منفرجاً، لكنه تحت وطأة النوم نقل رأسه من صدرها إلى مسند المقعد. حينذاك بدأ المشهد. ليس على الفور. في البداية كأنه فقد أنفاسه. كانت عيناه لا تزالان مغلقتين، غير أن فمه صار أكثر انفتاحاً، لكن لم تخرج أي همهمة من ذلك الفم. سيعتقد السيد أنه مات ولا شيء آخر. أخذ الناس في المقصورة ينظرون إليه، وينظرون بعضهم إلى بعض، لكن الجميع خافوا من قول أي شيء. أخيراً، قال أحدهم مجترئاً بنصف همس، ربما أراد أن يتجنب قلقه الخاص:

- آه، من ينام هكذا، لديه أكثر من ليلة لينام فيها.

ثم تجرأ شخص آخر على القول:

- ألم يسمع السيد، لقد كان في حركة المقاومة. ومن المعلوم، ليس من أجل أن يأخذ قسطاً من النوم.

وبعد كلمات ذلك الشخص، قال ثالث بجرأة أقوى:

- لقد اخترق الرشاش قبعته. أوه، لا بد أنه كان شجاعاً. لسوء حظها تحدثت أيضاً هذه المرأة التي حاول أن ينام على ثدييها:

- صاحبي ينام هكذا أيضاً عندما يسكر.

وثمة من غضب من هذا الكلام:

- وكما ترى السيدة، هذا رجل رصين، لكنه نائم فحسب في أعقاب ليال وربما سنوات كثيرة بلا نوم.

صمتت المقصورة. كما لو ابتلع الصمت الجميع. ولم يسمع سوى صوت القطار لفترة طويلة. أصبح شخير ذلك الشخص يعلو ويعلو. مرت محطة وبعدها أخرى، وثمة شخص آخر قال، من الواضح أنه أراد مسح أثر تلك المحادثة:

- ربما هو مجهد ولذا فلا عجب إذا نام كالميت أينما وضع رأسه. علق أحدهم قائلاً: يا سيدي، من هو الذي ليس مجهداً في هذه الأيام؟

من ليس مجهداً؟! لا أحد يريد أن تكون حياته عبثاً. أوه، هذه الأكياس الثلاثة لي، ولم تعد لدي قوة كالسابق.

وسبّ أحدهم قائلاً:

- إيه، مجهد، يا للجنة!

وبدؤوا يتجادلون فيما بينهم حول من هو الأكثر إجهاداً.

- قال أحدهم بنية سرد حكاية أطول: سأعطي السادة مثلاً من تجربتي الشخصية... فجأة في تلك الأثناء، حدثت قرقرة في حلق ذلك الشخص. لحسن الحظ، اهتز القطار عندما مرّ بتقاطع السكك الحديدية فقطع قرقرته تلك، لكن ليس لفترة طويلة. عندما استعاد إيقاعه المتمايل مرة أخرى، خرجت تنهيدة عظيمة من فمه، كما لو أنها خرجت من أعماق روحه. بعد ذلك وهو نائم حتى رأسه بقوة أكبر على مسند المقعد وبدأ بإخراج صوت لا هو بالصفير ولا بالأزيز، لكن كان بالإمكان سماع همهمة بعيدة ازدادت مع كل نفس وأصبحت كل مرة أسرع وأقرب وأكثر علواً. بحيث يبدو هذا القطار الذي يجرجر نفسه إلى الآن، يزداد سرعة مع كل نفس يسحبه. وبعد أكثر من دزينة من هذه الأنفاس بدا كأنه بالفعل في مطاردة واندفاع، لدرجة أنه توقف عن النقر على مفاصل القضبان وكاد يقفز عند تقاطع السكك الحديدية كما لو أننا كنا نتجه مباشرة نحو شلال سنسقط منه بعد لحظة في الهاوية.

استحوذ عليّ الخوف حتى شعرت بألم في صدري. صدقني يا سيدي، لم أسمع من قبل ولا من بعد مثل هذا الشخير. هذا الشلال الهادر الذي كنا نقرب منه جعل رأسي ينفجر وصدري يضيق ورجليّ تقفزان ولم أكن قادراً على السيطرة عليهما. شعرت مع شخيره بأن شيئاً ما يخرج مني كما لو أتى من أعماق الوجود. وربما شعر جميع الركاب في المقصورة بالشيء ذاته، لأنه لم يجرؤ أحد حتى على لكزه أو القول له: لا تشخر، أيها السيد.

لقد ربطت نفسي بالنافذة على أمل أن تصل إليّ نجدة ما من هناك. ولحسن الحظ، وبعد وقت قصير من هذه المحنة، وصل القطار إلى محطتي. ودون أن أنتظره حتى يتوقف دفعت الباب وقفزت من القطار وهو مازال سائراً.

وبخني مراقب حركة مرور القطارات الواقف ليس بعيداً على الرصيف

قائلاً: مهلاً، لماذا نفد صبرك؟! - إذا انكسرت يداك، رجلاك، فستكون مؤسسة السكك الحديدية هي المسؤولة! وربما أنت بدون تذكرة؟! اقرب من هنا وأظهر تذكرتك! اقربت منه ومازلت مضطرباً من شخير ذلك الراكب، مددت يدي في جيبتي ولم أجد التذكرة.

- طيب، ألم أقل لك ذلك وشعر مراقب حركة القطارات بالانتصار تقريباً. لا توجد لديه تذكرة ويقفز قبل المحطة.

بدأت بالبحث في جيوبي الأخرى وفي هذه الأثناء أعطى إشارة للقطار بالمغادرة وعندما عثرت أخيراً على التذكرة ازداد القطار زخماً.
قلت له: لدي تذكرة، تفضل ها هي.

- قال: سنتأكد مما إذا كانت صالحة. وبدأ يلوح بيده إلى أحد الركاب في القطار المغادر.

لا إرادياً، نظرت إلى يده الملوحة ورأيت شخصاً ملوحاً له بيده أيضاً من نافذة القطار، وفجأة توقف قلبي. لقد غادرت قبعتي في القطار، يا عيسى بن مريم! اجتازتنا آخر عربة في القطار. جريت وراءه بكامل قوتي. وصلت بالفعل إلى مقبض الباب الأخير، لكنه فلت من يدي بسبب القطار المتسارع. مع ذلك جريت أبعد محمولاً لا برجليّ فحسب، بل باليأس لأن قبعتي هناك. تمكنت مرة أخرى من اللحاق بالعربة الأخيرة، مددت يدي محاولاً الإمساك بمقبض الباب وبدأ لي بالفعل أنني أمسكت به وما عليّ سوى الاندفاع من الرصيف والقفز على درجات العربة، لكن القطار اهتز بقوة لدرجة أنني رميت مرة أخرى على رصيف المحطة. مع ذلك، ظللت أركض أبعد إلى أن ابتعدت عربة القطار الأخيرة وأصبحت أبعد وأبعد.

تقطعت أنفاسي، وانحنيت رجلاي تحتي، لكنني ركضت بنفس السرعة نحو مراقب حركة مرور القطارات. كان لا يزال على الرصيف. ربما أوقفه الفضول فيما إذا كنت سأتمكن من القفز إلى داخل القطار. لكن لا أعتقد أنه قد توقع ذلك، لأنه استقبلني بالتهديد:

- ماذا، كانت لديك تذكرة إلى هذه المحطة فقط، لكنك أردت الذهاب أبعد بدون تذكرة صالحة؟

صرخت لا هتأ: كلا، قبعتي هناك.

- أي قبة؟

قبة من اللباد بنية اللون. من فضلك، أوقف القطار.

- أوقف القطار؟ لقد جُحّن! واستدار موجهاً خطواته نحو بناية المحطة.

قطعت عليه الطريق. ليوقف السيد القطار.

مشى! ضغط قبعته على رأسه وحاول أن يدفعني بعيداً عنه.

أمسكته من بدلته الرسمية وبدأت بهزه حتى أصبح وجهه أكثر احمراراً

من هذه القبة الرسمية. صرخت في وجهه: ليوقف السيد القطار! ليوقف السيد القطار!

- اتركني! صاح، محاولاً الإفلات مني! لكنني كنت متشبثاً ببدلته

الرسمية كما تفعل المخالب وقمت بهزه مرة أخرى حتى انحرفت قبعته على

رأسه. - دعني أذهب، يا للعة! هل هذا سطو؟ مهلاً! - صرخ باتجاه عامل

السكك الذي سار بمطرقة طويلة وهو ينقر بها القضبان الحديدية! استدع

أصحابنا! ثمة مجنون يتشبث بي! وقبل أن يصعد هذا العامل إلى الرصيف،

هرع بعض عمال السكك الحديدية من مبنى المحطة.

- صاحوا: لا تتركه! امسكه!

- رد عليهم مراقب حركة مرور القطارات غاضباً: إنه هو من يمسك بي!

أوه، كأنه أوقف اندفاع دمي فجأة! - رمى أولئك القادمين كما لو بكبرياء

مجروحة. - أوه، كيف يمسك بي!

أمسك بي أحد العاملين من يدي محاولاً رفعها عن بدلة مراقب حركة

مرور القطارات، لكن بلا طائل، كنت أتمسك بها كما لو بالمخالب لا

باليدين.

- أوه، اللعة، يا لها من يد قوية، هاه، وهو قاصر.

رد عليه العامل ذو المطرقة الطويلة لنقر القضبان الحديدية قائلاً:

- سأضربه بها وسيتركك على الفور. هل أضربه؟ ورفع المطرقة

بالفعل.

- انتظر - صاح به مراقب حركة مرور القطارات الذي مازال غاضباً، سيخفض يده بنفسه. سيستعيد وعيه ويخفض يده. لقد ترك قبعته.

- سأل أحد عاملي السكك: أين تركها؟

- قال مراقب حركة مرور القطارات: في القطار، وطلب مني أن أوقف القطار.

انفجر الجميع ضاحكين، وسقطت يداي من تلقاء نفسيهما من بدلتة الرسمية.

- قال أحدهم بعد توقفه عن الضحك: إن إيقاف القطار مثل إيقاف الأرض.

- وأضاف العامل ذو المطرقة: أوه، لن يتوقف الآن، حتى إنه مذكر رأسه وهو ينظر إلى القطار المتلاشي. لقد تجاوز حجرة مراقب خطوط السكك بالفعل.

ثم انفجر الجميع مرة أخرى من الضحك، وانتشر هذا الضحك في الرصيف كله، وكان لدي انطباع بأنه حلق في مكان ما عالياً فوقي.

- ومن أين العقل لدى مثله؟

- ربما ترك رأسه أيضاً؟

وضحكوا كما لو لم يحدث شيء مضحك في السكك الحديدية من قبل، باستثناء الكوارث. أظن أن أحدهم شعر بالأسف من أجلي ولذلك قال:

- يمكن أن نتصل؟ دعهم يخبرون قاطع التذاكر كي يطوف في العربات. رد عليه مراقب حركة مرور القطارات وهو يعدل بدلتة الرسمية على جسمه:

- وإذا كان مزدحمًا؟ حينئذ لا يمكنهم حتى فحص تذاكر الركاب.

هل بدأ الأمر من النوم أو من الضحك؟ إيه، لا شيء، هكذا أتساءل في بعض الأحيان فحسب. أرى أن هذا يفاجئ السيد. ولا أندھش من أن هذا يفاجئ السيد لأنه يفاجئني أنا، لماذا؟ خاصة أنني لا أعرف حتى ما أبدأ به. لا أبحث عن أي بداية. بعد كل شيء، هل مثل هذه البداية توجد على الإطلاق؟ حتى ولو أن الإنسان ولد لا يعني أن هذه هي بدايته. لو كان لكل شيء بداية لتواصل بالتسلسل. لكن لا شيء يريد بالتسلسل. اليوم بعد اليوم لا يريدان بالتسلسل، ولكن هذا يدفع نفسه قبل ذاك. نفس الشيء بالنسبة للأسابيع والشهور والسنين، إنها لا تتبع بعضها بعضاً في خط واحد، لكنها، بوضعها في المصطلحات العسكرية، تندفع كجنود المشاة.

لا، لست عسكرياً. عندما كنت في سن مناسبة حمداني المعمل. حقيقة كوني كهربائياً كانت سبباً ضعيفاً لإعفائي. عزفت حينها في فرقة المعمل الموسيقية، لقد أخبرت السيد بذلك سابقاً، وعلى آلة الساكسفون. ولم يتقدم أي عازف ساكسفون إلى العزف سواي. أرادوا نقل أحد الأشخاص من موقع البناء الآخر، لكن لم يسمع أحد ما بوجود عازف ساكسفون آخر هناك.

لكن، كما يرى السيد، إنه فقط عندما أحاول الإحاطة بحياتي أحياناً، ومن لا يحاول ذلك...؟ من المعلوم، ليس بالحياة كلها، إنما بهذا أو ذاك القسم فقط، طبعاً، لا أحد قادر على الإحاطة بحياته كلها، حتى لو كانت أكثر فقراً. ناهيكم، عن وجود شك فيما إذا كانت هناك حياة كلية. كل حياة محطمة بنسبة أقل أو أكبر وفي أغلب الأحيان هي مبعثرة. ومن الصعب

تجميع مثل هذه الحياة وحتى إذا أمكن ذلك فبأي كلية ما ستضعها؟ إنها ليست بفنجان أو حتى بإناء أكبر؟ ربما يمكن تخيلها بعد الموت ككل. لكن من سيفعل ذلك؟ الإنسان وحده يمكنه أن يتخيل نفسه. السيد على حق، ليس كل شيء. لكن بالقدر الممكن على الأقل. لا توجد حقيقة أخرى.

وبعد ذلك، هل أنا حقاً أفكر في حياتي الخاصة؟ لماذا ينبغي عليّ القيام بذلك؟ لن ينفعني هذا في أي شيء، لن يعيد لي أي شيء ولن يغير أي شيء. وإذا هي [الحياة] فكرت فيّ، فأنا لا أشعر بهذه الحاجة. ولماذا على الحياة ألا تفكر في الإنسان؟ وهي ليست بحاجة إلى أخذ إذن منا. الشيء نفسه مع الحلم. يحلم السيد على الرغم من أن حضرتك لم ترغب في ذلك. وأحياناً يحلم حضرتك كما لو أنك لا تريد ذلك على الرغم من أنه حلمك. وأنت لا تتحكم في الطريقة التي يحلم الآخر بك. وهل الحياة غير ذلك أيضاً؟

أي نوع من الحلم كان؟ كيف يمكنني أن أجيب السيد باختصار؟ لا، لا أعرف. هذا ليس مهماً. وعلى الرغم من أنني حلمت به كثيراً، وفيما بعد أكثر، فقد بدا أنه فتح ذكرى ذلك الضحك، متزجراً إياه من سلسلة أحداث متنوعة، أخرى، غالباً ما تكون أكثر أهمية، دافعاً بها إلى غياهب النسيان. ولظل هذا مفهوماً، لكن الأمر بدا كما لو أن هذا الضحك صار في نفس الوقت سبباً لذلك الحلم اللاحق بعد عدة عشرات من السنين. ليس هذا فحسب، بل لهذا الحلم أيضاً. لماذا يعتقد السيد أن مثل هذه المعاملة بالمثل مستحيلة؟ بعد كل هذا، أقول للسيد، لست أنا من أفكر في حياتي هذه، ولذلك فلست من يرتب هذا الشعور المتبادل لهذا مع ذاك، ولذلك مع هذا. ربما سترتب الأمر من تلقاء نفسه. خاصة أنني غالباً ما أفعل ذلك في اللحظة الأقل مناسبة، على سبيل المثال، عندما أسير في الغابة وأبحث بعناية عن الفراولة البرية تحت رجليّ، أو عندما أخرج وعاء من الطعام للكليين. أو حينما أجلس جنب النافذة وأنظر إلى البحيرة. حشد من الناس على هذه الضفة والضفة المقابلة، زوارق، قوارب كاياك، فرشات هوائية، رؤوس على الماء، مثل زنابق الماء فيما مضى، زنابق في المنعطف... فعلاً، لقد حدثت السيد عن ذلك من قبل. صراخ، صرير وضحك. وعليه فكل

انتباهي منصب على الفراولة والكليين أو على ما إذا كان أحد الأشخاص يغرق هناك ويطلب النجدة. يعترف حضرتك بأن هذه ليست أفضل اللحظات التي يمكن للإنسان أن يفكر في أي شيء آخر. ومع ذلك...

لكن أنا آسف، لقد قاطعت السيد. خلاص أنا كلي آذان صاغية، كلي آذان صاغية. هل هكذا يعتقد السيد؟ لا، لا يعود المرء إلى نفس المكان أبداً. في الواقع، هذا المكان لم يعد موجوداً ولا يوجد مثل هذا الاحتمال للعودة. لماذا؟ لأنه، في رأيي، الأماكن المهجورة تموت.

فقط يتراءى لنا أنها تشاق إلينا. لا داعي لتصديق ذلك. عندما كنت في الخارج، ذهبت إلى الغابة، كانت هناك غابة غريبة، أشجار غريبة، شجيرات غريبة، مسارات، وطيور غريبة، بدا لي أنني أسير هنا في الغابة أيضاً، في هذه المسارات، أجتاز الأشجار المحلية وأسمع الطيور المحلية، لذلك توقفت عن الذهاب إلى الغابة. كل الأماكن ما عدا الإنسان لم تعد تلك الأماكن. مكان الإنسان الوحيد هو في داخله فقط. بغض النظر عما إذا كنا هنا أو في مكان آخر أو في أي مكان. الآن أو في أي وقت. كل ما هو في الخارج هو مجرد أوهام، ظروف، مصادفات وأخطاء. الإنسان لنفسه وحده ولا سيما هذا المكان الأخير.

هل فهمت السيد خطأ؟ من الواضح أننا لا نتحدث عن نفس الشيء. عن نفس الموضوع؟ إذاً، لماذا يظهر السيد الآن فقط؟ لماذا لم يظهر حيث؟ وكانت هناك مناسبات أخرى أيضاً. لست مضطراً إلى التظاهر حتى الآن. صحيح أننا يجب أن نتظاهر طوال حياتنا كي نعيش. لا توجد لحظة لا نتظاهر فيها. حتى إننا نتظاهر بعضنا أمام بعض. مع ذلك، تأتي مثل هذه اللحظة في النهاية التي لا نريد أن نتظاهر فيها بعد الآن. لقد سئمنا من أنفسنا. ليس من العالم ولا من الناس لكن من أنفسنا. سوى أنني لم أعتقد أن اللحظة قد حانت.

هل تصورت السيد شخصاً آخر؟ لا أظن ذلك. ربما كان الأمر كذلك في البداية. حسناً، طالما أن السيد جاء من أجل الفاصولياء فهذا يعني أن هذا

أو ذاك يمكنه المجيء من أجل الفاصولياء أيضاً ولا أحد يعرف من يكون. لذلك كان من حقي فعلاً الافتراض أننا قد التقينا في مكان ما. ولماذا لم يأت السيد بمعطف وقبعة؟ إنه الخريف والجو بارد. يكفي أن تنظر لترى بدايات التجمد. ومن كان بإمكانه القدوم إليّ ها هنا، في هذا الوقت، بعد انقضاء الموسم، وببساطة كما لو أراد زيارتي. يزورني أحد الحجاجين من حين إلى آخر. أو يأتي أحد الأشخاص المسؤولين عن السد للتأكد، وقد ينظر أو لا ينظر. أو يأتي ساعي البريد حاملاً رسالة بالمال من السيد (روبرت) في اليوم الأول من الشهر وسرعان ما يختفي. أخبرني مؤخراً بأنه قد لا يجلب النقود لي في المرة القادمة بسبب عطل دراجته الهوائية، ولهذا سيتوجب عليّ الذهاب إلى دائرة البريد بنفسى. حسناً، أعتقد أنه لا أحد هناك عدا ذلك.

ومن المنازل؟ نعم، يأتون. لكن ليس كل واحد يزورني. على أي حال، نادراً ما يأتون إليّ، هم يعرفون كل شيء على ما يرام. أنا لا أتحدث عن أولئك الذين يجلبون معهم بعض الأشياء من وقت لآخر. لأنه، من المعلوم، لا أحد منهم يأتي أبداً. على العكس. هم يحاولون ألا أرى أي شيء ولا أسمع بأي شيء عن قدوم هذا أو ذاك من الأشخاص. عادة ما يأتون في وقت متأخر من المساء. يعتقد بعض الأفراد أنني نائم لأن الضوء مطفأ بالفعل. بينما أنا أرى وأسمع كل شيء، لكنني مثلما قلت للسيد، لا أ تدخل في مثل هذه القضايا. لكنني أسمع صوت السيارة. في مثل هذا السكون، كما هو الحال عليه الآن، أدنى مهمة يتم حملها في أرجاء البحيرة. وإذا نعقت البومة في جو بلا ربح فسيكون صوتها كما لو أن أحد الأشخاص قام بإطلاق النار في مكان ما من الغابة. وعندما تخرج الخنازير البرية من الغابة فيمكنك سماعها من خلال الأرض. على أي حال، سيندفع الكلبان نحو الباب حالاً، وحيث يجب أن أخرج لأتأكد من القادم. لا أقرب كثيراً، إلا إلى الحد الذي يسمح لي بالتأكد من القادم وإلى أي منزل، بدون أن يلاحظني أحد. بالطبع أنا لا أخذ الكلبين معي. وأغادر بعد دخولهما إلى المنزل. يجب على كل واحد أن يجتاز هذه المسافة من موقف السيارات إلى المنزل، ويكفي أن أرى ما ينبغي عليّ رؤيته. لقد منعت اقتراب السيارات من المنازل. السيد يعرف كيف سيكون عليه الوضع هنا في هذه الحالة؟ ستتحوّل إلى مجرد طرق. لقد رأى السيد

أن معظم المنازل تقع على المنحدرات. وإذا انزلت السيارات نحو الهور فمن سيكون المسؤول؟ أنا، لأنني من يحرس.

هناك صياد سمك فحسب يأتي إلى هنا لبضعة أيام أو لأكثر من عشرة أيام في هذا الوقت. لم يأت لحد الآن، لكنه ربما سيأتي مرة أخرى. بشرط ألا يحل الشتاء مبكراً وإلا فلن يصطاد. لكنه يتجنبني أيضاً. لا أعرف لماذا. لقد اشتري منزلاً هنا من أحد الأشخاص في النهاية، في الضفة الأخرى فعلاً. لا يترك مفاتيحه عندي ولذلك لا أدخل. لا تراه هنا خلال الموسم السياحي، منزله مقفل ولا يأتي إلى الصيد إلا في وقت ما من هذا القبيل. لكن هل سيصيد، لا يمكنني الجزم بذلك. يركب قارباً في الصباح الباكر ويبحر في البحيرة مرة نحو هذه النهاية وأخرى إلى تلك. يتعذر الوصول إلى الضفتين في تلك النهاية تقريباً، لأنهما مليئتان بالبردي وجار الماء والبرقوق الشائك. وهكذا يختبئ في ذلك البردي من الصباح إلى المساء على ظهر القارب. لا يشعل الضوء في المساء ولا أعرف إذا كان سينام قريباً. حتى إنني لا أعرف هل عاد من تلك الأسماك بالفعل. وبالطبع لا أذهب إليه لأسأله عما إذا كان قد صاد أي شيء. فمن غير المناسب الذهاب إليه لأسأله، خاصة إذا لم يصطد أي شيء. كل ما يمكنني قوله أنني لم أره قط وهو يصطاد شيئاً.

ربما هو لا يصيد؟ إذاً، ولماذا يجلس طوال اليوم في القارب؟ ولا ينزل منه حتى في المطر. يلف نفسه في برنس، يسحب الغطاء على رأسه ثم يجلس في القارب تحت هذا المطر. لديه صنارة صيد. في بعض الأحيان يصطاد في منتصف البحيرة، أرى ذلك. إنها تلوح من القارب مثل أي صنارة طبيعية. أحياناً يسحبها من الماء، يضبط شيئاً ما في الخطاف ثم يرميها في الماء. من المفترض أنها صنارة. بيد أنني لم أرقط سمكة ترفرف عندما يسحب صنارته من الماء. بالطبع، توجد أسماك في البحيرة. كانت في نهر روتكا ولم لا يكون من المفترض أن تكون في البحيرة. ليست مثل تلك الأسماك، ولكنها موجودة.

لو اصطاد من الشاطئ لذهبت إليه وسألته عما إذا التقطت الأسماك الطعم أم لا. لراقبت ما إذا اهتزت فلينة الصنارة ذات مرة. صحيح أن الصيادين لا يحبون من يحدق في فلينة الصنارة. تماماً مثل لاعبي الورق. لكنه على سطح

هذا القارب دائماً. أحياناً، عندما اصطاد مقابل نوافذي ذهبت، على الأقل، لأجلس على الشاطئ. ومن غير الممكن أن أتحدث معه وأنا على الشاطئ، وحتى أن أسأله عما إذا التقطت أو لا، ولكن عليّ الاستعانة بالصراخ وأنا لا أريد تجفيف السمك منه.

لا أعرفه، أعرف أنه صياد سمك بالصنارة. حتى إنني لا أعرف هل يراني من قاربه وهو في منتصف البحيرة، على الرغم من أنني أراه عندما أكون جالساً على الشاطئ. بالطبع، لا يوجد هكذا تبادل، بما أن السيد يرى الآخرين فإن الآخرين يرون السيد. هكذا هو الحال مع كل شيء. القضية مختلفة لأن الصياد يجب عليه أن يبقي عينيه على فلينة الصنارة طوال الوقت وإلا ستبدأ السمكة بأخذ الطعام...

يحدث في بعض الأحيان أن يرتفع الضباب فوق البحيرة تماماً مثلما هو الحال الآن في الخريف، وأحياناً، يقف طوال اليوم، ويختفي عن ناظري في مكان ما في هذا الضباب، لذلك أناديه في بعض الأحيان:

هلو، هل أنت هناك يا سيدي؟! حتى إنني أمشي على امتداد الشاطئ منادياً: هل السيد هناك؟! هل السيد موجود؟!

لم يجبني لحد الآن قط. ذات مرة، خرجت قبل الفجر من أجل سماع صوته، قبل أن يبحر بعيداً، وكدت أعمل معه مشاجرة بسبب عدم سحبه القارب من الماء إلى الشاطئ، لأن موجة حدثت في البحيرة أثناء الليل وظل القارب ينازع السلسلة لدرجة أنني لم أغمض عيني. من المؤكد أنه كان نائماً ولم يسمع. قال لي:

- آسف.

هذا كل شيء.

أيعرف السيد، عندما أستمع إليك هكذا، فإن صوتك يبدو لي مشابهاً لصوته. أوه، لا يزال سمعي حساساً. على الرغم من أن هذا هو كل ما تبقى لي بعد العزف. لن أجادل. مع ذلك، لا بد أنني سمعت صوت السيد من قبل. حسناً، ليقبل لي السيد شيئاً آخر. أياً كان، لا فرق. المثير للاهتمام أننا نجلس هنا ونقشر الفاصولياء، أنا أصغي، أصغي للسيد، لكنني لاحظت ذلك الآن. تراءى لي دائماً أنني أستطيع التعرف على كل واحد من خلال صوته.

لكن ليس من خلال الوجه لأن الوجه يتغير . غالباً ما يصبح الوجه مختلفاً عن نفسه . لا يوجد يقين بأن هذا الشخص هو نفسه إذا ما نظرت إلى وجهه . لكن الصوت إذا ما سمعته فإنك ستذكره حتى لو من ذاكرة منسية . علاوة على ذلك فالوجه يمكن أن يتخذ تعابير مختلفة ، أفنعة ، وتكشيراً ، في حين لا يمكن أن يكون الصوت كذلك . كما لو أن صوتاً واحداً في الإنسان لا يعتمد عليه . سأخبر السيد ، إنني من خلال الهاتف ، كما لو سمعت جميع مستويات الصوت ، من أعلاه مروراً بالتنفس ، إلى الصمت . أوه نعم . الصمت صوت أيضاً . وكذلك الكلمات . لكن ، إذا جاز القول ، الكلمات التي فقدت الثقة بنفسها . الإنسان خلال الهاتف يتحدث بكامل كيانه . ربما لو سمعت صوت السيد عبر الهاتف لتذكرته بشكل أسهل .

نعم ، لدي هاتف هناك في الغرفة ، لكنه عاطل . لم أرسله للتصليح ، لأنني لست بحاجة إليه فعلاً . بمن سأتصل ؟ ليس لدي أي شخص للاتصال به . وإذا كان لدى أي شخص قضية فيمكنه المجيء إليّ . يقول السيد : يجدر بي أن أمتلك هاتفاً محمولاً . لأي غرض ؟ أوه ، أرى هنا لأي الأغراض تستخدم الهواتف المحمولة في الموسم . هواتف الجميع على أذانهم . لا يكاد أحد يتحدث مع الآخر كما نفعل نحن الآن بعضنا مع بعض ، لأن الجميع يتحدثون عبر الهاتف المحمول . هل يعتقد السيد أنه أقرب ؟ يتعد الإنسان عن الإنسان كل مرة أكثر . لو لم تكن هناك بضعة أشهر خريفية وشتائية لعاد الصمت من جديد إلى هنا ، ولا أعرف ، ما إذا كان بالإمكان تحمل ذلك .

حتى إنني أفكر ، في أن أضيف ملاحظة على السبورة في الموسم المقبل : اتركوا الهواتف المحمولة أو أغلقوها عندما تغادرون منازلكم . كما في الكنيسة والمسرح والفيلهارمونيا . وماذا هنا ؟ الصمت يمكن أن يكون كنيسة ، مسرحاً وفيلهارمونيا أيضاً . الصمت لا غير ، لأنني لا أعرف ، ماذا بعد . أوه ، ليس لدى السيد فكرة ، ما للصمت من قوة . أن تستمع هكذا ، بطبيعة الحال بعد الموسم السياحي ، إلى هذه السماء ، هذه البحيرة ، إلى هذه الصباحات ومغارب الشمس ، وفي الليل عندما يكتمل القمر ، أن تذهب إلى الغابة وتصغي إلى كل هذه الأشجار ، الشجيرات ، الأعشاب ، وتستلقي على الطحلب . أو لو استمع حضرتك إلى النمل ، كأن تنحني على قفير النمل

لكن بحذر حتى لا يلتصق بك، لشعرت كما لو وجدت نفسك في فضاء بين النجوم مستمعاً إلى الكون. لماذا يريد الإنسان بعد ذلك أن يطير إلى مكان آخر هناك؟

أتساءل داخل نفسي أحياناً، لو قام أحد بتسجيل هذا الصمت فربما لكانت موسيقى حقيقية. أنا؟ هذا ما يقوله السيد. على الساكسفون؟ هذه الموسيقى ليست موسيقى ساكسفون. أحياناً، أشعر بالندم لأنني لم أكرس نفسي لآلة أخرى. على سبيل المثال للكمان، مثلما حدثني ذلك المعلم في المدرسة على القيام بذلك. إلا أنني اخترت الساكسفون. هكذا بدأت وبقيت على هذا الحال. بعد ذلك ومثلما قلت للسيد، لقد عزفت للرقص. ناهيك عن أنه لا يوجد شيء للحديث عنه لأنني توقفت عن العزف. مع ذلك سأقول للسيد متسائلاً عما إذا كنت سأعزف أساساً لو لا انضمامي لأوركسترا المعمل. ربما سأنهي عزفي عند الحد الذي كان في المدرسة. لا أعرف ما إذا كان الحال أفضل أم أسوأ بالنسبة إلي، لكن على الأقل ما كنت مضطراً إلى تجريب ما سيؤول إليه الأمر طالما لا يمكنني العزف بعد الآن.

ما العمل، لقد كنت إنساناً شاباً. وإذا كان الإنسان شاباً فمن أين له معرفة ما سيكون الأفضل أو الأسوأ؟ وليس على الفور ولكن هناك في يوم من الأيام، ذات مرة. لا أحد حتى يفكر في ذلك، لأنه لا يوجد شيء ما يفكر فيه بعد. ناهيك عن أنها موضوعة كانت وقتئذ للشباب. يقول السيد إنه هكذا دائماً. من المحتمل إلا أنها لم تكن نفس الموضوعة قط. لم يجر أي شيء آنذاك من دون الشباب. كان دائماً يجب أن يكون شخص شاب في هيئة الرئاسة، في كل اجتماع، مجلس، وأكاديمية. والشيء نفسه أيضاً، هناك شاب واحد على الأقل في كل وفد. وامرأة واحدة بالطبع. جرى الحديث عن الشباب وقيل إن المستقبل أمامهم، وهم من سيبنون هذا العالم الجديد الأفضل وإن كل شيء في أيديهم. صحيح أن هذا يقال دائماً وبعد ذلك يكبر الشباب تاركين لمن يجيء بعدهم من الشباب هذا العالم الذي وجدوه. أوه، لا يمكن زحزحة العالم من مكانه هكذا بسهولة كما نعتقد.

حتى إنني أعتقد أليس من بين هذه الأسباب ما تم اعتباره أنه سيكون جيداً فيما لو وجد شاب في الأوركسترا. لأنني وبصراحة لم أكن أعرف

الكثير بعد. بالإضافة إلى أنني لم أشعر بكوني شاباً على الإطلاق. لقد آمنت بعالم جديد أفضل لأن السيد يعترف بأن العالم القديم كان مجرد ركام بعد الحرب. في الحقيقة، فقط بعد الحرب اتضحت ماهية تلك الحرب، وكما كانت خسارة فادحة ليس للإنسان فحسب بل لله أيضاً. بدا أن الإنسان لن تقوم له قائمة مرة أخرى، لأنه تجاوز حدوده، والله لم يؤكد وجوده. لم أكن بحاجة إلى فهم أي شيء. لقد كنت مثلاً على ذلك بنفسى.

أرى أن السيد لا يتفق مع شيء ما. إذاً، فلماذا لا يتكلم السيد؟ ليقول السيد ما يريد أن يقول. تفضل، أنا أستمع. أوه، لا. لست الشخص الوحيد الذي يعتقد أن وقت الله قد فات. ربما لا أفكر هكذا، إلا أنني لم أعد أصلي. في بعض الأحيان فقط عندما لا يراني أحد، أجهش بالبكاء، لأسباب غير معروفة. لذلك كنت على استعداد للإيمان بأي شيء لكي أستطيع أن أومن فقط. وما الذي يصلح للإيمان أكثر من عالم جديد أفضل؟ خاصة، عندما عملت في مواقع البناء لاحقاً، كان كل بناء من هذا القبيل كما لو كان جزءاً من هذا الإيمان. لا ينكر السيد حقيقة بناء الكثير من المباني. على الرغم من بعض فترات التوقف عن العمل، وحدث نقص لفترة طويلة في مواد البناء، العادية على الأغلب، ونقص هذه المواد وتلك، وسرقة ما سرق، إلا أنهم بنوا.

على أي حال، لن أتجادل مع السيد. لأن حضرتك ضيفي، ولبق الحق معك. لم أعد أهتم بذلك كثيراً. لحظة، ألم أر السيد في الصور من قبل؟ وعلى الخصوص في تلك الأوقات عندما كنا شباباً. لا يظهر السيد في الصور؟ كيف يكون ذلك ممكناً؟ حتى كظل؟ حتى لو وجدت إضاءة في المكان الذي يقف السيد فيه أو يجلس؟ إذاً، هكذا لا شيء يظهر على الإطلاق؟ أنا أفهم ذلك على وجه الخصوص. لكن هذا سيوقف الكلاب... وهي نائمة بهدوء الآن. أوه، لقد استيقظت. ماذا يا (ريكس)؟ ماذا، يا وابس؟ هل حلمتما بشيء؟ نحن هنا مع السيد نقشر الفاصولياء. ناما، ناما. سأوقفكما عندما يحين الوقت.

لدي صورة واحدة من هذه الصور. إلا أنني لا أتذكر هل السيد موجود فيها. ما هذه الصورة؟ لقد أخبرت حضرتك بهذا الحلم. أخبرت، أخبرت.

حتى إن حضرتك قد تعجب من أنه لم يعد لدي أي شيء أفكر فيه. حدث ذلك عندما كنت في الخارج. نادراً ما حلمت في شيء. تماماً كما هو الحال الآن. عزفت ولذلك كنت أعود متعباً في منتصف الليل أحياناً، ولم تعد لدي القوة لأن أحلم. حتى لو حلمت في شيء لنسيته بعد اليقظة. وإذا بي أحلم في إحدى الليالي وهذا الحلم يبدو كما لو على الشاشة. لا أتذكر، لكنه لم ينته بعد، عندما نهضت فجأة وجلست على حافة السرير. أعترف بأنني لم أكن بمفردي في السرير، وهي استيقظت أيضاً. سألتني بقلق: ما الذي جرى؟ قلت لها: حلمت.

- قالت: أخبرني به.

لكن ماذا كان من المفترض أن أخبرها به، طالما لم أكن متأكداً بعد، مما إذا كنت أحلم بأنني أجلس على حافة السرير، وهذا الحلم يقظة أو بالعكس. أقول: على أي حال، أنت لم تكوني موجودة هناك وقتئذٍ لكي أطمئنها. نامي، فالليل لم ينته بعد.

- وهل كانت هناك نساء؟

نعم، كنّ.

- أنتم تحلمون دائماً بنساء أخريات، وغفت على الفور.

أما أنا فواصلت جلوسي على حافة السرير وأخذت أضرب أخصائي. بأسداس، هل هذا حلمي. وهل يمكنني الاعتقاد بأنه ليس حلمي.

كان وقت الخريف كما هو الآن، تمشيت عبر المروج وكنت أرتمي قبعة. لا يصدق السيد أنها نفس القبعة البنية من اللباد التي تركتها في القطار. مرت سنوات عديدة وبوسعي القول إنني قد نسيتهام فعلاً. لا، على العكس، لقد ارتديت القبعات فيما بعد. ارتديت القبعات طوال حياتي. لم أتخيل أي غطاء آخر للرأس. حتى إنني تغذيت على نوع من الاحترام للقبعة. عادة ما يشير الشخص الذي يلبس القبعة فضولي، على أي حال، أكثر من أي غطاء رأس آخر. ناهيك القول عما يخص النساء. النساء اللواتي لبسن القبعات يقين في الذاكرة. وأنا نفسي شعرت أفضل في القبعة. كما لو كنت شخصاً آخر، شخصاً أعلى مني، شخصاً أصبح كل شيء خلفية بالنسبة له. هذا لا

يعني أنني قدرت نفسي عالياً. على العكس. كنت خائفاً من العيش. شعرت كأنني خرجت للتو من القوقعة وكل شيء مازال مؤلماً. أوه، كنت أخشى الحياة لفترة طويلة. ولا يصدق السيد أن القبعة ساعدتني كثيراً. بدأت أصدق في أعين الناس مع عدم الوثوق بأي حقيقة. وأصبحت ذاكرتي أقل تعذيباً تحت القبعة.

وماذا عليّ أن أقول بعد لحضرتك، لقد أحببت أن أحيي الناس بانحناءة بواسطة القبعة. منحني ذلك متعة فعلية. لا توجد انحناءة أكثر امتلاء من الانحناءة بالقبعة. ولا يمكن للسيد أن يتخيل كم أحببت عندما حاولت عصفه ريح أن تقلع القبعة عن رأسي. شعرت وأنا أمسك بها من حافة تدويرها الأمامي باتحاد معها تقريباً. علاوة على ذلك، خامرني إحساس كما لو أنني أمسكت هذه القبعة وأحياناً بكلتا يدي. حتى لو هبت عاصفة كنت أعلم أنني لن أسمح لها بأن تقلعها عن رأسي.

أوه، ملكت كثيراً من القبعات في حياتي بألوان وأنواع وأنماط وماركات مختلفة. لم أبخل على نفسي فيما يخص القبعات، لا بالمال ولا بالوقت. تمكنت من زيارة المتاجر والمخازن وتجريب ما استطعت حتى أجد واحدة تبدو لي مناسبة. لم أبق في قبعة واحدة لفترة طويلة. بدلتها ليس فقط عندما تغيرت الموضة. لم أرم أياً منها بعيداً. علمتني الحياة أن كل شيء يدور في دوائر، كما يدور العالم. والموضة كذلك. وما هو خارج الموضة أصبح أكثر عصرياً فيما بعد.

نعم، هذا صحيح. إلا أنني لم أهتم سواء أكانت الموضة تخص القبعات أم أغطية رأس أخرى في الموضة. على أي حال، لم يحدث أن خرجت القبعات من الموضة نهائياً. اليوم أيضاً نقابل نساء ورجالاً يلبسون القبعات. وعليه فربما القبعة فقط هي من تشهد على ديمومة العالم. ألا يعتقد السيد ذلك؟ كم من الأشياء اختفت، كم جاءت ومع ذلك فلا تسمح القبعة بكبحها.

كانت شفتي عامرة بالقبعات. حتى إن خزانة الملابس لم تسعها. استلقت على الرفوف مع الكتب وعلى الكتب والصُّوان، على رفوف النوافذ وفي كل مكان. كانت لدي شماعة ملابس أثرية موجودة في الصالة، مفلطحة في

أعلاها مثل مجموعة قرون متجاورة معاً، مصنوعة من الحديد الصلب، مع مقابض نحاسية في نهاياتها، وقد ازدحمت كلها بالقبعات.

نعم، كنت أكسب بشكل جيد. بطبيعة الحال ليس على الفور. عموماً، كان الكسب جيداً في أوركسترات الرقص. طبعاً، اعتمد ذلك على مكان العزف. مثلما يعرف السيد، قلما يستمع الناس إلى الموسيقى الجادة، بينما يمكن للجميع أن يرقصوا. وسأقول لحضرتك، الرقص، حسب اعتقادي، ليس مجرد رقص فقط كما يبدو. في الرقص يمكنك أن ترى من يكون هذا الشخص. ليس في وقت المحادثة، بل في الرقص. ليس أمام الطاولة، لكن في الرقص. ليس في الشارع. بل حتى ليس في الحرب. بل في الرقص. لو لم أعزف للرقص لما عرفت الناس بهذا الشكل.

غالباً ما عزفت بالقبة في هذه الفرقة الموسيقية أو تلك. القبة ثلاثم عازف الساكسفون. حتى إن هناك أسلوباً في هذا. أنا الوحيد بالقبة أما بقية أعضاء الفرقة الموسيقية فهم حاسرو الرؤوس. على الرغم من أننا جميعاً، عزفنا ونحن نرتدي القبعات في بعض الأحيان. لا أتذكر حالياً في أي فرقة موسيقية، لكن كان لنا ملصق كتبنا فيه، جميع أعضاء الأوركسترا بالقبعات. أوه، آنذاك، حلمت بهذه القبة البنية من اللباد التي حملتها على رأسي بقدر ما كنت في ذلك المتجر. كيف يمكن لحضرتك تفسير ذلك؟ لا، بالتأكيد هذه هي البنية من اللباد التي سقطت على أذني بالطريقة ذاتها.

كان من الواضح أنها كبيرة جداً من مسافة بعيدة. لأنني وأنا أمشي بدا لي في نفس الوقت كأنني أنظر إلى نفسي سائرة من نقطة ما غير محدّدة. هذا يحدث في الأحلام. وليس في الأحلام فحسب. من الواضح أنها تمايلت على رأسي بعد كل خطوة لعدم استواء المرج. عندما أنظر إلى نفسي هكذا، بالإضافة إلى أنني أعرف ذلك، يمكنني رؤيتها بوضوح أكثر من الإحساس بوجودها على رأسي. كنت أرتدي معطفاً مشابهاً لمعطف السيد. وتحتة بدلة وربما ربطة عنق أيضاً، لا أتذكر لونها ولا نمطها. لقد غطاها وشاح مشابه لهذا الذي لدى حضرتك. أما حذائي المربوط بالقياطين فقد حملته على كتفي وسرت حافي القدمين. لماذا حافياً؟ هذا ما لا أستطيع تفسيره فعلاً. بعد كل شيء، كنت في حالة جيدة. لففت نهايات سروالي فوق كاحلي،

لكن ربما لم يكن ذلك كافياً، نظرت فرأيت ساقَيّ مبللتين حتى الركبتين. ارتفع العشب عالياً وكأن أحداً لم يحشه منذ وقت طويل. بالإضافة إلى ذلك كان الضباب كثيفاً لدرجة أنني رأيت نفسي من خلاله مرة، واختفيت فيه مرة أخرى، حتى فقدت الإحساس فيما إذا كنت أنا السائر في الضباب عبر المروج أم لا. القبة هي الوحيدة التي أكدت لي أنه لا يمكن أن يكون أي شخص آخر سواي. خاصة أنني شعرت ببرودة حادة في القدمين كما لو أن العشب ذاب للتو بعد صقيع ليلي. مشيت حثيثاً على الرغم من أنني لم أكن في عجلة من أمري. مازال الضباب يطمسني ومازلت لا أستطيع بلوغ ذلك الشعور القوي بأنني أنا. إذا كان مثل هذا الشعور ممكناً على الإطلاق. بدا لي افتراضاً، وأنا أنظر من هذه النقطة غير المحددة، وأمشي عبر هذا الضباب، وهذه المروج، أنني لست من كنت، ولكن من يعتقد أنني كنت أنا، وأنا أنظر من تلك النقطة غير المحددة. فقط القبة شقت طريقها في هذه اللحظات إلى رؤيتي، ربما لأنها بنية اللون من اللباد وكبيرة جداً. شعرت بطعم رطب وبارد للضباب في فمي، شعرت بأنني غارق تماماً بهذا الضباب.

في لحظة ما توقفت، مسحت الضباب من جبهتي بالمنديل، بعد ذلك انحنيت كي أكفّ أطراف سروالي نحو الأعلى وفي هذه الأثناء سقطت قبعتي عن رأسي. بدأت بالبحث عنها في العشب وربما استيقظت في تلك اللحظة لأني شعرت بدون قبة كما لو كنت برجل واحدة في اليقظة. ولكان ذلك أنسب بالنسبة لي نظراً لعدم اضطراري إلى مواصلة السير عبر الضباب والمروج، وبالتالي فلست مضطراً لتذكر ذلك الحلم بعد اليقظة. الحلم حلم، المروج مروج، والضباب ضباب ولن تستحق أن تنقل إلى اليقظة.

في هذه الأثناء أصبحت الشمس أكثر وضوحاً لأنها كانت حتى تلك اللحظة محجوبة بالضباب. انتشر الضباب على نطاق واسع وعالياً كذلك. هناك مثل هذا الضباب. ثم رأيت قبعتي في العشب على بعد خطوة مني. وبجوارها هناك خطم بقرة كما لو شمتها. انحنيت برفق والتقطتها من تحت خطمها وفي ذلك الوقت خرجت بأكملها من الضباب. وفي نفس اللحظة بدأت أبقار أخرى تخرج كما لو من جدران الضباب من هذا الجانب وهذا. كانت الشمس تخفف الضباب في عيني تقريباً، اتسعت المروج وظهر المزيد

والمزيد من الأبقار وكأن أحداً ما قد دفعها إلى الخروج من الضباب باتجاهي. رفعت بعضها خطومها ونظرت، من الواضح أنها فوجئت بحضوري. اقتربت بعضها مني بحيث تمكنت من رؤية عيونها الكبيرة الصامته.

تملكني الخوف أمامها. مشيت بخطى متسارعة، وكل لحظة كنت أتلفت ورائي لمعرفة ما إذا كانت تتبعني. بعد كل هذا وذاك، الأبقار هي أكثر المخلوقات وداعة تحت الشمس. من جميع المخلوقات بما فيها الإنسان. أعرف أنني رعبت. لم يتقدم بل توقف ونظرن، وكأنهن لم يفهمن لماذا هربت منهن. كدت أعثر بكومة الخلد. اعتقدت أنه ربما كان جدي يتربص للخلد بالمجرة. لكن لا. لهذا عاودت النظر إلى الورا لأرى ما إذا كانت تلك الأبقار تلاحقني.

وهكذا التفت مرة تلو الأخرى ورائي حتى اصطدمت بمجموعة نساء واقفات على كومة من السيقان الجافة. هل يعرف السيد معنى كلمة السيقان الجافة هنا؟ إنها سيقان أو جذور البطاطس المتبقية المتيسة بعد نبش واستخراج البطاطس. آنذاك، كان يتم إشعال المواقد بهذه السيقان الجافة وتشوى البطاطس عليها حيث ينبثق الدخان متهايداً حولها. عندما تستقل سيارة في الخريف، لكن في وقت أبكر من الآن، سترى مثل هذا الدخان المنبثق المتهادي في الحقول.

وكلما انحسر الضباب أصبحت هذه الأكوام من تلك السيقان أكثر عدداً. وأمام كل واحدة منها وقفت نفس المجموعات من النساء، وكلهن يرتدين ملابس سوداء. كنت على وشك رفع قبعتي والاعتذار عن تطفلي لولا أن إحداهن التفتت إليّ وهي تضع إصبعها على فمها مشيرة عليّ بالصمت. لم يستغرق ذلك سوى جزء من الثانية، إلا أنني لحقت أن ألمح حزناً لا حدود له على وجهها. كانت تلبس قبعة سوداء ذات حافة مدورة كبيرة ولها عيان واسعتان سوداوان بحيث اخترقني هذا الحزن.

لقد تنحىن بعضهن عن بعض قليلاً، دعنتني إحداهن لكي أقف بينهن وكانت تلبس قبعة سوداء أيضاً لكنها ذات حافة مدورة أصغر. اعتقدت أنهن يردن أن يشعلن النار في الموقد وليس لديهن أعواد ثقاب. سيقان الأغصان

الجافة، الخريف، المروج، الأبقار، الضباب، كل شيء دلّ على ذلك. ربما لديهم رغبة في شوي البطاطس؟ لذلك قمت بدس يدي في جيبي من أجل علبة الثقاب، لكن إحداهن الواقفة بجواري أمسكت يدي وهي ترمقني بنظرة تأنيب.

لا أعرف كم كان عدد الواقفات أمام هذه الكومة. لم أحسب. بعيداً عن كل هذا، السيد يعرف كيف يكون عليه الأمر في الحلم. الأحلام لا تحب الأرقام. معظمهن ارتدين ملابس غالية، بمعاطف سوداء، وفراء أسود، بقبعات وأوشحة وقفازات سوداء. وكان سواد لباس كل واحدة منهن مختلفاً عن سواد ملابس الأخرى.

كان لدى إحداهن حجاب من التول الأسود معقود حول قبعتها. ولدى الأخرى قبعة ضخمة مزينة بورود سوداء، ربما هي نفس تلك التي التفتت إليّ وإصبعها على فمها مشيرة عليّ أن ألوذ بالصمت. بيد أنني لم ألاحظ تلك الورود حينئذ. ثمة أخرى تلبس قبعة صغيرة لكنها تحمل دبوساً مغروراً أعلى الجبهة مع لؤلؤة سوداء بحجم زهرة الخشخاش. أعرف أنه لا توجد مثل هذه اللآلئ، لكنها موجودة في الأحلام، كما يعرف السيد. لم تكن إحداهن ترتدي قبعة، بل غطت رأسها بوشاح أسود وعلى عينيها نظارتان سوداوان ذات إطار مذهب، وفراء أسود متلألئ في الضباب. بينما تدلى من قبعة الأخرى خمار على وجهها كان سميكاً جداً بحيث لا يمكنك رؤية حتى حاشية وجهها. وبدا لي أن حزنها هو الأكثر إيلاماً.

وقفت بينهن عدد من نساء القرية متلفعات بالمناديل، يحملن سترات من جلود الغنم، ومعاطف مهترئة، وأحذية معقوفة، منحنيات من الحزن أو كدح الحياة. لا بد أن الجو أبرد مما شعرت به لأنهن كنّ ينفخن في أيديهن المعقوفة المزرقّة. خطر على بالي أن أولاء النساء اللواتي يرتدين الملابس الثمينة ربما هن بناتهن، زوجات أبنائهن، بنات عمومتهن اللواتي أتين من العالم لشوي البطاطس. ما الذي يمكن أن ينقص أولاء السيدات ما عدا طعم البطاطس المشوية في الموقد.

سألت في نصف همس: ألا تزال هناك بعض البطاطس على الحطب؟

- أي بطاطس؟ - امتعضت ذات اللؤلؤة بحجم زهرة الخشخاش.

- وماذا؟

- إنهم يموتون، قالت إحدى نساء القرية بصوت عامر بالحزن وهي تنفخ في يديها.

من؟ أين؟ - لم أفهم.

- همست في أذني صاحبة القبعة ذات الورود السوداء: الفلاحون المسنون يموتون هنا، في هذه الأكوام من السيقان والأغصان اليابسة.

- يا رب الرحمة، تنهدت إحدى النساء القرويات ولم يسمح لها بالبكاء بمواصلة الكلام.

ما معنى هم يموتون؟ مازلت لا أفهم.

حينئذ وبختني ذات النظارة السوداء:

- من فضلك لا تقل أي شيء. أرجو أن تحافظ على التعقل.

على الرغم من ذلك انحنيت فوق هذه الكومة لعلي أقابل أحداً ما من قريتنا. مع ذلك لم أتمكن من رؤية أي شيء من خلال الشق الصغير المعمول كما لو لتهيدة أخيرة. رغبت في توسيع هذا الشق الصغير إلا أنني سمعت صوتاً ما نصف هامس فوقني:

- من فضلك لا تفعل ذلك.

تطلعت حولي لمعرفة من تكون صاحبة الصوت إلا أنني لم أتعرف على أي منهن سواء من تلك السيدات أو النساء القرويات. لا، ربما فقط تلك التي ترتدي القبعة بالخمارة الأسود من التول الشفاف، كأني رأيتها بشكل عابر من قبل. لكن كيف أتجاوز خمارة الشفاف للتأكد. الخمار كالليل بالإضافة إلى كثافة العقد التي تغطيها مثل الذباب. فكرت في مواصلة النظر إليها وربما ستحتاج إلى مسح دموعها، وبالتالي سيتعين عليها أن ترفع خمارة. في هذه الأثناء جاءني صوت من تحت هذا الخمار:

- من فضلك لا تنظر إلي بهذه الطريقة، خاصة أنني لست بتلك المرأة التي تظنها.

- قالت إحدى القرويات: أوه، لقد جاء الكاهن إلينا أخيراً. لقد رأيت

الكاهن بالفعل. نهض من انحنائه أمام كومة قريبة واتجه نحونا. بمذرعة كهنوتية، ووشاح كهنوتي معلق حول رقبته، والإنجيل في يده. أردت الصراخ: مرحباً أيها القسيس! هل تعرفني؟!

أنا تعرفت عليه على الفور. لكنه عندما اقترب منا تبين لي أنه ليس ذلك اللحم من موقع البناء، بل هو المصور الفوتوغرافي. ومن دون أن يسألنا التقط لنا صورة على الفور. حيث أقف بين هؤلاء النسوة فوق كومة من سيقان البطاطس والأغصان اليابسة مرتدياً قبعة من اللباد البنية اللون. هل يمكن للسيد أن يتخيل، كان لدي الكثير من القبعات في حياتي إلا أنني في هذه الصورة ألبس قبعة من اللباد بنية اللون.

التقط الصورة وأخرجها حالاً من جهاز الكاميرا. صورة ملونة وطبيعية. قبعتي بنية اللون، المرج أخضر، كومة رمادية من سيقان البطاطس والأغصان اليابسة التي تقف فوقها، وسواد ملابس أولئك السيدات المختلف. ربما قال شيئاً ما من أحد الكتب المقدسة، لكنني لا أتذكره. وقد جاء بعد أن علم أن كبار السن يموتون هنا في المروج، في أكوام من سيقان البطاطس والأغصان اليابسة.

- سيمر العدد كمرور الماء - حتى إنه صاح من الفرح. لكن توجب عليه الولوج إلى داخل هذه الكومة. قام بتغيير العدسة إلى أنبوب طويل. انحنى أمام الكومة. وضع الكاميرا في الشق الصغير الموارب كما لو كانت آخر تهيدة. التقط، والتقط متحمساً، أوه، عظيم، أوه، رائع، أوه، هذه لقطة أفضل. لكنه حالما انتهى بدا كما لو أن شخصاً ما قام بسحبه إلى تلك الكومة من الأغصان اليابسة. صارع وجاهد، ثم صرخ: أيتها السيدات والسادة، ساعدوني، حتى اضطر إلى ترك الكاميرا في النهاية. أوه، لقد فقدناها على أي حال.

دعني أخبر حضرتك، عندما أنظر إلى هذه الصورة أحياناً، تغريني أيضاً فكرة الولوج إلى داخل هذه الكومة من سيقان البطاطس والأغصان اليابسة لأرى من يموت هناك. سوف أتحقق من ذلك في وقت ما. سأضطر إلى ذلك. الشيء الوحيد الذي يمنعني من ذلك هو أولئك السيدات اللواتي يقفن

بجانبي، على الرغم من أنني لا أعرف أيّاً منهم. خاصة أولئك الدراة ذات القبة المطعمة بالورود السوداء. ألا يعرف السيد ماذا تعني الورود السوداء؟ لأنه ربما سيكون من الممكن تفسير معنى هذا الحلم. لم أخبر حضرتك، أنها عندما أوقفت يدي حينما كنت على وشك إخراج علبة الثقاب من جيبتي، ونظرت إليّ بتأنيب، انفصلت إحدى الورود السوداء من قبتها وسقطت أمام قدمي. كنت على وشك الانحناء لالتقاطها، لكن قبعتي حذرتني من أنها ستسقط أيضاً إذا انحنيت.

الورود السوداء لا بد أن تعني شيئاً ما، ونحن لا نقابل مثل هذه الورود في الحداثق. لقد زرت ذات مرة معرضاً للورود في الخارج، أقول لحضرتك، لقد لمعت عيناى من كثرة أشكالها وألوانها. ربما كانت هناك كل ورود العالم ما عدا الورود السوداء.

- هل يؤمن السيد بالأحلام؟ أما أنا فلم أؤمن بها إلا بعد أن حلمت بهذا الحلم. لم أعلق أي أهمية على الأحلام. لكنني عندما أنظر إلى هذه الصورة أحياناً، يتكون لدي انطباع كما لو أنني حلمت بهذا العالم فقط من خلال ذلك الحلم، هنا، وكما في هذا العالم، لا بد من العيش. وأتساءل: هل يتعرف عليّ السيد. أنا أصغر قليلاً، لكن ليس كثيراً. وربما يتعرف السيد على إحدى هؤلاء النساء. ربما سيتضح أن إحداهن من معارف السيد.

طيب، فهل سنشرب الشاي الآن؟ ربما تحبذ حضرتك القهوة. وهل تفضل حضرتك الشاي العادي أم الأخضر؟ أنا أشرب الشاي الأخضر فقط. هل تحليّ حضرتك؟ لحظة، لا بد أن تكون السكرية هنا في مكان ما. لأنني بدون سكر. أشرب الشاي الأخضر بدون سكر دائماً. عموماً، أنا نادراً ما أستخدم السكر. ها هو السكر. سأضع كرسيّاً صغيراً بيننا إذا كان السيد لا يمانع في ذلك، وسنشرب هنا. نعم، هي فضية. اشتريت السكرية من محل الشمعدانات ذاته. آنذاك كانت أفضل الأوقات بالنسبة لي، لقد كانت فترتي الذهبية. عزفت في فندق خمس نجوم. نحن عزفنا، أتذكر، في بدلات رسمية بيضاء ذات أكمام خضراء. لا، ليس في كل مساء. لقد تغيرت الملابس. وتغيرت الآلات كذلك حسب طبيعة الأمسية والضيوف. في بعض الأحيان، كانت تتغير في نفس المساء، بناء على ما يتم عزفه. فقط

الساكسفون كان موجوداً دائماً، وأكثر ما قمت به هو تغيير النوتة من ألتو إلى التينور أو السوبرانو.

تفضل، هذا هو الشاي. سنشربه باستكانين. هل يعجبان السيد؟ يسعدني هذا. حصلت عليهما كهدية من الفرقة الموسيقية بمناسبة عيد ميلادي. لقد بقي استكانان من الطقم فقط. كما لو أنهما توقعا مجيء حضرتك إلى هنا ذات يوم وأنا سنشرب فيهما الشاي. لا أشرب بهما الشاي وحدي أبداً. أشرب الشاي والقهوة وكذلك الحليب في الكوب. ولم تسنح لي المناسبة لتقديم الشاي هنا لشخص ما حتى الآن. لدي أيضاً فنجانان أصغر منهما للقهوة. إذا كانت لدى السيد رغبة بالقهوة فسأعطيك العسل بدلاً من السكر. وسوف يتذوقها السيد مع العسل. هل شرب السيد القهوة مع العسل سابقاً؟ سأقوم بإعدادها فيما بعد ليجربها السيد. أنا أشرب القهوة مع العسل فقط. للقهوة مع العسل طعم مختلف تماماً عن القهوة مع السكر. لا تفقد القهوة طعمها حتى إنها تصبح ألطف مما لو كانت مع القشطة. للأسف، ليس لدي قشطة لو رغب السيد في شربها مع القشطة. أصبح الوقت متأخراً وإلا كنت ذهبت إلى الدكان لشراؤها. يقع الدكان على مسافة بضعة كيلومترات من هنا، لكن سيكون الأمر مختلفاً بالسيارة. ليس أطول من العبور من هذا الجانب إلى الجانب الآخر للبحيرة.

لو عرفت بمجيء حضرتك لكنت لدي القشطة أيضاً. لجهزت نفسي. للأسف، لم يخبرني السيد مسبقاً. هل اتصلت بـ حضرتك؟ وماذا، لم يرن الجرس؟ أرجو ألا يشعر السيد بالإهانة، سأقول لحضرتك بصراحة، من الجيد أن السيد لم يتصل بي هاتفياً وإلا لقلت لحضرتك: لا توجد لدي فاصولياء. لا اعتقدت أن شخصاً آخر يمزح معي. ولتذرت بأنهم يصلحون تلفوني وسيتحققون من كيفية عمله. حتى لو عرّف السيد بنفسه عبر التلفون لما صدقت حضرتك. لا اعتقدت أنك تقدم نفسك من خلال شخص آخر. لكن، على الأقل، حينما أرى حضرتك فأنا متأكد من شيء واحد هو أننا التقينا من قبل، لكن أين ومتى؟ لا يمكننا عبور الحياة بهذه الطريقة من دون أن نتقابل أبداً.

مكتبة

t.me/soramnqraa

مع ذلك، ربما سأشعل بعض الشموع؟ سأحضر الشمعدانات. نحن نقشر هذه الفاصولياء ونقشر وبإمكاننا أن نصبح صديقين جيدين. خاصة أنني شبه متأكد، أننا في يوم من الأيام... حسناً، وعندما يلتقي الإنسان بالإنسان مرة أخرى، بعد فترة طويلة من الفراق، فمن الجدير باللقاء أن يكون مهيباً، ألا يعتقد السيد ذلك؟

يتفق السيد معي على أنه في مكان ما إلى منتصف العمر تقريباً، يزداد عدد معارفنا، حتى يصير من الصعب علينا أن نتذكرهم جميعاً، لكن منذ منتصفه يبدأون في التناقص بحيث يصبح الإنسان في النهاية هو صديق نفسه الوحيد.

ليس لأنهم يتناقصون بسبب موتهم. ببساطة، تعطينا الحياة بهذه الطريقة إشارة، كم منها خلفنا وكم أمامنا. كلها خلفنا تقريباً، أمامنا البقية. ولذلك، فعندما يأتي أحد الأشخاص مثل السيد لشراء الفاصولياء ويبدو أنه لا يزال أحد المعارف فينبغي على الأقل إيقاد شمعة. وحينئذ يكون هذا الواحد بمنزلة جميع المعارف.

لو كنت أعزف لعزفت من أجل هذه المناسبة. لكن ما العمل. ومن نافلة القول، أن هذا يغريني. أوه، يغريني في بعض الأحيان. يحدث أحياناً أن أخرج الساكسفون من محفظته، أعلقه حول رقبتى، أضع المَعبرة في فمي، أحضن جسده بيدي لكنني لا أجرؤ على تمرير أصابعي على مفاتيحه. كما يرى السيد، لا تزال يداي مقبولتين بقدر ما، بالنسبة لتقشير الفاصولياء. ولوظائف أخرى، على الرغم من أن إعادة طلاء هذه الألواح يعد تعذيباً. ناهيك عن

العزف على الساكسفون. تتشنج أصابعي على الفور. وحينئذ، أخاف حتى من النفخ في المعبرة. إلا أنني أسمع. قد لا يصدق السيد أنني أسمع على الرغم من أنني لا أعزف. وكلباي هذان يسمعانني. أراهما مستلقين حينئذ كما لو كانا كلاهما آذاناً صاغية. الوبر على جسديهما هادئ، لا ارتعاش على الجلد، وخطماهما ممدودان، وآذانهما منتصبه كما لو أنها لا تريد تفويت أي شيء. لا يبدو لي أنني أعزف. لكنهما يسمعان، وأنا أسمع. أسمع بطني، بزفيري، بهاتين اليدين اللتين تخشيان من لمس المفاتيح، أعزف بكل كياني. أتراني لا أعرف عزفي؟ أنا مصغ إلى نفسي، روعي مصغية، فكيف بإمكانني ألا أعرف أنني أنا؟

وسأقول لحضرتك، إنني الآن فقط، بما أنني لا أعزف منذ سنوات، فهمت ما هي آلة الساكسفون. بهذا العزف لأنك تسمع نفسك وحدها، تسمع شيئاً أكثر من مجرد الموسيقى. كأنك اجتزت الحدود داخل نفسك. قد يكون الأمر نفسه بالنسبة للآلات الموسيقية الأخرى، لكن بما أنني عزفت على الساكسفون فلذلك يمكنني التحدث عنها فقط. يترأى لي أنني أعرف ما يمكن أن يفعله، لأي شيء ينفع، ولأي شيء لا يصلح، أعرف جميع أجزائه، أوه، مثل معرفتي بيدي هاتين، عيني، فمي، أنفي، أعرف على أي شيء يعتمد كل شيء، واتضح لي أنني لم أعرف سوى القليل، لكن فقط، بعدما توقفت عن العزف... عندما انتقيت معبرة الساكسفون، قمت بتجريبها مراراً وتكراراً، وكان البائع يناولني الواحدة تلو الأخرى حتى أرضتني إحداها. كان يبدو لي كما لو عرفت كل شيء بالفعل. سمعتهم ذات مرة في أحد المتاجر يقولون: يأتي إلينا هنا أشخاص من فرق موسيقية مختلفة، لكنهم لم يروا شخصاً يتدمر مثلي. لكن حتى لو كانت هناك معبرتان متماثلتان، دعنا نقول، مصنوعتان من الأيونيت، سيكون لكل منهما نبرة مختلفة. ليس لكونهما من الأيونيت. يمكن أن تكونا من النحاس أو الفضة أو مطليتين بالذهب. الاثنتان متماثلتان إلا أن النبرة مختلفة. وسبب ذلك غير معروف. وكذلك الحال مع قصبه الساكسفون، يجب أن تكون مصنوعة من الخيزران المناسب. لكن، كيف يمكن تحديد الخيزران المناسب؟ ماذا يعني الخيزران المناسب؟ حسناً، إنه يعني كل شيء. في أي أرض نما، في أي سنة، وهل

كان ما يكفي لديه من الشمس أثناء نموه، وهل كانت كمية المطر أكثر من المطلوب أم بالعكس. هل تم قصه وتجفيفه على كلا الجانبين جيداً. وقبل كل شيء، هل كان ليناً أم صلباً. كل هذا سينعكس فيما بعد على نبرته - صوته. حتى الأيدي البشرية التي أعدت هذه القصة تنعكس على نبرته بالتأكيد. لذلك فكل قصة، حاولت الوصول إليها بنفسى فيما بعد، بدت لي أنها لا يمكن أن تكون أكثر اكتمالاً. لأنه يجب أن تعلم حضرتك أن المعبرة والقصة هما أهم الأجزاء في الساكسفون. بطبيعة الحال، كل جزء مهم، الرقبة، المفاتيح، خصوصاً إحكام الوسائد، كأس الصوت، يعتمد شيء ما على كل جزء منها، ويعتمد الكثير على السدادة الموجودة في المعبرة التي تسمى بالآلة التي تحافظ على المعبرة لكي تهتز على كامل طولها.

لكن المعبرة والقصة هما الأكثر أهمية. ليس فقط لأنهما تحولان تنفس العازف إلى موسيقى. بل كما لو تفتحان الحياة كلها في الإنسان، الذاكرة كلها، حتى المنسية، كل الآمال الممكنة الكائنة في الإنسان، خيبة الأمل من الناس، من العالم، وحتى من الله.

هل يعتقد السيد أن لدي فرصة؟ لكن الساكسفون آلة نادرة في مثل هذه الفرق الموسيقية التي يتحدث عنها السيد. لو أنني عزفت ليس للرقص فقط... أو أنني أنهيت أي مدرسة عليا، وكانت لدي شهادة تدل على ما أعرف. السيد يعرف كيف هي الأمور. يجب على الإنسان أن يمتلك حتى ورقة تدل على ولادته. لأنه من دون ذلك كأنه لم يولد. يجب أن يملك ورقة على أنه مات وإلا فإنه لم يمت. هذا العالم هكذا هو مرتب، ماذا يجب أن أشرح للسيد. كلانا موجودان فيه. ربما ليس لدى حضرتك شك؟ أوه، نحن نقشر الفاصولياء فإذاً، نحن موجودان. لقد قال أحدهم ما يشبه ذلك حقاً. لكن هذا لا يكفي. ما زال كل إنسان، لتأكيد نفسه وقيمته، بحاجة أيضاً إلى شيء ما، أو أحد ما⁽¹¹⁾. لكن طالما أننا نقشر الفاصولياء فنحن لا نحتاج إلى إثبات ذلك.

11- هذا يعني أن الإنسان بحاجة أيضاً لتأكيد قيمته ونفسه من خلال شيء ما (مثلاً، شيء خلقه، فعله) أو من قبل شخص ما (مثلاً، ساعده أو انعكس عمله عليه، وما إلى ذلك).

ليس هذا ما أردت قوله. أردت القول: إن الوجود بحد ذاته ليس دليلاً. الوجود لا يمنحنا سوى الشكوك. أرجو ألا تسيء فهمي. لا أقصد السيد ولا نفسي على الإطلاق. بعد كل ذلك، أنا لا أعرف السيد. يمكنني تخمين هذا أو ذاك، إلا أنني لا أعرفك. أوه، نحن نقشر الفاصولياء وهذا كل شيء. لكن عندما ننتهي سيغادر حضرتك، وماذا بعد ذلك؟ أنا لن أتذكر السيد، وبالأحرى لن يتذكرني السيد. ما العمل، لم أكن الشخص الذي يستحق التذكر. كنت كهربائياً وعزفت للرقص. حتى لو افترضنا أن السيد رقص في أحد الأماكن في حفلة رقص، ذات يوم، وكنت أنا من يعزف فيها فمن المؤكد أنك لا تتنبه إلى أحد يعزف على الساكسفون من الأوركسترا.

لا تقلق نفسك، لا أريد فرض أي شيء على حضرتك. قد يضطر السيد من باب الأدب إلى التظاهر، أوه، نعم، ستقول بالطبع: كيف يمكنني أن أنسى، لم يعد لدي شك في ذلك، أو ليس هنا أو هناك، بالطبع هنا، هناك، ولكن بالطبع نعم، حينئذ، في ذلك الوقت وذاك. هنا وهناك، حينئذ، وفي ذلك الوقت، وما الداعي لذلك؟

صحيح، يضطر الإنسان في بعض الأحيان إلى التظاهر عندما يلتقي شخصاً ما، بعد سنوات من الفراق، ولا يشفع له أدنى أثر على أنه هو الشخص ذاته الذي كان سابقاً. ثم ماذا، حتى لو كان هناك أي أثر، وضرب أخماساً لأسداس، فلن يتذكر ما إذا كان هناك مثل هذا الشخص على الإطلاق. نعم، حينئذ عليه أن يتظاهر بأنه يتذكر أنه كان. حتى إنني أتساءل عما إذا وجد أحد ما على الإطلاق بدون التظاهر. وهل من الممكن أن يكون على الإطلاق. بعد ذلك، ما الذاكرة إن لم تكن تتظاهر بالتذكر. وهذا هو شاهدنا الوحيد على أننا كنا. نحن نعتمد على الذاكرة كاعتماد الغابة على الأشجار والنهر على ضفتيه. سأزيدك من الشعر بيتاً، في رأيي، نحن مخلوقون من خلال الذاكرة. ليس نحن وحدنا فحسب، بله العالم بشكل عام.

لذلك يتعين علينا أن نعيش بالقدر الذي تسمح لنا به الذاكرة. ليس أطول. أقول لحضرتك: إن الإنسان يعيش طويلاً جداً، على الرغم من أن الجميع يعتقدون أن هذه الفترة قصيرة جداً. هكذا يعتقد السيد؟ إذاً، فما المفترض أن يقول كلباي هذان أو المخلوقات الأخرى؟ إنها طويلة جداً. يمتلك

الإنسان ذاكرة لحياة أقصر. لا يمكن لذاكرة أحد أن تكون في وضع بحيث تستوعب مثل هذه المدة الطويلة. تقول حضرتك: لحسن الحظ؟ لماذا؟ تقول حضرتك: إن الإنسان لن يتحمل مثل هذه الذاكرة؟ وإن العالم سوف ينهار من مثل هذه الذاكرة؟ هذا ممكن. على أي حال، ما لا تغطيه الذاكرة، مع ذلك، سيتربص بنا. لهذا السبب أعتقد أنها مدة طويلة جداً. كما أقول، ينبغي أن يعيش الإنسان بقدر ما تسمح به الذاكرة وما تضعه لنا من حدود. هل يعرف السيد أي معيار آخر للحياة؟

أعذر على سؤالي، هل حضرتك لم تشعر قط بأنك تعيش لفترة طويلة جداً؟ وهذا من شأنه إثبات أنك تحب أن تعيش، شأنك في ذلك شأن معظم الناس. ويمكنني أن أفهم ذلك، خصوصاً عندما يعتقد أحد الأشخاص أنه يعيش في نظام القدر. أوه، نعم، العيش في نظام القدر أسهل بكثير. سوى أنني لا أؤمن بالقدر. مجرد مصادفات، مصادفات فحسب، كل شيء مصادفات. وهكذا يبدو هذا العالم، والحياة هكذا تبدو، إذا أراد السيد أن يرى كيف يبدو كل شيء برمته. إذاً، فهل كان الأمر يستحق المعجزة؟ خاصة أنني دعوت السيد إلى تقشير الفاصولياء على الفور. والسيد أراد شراء الفاصولياء، هل يتذكر حضرتك؟ وأردت فاصولياء غير مقشرة. إذاً، كما يرى السيد، قلت: لقد تحدثت طويلاً جداً. بالقدر الذي تسمح به الذاكرة. إلا إذا كنت تؤمن بالأحلام. أوه، الأحلام هي ذاكرة أيضاً.

ربما ما كنت لأتذكر هذه القبة إطلاقاً لولا أنني حلمت بها. كان ينبغي عليّ أن أعرف ما تعنيه هذه القبة، عندما وقفت بين أولئك النساء فوق كومة سيقان البطاطس والأغصان اليابسة. لكن، مثلما أخبرت حضرتك، لم أكن أؤمن بالأحلام سابقاً. لكن فقط، عندما أصابني الروماتيزم بعد فترة وجيزة. الروماتيزم بحد ذاته ليس فظيلاً جداً، فمن المعلوم أن الأمراض تصيب الإنسان ويجب تحملها بطريقة ما. لكن ما زاد الطين بلة هو ما اتضح لاحقاً، بأنني لن أتمكن من العزف. والعزف كان بالنسبة لي كل شيء. كان بوسعي القول إن نفسي لا تهمني كثيراً، ما عدا العزف. كأني غير موجود خارج نطاق العزف. من يدري، ربما لم أكن موجوداً من قبل، لولا هذا العزف، كما لو انتشلني من العدم وأمرني بأن أعيش.

وسافرت لأجل هذا العزف. لم يكن الأمر سهلاً في ذلك الوقت مثلما يعرف السيد. لكن المؤسسة التي عملت فيها حصلت على عقد أجنبي لبناء مصنع للإسمنت. ولم أعد بعد ذلك. لم يكن لدي أي سبب آخر. كان بإمكانني العزف في أوركسترا هذا المعمل أو ذاك. لكن ما زال عالقاً في ذاكرتي ما قاله لي مدير المخزن، كيف قاده ساكسفونه الخاص عبر العالم. ناهيك عن أنني تفت للانعقاد من ذاكرتي التي شعرت بأنها تأخذني باستمرار إلى مكان ما. اعتقدت أن هذه الذاكرة ستبقى هنا، أما أنا فسوف أعزف هناك.

وإذا بهذا الرومانيزم يفاجئني. عاد كل شيء بقوة مضاعفة نوعاً ما. وفجأة أصبحت حياتي كلها واضحة. لم أعرف حتى أنني أحملها في داخلي. لولا هذا العزف لما اكرثت بكوني حياً أو ميتاً ومنذ متى. لأنه لماذا ينبغي عليّ أن أعيش؟ ألأن هناك صدفة رؤوفة ما؟ لكن هل هي رؤوفة؟ ربما كانت تسخر مني ليس إلا؟ أو أنها وضعتني قيد الاختبار؟ وأي اختبار؟ لا أعلم.

ومع ذلك، أصبحت يداي الآن في حالة أفضل. عندما دخل السيد، رأى حضرتك أنني أقوم بإعادة طلاء الألواح. وهذا العمل ليس بهذه البساطة. إذا ارتعشت يداك ارتعشت الفرشاة كذلك. والأصابع في الوقت الراهن أصبحت أفضل بكثير ولا تسمح بغسلها بسهولة. وعليك أن تسحب الفرشاة متتبعاً الآثار نفسها وغالباً ما تندثر الآثار، تصدأ، وتكاد تكون غير مرئية، وحينئذ يمكنك الخلط بين اسم شخص ما وشخص آخر. أوه، وكما يرى السيد، أستطيع أن أقشر الفاصولياء. لكن ليس العزف على الساكسفون بعد الآن. بالنسبة للساكسفون يجب على الأصابع أن تكون كالفرشات. يجب عليها أن تشعر ليس بهذه النبرة [الصوت] التي تلمسها أو تلك فحسب، إنما بمدى عمقها. أوه، هذه الإصبع، يراها السيد، متفخة قليلاً، كما أنني لا أستطيع ثني هاتين الإصبعين في يدي اليسرى. إنها تخذلني في البرد. لكنها الآن أفضل بكثير. يمكنني القيام بكل شيء تقريباً. أصلح ما هو ضروري، أقطع الخشب، أقود السيارة لدى تسهيل أي شيء، وإذا تطلب الأمر أخذها إلى الميكانيكي.

مع ذلك، مرت عليّ فترة لم أتمكن فيها حتى من رفع فنجان القهوة أو الشاي، يتخيل السيد ذلك. جميع أصابعي تصلبت تقريباً. وبطبيعة الحال،

عندما لا تتشني الأصابع فكيف هو الحال مع الساكسفون؟ أنت تنفخ هنا في المَعْبَرَة، بينما تخاف أصابعك مفاتيح الآلة. لا مزيد من العزف. لا عزف بعد الآن. لقد عزفت وإذا بحالة من اليأس. هذه حياتك كلها، لكن كل ما تبقى هو اليأس. تستجدي هذه الأصابع، تعصرها، تحاول أن تشنيها بالقوة لكنها تبدو ميتة. دعها تؤلم بشكل أسوأ، دعها تؤلم بشكل لا يطاق، دعها تتمزق، تحرق، تلسع، لكن لتتشني فقط. ليس بوسع السيد أن يتخيل ذلك. كل الآمال، والرغبات، والعذابات لم يعد لها معنى. وكيف تتقبل ذلك؟

لحظة، لم أكن أتوقع ما قاله السيد للتو. أوه، ربما اشتبهت في أنك شخص آخر. في هذه الحالة، سيتوجب عليّ أن أتذكر، أين نحن التقينا ومتى. هناك شيء غير واضح بالنسبة لي. لم أكن لأخمن. لو كنت شخصاً آخر... لا، لا، لقد فهمت السيد بشكل صحيح. حتى إنني أتساءل، من يدري، إذا كان السيد على حق. في النهاية ثمة مخرج ما. لأن الأسوأ هو عندما لا يكون هناك أي مخرج. نعم، هذا مخرج. ومع ذلك، فلا أهمية لذلك الآن. ربما لو توفر حيثئذ.

لكن كما يرى السيد، عندما لا يحدث الشيء فجأة، فالشخص لا يلاحظه في البداية. بعد ذلك يتجاهله، وفيما بعد يواسي المرء نفسه بكون الأمر ليس بهذا السوء بعد. خاصة أن الآخرين يواسونه بأن هذا الشخص أو ذاك كان في وضع حتى أسوأ منه، لكن كل شيء انتهى على ما يرام.

رجعت في أحد الشتاءات بعد انقضاء العطلة من التزلج في الجبال فشعرت بيدي متعبتين بشكل غريب. وبدأت هذه الإصبع تؤلمني قليلاً. أما بقية الأصابع فلم تكن كذلك، بل أصبحت خاملة نوعاً ما. اعتقدت أن ذلك حدث بسبب التزلج. يداي ممزقتان، وممتدتان بشكل مفرط بسبب عمودي التزلج، والمصاعد، والملاحقات، والسقطات. لم يكن تزلجي سيئاً للغاية. لكن لمدة أسبوع، أسبوعين أو ثلاثة أسابيع وليس بانتظام في كل شتاء، ثم يتصلب كل شيء. إذًا، فلا عجب في أن يشعر المرء هكذا فيما بعد. لكن بعد مرور بعض الوقت، تبدأ أصابعي الأخرى تؤلمني كلها وتتصلب. أعزف، ويحدث أنني لا ألحق بالضغط على المفتاح أو بالضغط عليه لا كما ينبغي. أوه، أفكر في أن الوضع سيئ. ذهبت إلى الطبيب. نظر إلى إحدى يديّ، ونظر

إلى اليد الأخرى، حاول ثني أصابعي مراراً وتكراراً، قرصها هنا وهناك، ثم سألني، هل هذا يؤلمني.

نعم، يؤلمني.

- قال: للأسف، إنه الروماتيزم. وهو حاد. يجب على أن أجري فحوصات. سنرى، وحينئذ سنفكر في طريقة العلاج. لكن ستكون هناك حاجة ماسة للمصح. سيكون من المستحسن حتى لمرتين في السنة.

سألت: وهل سأتمكن من العزف يا حضرة الطبيب؟

- وعلى أي آلة يعزف السيد؟

أجبت: على الساكسفون.

نظر إليّ نظرة تعاطف نوعاً ما.

- قال: ليفكر السيد في يديه الآن. خاصة أن الأمر لن يقتصر على اليدين فحسب. أنت لا تعرف ما الذي يخبئه الروماتيزم أبداً. الروماتيزم هو مرض...

لكنني لم أعد أستمع إليه بعد ذلك، وأي نوع من المرض هذا، وصرت أفكر فقط في أنني كيف سأعيش الآن من دون عزف. طمأنني في نهاية الزيارة قليلاً بقوله: من الصعب الحكم على أي شيء بدون اختبارات ولذلك ربما سأظل قادراً على العزف. بطبيعة الحال، إذا اتبعت تعليماته.

لم تكن نتيجة الاختبارات إيجابية جداً، لذلك امتثلت لتعليماته، خاصة أنه لم يحرمني من الأمل نهائياً. نصحتني، بالإضافة إلى الدواء، بالصبر وعدم الانكسار وبالمصحة. لذلك بدأت بالتردد على المصحة. خضعت لعلاجات مختلفة، وجلسات تدليك وتحمم. حاولت أن أفعل كل شيء بإخلاص قدر المستطاع. لكن، ماذا يمكن أن تكون النتيجة، طالما أن المرء ما زال يعتقد أنه لم يعد يعزف، وربما لن يعزف في المستقبل على الإطلاق. عندما تفكر حضرتك بشكل منفصل وتعالج بشكل منفصل فإنك لا تشعر بالعواقب كثيراً. حتى إنني تجنبت تكوين أي صداقات مكتفياً بصباح الخير وهذا كل شيء. لم أذهب إلى أي مكان، ما عدا التنزه. في بعض الأحيان، بعد التنزه فقط كنت أتوقف في المقهى لتناول فنجان من القهوة أو كوب

من الشاي. ما عدا ذلك لم أذهب إلى مكان آخر. لا حفلات موسيقية، حتى عندما كانت تأتي فرق موسيقية لا بأس بها، ومطربون ومغنون، وأصوات جيدة في أغلب الأحيان أيضاً. كانت حديقة المنتجع الصحي واسعة لذلك كانت هناك مساحة واسعة للمشى. وهناك ما يمكن مشاهدته، وإذا أراد السيد تجنب أحد ما إذا كان قادماً في الاتجاه المعاكس فتوجد طرق وأزقة. توجد مصاطب في كل مكان، جلست عليها أحياناً إلا أنني غادرتها حالاً لو جلس أحد الأشخاص حتى في نهاية الطرف الآخر. شعرت بشكل سيئ مع الناس. دعني أقول لحضرتك إنني شعرت بشكل سيئ مع نفسي.

نسيت نفسي للحظة فقط عندما اقتربت السناجب مني من أجل المكسرات. كنت أجلب معي كيساً صغيراً من البندق دائماً. وبدا الأمر كما لو أنها عرفت ذلك بالفعل. يكفي أن أجلس للحظة وإذا بها تهرع نحوي. هل يتخيل السيد ذلك؟ ومن أين هذه الثقة بالناس؟ يعتقد السيد أن الناس في المصححات مختلفون؟ وهذا يعني أن الجميع ينبغي أن ينتموا إلى المصححات. ولكن، حدث هناك أيضاً، على سبيل المثال، أن ترك أحدهم كلباً. تجول العديد من هذه الكلاب بحثاً عن أصحابها.

ليس في هذه المصححة، لكن في مصححة أخرى، لأنني لا أعرف ما إذا كنت أخبرت حضرتك كيف كانت بداياتي في الخارج؟ حسناً، في إحدى المصححات وقفت على الطريق الرئيسي ووضعت بجانبني سلة على الأرض ثم عزفت. قام المارة بإلقاء النقود في السلة. جلسوا في بعض الأحيان على المصاطب للاستماع. أحياناً طلب أحد الأشخاص لحناً ما وهذا عادة ما كان يلقي نقوداً أكثر من سواه. لم يكن الأمر سهلاً على الفور، أوه، لا. مع ذلك كنت محظوظاً.

ذات مرة جلس أحد الخاضعين للعلاج بجانبني على المصطبة وكان يسير على عكازين. استمع مراراً، ثم نهض ورمى ورقة نقدية في السلة. ثم طلب مني بعد ذلك أن أعزف له لحناً آخر، وآخر وبعدها طلب مني أن أقرب السلة منه، لأنه يواجه صعوبة في الانحناء، ورمى ورقة نقدية أكبر. ومنذ ذلك الحين كان يأتي كل يوم تقريباً، يجلس، يستمع، ويطلب مني أن أعزف هذا اللحن أو ذاك، بعد ذلك يطلب مني أن أعطيه السلة ثم يقوم برمي الأوراق النقدية فيها.

ذات مرة، طلب مني الجلوس بجواره وبدأ يسألني: أين تعلمت العزف وهل أملك أي شهادة. لا، لم أخدعه، أخبرته بكل شيء طبقاً للحقيقة، بأنني ذهبت إلى هذه المدرسة، ثم تعلمت على يدي مدير المستودع في موقع البناء، ثم عزفت في أوركسترا المعمل. هز رأسه وتراءى لي أنه لم يصدقني. لم أتمكن من التحدث كثيراً حينئذ، لذلك كنت أضرب أخماساً لأسداس، لكنه فهم على ما يبدو كل شيء.

وفي إحدى المرات طلب مني مرة أخرى الجلوس بجواره. امتنع عن طرح الأسئلة، لكنه بدأ بالتذمر من أن المصحات لا تساعد كثيراً وأنه مهدد بخطر الجلوس على الكرسي المتحرك. وكان راقصاً فيما مضى ويعشق الرقص. والآن لديه محله الخاص، ذكر اسمه وموقعه، وسألني ما إذا كنت أرغب بالعزف في فرقة المحل الموسيقية. قبل مغادرته جاء ليودعني وأعطاني عنوانه بدقة، ومبلغاً من المال للرحلة، واتفقنا على موعد وصولي إليه. وبدأ كل شيء بهذه الطريقة.

إذاً، يمكن للسيد أن يتخيل. لقد عزفت للسلة سابقاً. أما الآن فأنا أرمي النقود إلى سلة الآخرين ولم يعد لدي أمل بالعزف. مازال ماثلاً أمامي وكيف كان يمشي خطوة بعد خطوة على عكازين وهو مهدد بخطر الجلوس على الكرسي المتحرك. نعم، لقد سار بالفعل على الكرسي المتحرك عندما عزفت في محله. سأخبر السيد بأنني كنت أنتظر إصدار الحكم، خاصة أنه لم يحدث هناك أي تحسن لفترة طويلة. حتى إنني شعرت بتفاقم حالتي نوعاً ما. وكما يدرك السيد لأنه كان يجب عليّ أيضاً أن أنسى أمر الساكسفون. ومن نافلة القول، كنت أسافر إلى المصححة بناء على تعليمات الطبيب، إلا أنني أخذت أخشى من قيادة السيارة ولهذا سافرت بالقطار.

في إحدى السنوات كنت مسافراً بالقطار وتوقف القطار في إحدى المحطات وإذا بامرأة تقف بعد لحظة في المدخل. لم أكن أكثر ثبتمن يجلس معي في المقصورة، لكنها لفتت انتباهي على الفور. هببت في الحال لمساعدتها في وضع حقبتها على الرف، على الرغم من أنني ربما لم أكن لأستطيع القيام بذلك بيدي العاجزتين في ذلك الوقت. أنا نفسي طلبت حمالاً. لحسن الحظ، أن أحد الأشخاص القريبين من المدخل قد سبقني.

كانت في منتصف العمر تقريباً. وكما تعرف حضرتك، أن أصعب شيء هو تحديد متوسط العمر. كانت مهندمة وترتدي ملابس تنم عن ذوق. شعت بجمال ناضج لكنه في غروب قليلاً. أو ربما كما لو أن شدة الوجود التي تشرق من خلال هذا الجمال قد خلفت مثل هذا الانطباع مبرزة في الوقت نفسه عمق هذا الجمال. الوجوه مهما كانت شابة، لكنها جميلة، فهي ليست جميلة إلا في الظاهر، إلى أن تستخرج منها قسوة الوجود ذلك الشيء إلى السطح. لكن هذا لم يكن هو ما استحوذ على أفكاري، على الرغم من أنه لا غرابة في ذلك لو كان الأمر كذلك. حسناً، كلما تمعنت فيها طويلاً، بطبيعة الحال، خلصة، صرت متأكداً أكثر من أننا سبق أن التقينا في مكان ما. ثم أخذت أسأل نفسي، لكن أين ومتى؟ حتى خطر على بالي، أليست هي تلك التي كانت ترتدي قبعة بخمار أسود شفاف مغطى بعقد كثيفة كأنها ربطات عنق صغيرة أثناء وقوفنا فوق كومة من سيقان البطاطس والأغصان الجافة في هذا الحلم! لقد أمضيت بقية رحلتي في التفكير بهذا الأمر.

لقد نزلت من القطار في نفس المحطة التي نزلت أنا فيها. انحنيت لها على الرصيف انحناء وداع، واضعاً في هذه الانحناء كل ما أشعر به من أسف، لأننا لن نلتقي بعد ذلك اللقاء مرة ثانية أبداً. لا أظن أنها قرأت انحناءتي بهذه الطريقة. ردت عليّ بإيماءة من رأسها بدون أي ابتسامة. فلذلك كنت متأكداً أكثر من أننا لن نلتقي مرة أخرى.

وفي أحد الأيام، لن يصدق السيد، بينما كنت جالساً على المصطبة في المتنزه، وأثناء تدخين سيجارتي، فجأة لمحتها تمشي. كانت ترتدي ملابس مختلفة، على طراز المصحات، غير رسمية لكنها بذوق أيضاً. تعرفت عليها من بعيد. كنت أحتفظ بها في ذاكرتي طوال الوقت منذ أن كنا في رحلة مشتركة جالسين معاً في مقصورة القطار ذاتها. حتى تساءلت مراراً بين علاج وآخر، بما أنني تعرفت عليها على الفور: أين التقينا ومتى. دنت من المصطبة التي كنت أجلس عليها. مع ذلك فهي لم تبسم ولو كعلامة على أنها تتذكرني. سألتني فقط: هل يمكنها الجلوس هنا لأنها ترغب بتدخين سيجارة وقد رأيتني أأدخن. - قالت: جميع الجالسين على المصاطب الأخرى لا يدخنون. قالت أثناء مغادرتها بعد تدخين السيجارة: شكراً لك سيدي.

هذا كل شيء. بدأت بالتفكير من جديد: من أين أعرفها. لأنه لم يعد لدي الآن أدنى شك في أنني تعرفت عليها قبل القطار بفترة طويلة جداً. في المتنزه وتحت الشمس، يمكن أن ترى بوضوح أكثر كما لو رأيت من زمن بعيد. لكن كم يمكن أن يكون طول هذه المدة، أحاول أن أتذكر. دخنت عدة سجائر الواحدة تلو الأخرى. بحثت عن جميع النساء اللواتي عرفتهن تقريباً كما لو تصفحت ألبوماً من الصور، إلا أنني لم أتمكن من العثور عليها في أي مكان. ربما كانت أصغر سنّاً وقتئذٍ وربما تغيرت كثيراً. ومع ذلك، فلا بد أن قسوة الوجود هذه كان عليها أن تترك أثرها على جمالها في فترة الشباب، وربما لهذا السبب تذكرتها.

بعد بضعة أيام، عرجت بعد التنزه على المقهى، وبينما كنت جالساً، أشرب القهوة، وأتصفح الجريدة، وإذا بشيء ما يمسنني لكي أرفع بصري عن الجريدة. المقهى ممتلئ، جميع الطاولات مشغولة، وإذا بي أراها تدخل إلى المقهى مثلما دخلت آنذاك إلى مقصورة القطار. قطعت بضع خطوات وهي تتطلع حولها بحثاً عن طاولة شاغرة في مكان ما. تابعت نظراتها بشكل لا إرادي، بيد أنني لم ألاحظ أي شخص كان على وشك إخلاء طاولته. لم يخطر على بالي قط أن يكون بإمكانني دعوتها إلى طاولتي. ربما لأنني خفت من أن ترفض دعوتي، طالما أنها لم تر من اللائق أن تبتسم على المصطبة، ناهيك عن أن تسأل، عما إذا لم تكن قد سافرن في نفس المقصورة؟ أوه، نعم، أتذكر السيد. وأمعت النظر في الجريدة من جديد. فجأة سمعت صوتها فوق:

- هل تسمح لي سيدي بالجلوس على طاولتك؟ كل الطاولات مشغولة. ربما ستصبح إحداها شاغرة قريباً، لذلك فلن أطيل الجلوس.

قلت: تفضلي، ربما بجفاء واضح. على أنني شعرت ببعض الامتناع منها، لأنها لم تعرفني عندما كنت جالساً حينئذٍ على مصطبة المتنزه وقد سبق أن سافرن معاً في المقصورة ذاتها. ولكان من الأسهل علينا أن نتواصل فيما بيننا. وإذا بي لا أعرف عن أي شيء يمكنني التحدث معها، ولم يعد من المناسب أن أقرأ الجريدة. يتفق السيد معي على أن لدى النساء قدرة فطرية على الاختراق حتى عندما يخفي المرء شيئاً ما عميقاً. فلذلك ترددت قبل الجلوس وسألت:

- ربما ينتظر السيد أحداً ما؟ وفي هذه الحالة...

قلت لها: تفضلي، تفضلي، كررت الدعوة بحرارة أكبر في هذه المرة. ومن أجل هذه الكلمات المعدودة الضرورية في مثل هذه الحالات التي ألمحت هي نفسها لي بها، أضفت بنصف مزاح بعدما جلست: صحيح نحن لا نعرف ما إذا كنا دائماً في انتظار أحد ما، رغم أننا لا ندرك ذلك دائماً.

من الواضح أنها قد فزعت.

- أوه، إذأ، أنا آسفة. وكانت على وشك القفز من الكرسي.

أوقفتها، من فضلك اجلسي. على كل حال، هذا ما قلته.

- قالت: في هذه الحالة، سأكل الكعكة وأذهب. لا يمكنني في بعض الأحيان أن أمتنع نفسي، على الرغم من أنه لا يجدر بي فعل ذلك. بدأت في تبرير نفسها.

قلت لها من أجل تهدئتها:

في كل الأحوال، من فضلك لا تأخذي ما قلته على محمل شخصي، لأن الكعكة قد لا تطيب لك. وأنا لا أريد أن أكون مذنباً في ذلك. قلت ذلك من أجل الكلام فحسب.

- قالت: أنا فهمت الأمر هكذا أيضاً.

مع ذلك فما زالت تبدو خائفة، وهو ما ظهر أيضاً في متابعتها القلقة للنادلة التي اختفت في الغرفة الخلفية للتو.

قلت: أرجوك لا تقلقي، ستأتي النادلة قريباً.

- أنكرت بشدة قائلة: لا، لست قلقة. لماذا عليّ أن أكون قلقة.

تكون لدي انطباع بأنني لمست شيئاً ما في داخلها، على الرغم من أنني قصدت النادلة فقط. وربما أنني حاولت إصلاح حرجي أو أن شيئاً آخر ما قد دعاني إلى القول:

ومع ذلك، لا يمكننا بأي حال من الأحوال، أن نكون متأكدين مما إذا لم تكن إحدى الصدف قد خدمتنا.

- تمت، أي صدفة؟

على سبيل المثال، لم تكن هناك أماكن شاغرة عندما أتت السيدة. ونحن الآن نجلس معاً على نفس الطاولة بفضل ذلك.

- قالت كما لو أنها تتساءل بطريقة ما: الصدفة؟

قبل سنوات، انحنى بعضنا لبعض، أنا وشخص آخر في الشارع عن طريق الخطأ، هو ظن أنني أحد معارفه وأنا اعتقدت أنه أحد معارفي واتضح أننا لم نعرف بعضنا بعضاً. واعتذرت له بأن ذلك مجرد صدفة، لكنه اختلف معي ودعاني إلى المقهى.

- هل حولت المقاهي الصدفة إلى أقدار؟ هل هذا ما أراد السيد قوله؟ بدت نبذة من السخرية في صوتها.

قلت: من غير المستبعد، جاعلاً في صوتي ظلاً من السخرية أيضاً، على الرغم من أنه لم تكن لدي نية للسخرية. كل ذلك يتوقف على ما نعتبره. إذًا، فلماذا لا يمكننا اعتبار أن السيدة جاءت لأنني كنت أنتظرها.

- حقاً؟ تظاهرت بالاستغراب، ولكن بنفس الوقت بدا عدم الثقة في عينيها.

هل سيكون ذلك مستحيلاً؟ مناقضاً للحس السليم؟ خاصة أننا نعرف بعضنا بعضاً.

- حقاً؟ فتحت عينيها على وسعهما. اعتقدت أنني سأضحك. لكنها انطفأت، كما لو أنها كانت تفكر في شيء ما. - قالت بعد لحظة: لا بد أن السيد قد أخطأ بيني وبين شخص آخر. أنا لا أتذكر السيد على الإطلاق.

كيف ذلك؟ لقد سافرنا بالقطار ذاته، وفي مقصورة واحدة. لقد صعدت السيدة إلى القطار، لحظة، في أي محطة...

- هذا مستحيل. لقد جئت بالسيارة.

بالسيارة؟ في الواقع، لم أستغرب بقدر ما كنت قلقاً. قلت: ألم تجلس السيدة في المقعد المقابل، بجوار الباب مباشرة. كانت لدى السيدة حقيبة كبيرة، حقيبة سوداء. أردت مساعدة السيدة في وضعها على الرف العلوي، لكن أحد الأشخاص سبقني.

- أنا آسفة. لا أسافر بالقطارات على الإطلاق. لا أطبق القطارات. لا

أحتمل السفر بالقطار. وهذه المساحة الميئوس منها العابرة الهاربة خلف النوافذ. علاوة على ذلك، ذكرياتي من القطار ليست هي الألفظ.

لقد هزت ثقتي بنفسي إلى حد ما. ومع ذلك فلم أصدقها. شعرت بأنها تعرفني وليس من شك في أنه أنا. ربما هي تلعب لعبة لا أعرف قواعدها. أو أنها تدافع عن نفسها أمام شيء ما. لكن أمام ماذا؟

هل تتذكر السيدة أننا جلسنا قبل بضعة أيام على المصطبة في المتنزه ودخنا سيجارة؟ جاءت السيدة وسألتنى عما إذا كان بإمكانها الجلوس لأنها ترغب في التدخين أيضاً.

- قالت ضاحكة: أنا لا أدخن السجائر! لم أدخن على الإطلاق. حقاً، لقد خلط السيد بيني وبين امرأة أخرى.

كيف ذلك؟ ألا تتذكر السيدة؟ لم أستسلم. قالت السيدة حينئذ: لا يوجد سوى غير المدخنين على المصاطب الأخرى. وقد شكرتني السيدة أثناء مغادرتها.

- قالت وقد نفذ صبرها بعض الشيء: على أي حال، هل يتكرم السيد علينا بدعوة النادلة. سأكل الكعكة حتى لا يتعب السيد نفسه معي أكثر.

لم تعطني أي أمل. لذلك فكرت في تحويل الأمر إلى مزحة كأن أقول لها: آسف سيدتي، كنت أمزح. في بعض الأحيان، أحب التحقق من كيفية تصرف الواحد في موقف مفروض عليه. لكن لم يكن لدي أدنى شك في أنها هي. أومأت برأسي إلى النادلة التي خرجت للتو من الغرفة الخلفية. لقد جاءت.

- من فضلك اعرضي علينا كعكة ما. عادت إلينا النادلة بصينية مليئة بالكعك وبعد وضع هذه الصينية أمام أعيننا سألتها:

ماذا ستختار السيدة؟

امتلات عيناها ببهجة طفولية تقريباً عند رؤية الكعك.

- وبماذا ينصحني السيد؟ أوصيتها بنوع الكعك الذي عادة ما اختاره لنفسه.

وهل سيمانع السيد فيما لو اخترت نوعاً آخر.

واختارت نوعاً آخر فعلاً. لذلك طلبت لنفسي الكعكة التي طلبتها. وأعتقد أنها فهمت، لأن بريقاً من التأمل لاح في عينيها بطريقة ما. ابتسمت، لكن ابتسامتها بدت مصطنعة بالنسبة لي، شأنها في ذلك شأن ما قالته بلا مبالاة مصطنعة وهي تأكل أو بالأحرى تستمتع بالكعكة:

- أوه، كم أنا ممتنة للسيد لأنك سمحت لي بالجلوس على طاولتك. كانت لدي رغبة بتناول الكعك اليوم. عقلت قائلاً: وهذا هو المطلوب.

- كيف علم السيد بذلك؟ لم يكن بإمكان السيد معرفة ذلك طالما أنك عرضت عليّ كعكة أخرى.

قلت ذلك على سبيل المعارضة مثلما فعلت السيدة على سبيل المعارضة بإنكارها أننا لم نسافر في نفس المقصورة، وبأنها لم تنضم إليّ والجلوس على نفس المصطبة في المتنزه للتدخين. وأعرف أن السيدة أينما التقينا كانت ستنكر ذلك. حتى لو قلت إنني حلمت بالسيدة لأنكرت السيدة قائلة هذا مستحيل.

- نعم، هذا ممكن الحدوث مهما كان تافهاً.

لكن بأي طريقة، طالما أن السيدة تزعم أننا لم نلتق من قبل قط؟

- ولكن، ربما هذه هي الطريقة الوحيدة بالنسبة لي لأتذكر السيد أيضاً. ونظرت إليّ بعينين جامدتين، كما لو أبحرت منهما الحياة فجأة. نظرنا بعضنا إلى بعض هكذا للحظة حتى بدأت الابتسامة بالظهور على عينيها من جديد.

- قالت: أعتقد أنني سأعمل استثناء وأكل كعكة ثانية اليوم. وأومأت برأسها للنادلة. وعندما جاءت إلينا بصينية مليئة بالكعك مرة أخرى، طلبت مني أن أختار لنفسني أولاً. وبعد ذلك اختارت نفس الشيء الذي اخترته. هل يرى السيد كم أنا شرهة؟ لا ينبغي لي، حقاً. لم أسمح لنفسني بأكثر من قطعة واحدة قط... كل هذا بسببك. أنت سيد فظيع. لو كنت أعرف... نظرت إلى عيني كما لو أنها عابسة، فرأيت في نظرتها ظلاً من الخوف. لكنها قالت على الفور: - أشعر بالندم دائماً بعد كل مرة لا أستطيع فيها أن أقول لنفسني كفى. وسأضطر لمعاقبة نفسي على الكعكة الثانية.

معاقة؟ وما هي العقوبات التي تلحقها السيدة بنفسها؟

- مازلت لا أعرفها بعد. سأفكر في شيء ما. أوه، أعرف الآن. إذا قدمت إلى هنا مرة أخرى سأشرب القهوة أو الشاي فقط ولن أكل الكعك. سألقن نفسي درساً لكي أتذكر ذلك في المستقبل. وبدأت تستمتع تقريباً بهذا العقاب الذي توقعه على نفسها.

- أو لا، لن أشرب القهوة أو الشاي أيضاً. سأطلب كأساً من الماء. أو أن أكون أكثر صرامة. مع ذلك، سأطلب كعكة لنفسى، لكنني لن أكلها. سأتركها. أو سأطلب قطعتين من الكعك، نعم، قطعتين من الكعك كما لو أنني أنتظر أحداً. وبما أن هذا الشخص لن يأتي فسأترك كلتا القطعتين. وبدأت تضحك كأنها مسرورة بهذا العقاب الذي ستلحقه بنفسها. - ألم يقل السيد بنفسه قبل لحظة: إننا دائماً ننتظر أحداً ما، لكننا لا ندرك ذلك دائماً. لذا فربما بهذه الطريقة سأدرك بنفسى ذلك على الأقل. سأطلب قطعتين من الكعك وسأتركهما كليهما.

وكنت على وشك أن أشير عليها بألا تصدر أي عقوبة بحق نفسها، لأنه ما الضير في كعكة ثانية، طالما أنها لن تضرها في شيء. هي رشيقة. وعندما دخلت إلى المقهى ثم بدأت بالبحث عن طاولة شاغرة، خطرت على بالي فكرة مقارنتها بنخلة عيد الفصح. إلا أنني ظننت أنها ربما أنها لا تعرف ما هي نخلة عيد الفصح، ولذلك سألتها عما إذا كانت ترغب في بعض من القهوة أو الشاي، واعتذرت لها لأن هذه الفكرة لم تخطر على بالي من قبل.

- قالت وهي مازالت تضحك: أوه، لا، شكراً. من شأن ذلك أن يفسد عليّ طعم الكعكة. لا أحتسي القهوة أو الشاي ولا أي شيء أثناء تناول الكعك. ومدت يدها إلى المنديل الورقي دون أن تتوقف عن الضحك وفي هذه الأثناء انسحب كم بلوزتها إلى الأعلى ومن تحت طرف الكم، فوق المعصم، في مكان ما هنا، ربما أعلى، بانت بضعة أرقام، مكتوبة على الجلد، كما لو بالحبر أو بقلم رصاص من القويبا. ودام ذلك كالومضة. انتزعت المنديل الورقي بعنف من الحامل، سحبت كمها أولاً، ثم وضعت المنديل على فمها.

لم يجدر بي ملاحظة ذلك، لأنه ليس كل شيء ينبغي على الرجل أن يلاحظه خاصة لدى المرأة. ليس كل ما يراه الإنسان جميلاً حتى في نفسه أيضاً. نحن لا نتفق في كل شيء حتى مع أنفسنا. بودنا أن نصحح أشياء كثيرة لدينا. ولكن بما أن هذا غير ممكن فسوف يعترف السيد أنه سيكون أقل وطأة، طالما لم نلاحظه. لكن، يبدو أنها لاحظت ما لاحظته أنا فشعرت بأنها مضطرة لأن تقول:

- آه، إنه منذ الطفولة. وشعرت بالخجل أو ربما بالفزع، لأنها هربت بعينها نحو المقهى. وبعد لحظة، عادت إلى تلك الكعكة عبر نقرها بطرف الملعقة. - قالت وهي تمسك الملعقة على شفيتها: هل يعلم السيد ما الذي كنت أحلم به كثيراً في طفولتي؟ أن أكل الكعك حتى الشبع ذات يوم. انفجرت ضاحكاً. لا بد أن ضحكتي لم تكن صادقة، لأنه لم يظهر أي أثر للابتسامة على محياها.

- لم أكن أتوقع أن أضطر لمنع نفسي من ذلك بعد أن يتحقق حلمي. وجالت عيناها في المقهى، نظرت إلى مكان ما هناك، وعندما بدأت بالأكل وفي الأحرى بالقضم، بدا أن عينيها قد عادت لتستقرا على هذه الكعكة. - فجأة، انتعشت وقالت بمعاكسة واضحة: لكن الكعكة الأولى التي اخترتها أنا كانت أفضل.

وبدأنا نتجادل، أيهما كانت أفضل، الكعكة التي اخترتها هي أم تلك التي اخترتها أنا. وحضرتك تعرف معنى التجادل حول الكعكة. كما لو تجادلنا في شيء أهم، وليس حول قطعة كيك ليس إلا. كأننا خضعنا لاختبار ما، على الرغم من أننا خضعنا للكعكة لا غير. وهكذا وصلنا إلى الذكريات، من منا أكل أفضل كعكة في حياته وما هي. في الغالب، هي ذكرت، أين ومتى وماذا، وكل منها كانت هي الأفضل. على الرغم من أن الكعكة السابقة أيضاً كانت الأفضل، والتالية كانت أفضل منها، والتي تلتها كانت مفضلتها، وكأنها بذلك ألغت كل ما كانت الأفضل حتى ذلك الحين. حتى إنني حاولت أن أتخيلها كطفلة يتحقق حلمها، لأنها كادت تتذكر بشراهة جميع تلك الكعكات الأفضل.

بالنسبة لي لم يكن لدي الكثير لأذكره فيما يتعلق بالكعك. على أي حال، لا أستطيع القول، ما هي أفضل أنواع الكعك التي أكلتها. وقلت رداً على ما قالته بخصوص جميع الكعكات الأفضل التي ذكرتها: إن جدتي خبزت كعكة (بابكا) بمناسبة عيد الفصح وما زلت أتذكر طعمها على طرف لساني حتى اليوم.⁽¹²⁾ ومع ذلك، لا أتذكر ما إذا كانت هي الأفضل حقاً. ولكن لا أهمية لذلك. أحياناً، أشتري لنفسي كعكة بابكا في عيد الفصح، مرة في محل الحلويات هذا، وفي المرة الأخرى، في محل آخر، وأقارنها، لكنني حتى الآن لم أصادف واحدة لها نفس طعم بابكا جدتي. ناهيك عن القول، إن كعكة بابكا التي تباع في المحلات تجف بعد ثلاثة أيام. بينما كعكة بابكا التي خبزتها جدتي كان بإمكانها أن تبقى لأشهر، وعندما قطعتها تقطرت الزبدة من السكين. بالإضافة إلى ذلك، كانت مكتنزة. هل أكل السيد مثل هذه البابكا في يوم من الأيام؟ إذاً، لم يأكل السيد أفضل الكعك. كان عليك أن تأتي في فترة ما بحدود عيد الفصح، وأما بعده مباشرة أو قليلاً بعد ذلك. وما على السيد سوى أن يجربها. كانت الجدة تنقلها إلى العلية وتركها هناك. كنا نأكل منها قطعة واحدة في اليوم.

عندما كنت متزوجاً قررت زوجتي العثور على وصفة لمثل هذه الكعكة، لأنها لم تعد تريد سماع، عندما يحل عيد الفصح، أن جدتي وإلى آخره. حتى إنها كتبت في هذا الخصوص إلى حلواني مشهور. نعم، لقد أرسل لها الوصفة لكنها لم تكن كذلك. جدتي عادة ما خبزت عشرات أو نحو ذلك من كعكة البابكا. ملأت المعجنة كلها بالعجين وعجنته. بعدها وضعت العجين في أوعية من الخزف الحجري حتى المنتصف، ثم أضافت إليه فصعد حتى غلى، فأصبح مثل الفطر. عادة ما تم أكلها في العصر، قطعة، قطعة. قسمتها جدتي بحيث تكفي لأطول فترة ممكنة. مما أعطى ذلك انطباعاً بأن عيد الفصح ما زال مستمراً.

لا، هي لم تأكل كعكة (بابكا) عيد الفصح. طلبت مني أن أحدثها عنها.

12- بابكا: كعكة حلوة مخبوزة على شكل مخروطي مستطيل أو مبتور مشهورة في بولندا، والبابكا تعني الجدة.

حسناً، لكن كيف أصف لها البابكا. يمكن التحدث عن شكلها بأنها مضلعة، لأنه تم خبزها في مثل هذه الأوعية الخزفية الحجرية، وعريضة في الأعلى وضيقة في الأسفل، على أن هذا لا يعني شيئاً. الأهم هو الطعم وليس الشكل. وكيف يمكن وصف الطعم؟ دعنا نقول إنه حلو. ماذا يعنى الحلو؟ يمكن أن يكون هناك ملايين من الحلاوة. يمكن أن يكون عدد الحلاوة بقدر عدد البشر. يكفي أن يضع أحدهم ملعقة صغيرة من السكر في قهوته ليصبح مذاقها حلواً، بينما يحتاج الآخر إلى ملعقتين صغيرتين أو ثلاث لكي يحس بالحلاوة. على سبيل المثال، لم يكن السكر موجوداً خلال الحرب ولهذا قاموا بغلي شراب بنجر السكر المركز، إنه مقرف، لو جربه السيد، لكنه كان حلواً بالنسبة للجميع كما كان قبل الحرب. أوه، الحلاوة، الحلاوة لا تكون هي ذاتها دائماً. ما هو حلو اليوم وما هو حلو فيما مضى، ما هو حلو هنا أو هناك، كل شيء له حلاوة مختلفة.

فأخبرتها بأنها مصنوعة من الدقيق والبيض والزبدة والقشطة لأن هذا كل ما عرفته، أما البقية فأخذتها جدتي معها إلى القبر. ربما أخذت معها سر كعكات البابكا كله. الشيء الوحيد المتبقي هو أنها ذابت في الفم.

بدت حزينة عندما أخبرتها بذلك. فلذلك وبغرض الترويح عنها قلت لها: مع ذلك فإن جميع الكعكات التي تحدثت عنها كانت بالتأكيد هي الأفضل. وسألتها عما إذا كانت لديها رغبة في تناول واحدة أخرى، وسأغفر لها ذلك. ابتسمت من خلال هذا الحزن الذي اعترأها وقالت إنها ستقتنع فقط بتناول قطعة من كعكة بابكا عيد الفصح. سألتها، في هذه الحالة، ربما ترغب في شرب بعض النبيذ. وافقت بكل سرور. وعندما كنا نشرب النبيذ، ونميل الكأس مرة تلو الأخرى إلى شفاهنا، نظرت إليّ بطريقة ما كما لو أنها تذكرتني أخيراً. وأنا أيضاً لم يعد لدي أدنى شك في أنها هي. لا أقصد هنا أو هناك، في القطار، على المصطبة في المتنزّه، أو في أي مكان آخر. في هذه اللحظة لم يكن لذلك أي أهمية.

ربما يعتقد السيد أن على الإنسان أن يقابل شخصاً ما أولاً، حتى يكون بإمكانه أن يتذكره لاحقاً. ألم يسبق للسيد أن فكر في أن يحدث عكس

ذلك في بعض الأحيان؟ يعني، وفقاً للسيد، كل شيء يعتمد على الذاكرة،
أليس كذلك؟ يعني، لا بد أن يحدث شيء ما أولاً، حتى تتمكن الذاكرة من
استحضاره لاحقاً ولو بعد سنوات عديدة؟ لكن، حسب اعتقادي، هناك
أشياء من الأفضل للذاكرة ألا تتدخل فيها. أتفق مع السيد على أنه في تلك
الحالات التي يتحدث عنها حضرتك، نعم. ومع ذلك فنحن لا نحتاج إلى
المساعدة من الذاكرة دائماً. في بعض الأحيان يحدث أن نحتاج إلى النسيان
أكثر. سيكون من الصعب أن نعيش بشكل دائم في عبودية الذاكرة. ولذلك
علينا أن نخدعها، نربكها ونهرب منها أحياناً. من حيث المبدأ، ليس علينا أن
نتذكر أننا موجودون في هذا العالم. ليس كل شيء، كما يعتقد السيد، يجب
أن يسير وفقاً لترتيب الذاكرة.

ولهذا عندما دخلت هي إلى المقهى وأخذت تبحث عن طاولة شاغرة،
كنت متأكداً من أنه حتى لو قام شخص ما بإخلاء الطاولة للتو لأت إلى
الطاولة التي أجلس عليها وسألني:

- هل يسمح لي حضرتك بالجلوس على طاولتك؟ لأن جميع
المقاعد مشغولة.

ولقلت لها: تفضلي مثلما فعلت سابقاً.

والبقية يعرفها السيد. لا أخفي أي شيء. ماذا ينبغي عليّ أن أخفي؟
لم أجلب السعادة للنساء. لا أعرف أكثر من ذلك. إلى جانب ذلك، يمكن
للسيد أن يقرأ كتاباً، ويشاهد فيلماً وكل هذا سيكون نفس الشيء. نفس
الشيء دائماً. لا توجد كلمات للتعبير، كي لا يكون ذلك نفس الشيء. نعم،
حسب اعتقادي، كل شيء يتوقف على الكلمات. مثلما تكون الكلمات
تكون الأشياء، الأحداث، الأفكار، التصورات، الأحلام وكل شيء، حتى ما
هو كائن في أعماق الإنسان. مجرد أي كلمة يكون مجرد أي إنسان، مجرد
أي كلمة يكون مجرد أي عالم، حتى مجرد أي إله.

إذا قلت لحضرتك، إنني أحببتها فهذا مع ذلك لن يقول لك أي شيء،
لأنه لا يقول أي شيء لي أنا نفسي. واليوم أعرف أيضاً نفس القدر الذي
عرفته آنذاك. أم إنه من الأفضل أن أقول، لا أعرف بقدر ما لم أكن أعرف

في ذلك الوقت. لأنه ماذا يعني أن تحب؟ من فضلك، قل لي ذلك إذا كنت تعرف. ولماذا لم نعرف كيف نعيش بعضنا مع بعض، طالما أنني أحببتها أكثر من أي شخص آخر في العالم؟ على أي حال، أقول أحببتها، كما لو لم أكل أي شيء. شعرت مرات عديدة كما لو أنها أعطتني حياتي للتو. كما لو أنها ليست من ضلعي، بل أنا من ضلعها، على عكس ما هو في الكتاب المقدس. سأراها وأنا أموت عندما تدخل إلى هذا المقهى، وتبحث حولها عن إحدى الطاولات الشاغرة، بعدها تقترب من طاولتي وتساألني:

- هل يسمح السيد لي؟...

تفضلي.

تجلس، لكننا لا نرغب في التحدث الآن. لم تعد لدينا رغبة في التحدث حتى عن تلك الكعكات. ليس لكوننا قلنا كل شيء، لأننا في الحقيقة لم نقل أي شيء تقريباً. سيستغرق الأمر الأبدية ليقول بعضنا لبعض كل شيء، وليس عبر مثل هذه اللحظة القصيرة التي عشنا فيها. لا أعرف، ربما نخشى من الكلمات، حتى من تلك التي نتحدث عن هذه الكعكات. ربما لم تعد هناك كلمات متبقية لنا. وبدون الكلمات لا يمكن معرفة أي كعكة، وما هي، وبالأخص أي واحدة هي الأفضل.

لم نكن مع بعضنا على وئام جيد مثلما قد يظن السيد. لكن كنا سنكون في حال أسوأ لو لم نكن بعضنا بدون بعض. افترقنا، وعدنا، ومرة أخرى افترقنا، وعدنا إلى بعضنا من جديد. وفي كل مرة، وعدنا بعضنا بعضاً بأننا لن نفرق بعد الآن مرة أخرى. ثم تكرر الشيء ذاته مرة أخرى. وحينما عدنا بدا لنا في كل مرة كأننا وجدنا بعضنا بعضاً كما كان في ذلك المقهى آنذاك.

لا أعرف، هل أخبرت السيد، حدث ذات مرة، أنني ذهبت إلى المصححة مرة أخرى فخرجت بعد التنزه على ذلك المقهى. بينما أنا جالس أشرب القهوة وأتصفح الجريدة، رفعت ناظري عن الجريدة في لحظة ما وإذا بي أراها تدخل. وكنا منفصلين نهائياً. كانت هناك طاولات شاغرة لكنها اقتربت مني وسألتني:

- هل يسمح لي السيد؟...

تفضلي.

- أوه، تبدو يدك في حالة سيئة.

- وكيف هو حال قلبك؟

ومرة أخرى قررنا ألا نفصل بعضنا عن بعض أبداً. لكننا سرعان ما انفصلنا مرة أخرى. حسناً، ليقُل لي السيد، هل كان هذا حباً؟ الحب، في رأيي، هو عدم الرضا عن الوجود. ونحن كنا نتألم بالوجود. كلانا لم يعد شاباً في الحقيقة، كانت أصغر مني ببضع سنوات، ولكن مر وقت طويل منذ أن توقفت عن كونها شابة. توجب عليّ في الأحيان أن أطلب منها ألا تخجل من جسدها. كانت حريصة دائماً على معرفة ما إذا كنت أنظر إليها أثناء خلع ملابسها. كانت تقول دائماً:

- أطفئ الضوء.

لماذا؟

- أطفئ الضوء رجاء.

لكن لماذا؟

- أنت لا تفهم؟

لم أفهم. من المؤكد أنها لم تشك في أنني عندما شاهدتها وهي تخلع ملابسها شعرت كما لو أنني أصبحت أكثر غنى بكل آلامها، بمعاناتها وبزوالها. لقد عانيت كثيراً كذلك، لكن ذلك لم يكن بالنسبة لي ذا أهمية بقدر ما تميزت هي به. لا، لا أقصد أنني عشت معاناة مشتركة معها. على كل حال، هل الحب يحتاج إلى معاناة مشتركة؟ ما أعنيه هو أنني شعرت بوجودها كأنه وجودي. تسأل حضرتك: ماذا يعني هذا؟ يعني كما لو أنك أن حضرتك رغبت في أن تتحمل العبء برمته لوجود شخص آخر. كما لو رغبت في التحرير الكامل لهذا الشخص من الاضطرار للوجود. كما لو أنك رغبت أيضاً في أن تموت نيابة عن هذا الشخص كي لا يكون مضطراً لتجريب موته. وهذا شيء مختلف عن المعاناة المشتركة كما تفهم بشكل عام. من أجل احتمال كهذا، حتى لو كان متخيلاً، شعرت بأنني أتوق للعيش مرة أخرى. تقول حضرتك: هذا من المستحيل. قد يكون من المستحيل.

لكن، ما هو معيار الحب؟ ماذا لو فهمنا أنا وحضرتك الشيء ذاته، تحت هذه الكلمة التي لا تعني أي شيء؟ وفقاً لماذا يجب أن نشعر حيال ذلك؟ حسب شهوة الجسد؟ يصل الجسد إلى نهايته قبل حلول الموت بوقت طويل جداً. ألا يعلم السيد إن كانت على قيد الحياة؟ هل فاجأت السيد؟ ومن غير السيد بإمكانه أن يخبرني بذلك؟ اعتقدت أنني سأسمع هذا الشيء الوحيد من السيد على الأقل. لأنني لو علمت بأنها ليست على قيد الحياة لما رغبت أنا نفسي بالحياة أيضاً.

أتساءل داخل نفسي أحياناً، ربما لو أنني مثلت. وربما لكنت خائفاً من إقحامها في حياتي. أو لأنه لم تعد لدي القوة لتحمل هذا الحب بعد الآن. حضرتك لا تدرك ماذا يعني الحب عندما لا يكون المرء شاباً. هذا هو التحدي الأصعب. عدم الوجود في فترة الشباب لا تبدو مرعبة جداً بعد. وأنا كما يرى حضرتك، عشت دائماً على حدود الوجود والعدم. وحتى عندما بدا لي أنني موجود، كان الأمر كما لو كنت عابراً فحسب، مؤقتاً، في زيارة أحد ما، على الرغم من أنني لا أعرف من هو، لأنه ليس لدي أحد.

هل ظن السيد أن هذا هو سبب عودتي إلى هنا؟ لكنه ليس مكاني هنا أيضاً. ثم ماذا، لأن السيد جاء إلى هنا من أجل الفاصولياء؟ كان بإمكان السيد أن يذهب إلى أي مكان، وليس بالضرورة من أجل الفاصولياء. وسيجد شخصاً آخر دائماً وليس أنا. وما الفرق في ذلك؟ قد لا يكون هناك فرق بالنسبة للسيد. لم أخطئ بين حضرتك وبين أي شخص آخر. على الرغم من أنني تساءلت طويلاً: أين ومتى. حتى إنني فكرت في البداية في لحظة ما، أليس السيد هو. إيه، لا أحد. هكذا اعتقدت داخل نفسي فقط. ومع ذلك، لا. لو كنت أنت هو لما أتيت إليّ من أجل الفاصولياء. كيف كان لحضرتك أن تعرف أن شخصاً كهذا موجود في العالم.

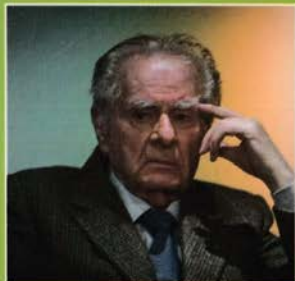
كم الساعة الآن؟ أوه، لقد حان الوقت بالنسبة لي. يجب عليّ أن أتجول حول المنازل. لقد أخبرت السيد: بأنني أقوم بجولة واحدة في الليل على الأقل، وفي أغلب الأحيان أقوم بجولتين عندما لا أستطيع النوم. أوه، إذا استيقظ الكلبان. ماذا، ما خطبك يا ريكس؟ ماذا، يا وابس؟ اجلسا! لقد

تم شم السيد. لا، إنهما ليسا جائعين. لقد أكلا حتى الشبع مساء. ربما هما
حلما بشيء ما. سأتركهما للسيد. على السيد ألا يخاف منهما. ليقشّر السيد
الفاصولياء فقط.

مكتبة

t.me/soramnqraa

فيسوف ميشليفسكي كاتب روائي ومسرحي مختلف تماماً عن بقية الكتّاب، ذو نبذة خاصة، موهوب بامتياز. وهو غير معروف للقارئ باللغة العربية إطلاقاً. لكن قبل الولوج في عالمه الإبداعي أود أن أشير إلى أنه وآخرين كثيرين من بني جيله قد عاشوا بهذا القدر أو ذاك محطات مفصلية في تاريخ شعوبهم لا بُدَّ وأنها قد تركت بصمتها على طرق وأساليب تفكيرهم وحياتهم اللاحقة سواء اعترفوا بذلك أو لم يعترفوا. على أنني أطمح في هذه المقدمة إلى انتهاز الفرصة لدحض الفكرة التقليدية التي ترى الإبداع مرتبطاً أكثر بالأفراد والشعوب تبعاً لأصولهم وانحدارهم الاجتماعي، من منطلق تصنيفهم إلى ثري وفقير، قروي ومدني، بدوي وجبلي ومتحضر، إلى شعب يستهلك وآخر ينتج، وكأن العملية الفكرية- الإبداعية حكر على طرف دون سواه. بما أن الكائن البشري لا يمكنه تغيير لحظة ولادته ولا موته فهذا لا يعني أنه لا يستطيع التأثير على ما هو بينهما. من يقف في الوسط حائراً دون المضي قدماً إلى دائرة إنسانية مهمة للغاية تنتظر من يقوم بتشكيلها وتصويب مسارها، وأعني تلك الفاصلة الزمنية القائمة بين الحياة والموت والقابلة للتغيير والتوجيه. أقول من يتوقف لن يكون قادراً على فعل شيء ذي قيمة، لا لنفسه ولا لقومه، ببساطة لن يترك أثراً. لقد أدرك على ما يبدو هذه المسألة ميشليفسكي مبكراً.



مكتبة

t.me/soramnqraa